

فى
التاريخ المصرى القديم

الجزء الأول

"منذ فجر التاريخ وحتى بداية الدولة الحديثة"

دكتور

زكريا رجب عبد المجيد

قسم التاريخ والآثار المصرية

المعهد العالى للدراسات الأدبية

كينج مريوط - الإسكندرية

٢٠٠٩م

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة - ت : ٤٨٧٠١٦٣

٣٨٧ شارع قنال السويس - الشاطبى - تليفون : ٥٩٢٣١٤٦

إهداء

"إلى روح أستاذي الدكتور/ أبو العيون بركات

رحمه الله وأدخله فسيح جناته"

شكر وتقدير

لا يسعنى فى نهاية هذا العمل إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الزميل كريم عبد الله حافظ المدرس المساعد بالمعهد العالى للدراساة الأدبية بكنج مريوط لتوليه مراجعة أصول وطباعة هذا الكتاب، أيضًا كل الشكر للأخ أحمد عبد الرازق الذى تكبد كتابة أصول هذا الكتاب على الحاسوب وإخراجه بهذه الصورة.

ولا يفوتنى أن أقدم للأخ الفاضل السيد / صابر محمد عبد الكريم مؤسس دار المعرفة الجامعية لتوليه طباعة هذا المؤلف وتقديمه للقارئ بهذه الصورة المشرفة.

والله ولى التوفيق،

مقدمة

تميز تاريخ مصر الفرعونية بالقدم، فمصر من أقدم مواطن الحضارة فى العالم، وتاريخها القديم يعد حجر الأساس فى تاريخ البشرية جمعاء – وتميز ذلك التاريخ بخطورته وأهميته فى آن واحد، إذ شغلت مصر فى ذلك الوقت مركزًا فريدًا بين أقطار العالم القديم، ولعبت الدور الأكبر فى سبيل إرساء قواعد المدنية وحمل مشعل الحضارة.

كذلك تميز ذلك التاريخ بالاستمرار والاضطراد، فهو أطول التواريخ المعروفة، بل هو قصة طويلة متصلة الأحداث إلا فى فترات قصيرة محدودة. ولعل ما سهل دراسة هذا التاريخ – الذى استمر قرابة ثلاثة آلاف وخمسمائة عام – ما لجأ إليه بعض المؤرخين من تقسيمه إلى أسرات أو عصور، فقد قسم المؤرخ المصرى القديم مانثون ذلك التاريخ إلى ثلاثين أسرة، كذلك اصطلح المؤرخون المحدثون على تقسيم ذلك التاريخ إلى ثلاثة أقسام رئيسة هى : الدولة القديمة والوسطى والحديثة، وتمثل كل دولة من هذه الدول عصرًا من عصور الازدهار والتقدم، وتضم عددًا من الأسر الفرعونية التى حكمت مصر المتحدة، وقد رمزت هذه الأقسام فى عقلية المصريين إلى ابتداء ثلاثة عصور عظيمة فى تاريخ البلاد، فحمل الكهنة فى أعياد التتويج لملوك الدولة الحديثة تماثيل الفراعنة "مينا" و"منتوحتب الثانى" و"أحمس" الذين تزعموا البلاد عند بدء كل قسم من تلك الأقسام الكبرى، وقد سبق عصر الدولة القديمة عصر عتيق، أرسيت فيه أسس الحضارة المصرية ودعمت خلاله أركان الدولة المصرية، ومرت البلاد بعد كل دولة من تلك الدول بعهد تأخر واضمحلال وضعف، سيطر فيه الأجانب على جانب من البلاد ومقدراتها.

لذا جاء هذا المؤلف معالجًا للقضايا التاريخية قدر الإمكان، فيعرض لنا الفصل الأول الطبيعة والظروف الجغرافية التى قامت على أرضها مظاهر الحضارة المصرية وجرت على ثراها أحداث التاريخ، والفصل الثانى تحدثت فيه عن مصادر تاريخ مصر القديمة، فلا زالت الآثار تعد المصدر الرئيس لكتابة التاريخ المصرى القديم، كما أن كتابات الرحالة المؤرخين تعد مصدرًا ثانيًا، خاصة وأنها تملأ الفجوات التاريخية التى لا تذكرها النصوص وتفتقد اللوحات الأثرية ذكرها، كما تحدثت عن بعض الإشارات التى وردت فى الكتب المقدسة، وفى كتابات المؤرخين العرب.

وفى الفصل الثالث تحدثت عن نشأة علم المصريات وتنبه العالم كله للحضارة المصرية بعد اكتشاف حجر رشيد وفك رموز اللغة المصرية على يد جان فرانسوا شامبليون، وتوافد علماء الآثار والمصريات على دراسة الآثار المصرية.

وفى الفصل الرابع تحدثت فيه عن العصور الحجرية المختلفة، وأهم المواقف التى شهدت ميلاد أقدم سلالات الإنسان المصرى القديم والتطور الحضارى فى عصر ما قبل الأسرات.

وتناولت فى الفصل الخامس العصر المبكر، بدءًا بفترة ما قبل الوحدة والأسرات "صفر صفر"، ثانيًا مرحلة الوحدة "الأسرة صفر" وتلك الفترة التى شهدت عدة أحداث تاريخية قبل تحقيق وحدة البلاد ثم عملية الوحدة بين الشمال والجنوب والتى تعكس لنا قمة النضوج والرقى الحضارى الذى وصل إليه المصرى القديم.

ثم تحدثت عن الأسرتين الأولى والثانية وهو العصر الذى يعتبر بمثابة بدء التاريخ المصرى القديم حيث اختراع الكتابة وما ترتب عليه من عوامل تقدم.

أما الفصل السادس وهو بعنوان الدولة القديمة وتشمل الأسرات من الثالثة حتى السادسة، وتلك هى فترة الإنجازات الحضارية التى شهدتها مصر وتمثلت فى تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية وانفتاح مصر على العالم الخارجى فضلاً عن الأهرامات الضخمة التى تعكس صدق القصيدة الدينية وعمقها عند المصرى القديم.

بينما جاء الفصل السابع متحدثًا فيه عن فترة تدهور سياسى وثورة اجتماعية فى الداخل وانهيارًا للإدارة مركزية وزيادة فى نفوذ حكام الأقاليم.

ثم الفصل الثامن والذى تحدثت فيه عن قيام الدولة الوسطى "الأسرتين الحادية عشر والثانية عشر" وهو عصر قوة جديد لمصر فقد تم إعادة توحيد البلاد من جديد واستقرت السلطة المركزية وعادت للملكية هيبتها.

والفصل التاسع الذى تناولت فيه أحداث عصر اضمحلال آخر وهو العصر المتوسط الثانى بداية من الأسرة الثالثة عشر حتى نهاية الأسرة السابعة عشر، وتلك هى الفترة التى شهدت تمزق البلاد وتعرضها للغزو الأجنبى لأول مرة فى تاريخها ثم عصر الهكسوس ومدة حكمهم وأهم ملوكهم فى مصر، وقيام الأسرة السابعة عشر التى حررت البلاد من نير الهكسوس.

ويتناول الفصل العاشر العلاقات الخارجية السياسية الدبلوماسية مع الجنوب متمثلاً فى قبائل النوبة وكوش حيث كانت بلاد النوبة تمثل العمق الاستراتيجى للدولة المصرية منذ عصر التأسيس وحتى نهاية العصور الفرعونية.

أما الفصل الحادى عشر فتحدثت فيه عن العلاقات المصرية مع الشرق والغرب سواء كانت علاقات تجارية أو عدائية موضحًا التأثيرات الخارجية على الحضارة المصرية.

بينما الفصل الثانى عشر، تناولت فيه جانبًا كبيرًا من المظاهر الحضارية فى عصرى الدولة القديمة والدولة الوسطى، وتوقفت بعد ذلك عند هذا الفصل كى أكمل بقية التاريخ المصرى القديم فى أجزاء أخرى.

وعلى أية حال، فإذا كانت أرض مصر عاشت عصورها التاريخية الطويلة تحكمها أسرات مصرية بما فيها من فترات قوة وضعف وعلى أرضها نشأت وتطورت حضارة عريقة، ثم دخلها البطالمة ثم غزاها الرومان إلا أنها ظلت مصرية حميمة فى تراثها وفى أهدافها وفى روحها، وإذا كانت قد آمنت بعد ذلك بالمسيحية ونبذت عنها ديانتها القديمة ثم فتحت ذراعيها بعد ذلك لدين الإسلام، وعاشت أجيال بعد أجيال فى ظل هذه الديانات السماوية، إلا أن ذلك لا يعنى أنها تخلصت من تاريخها القديم ونبذته، لأن هذا التاريخ بات ومرتبط بما على هذه الأرض وما فى باطنها من آثار، وسوف تتوارثه أجيال بعد أجيال إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها.

إن ما بقى من هذا التراث الحضارى أشبه برحيق عتيق من فيض تراث عريق عبقه يجذب كل عاشق من كل فج عميق.

المؤلف

د/ زكريا رجب عبد المجيد

الإسكندرية ٢٠٠٨

أهمية دراسة التاريخ المصرى القديم :

إن التاريخ المصرى القديم يعتبر من أقدم تواريخ العالم الحديث بل والبشرية بأجملها، هذا التاريخ الذى تأتى أهميته ليس فقط فى عامل القدم فحسب بل لطابع الاستمرار فيه، فنلاحظ أن العصور التاريخية تتوالى وراء بعضها، لكن لم يكن هناك ثمة اختلاف فيما بينها، ولا تنفصل بعضها عن بعض بعوامل انفصالية عميقة، فلقد نجح المصرى القديم عبر عصور هذا التاريخ الطويل أن يحافظ على الإطار العام والملامح العريضة لتاريخه رغم تأثر هذا الإطار بفترات اضمحلال أصبح لها مظاهر مختلفة مثل فترات عصر الانتقال الأول التى تمثلت فى الصراع السياسى الداخلى والحرب الأهلية بين أهناسيا وطيبة وعصر الانتقال الثانى متمثلاً فى محنة الغزو الخارجى "الهكسوس" لكن رغم كل هذا فاستطاع المصرى القديم أن يخرج من كل هذه المحن أقوى مما كان، فضف إلى ذلك أن المصرى القديم لم يعرف التعصب فسلم تاريخه من نوازع التطرف والفتنة، فكان المصريون القدماء يمتازون بالتسامح فيما يخص العقيدة حيث كان لكل إقليم معبوده أو معبودته الخاصة به، ويعترف فى الوقت نفسه بالمعبودات التى تعبد وتقدس فى الأقاليم الأخرى المجاورة أو البعيدة. كما يكفى لتاريخ مصر القديم فخرًا، أن عصوره المختلفة شهدت وفود العديد من الرسل والأنبياء عليهم السلام، منهم سيدنا إبراهيم ويعقوب ويوسف وسيدنا موسى الذى نشأ وتربى على أرض مصر وعاش فى عصر أحد ملوكها القدماء، كما جاء لتاريخ المصرى القديم بشىء من العظة والعبرة لبنى الإنسان، فعمل المصرى لآخرته قبل دنياه، لأن قدماء المصريين أدركوا أنفسهم حقيقة الموت، وأن الإنسان مهما أقام من آثار مختلفة الأنواع والأشكال

والأحجام، ومهما بلغ من وسائل المعرفة، ومهما عاش من سنين، فإن مصيره الموت ولم يبق من الإنسان إلا ذكراه ممثلة فى آثاره، ولن يبق من تاريخه سوى الكلمات التى تعبر عنها نقوش وكتابات آثاره ووثائقه المختلفة[1].

وأخيرًا ولعل ما دفعنى بصدق لكتابة هذا المؤلف هو كلمات أستاذى الدكتور رمضان عبده السيد بأن «كتابة تاريخ أمة بقلم أحد أبنائها إنما يصدر عن إحساس عميق بما كان عليه ماضيها، وإيمان قوى بحاضرها، وثقة كاملة فى مستقبلها، وهذا ما أرجو أن يشعر به كل مصرى محبًا لوطنه».

---

[1] رمضان عبده السيد: تاريخ مصر القديمة، ج١، مطابع المجلس الأعلى ، القاهرة، ١٩٨٨.

الفصل الأول

الطبيعة الجغرافية لمصر

سعى العلماء على مرّ الزمان إلى الكشف عن مدى تأثير البيئة الطبيعية فى المجتمع البشرى الذى يعيش فى كنفها. فقد سبق أن قال الإغريق بوجود مثل هذا التأثير، وكان هيبوقراط يميز بين ساكن المرتفعات بقامته الطويلة وشجاعة ووداعة طباعه وبين ساكن الأراضى المكشوفة القليلة المياه متوتر المزاج وجامد المشاعر وصعب المراس. ولكن لن نتورط فى هذا الضرب من التعميمات الجسورة، ومع ذلك فتأثير البيئة فى مصر واضح للعيان بما تركته البيئة الجغرافية من بصمات، كما يتضح من الاتجاهات التى انتحاها تنظيمها الاقتصادى وتطورها السياسى، ويرجع الجانب الأكبر من أصالة حضارة مصر إلى أنها فريدة فى بابها من الناحية الجغرافية.

- إلى أن أتى القرن التاسع عشر الميلادى، ومن بعده القرن العشرون، بتغييرات جوهرية فى حياة وادى النيل، فشُيدت السدود التى زادت أهميتها بمرور الزمن، فى الوقت الذى دخلت فيه وسائل المواصلات السريعة. لقد أثّرت عوامل جغرافية ثلاثة فى المجتمع المصرى : (١) مصر واحة. (٢) مناخها هو مناخ إقليم الصحراء الكبرى. (٣) طول الوادى عشرة أضعاف عرضه على وجه التقريب.

ومنذ جوتييه E.-F. Gautier أضحت مقولة أن مصر واحة من المقولات التى لا يجادل فيها أحد، بل إن كلمة واحة ذاتها مصرية الأصل، ولكن نودّ التأكيد على أن مصر من واحات إقليم الصحراء الكبرى، ومن المعتاد أن ينال مدى تأثير هذه الحقيقة التاريخية على حضارة مصر أقل مما تستحقه من اهتمام. فالواحة ليست بقعة خضراء، فوق سطح أصفر فحسب، كما اعتدنا أن نتصورها من خلال خرائط الأطلس. إن وجود الواحة يرجع إلى مجموعة من المقومات الطبيعية والبشرية، ترتبط ارتباطًا وثيقًا، فإذا غابت إحداها غابت الواحة عن الوجود، وعدد هذه المقولات ثلاثة من ظروف إقليم الصحراء الكبرى المناخية : فالواحة تحتاج إلى ماء وتربة يمكن استزراعها، وإلى

العمل البشرى. فالماء دون تربة يمكن استزراعها يعطينا بئرًا وحسب. وتربة يمكن استزراعها دون ماء هى صحراء وحسب، والماء والتربة التى يمكن استزراعها لا يعطيا شيئًا بدون العمل البشرى، وحتى التربة الجيدة تحتاج إلى الرى فى مناخ يغلب عليه الجفاف، ومعجزة مصر الوحيدة هى أن النيل هو الذى قدّم معًا الماء والتربة التى يمكن استزراعها. وماعدا ذلك فيعزى إلى الإنسان ... وقد نندفع بسرعة وسهولة، فنتحدث عن الظروف الفريدة التى توفرت للحياة على ضفاف نهر النيل وننسى أن هذه الظروف قد خلقها الإنسان بفضل نظم الرى. ولاشك أن مصر هى "هبة النيل"، كما ظل الناس يرددون منذ أيام هيرودوت، بيد أن مصر هى من خلق البشر، أولاً وأخيرًا، فالإطار الجغرافى يحمل منذ البداية بصمات الإنسان، فبدونه يظل ناقصًا غير كامل. ولكن البيئة الطبيعية تركت بدورها بصماتها على الإنسان. إذ ما أن تظهر الواحة إلى الوجود حتى تصبح شكلاً جغرافيًا، بلغ حدًا من التفرد، حتى أنه فرض بصماته على السكان[1].

فلنتناول بادئ ذى بدء كيف تحققت فى مصر المقومات الأساسية الثلاثة الضرورية لحياة الواحة. ثم ننتقل فيما بعد إلى بحث مدى تأثير حياة الواحة على المجتمع البشرى المصرى.

المياه :

ترتبط حياة الواحة بمشكلة المياه، والنيل فى مصر هو صاحب الفضل فى حل هذه المشكلة، والنسق المعقد الذى يشكله نهر النيل ظل غير معروف حتى عهد قريب، ويكفى فى هذا المقام أن نعرف أن النهر الذى ينبع من البحيرات الاستوائية الكبرى، فيتمتع بناء على ذلك بتصريف من مياه الأمطار الاستوائية تظل منتظمة على مدار السنة، ومن الراجح أن المياه الوافدة من البحيرات الكبرى كانت ستصل إلى مصر بكميات غير كافية نتيجة ما تتعرض

له من عمليات بخر أثناء جريانها فى أحواض النيل السودانى، لو لم تدعم بحصة إضافية من المياه المدارية ومن مياه الحبشة بصفة خاصة، ويلعب الدعم الحبشى دورًا حاسمًا بفضل هطول الأمطار الموسمية على هضبة الحبشة، ويقف هذا الدعم الحبشى وراء هذه الظاهرة التى تركت انطباعًا قويًا فى أبناء العالم القديم، نعنى بذلك فيضان النيل، وبالنظر إلى المسافة التى يقطعها الفيضان إذ يبدأ رحلته من المناطق المدارية بحلول مايو / يونيو – إلا أنه لا يصل مصر قبل شهر يوليو. واعتبارًا من هذا التاريخ يرتفع الفيضان من جراء المياه القادمة من الحبشة. (وتبلغ الأمطار حدّها الأقصى فيما بين يونيو وأكتوبر، وهكذا فإن فيضان النيل هو فيضان صيف، وهو أمر له أهميته القصوى فى بلد يسوده مناخ صحراوى حيث تتركز درجات الحرارة القصوى المتوسطة والمطلقة فيما بين شهرى يوليو وأغسطس فتغمر المياه تربة مصر فى فترة تهدد فيها الشمس بإصابة كل شيء بالجفاف، وخلال فصل الشتاء، يحافظ الدعم الاستوائى على انتظام مستوى النهر المنخفض فيوفر المياه اللازمة للأراضى المنزرعة، عن طريق رفع المياه بمختلف الوسائل (كما هو الحال فى جميع الواحات)[٢].

التربة :

لا يأتى النيل بالمياه وحسب، بل يأتى الفيضان محملاً بالطمى الذى انتزع من التربة البركانية بأعالى الحبشة، وفى مصر تساعد زيادة بطء مجرى النهر على ترسيب الغرين فوق الحقول عندما يغمرها النهر. إن الغرين بعد أن يضاف إليه الدُبال[*] – هو الذى يشكل تربة مصر ذات الخصوبة العالية حتى بات من الممكن فى الوقت الراهن أن تغل محصولين أو ثلاثة فى العام الواحد. ومن هنا ندرك الأسباب التى دفعت المصريين – بعد أن لاحظوا أن الفيضان هو واهب الماء والتربة معًا – إلى تأليهه فى صورة الإله "حعبى". ونظموا

[*] الدُبال : مواد عضوية متحللة من التربة. (المعجم الجغرافى بمجمع اللغة العربية).

الأناشيد تكريمًا له، ويقول أحدها : «تحية لك أيها "حعبى"، أخرج من هـذه الأرض واحضر لتهب مصر الحياة. إنك تخفى مجيئك فى الظلمـات (كـان المصريون يجهلون موقع منابع النيل) .. وتغطى أمواهك البسـاتين .. أنـت واهب الحياة لكن ظمآن. عندئذ ارتفعت أصوات الأرض مهللة، فالبطون فى فرح وسعادة، والظهور تهتز من الضحك والأسنان تمضغ»[٣].

السكان :

كما سبق أن لاحظنا لم يكن فى وسع الماء والتربة وحدهما أن يخلقـا الواحة المصرية إذ كان الأمر يحتاج أيضًا إلى عمل البشر. وتم إنجاز هذه المهمة منذ أن أصبح وادى النيل آهلاً بالسكان، إذ أن الجفاف لم يزحف فى حقيقـة أمره على مناطق الصحراء الكبرى-دفعة واحدة، إنما بالتدريج. وكلما اشـتد المناخ جفافًا هبط جانب من السكان المقيمين فوق هضبة الصحراء الكـبرى الشاسعة ليتجمعوا حول نقاط الماء، وبخاصة على مقربة من النيـل، وهكـذا يتقبل الوادى موجات متعاقبة من السكان، وهؤلاء السكان هم الذين ظلـوا يشكلون صلب الشعب المصرى فى العصور التاريخية، وسنتناول فيمـا بعـد بالدراسة سماتهم الأساسية[٤].

ومن ثمّ توفّرت لمصر منذ الأزمنة الغابرة من تاريخ البشرية، العناصـر الضرورية لتحىً الواحة حياة مزدهرة، كما طبعت هذه الحياة بدورها بمجمـل مجتمع البشر بقسماتها الواضحة، ويشدنا شدًا ثبات الشعب المصرى باعتبـاره «أقل شعوب العالم ثورية». وهذه السمة ليست وهمًا. فلنتذكر فى هذا الصدد أن النظام السياسى المصرى قد ظل على حاله على مدى أربعة آلاف سنة، مع فترات صاعدة وأخرى هابطة. لقد شجع على بروز هذه السمة حاجة البلاد إلى حكومة قوية سياسيًا لتأمين الرى، إذ لا تتحقق الاستفادة المرجـوة مـن فيضان النيل، إذا ارتفع مستواه أو انخفض أكثر من اللازم،ولكن من الضرورى

فى المقام الأول أن يكون توزيعه توزيعًا منتظمًا. فعملية توزيع الميـــاه هـــى أم المشاكل فى كاملة الواحات، ويحضرنا فى هذا الخـــصوص تـــشريع الميـــاه فى واحات شمال إفريقيا). وقد فرضت هذه المشكلة على مصر أن تقيم الـــسدود وبصفة خاصة القنوات والجسور مع حسن صيانتها. ولا يمكن تأمين أعمـــال الصيانة هذه إلا بإقامة سلطة مركزية قوية، تستطيع أن تعرض أعمال الصيانة على مختلف المقاطعات. ومن ثم يرتكز النظام السياسى المصرى بأسره علـــى ضرورة مادية وجغرافية، لا نظير لها فى المجتمعات الغربيـــة، وكـــان شـــعور المصريين بهذه الضرورة شعورًا قويًا. إن أقدم ما نعرفه من تصاوير الملك، تمثله وهو يقوم بشق قناة، وكان الماء هو شغل سكان وادى النيل الشاغل. إن أول قائمة ملكية وصلتنا تسجلَ ارتفاع منسوب فيضان النيل، على رأس الأحداث، قبالة كل سنة، فحياة البلاد كانت رهنًا بمستوى هذا المنسوب. بل من المحتمل أن الضرائب كانت تقدر حسب الفيضان. و لم يقف تأثير الجغرافيا عند هـــذا الحد، بل يمكن القول أن الحضارة المصرية قد سيطر عليها وسواس الماء، فالماء هو القربان الأمثل الذى يقدم للمتوفى. إن الرسائل الغريبة التى يبعث بها أحيانًا الأحياء إلى الموتى يهددونهم فيها بحرمانهم من "سكب المـــاء"، إن لم يمتثلـــوا للأوامر الصادرة إليهم، فإلى هذا الحد كانوا يعتبرون الماء عنصرًا حيويًا لا غنى عنه، كما أن نصًا جغرافيًا يميز بين بلد وآخر حسبما كان أهله يشربون مـــاء النيل أو ماء الآبار أو ماء الجداول أو مياه الأمطار، كما أن محرر نص آخـــر يقسم الآبار إلى أربعة أنواع مختلفة. وتبرهن هذه السمات على أن المصريين قد تأثروا بصفتهم من سكان الواحات سواء فى حياتهم الإدارية أو فى معتقـــداتهم الدينية أو أوصافهم، بل وفى لغتهم حيث تعرف اللغة المصرية أكثر من عشرين مصطلحًا للتعبير عن مختلف اتجاهات النيل ومسالكه. وقد دفعتهم هذه الصفة بالذات إلى تقدير الارض الصالحة للزراعة حق تقدير، فأطلقوا علـــى بلـــدهم

"الأرض السوداء" (تاكمت) مقابل الصحراء المجدبة الحمـــراء (تادشـــرت)، وليتجنبوا التعدّى على الأراضى الزراعية أقاموا قراهم فى الصحراء إذ تعـــذر تجميعها فوق الرُبى، حماية لها من الفيضان. إن مصر بلد تتجمع فيها أمـــاكن السكنى وهو ما يعتبر سمة بارزة لمشهد الريف، ونتيجة لضرورة جغرافية، حيث فُرض على المصريين أن يحتموا من الفيضان دون أن يبددوا الأرض الـــصالحة للزراعة إلا فى أضيق الحدود[٥].

لقد طبعت مصر بواقع أنها واحة، كما طبعـــت حـــضارتها بمناخهـــا الصحراوى فى المقام الأول، ما عدا الشريط الساحلى فى الدلتا. إن الهواطـــل الجوية[*] معدومة من الناحية العملية، (متوسطها ٣٣ مليمترًا فى السنة) والرياح جافة (عدا الرياح الشمالية)، وتتميز درجات الحرارة اليومية بفارق شاسع بين درجات الحرارة فى النهار وفى الليل. ووصل هـــذا التفـــاوت إلى ١٥ أو ١٦ درجة مئوية خلال فصل الشتاء، ومع ذلك لم يكن هذا المناخ الجاف هو المناخ الذى كان سائدًا على الدوام فى مصر فمنذ عام ٥٠٠٠ وحتى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أى منذ بداية العصر الحجرى الحديث وحتى عصر الأهرامات الكبرى، كان المناخ أكثر رطوبة، والسافانا منتشرة فى الصحارى الحالية شرقى النيـــل وغربه، ويسّرت هذه الرطوبة النسبية الانتقال التـــدريجى مـــن اقتـــصاديات الصيادين جامعى الغذاء إلى اقتصاديات المزارعين مربى الماشية، كما فتحـــت الباب أيضًا أمام عمليات التبادل بين آسيا وإفريقيا وبين النوبة ومـــصر علـــى حد سواء.

وأخيرًا، فقد ترك مناخ أعالى حوض النيل آثارًا عميقة فى إكولوجيـــا (أى فى علاقة الأحياء ببيئتهم) حوض النيل الأدنى. ولقد سبق أن لاحظنـــا أن

[*] أو التساقط – وهو ما يسقط من ماء السماء على سطح الأرض فى صور مختلفة كـــالمطر والـــثلج والبرد وغيرها. مجمع اللغة العربية : المعجم الجغرافى (ص ٢٠) (المترجم).

الحياة فى مصر مرتبطة كل الارتباط بالفيضان. إن مستوى الفيضان يحدده هطول الأمطار على مرتفعات الحبشة، حيث منابع النيل الأزرق والعطبرة والسباط، وإن الرياح الموسمية التى تهب خلال فصل الصيف قادمة من المحيط الهندى تغذى الهواطل التى تسقط على هضاب الحبشة من شهر مايو وحتى شهر سبتمبر لتصب فى النيل الأزرق وروافد النيل الحبشية، فمن هنا ينطلق الفيضان، بيد أن الأمطار الموسمية غير ثابتة، وبالتالى يصبح الفيضان متقلبًا، سواء من حيث تاريخ بدايته أو من حيث مدته وحجمه، وهذا التقلب كظاهرةٍ مناخية قد دفع سكان وادى النيل المصرى إلى أن يقيموا بالتدريج نظامًا للمقاومة، وصولاً إلى التحكم فى الفيضان تحكمًا فعالاً. فمن بين ثلاثين فيضان تمّ رصدها، تكاد تكون ثلاثة عشر منها فيضانات كافية، ومن ثم ينبغى التأهب تحسبًا لفترات "نقص الفيضان"، لاسيما وأن تعاقب الفيضانات السيئة أمر وارد، واضطلعت السلطة المركزية بمهمة الاحتفاظ فى الشون الملكية بمخزون غذائى لمواجهة القحط، وإذا لم تؤمّن الحكومة فى الوقت المناسب أعمال صيانة النظام الدقيق المتحكم فى الفيضان، وهو نظام عرضة للأعطاب، فإن الفيضان يهدد باجتياح كل شيء والعودة بالوادى إلى ما كان عليه فى الأصل من أوضاع، فالنظام الطبيعى مشروط فى مصر بالنظام السياسى، والفوضى هى دائمًا مرادف للمجاعة(٦).

وأخيرًا، تركت تضاريس البلاد الجغرافية بصمات غائرة فى حضارة مصر، فلنتخيل أمبوبًا طويلاً لَدُنًا، وقد جهّ. أحد طرفيه بقمع مرشة، تلك هى صورة مصر،وهكذا ندرك أن سكان هذا البلد العجيب قد ميزوا بين الأمبوب، أى مصر العليا وبين القمع أى مصر السفلى، ولا يبلغ عرض الأراضى الزراعية قدرًا معقولاً سوى فى الدلتا، وإذا انتقلنا إلى الوادى فنجد أن عرضه لا يزيد عن بضعة كيلو مترات، ورغم أن طول مصر يزيد على الألفى كيلو متر، فإن مساحة الأراضى الزراعية ليست سوى ثلاثين ألف كم٢ (حوالى ٧ مليون

فدان) أو ما يعادل مساحة بلجيكا مع بسطها على ما يعادل ضعف طول فرنسا. وكان لهذه الوضعية أصداؤها على حياة البلاد السياسية والإدارية. لقد لاحظنا فيما تقدم نزعة الوحدة والاستقرار كمطلبين ملازمين لضروريات الري وتنظيم الاقتصاد. وفى واقع الأمر فإن مصر شريط بالغ الطول ليس له من طريق سوى النيل، وكان يصعب على الملك أن يراقب السلطة المحلية التى قد تبعد عن عاصمته فى بعض الأحيان بما يزيد عن الألف كيلو متر، فيستدعى الوصول إليها أيامًا طويلة من الملاحة النهرية وذلك فى عصر كانت الجياد ذاتها غير معروفة، ومن ثمّ فما أن يصيب السلطة المركزية الوهن، حتى يتحول حكام الأقاليم، على الفور، إلى عواهل صغار مطلقى الصلاحيات، ومن ثم نرى أن تاريخ مصر ممزق بين نزعة تركيز السلطة السياسية استجابة لمتطلبات البلاد الحيوية ونزعة التفتيت التى ساعد عليها امتداد مصر الفائق الطول، ومن هنا نشأت أهمية "الإقليم" فى حياة مصر، فقد فُرض على الإقليم أن يعتمد فى حياته على جهوده الذاتية بالنظر إلى المسافة القصية التى تفصل بينه وبين المركز الإدارى، فمصر من حيث الضروريات الطبيعية، دولة على قدر كبير من تركيز السلطة المركزية، كما أنها تقوم فى نفس الوقت، على اللامركزية الإدارية، وكنتيجة ثانوية لهذه الأوضاع، تقدمت مصر بخطى سريعة فى فنون الملاحة، حيث أن الطرق فى مصر قد اقتصرت على الطرق النهرية، فقد عمّ استخدام السفن، وأضحت ضرورية، ولو لمجرد العبور من شاطئ إلى آخر، بل يمكن أن نذهب إلى أن الديانة نفسها قد تأثرت بهذه الضرورة الطبيعية، فكان المصريون يعتقدون بالفعل أن الشمس تعبر السماء فى زورق، بل وعلى الصعيد التقنى أيضًا كان لهذا المكان أصداؤه، فاهتدى المصريون إلى الدفّة ذات المرتكز ولكن فى المقابل جاءت العربة ذات العجل من خارج البلاد.

وأخيرًا كانت مصر بفضل موقعها عند الطرف الشرقى من القارة الإفريقية نقطة التقاء العالم الأسيوى والمتوسطى بالعالم الإفريقى، وشرع هذا

الموقع يؤثر على الحياة السياسية المصرية مع مطلع العصر الفرعونى، وإن لم تَنْمُ كل إمكانياته إلا بحلول العصر الحديث، فى أعقاب شق قناة السويس، وتنمية إفريقيا الجنوبية والوسطى، فأضحى وادى النيل والبحر الأحمر أكبر طرق العبور من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق الأقصى وإفريقيا إلى أوروبا. وفى حقيقة الأمر وكما أوضحنا، فقد فرض طول البلاد، سواء على الصعيد السياسى أم على الصعيد الإدارى، أن تتوسط العاصمة إلى حدّ ما البلاد، بحيث تصل سلطة فرعون إلى الوادى من أقصاه إلى أقصاه دون معوقات تذكر، ونزع هذا المركز الحيوى منذ العصر الثينى، بل ومنذ عصور ما قبل التاريخ على ما يظن، إلى التمركز فى منطقة منف، على مقربة من مدينة القاهرة الحالية، وبالفعل نجحت الإدارة الملكية انطلاقًا من هذه النقطة، فى مراقبة الدلتا وأعالى الوادى على حدّ سواء، وعندما أقام فراعنة الدولة الحديثة عاصمتهم فى طيبة كانوا يهدفون من بين ما يهدفون إليه، أن يقتربوا أكثر فأكثر من النوبة، بعد أن توسعت فيها مصر كثيرًا وهى التى كانت تمدّ مصر بالوسائل الضرورية — من بشر ومواد أولية — لتحقيق السياسة التوسعية التى تبنتها. ولسوء الحظ كان موقع طيبة ينطوى على عقبة كأداء بالنظر إلى بعدها الكبير عن الدلتا. غير أن مصر بدأت مع بداية الدولة الحديثة تعانى من الأضرار الناجمة عن موقعها عند ملتقى طرق العالم، عندئذ كانت إمبراطوريات آسيا فى أوج نشاطها التوسعى وشرعت تصطدم بمصر، ولكن سرعان ما لاحت فى الأفق مسيرة الموجة الهند و-أوروبية الثانية، قادمة من الشمال إلى الجنوب، فحطّت هى الأخرى رحالها عند السواحل المصرية، وهكذا بدت مصر مهددّة من ناحيتين عند جبهتها المتوسطية، واضطرت دفاعًا عن نفسها أن تحشد قواها فى الدلتا، وهكذا نشهد، اعتبارًا من الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين بصفة خاصة، تحركًا لمركز ثقل مصر الذى جنح إلى الاستقرار فى الدلتا، ويمكن القول أن الانحطاط

البطىء الذى بدأ فى هذه الفترة يرجع إلى عجز مصر عن إصلاح نظمها الداخلية، ولقد اقتضت الظروف أن يكون مركزها السياسى أقرب ما يمكن من البحر المتوسط الذى أضحى مفترق طرق العالم القديم، كما اقتضت الظروف أن تتواجد مصر عنده بكل ما أوتيت من قوة، أى بكل ما تجلبه من مارد تجنيها من إفريقيا. وإذا كان الفراعنة قد أدركوا ضرورة إقامتهم فى الدلتا، فقد عجزوا عن الحفاظ على وحدة البلاد التى كانت تستطيع وحدها أن تمكن مصر من الاضطلاع بدور فعّال فى العالم الجديد الذى بدأ يتضح للعيان[7]. ومن ثمّ فإن ظرفًا جغرافيًا — وهو وجود مصر ضمن عالم البحر المتوسط — قد فرض انتقال عاصمة البلاد صوب الشمال قدر المستطاع. وإضافة إلى ذلك، فإن ظرفًا جغرافيًا آخر — وهو طول القطر — البالغ الامتداد — قد أعاق الفراعنة عن حكم البلاد حكمًا فعالاً من مقرهم فى الدلتا وأن يبسطوا نفوذهم بصفة خاصة على الممتلكات الإفريقية، مصدر قوة مصر، وبعد أن انحصرت مصر فى واجهتها المتوسطية فحسب، لم يعد فى وسعها سوى أن تلعب دورًا ثانويًا على مسرح التاريخ فى العالم القديم، ومن ثم زخر عالم مصر بالمفارقات، فنرى جدب الصحراء يبرز ثراء الوادى، ويقف امتداد البلاد الذى لا حدّ له كنقيض للوحدة التى فرضتها ظروف الحياة، ويشكل هذا العالم "خلفية" فريدة فى بابها للمجتمع الذى كان مقدرًا له أن ينشأ على أرضها، ليزدهر قبل أن يندثر، وكان هيرودوت يدرك كل ذلك جيدًا حين استهل كتابه فى التاريخ بهذه العبارة : «إن المصريين الذين يعيشون فى ظل مناخ فريد، وعلى ضفاف نهر ينفرد بخاصية تميزه عن غيره من الأنهار، قد اتسموا أيضًا فى كل شىء تقريبًا، بعادات وتقاليد هى على النقيض من عادات وتقاليد غيرهم من بنى البشر»، وكان من الضرورى التأكيد على أصالة هذه البيئة حتى يمكن فهم هذا المجتمع الذى سوف نتناول الآن عناصره البشرية بالدراسة.

الأصل العرقى لسكان مصر :

منذ العصر الحجرى القديم الأدنى، وكلما عدنا إلى الوراء فى غياهب ما قبل تاريخ الإنسانية بصفة عامة، نجد أن الإنسان قد سكن وادى النيل، ولكن من الصعب معرفة الأصول العرقية لسكان الوادى الأوائل، فالنذر القليل الذى وصلنا من بقايا العظام البشرية لا يساعد، فى واقع الأمر، على التوصل إلى نتائج لا تقبل الجدال حول أصولها الثنولوجية، كما لا يسعنا أن نعرف مدى استمرارية هذا الفرق بين غيره من الأعراق التى سكنت وادى النيل خلال العصر الحجرى الحديث. وبالفعل فإن نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى — حوالى عام ١٥٠٠٠ ق. م تتزامن مرحلة ساد فيها مناخ جاف مناطق إفريقيا الشمالية والشرقية، عندئذ، فإن القبائل الرحل التى كانت ما تزال هائمة فى ساڤانا الصحراء الكبرى، قرب نهاية العصر الحجرى القديم وخلال العصر الحجرى الوسيط، شرعت تميل إلى الهجرة، لتتمركز حول نقاط الماء، وفى هذا العصر على ما يظن تشكّل الرصيد البشرى الذى أعمر مصر، فجاء بالأحرى أقل تجانسًا، لاسيما بعد وقوع موجة أخرى من الهجرات الوافدة من الصحارى حوالى عام ٢٤٠٠ ق.م، مع حلول طور جديد من الجفاف فى أعقاب الطور الرطب للدور دون المطير للعصر الحجرى الحديث. ومن ثم فإن سكان مصر لم يشكلوا أبدًا عرقًا نقيًا. وإذا نظرنا إلى أصولهم فإنهم أساسًا من عرق إفريقى. ويبدو بالفعل أن عنصرهم السائد ظل دائمًا قريبًا من غيرهم من سكان شمال وشرق إفريقيا، نذكر على سبيل المثال البجا فى شرق إفريقيا والبربر فى ليبيا. بل إن هذا الرصيد ذاته لم يبق نقيًا، فقد اختلطت به بلاشك عناصر سامية منذ وقت باكر جدًا، سواء جاءته من الشمال عبر سيناء أم من الجنوب عبر البحر الأحمر والصحراء الشرقية.

وقديمًا كان البعض يفضلون أن يبالغوا فى تقدير الإسهام السامى ولكننا نجد أنه قد انصهر فى حقيقة الأمر فى الكتلة العامة، كما ينبغى إضافة بعض الإسهامات السوداء والنوبية وإن ظلت محدودة الأهمية على ما يبدو، فالسكان منذ مطلع الدولة القديمة كانوا يتكونون من كتلة ذات تكوين واضح، تسربت إليه بعض العناصر السامية والنوبية، ولن يتغير السكان إطلاقًا على امتداد آلاف السنين. ومن الشائع أن نشاهد هذا النمط القديم فى ملامح الفلاح المعاصر. ومن ثمّ يمكن القول أن سكان مصر أفارقة فى مجملهم وأفارقة بيض، وما تسرب إليهم من عناصر سامية من ناحية، وعناصر سوداء من ناحية أخرى، لم تكن أبدًا من الكثرة بحيث تبدل من المظهر العام[٨].

ومن الصعب، بل من المستحيل تحديد عدد سكان مصر القديمة. ولكن استنادًا إلى الوثائق اليونانية الرومانية، هناك شبه إجماع على أن عددهم كان يناهز السبعة ملايين نسمة، ومع ذلك ينبغى اعتبار هذا الرقم حدًا أقصى. فقد شهد تاريخ مصر فترات زيادة فى السكان، عرفت بتأسيس مدن جديدة، كما شهد فى المقابل فترات إفقار من السكان، نجد صداها فى بعض النصوص، فنقرأ فى أحدها : «أجل إننا نفتقر إلى النساء فلا حمل ولا حبل»، وعلى أية حال وبالنظر إلى تعداد سكانها المنخفض نسبيًا، فإن مصر تتفق فى هذه النقطة كل الاتفاق مع حضارات العصر القديم الكلاسيكى. بيد أن هذا الفقر الديموجرافى سوف يشكل عقبة كأداء أمام مصر عندما ستواجه تكتلات الأحلاف الآسيوية.

هوامش الفصل الأول :

(1) Baines, J., and J. Malek, Atlas of ancient Egypt, Oxford, 1984, pp. 50-65.

(2) Butzer, Karl, Early Hydraulic civilization in Egypt, Chicago, 1976, pp. 46- 55.

(3) Silverman, D., P., Ancient Egypt, London, 1997, pp. 58 – 75.

(4) Baines, J., and J. Malek, op-cit, pp. 70-74.

(5) Kess, H., Ancient Egypt, A cultural topography, Chicago, 1961, pp. 50 - 53.

(6) Butzer, Karl, op-cit, pp. 120 - 132.

(7) Trigger, B., B. J. Kemp, D. O'Connor, and A. Lioyd, Ancient Egypt, A social history, Cambridge, 1983, pp. 150 – 160.

(8) Kess, H., op-cit, pp. 71 – 79.

الفصل الثانى

مصادر دراسة تاريخ مصر القديمة وحضارتها

مصادر دراسة تاريخ مصر القديمة وحضارتها

أولاً : الآثار :

تعد الآثار المصدر الأول والمعين الأصيل الذى ينبغى أن يرده المؤرخ، فيستقى منه أنقى عناصر المعرفة وأصدق صورها التى تعينه على دراسة ألـــوان الحياة المصرية القديمة فى نواحيها المختلفة، ذلك لأنها صور عاصرت الأحداث، فأشركها المصريون عن قصد – أو بغير قصد– فى تخليد حضارتهم.

وتأتى أهمية الآثار فى أنها جزء من هذه الأرض، وأنها من تفكير وصنع وتنفيذ المصريين القدماء أنفسهم، وتعبر عن الكثير من معارفهم التى تظهر جهد الإنسان المصرى القديم وتفوقه الحضارى فى أكثر من مجال، وتثبـــت للعـــالم المعاصر أن المصريين القدماء هم صانعوا أصول حضارة عريقـــة علـــى هـــذه الأرض، كما أنها مازالت باقية رغم مرور آلاف السنين على إقامتها وذلك لما تتميز به من دقة وإتقان فى الصنع، بالإضافة إلى كونها كثيرة ومتنوعة تتضاءل بجانبها آثار أى بلد آخر. وتنفرد مصر – دون سائر بلدان العالم – بثروتهـــا الضخمة من الآثار التى لايزال أغلبها قائمًا فى المناطق الأثرية المتعددة والمنتشرة فى جميع أنحاء البلاد.

أ- أهم المصادر الأثرية :

١- القوائم الملكية :

لعل أهم ما تقدمه المادة الأثرية بالنسبة لأحداث تاريخ مصر القـــديم، هى تلك القوائم أو مسارد الملوك، التى دونوا عليها أسماء ملوكهم مرتبة ترتيبًا زمنيًا مع ذكر مدد حكمهم وأهم أحداث عصرهم، ومن حسن الحظ أن بعض هذه القوائم وصلت إلينا سليمة إلى حد ما، وبعض آخر أصابه التدمير، فقـــد ساعدت تلك القوائم العلماء فى توضيح ما لديهم من أسماء ملوك وتـــواريخ ومدد حكمهم، ومن أقدم تلك القوائم وأكثرها دقة بالنسبة لترتيب الملوك هو:

١- حجر بالرمو :

وهو عبارة عن لوحة كبيرة من حجر الديوريت الأسود حطمت إلى ستة أجزاء والكتلة الرئيسية تعرض حاليًا فى متحف بالرمو بإيطاليا منذ عـــام ١٨٧٧ وهناك أربع قطع صغيرة الحجم من هذا الحجم موجودة الآن بالمتحف المصرى، أما القطعة السادسة فهى موجودة فى متحف الجامعة بلندن، ويبدو أن اللوحة قد أقيمت فى معبد من معابد مدينة منف ويرجع تاريخ إنشائها لعصر الأسرة الخامسة من (عهد جد كارع اسيسى)، وتعتبر هذه اللوحة وثيقة هامة لحوليات الملوك منذ بداية الأسرة الأولى وحتى نهاية الأسرة الخامـــسة، ومــع الأسف الشديد فإنه لم يعثر على اللوحة سليمة حتى يمكن معرفة معظم أحداث الدولة القديمة وبخاصة من الأسرة الثالثة حتى نهاية الخامسة[١].

٢- قائمة الكرنك :

عثر على هذه القائمة على جانب فى قاعة الأعياد بمعابد الكرنك وهى ترجع لعهد الملك تحتمس الثالث. وقد كشف عنها فى عام ١٨٢٥ وقام بنقلها الفرنسى بريس – دافن إلى متحف اللوفر بباريس عام ١٨٤٤م.

وقد صورت هذه القائمة الملك تحتمس الثالث وهو يتجه بدعواته إلى واحد وستين ملكًا من أسماء أسلافه، وقد تحطمت بداية القائمة، وأول اســـم موجود هو اسم الملك سنفرو ثم يليه بعض ملوك هذه الأســـرة ثم الأســـرتين الخامسة والسادسة، وقد أسقط كاتب هذه القائمة أسماء ملوك عصر الانتقال الأول وعاد إلى ذكر بعض أسماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة ثم الثانية عشرة، ويذكر أيضًا اثنى عشر اسمًا من ملوك الأسرتين الثالثة عشر والرابعة عشر وأيضًا أسماء الأسرة السابعة عشر[٢].

وهكذا يبدو لنا أن تحتمس الثالث إنما قد سجل من الملوك من اعتقـــد فى شرعيتهم وأغفل كثير من الملوك الآخرين وبخاصة ملوك عـــصر الانتقـــال الأول فضلاً عن ملوك الهكسوس[٣].

٣- قائمتا أبيدوس :

هناك قائمتانَ عثر عليهما فى معبد سيتى الأول، ورمسيس الثانى فى أبيدوس، كانت الأولى منقوشة على لوحة عثر عليها "بانكس" فى داخل المعبد، وهى تعتبر غير كاملة، لكنها استخدمت كأساسًا لأعمال شامبليون الأولية بالنسبة لقراءة الملوك، وهذه اللوحة تعرض حاليًا بالمتحف البريطانى(٤).

أما القائمة الثانية والتى نقشت فى عهد سيتى الأول فتشمل خراطيش لستة وسبعين ملكًا من الأسلاف، يأتى على رأسهم الملك "مينا" مرورًا بملوك الدولة القديمة حتى الأسرة الثامنة، لكنها أغفلت أسماء ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وكذلك ملوك عصر الانتقال الثانى. فضلاً عن تجاوزها عن عمد اسم الملكة حتشبسوت وكذلك اخناتون وخلفائه باعتبارهم خارجين عن تقاليد الأسلاف الدينية(٥).

وهذه اللوحة منقوشة على الجدران الداخلية للمعبد فى الممر الذى يلى مقصورة المعبود "بتاح – سوكر"، وقد كشف عنها ماريت عام ١٩٤٦ أثناء حفائره فى أبيدوس.

٤- لوحة سقارة :

عثر عليها ماريت فى منف عام ١٨٦١، فى مقبرة أحد المشرفين على الأعمال المعمارية للملك رمسيس الثانى وكان يدعى تترى، وكانت تحتوى فى الأصل على قائمة ذكر فيها أسماء حوالى ثمانية وخمسين ملكًا، وضع كل اسم فى خانة ملكية، وقد تحطمت هذه اللوحة وفقدت بعض أجزائها و لم يبق من الأسماء اليوم إلا خمسون اسمًا فقط.

وتبدأ اللوحة بذكر أسماء ثلاثة ملوك من الأسرة الأولى ثم ثمانية من الأسرة الثانية ثم مرورًا بملوك الدولة القديمة وأغفلت تمامًا ملوك الأسرة السابعة

والثامنة والتاسعة والعاشرة، وتذكر اثنين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشر، بينما تذكر ملوك الأسرة الثانية عشر كاملة[٦].

٥- بردية تورين :

ترجع هذه البردية إلى عهد الملك رمسيس الثانى وتختلف عـــن بقيـــة القوائم الملكية فى أنها كتبت على ورق البردى بالخط الهراطيقى، وتمتاز كذلك بأنها قد أوردت بعض الأسماء الملكية التى لم تذكرها القوائم الأخرى.

وتعتبر بردية تورين ذات قيمة كبيرة من الناحية التاريخية، ولكنها مع الأسف لا تشمل كل فترات التاريخ المصرى القديم، ومما يدل على أن كاتب هذه البردية كان غاية فى الدقة أن البردية قد ذكرت اليوم والشهر مع سنوات الحكم للملوك.

وقد جعلت البردية الملك "مينا" مؤسسًا للمملكة المصرية، وبعد ذلك قوائم بأسماء ملكية، كل اسم يتبعه بيان عن مدة الحكم وعمر كل ملك.

جدير بالذكر أن بردية تورين تذكر بالنسبة للأسرات الـــست الأولى اثنين وخمسين ملكًا، وبالنسبة للأسرة الثانية عشرة تعطى سبعة ملوك كما تضم البردية أسماء بعض ملوك الهكسوس[٧].

٦- الآثار التى تتحدث عن المظاهر الحضارية :

يجب الأخذ فى الاعتبار أنه بجانب تلك القوائم الملكيـــة أو حوليـــات الملوك هناك آثار ووثائق تعبر عما أنجزه المصريون القدماء فى مجالات الحضارة المختلفة مثل الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية، والنـــشاط الاقتـــصادى والمعتقدات الدينية والفكر والأدب والكتابة واللغة والعلوم، فضلاً عن الحيـــاة الفنية والعلاقات الدبلوماسية مع البلاد المجاورة فى الشرق الأدنى القديم وكذلك التربية ونظم التعليم[٨].

ورغم كل ما تقدمه لنا الآثار من معلومات غاية فى الأهمية إلا أنه يجب على المؤرخ مراعاة ما يلى :

أولاً : أن ما كشف من الآثار الموجودة حاليًا سواء قائمة فى أماكنها بالمناطق الأثرية أو المعروضة بالمتاحف إنما هى تمثل عشر ما تركه المصريين القدماء ولازال الباقى فى باطن الأرض.

ثانيًا : تنوع الآثار وتشتتها فى المناطق الصحراوية وحول وادى النيل ومناطق المحاجر الوعرة السطح لم يساعد الباحثين على تسجيل كل هذه الثروة من النقوش والكتابات التى ربما تملأ فجوات النقص فى بعض فترات التاريخ المصرى القديم.

ثالثًا : أن كثيرًا من الآثار إنما هو صادر عن المقابر أو المعابد، ومن هنا فقد جاء المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه ذو صبغة دينية، بينما غاب عنها الجانب الدنيوى وذلك لعقيدة المصرى القديم فى البعث والخلود.

رابعًا : ندرة الآثار التى ترجع إلى بعض العصور المظلمة ولعل أسوأ المراحل جميعًا ما عرفت باسم "عصر الانتقال الأول"، و"عصر الانتقال الثانى" ثم ما بين الأسرات من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين، مما يجعل تسلسل الأحداث فى التاريخ الفرعونى غير مطرد، تتخلله فجوات لابد من الاستعانة فى مثلها بمصادر أخرى.

خامسًا : هذه الآثار تتباين فيها المعلومات المتصلة بقطبى الوادى ذلك لأن معظمها إنما هو قائم وصادر عن مصر العليا بعكس الدلتا التى أبرزت لنا القليل، ومع ذلك فإن هذا التعميم يمكن أن يستثنى منه مدينتى تانيس وبوباسطة، فضلاً عن منطقة شرق الدلتا والتى قدمت لنا الكثير على يد البعثة النمساوية بقيادة مانفرد بيتاك.

سادسًا : أن المصادر المكتوبة أو النصوص فى عصر الدولة القديمة تحديدًا تفتقر لتدوين أعمال الفراعين، وربما يرجع ذلك إلى أن الملوك كانوا

مؤلهين متعالين إلى أبعد الحدود، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون بالاعتراف لأعمالهم، وكانت الأهرامات كافية لتكون شاهدًا على عظمتهم.

سابعًا : أن الكثير من السجلات الرسمية، قد كتب بأمر من الملوك وكان الملك يعد إلهًا أكثر من كونه بشرًا، وبالتالى فإن الكاتب المصرى لم يتقبل بأى حال من الأحوال أن يهزم الملك المؤله فى حرب خاض غمارها، ولعل ما يؤكد ذلك أنه لم يتم العثور حتى الآن على أية وثيقة تخبرنا بهزيمة أحد الملوك.

ثامنًا : أن النصوص المصرية القديمة ما زالت تستعصى على الترجمة وتحتاج إلى جهد غير عادى من علماء اللغة المصرية، حتى يمكننا ملء الفجوات فى التاريخ المصرى القديم.

تاسعًا : أن الكثير من النصوص – فى رأى بعض المؤرخين – يتسم أحيانًا بالبالغة والمغالات والميل إلى التزويق، مما يحتم علينا أن ننظر فيها ملتزمين جانب الحذر واليقظة.

عاشرًا : أن قدماء المصريين لم يتوصلوا إلى معرفة التواريخ المطلقة، و لم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون إليها الأحداث مما يجعل عملية التأريخ "chronology" بالنسبة للأحداث مرهقة لجميع المؤرخين والباحثين.

ثانيًا : ما ورد فى بعض المصادر الأخرى :

تتمثل الصعوبة بالنسبة لهذه المصادر فى عدم وجود متخصصين فى مصر فى الكتابة المسمارية الوحيثية والفينيقية والآرامية والذين يستطيعون الاطلاع على الوثائق المكتوبة بهذه الكتابات فى الداخل والخارج، والقيام بعمل دراسات تحليلية لها.

وتقصد بذلك ما ورد فى بعض مصادر بلاد الشرق القديم من إشارات لها صلة بتاريخ مصر القديمة، وعاصرت بعض فتراته، وارتبطت تواريخا بتاريخ مصر القديمة، مثل مشروع معاهدة السلام الذى تم بين خاتوسيل ورمسيس الثانى، وكان هذا المشروع مسجلاً بالخط المسمارى على لوحة من الفضة باسم خاتوسيل، وعندما قبله رمسيس الثانى من حيث المبدأ كتب رجاله نصًا آخر بالخط الهيروغليفى على لوح من الفضة أيضًا. وعثر فى عام ١٩٧٢ على تمثال للملك دارا فى سوس فى إيران، وهو تمثال مغطى بنقوش الخط الهيروغليفى يحدثنا فيها دارا عن حكمه وعن شعوب الإمبراطورية الفارسية التى أخضعها وضمها لملكه(٩).

ثالثًا: كتابات الرحالة والمؤرخين والفلاسفة اليونان والرومان وكذلك كتابات مانيتون ومن جاءوا من بعده:

وهم الذين زاروا مصر فيما بين القرن السادس قبل الميلاد والثانى بعد الميلاد وكتبوا وصفًا لما شهدوه وسمعوه. ونحن لا نقلل من قيمة تلك الكتابات ولكنها تكمل بعض الجوانب، وهى تعد من المصادر الهامة لأنها تمدنا بمعلومات قيمة بالنسبة للتاريخ ولجوانب مختلفة من الحضارة المصرية. فمن اليونان هيكاتيه الملتى، وهيرودوت، وهكاتية الأبديرى وديودور الصقلى واسترابون وبلوتارخ، ومن الرومان بلينى. وبالإضافة إلى هؤلاء الرحالة والمؤرخين نجد أن بعض الكتاب والفلاسفة اليونان قد تعرضوا للتاريخ المصرى القديم وتأثروا أيضًا بالديانة المصرية القديمة والفكر المصرى فى كتاباتهم ومقتطفاتهم(١٠).

هيكاتيه – الملتى :

مؤرخ وجغرافى يونانى من بلدة ملتيه زار مصر فى القرن السادس قبل الميلاد (عام ٥٣٠ ق.م)، كما زار غيرها من بلاد العالم وألف كتابًا عن مشاهداته أسماه "رحلة حول العالم" من جزئين الأول خاص بأوروبا والثانى

بآسيا وفيه ذكر رحلته إلى مصر وليبيا، ويحتوى كتابه على الكثير من المعلومات التاريخية التى أمده بها الكهنة المصريون، وقد اهتم أيضًا بجغرافية البلاد وعناصر البيئة أكثر من اهتمامه بسكان البلاد وتاريخهم[11].

هيرودوت الهاليكارناسى :

ولد عام ٤٨٩ ق.م فى هاليكارناس إحدى المدن اليونانية فى جنوب غرب آسيا الصغرى، وتوفى عام ٤٢٥ ق.م، وقد قام بعمل بحث عن العلاقة بين اليونانيين والفرس فى كتابة "الأسماء" كما كتب عن تاريخ إيران. وزار العديد من بلاد الشرق القديم، وقد جاء إلى مصر فى حوالى عام ٤٤٨ ق.م فى نهاية الغزو الفارسى، وفى هذه الفترة التى أعقبت نهاية الأسرة السادسة والعشرين، كان الكثير من العمائر قد تعرض للتخريب نتيجة للغزو الفارسى وبعضها الآخر كان لا يزال قائمًا. وقد قام هيرودوت بتدوين كل ما سمعه وسجل كل ما رآه، وربما استعان أيضًا باليونانيين الذين كانوا يقيمون فى مصر لمعرفة بعض مظاهر الحضارة المصرية، وربما وصل إلى مصر على ظهر إحدى السفن التجارية اليونانية التى حملته إلى نقراطيس فى غرب الدلتا. وقد قام بتأليف كتابه الذى أسماه "تمحيص الأخبار" Euterpe فى حوالى عام ٤٤٤ ق.م، وقسم هذا الكتاب إلى تسعة أجزاء. وخصص الجزء الثانى من كتابه لمصر والذى يعد من أفضل المصادر عن تاريخ مصر وأهم أعمال ملوكها وبعض العمائر والمعابد والأعياد الدينية التى كانت تقام لبعض المعبودات، ويقول فى مقدمة كتابه :

«وسوف أتحدث بإسهاب عما يخص مصر لأنها تحتوى على الكثير من العجائب أكثر من أى بلد آخر، وليس هناك بلد على الإطلاق نرى فيها المنشآت الرائعة والتى تفوق كل تعبير»[12].

ويبدو أنه وصل حتى أسوان ووصف أكثر من ظاهرة تدل على معرفة شخصية بالأماكن التى زارها. فقد شرح بتفصيل التكوين الطبيعى لأرض مصر، التى تكونت نتيجة لطمى النيل، ووصف أيضًا بعض ظواهرها الجغرافية: النيل، مصادره، فيضانه، المناظر الطبيعية المختلفة، خصائص الدلتا، والحياة فى منطقة البحيرات، وخصص فصولاً طويلة عن حيوانات البيئة،مشيرًا إلى أشكال كل منها فتحدث مثلاً عن : التمساح، سبع البحر، ابن منجل، وطائر الفنكس. وتحدث أيضًا عن المعتقدات الدينية التى ارتبطت بها وكانت مصدر حيرة له، وتحدث عن الثعابين المجنحة كأنها مخلوقات لها حقيقة واقعية، ولكن حدث بعد هذه التفصيلات الدقيقة، أن ذهب حب استطلاع هيرودوت إلى أبعد من ذلك، فهو يصف بدقة عادات المصريين، ويذكر أنهم :

«قد اعتنقوا عادات تختلف عن عادات الشعوب الأخرى، فالنساء يذهبن إلى السوق على حين يمكث الرجال فى المنازل للغزل، وكان الكهنة الذين تعودوا أن يضعوا فى الأماكن الأخرى الشعور الطويلة على رؤوسهم كانوا فى مصر حالقى الرؤوس، وكان الأشخاص العاديون يكتبون من الشمال إلى اليمين ولكن الكهنة يكتبون من اليمين إلى الشمال، ويعتقدوا أنهم على صواب»(١٣).

وإذا حللنا العرض الذى ذكره هيرودوت عن تاريخ مصر، كما استطاع أن يفهمه من أفواه الكهنة، نجد أنه يتحدث عن الملوك الذين توالوا على عرش مصر منذ عهد الملك مينا، وكان يذكر مع كل عهد بعض القصص التى حدثت فى عهد أحد الملوك، وأحيانًا كان يحب سماع القصص الشعبى الذى يقصه عليه مرافقوه فى جولاته. ومكث هيرودوت فى مصر حوالى أربعة أشهر. وقد أغنى تاريخه بوصفه للمعالم التى زارها وشاهدها فقد تحدث بإعجاب عن اللابيرانث وعن بحيرة موريس والمعابد الكبرى فى سايس وتل بسطة، وعن التماثيل وبهو الأعمدة فى منف، ونلمس فى كتاباته أن المعتقدات

الدينية قد أثرت فيه كثيرًا وجذبت انتباهه، وقد أراد أن يرى فى بعض المعبودات المصرية صورة طبق الأصل من المعبودات اليونانية، وقد أشار إلى الأعياد التى كان يحتفى بها فى المدن الكبرى، مثل عيد القناديل الموقدة فى سايس، كما أشار إلى وحى بعض المعبودات والعادات الجنائزية. وكان يتحدث عن المعبود اوزير باحترام بالغ، وكان يمتنع غالبًا عن ذكر بعض التفاصيل التى من شأنها أن تكشف أسرارًا قد تعتبر انتهاكًا للحرمات.

ويمكن القول بأن كتاب هيرودوت هو أكثر من بحث تاريخى بل هو أيضًا تحقيق مشوق قام به رحالة لديه حب استطلاع جارف وعلى درجة كبيرة من الإدراك والفهم ودائمًا على استعداد للإعجاب بكل ما زاره وشاهده[١٤].

أفلاطون :

يقال إنه زار مصر ما بين عامى ٣٩٨ – ٣٩٠ ق.م (أى فى نهاية الأسرة التاسعة والعشرين، فى عهد الملك أخوريس) وقضى ثلاثة عشر عامًا فى مصر. وقد تأثر فى آخر مؤلفاته "le Timee" بالديانة المصرية وشبه معبودة سايس "نيت" بالمعبودة اليونانية أثينا (خاصة فى الفقرة ٢٣)[١٥].

هيكاتيه – الأبديرى :

مؤرخ يونانى من أبديرا فى بلاد اليونان، زار مصر فى أوائل حكم البطالمة فى حوالى عام ٣٠٠ ق.م، وكان معاصرًا لبطلميوس الأول، وكان صديقًا له ويعرف البلاد جيدًا، وقد كتب كتابًا فقد اليوم بعنوان "دراسات مصرية" تحدث فيه عن العقائد والأساطير المصرية[١٦].

مانيتون :

يعد أول مؤرخ مصرى قديم حاول كتابة تاريخ مصر، وهو يختلف عن مؤرخى اليونان الذين زاروا مصر وكتبوا عن تاريخها بأنه كان على علم باللغة

المصرية القديمة وكتاباتها المختلفة، وعلى معرفة جيدة باللغة اليونانية المتداولة فى العصر الذى عاش فيه. لقد عاش مانيتون فى عهد اثنين من ملوك البطالمة الأوائل (بطلميوس الأول والثانى) فى الفترة من ٣٢٣ إلى ٢٤٥ ق.م. ولسوء الحظ لا نعلم عنه الكثير فأصله غير معروف وبعض المصادر ترجع أصله إلى مدينة مندس، وأخرى تجعلنا نعتقد أنه كان يتردد على معبد ايونو. كان يعد أحد الكهنة العلماء المشهورين الذى لم تخرجه أية مدرسة دينية، وقد خدم مانيتون فى معبد سبننوتس القديم فى بداية القرن الثالث ق.م. وكان هذا المعبد يقع على حدود مدينة سمنود الحالية فى دلتا مصر. ولم يبق منه سوى كتل كبيرة من الجرانيت الأحمر والكوارتز الضخم المنقوش.

وكان على دراية بتاريخ مصر وعقائدها الدينية. وحاول كتابة هذا التاريخ معتمدًا على معرفته لقراءة النقوش والبرديات التى كانت موجودة فى عهده فى أرشيف ومكتبات المعابد والإدارات الرسمية. ويبدو أن مانيتون كان قد كلف بواسطة بطلميوس الأول (سوتر) بالعمل على نشر عبادة جديدة، هى عبادة سرابيس التى تؤدى إلى الربط بين العقائد المصرية واليونانية. وقام بكتابة تاريخ مصر بناء على أمر بطلميوس الثانى.

وقد قام بكتابة هذا التاريخ فى حوالى عام ٢٨٠ ق.م. باللغة اليونانية. وهناك بعض الروايات تنسب إليه أنه قام بكتابة ثمانية كتب عن الحياة الدينية، والطقوس والأعياد، ومؤلف عن صناعة البخور، ولكن أهم أعماله هو كتابه "تاريخ مصر – Aegyptiaca" الذى يعتبر اختصارًا لنتائج كل أبحاثه. وكان من الممكن أن يصبح بدون شك من أهم المصادر عن مصر القديمة لو وصل إلينا سليمًا. ولكن للأسف فقد معظمه فى حريق مكتبة الإسكندرية فى حوالى عام ٤٧ ق.م. وذلك عندما أحرق قيصر الأسطول المصرى خلال حرب الإسكندرية وارتفع اللهب بشدة حتى امتد إلى رصيف الميناء، وأحرق المبانى المجاورة له ومن بينها المكتبة الكبرى أو دار الكتب. ولذلك فقدنا المصدر

التاريخى الأكثر صدقًا والذى اعتمد أساسًا على النقوش والكتابات المصرية، ولم يصل إلينا من هذا التاريخ إلا بعض المقتطفات والفقرات التى نقلها الكاتب اليهودى "يوسيفوس – فلافيوس" و"جوليوس الأفريقى" و"اوسب". وآخر صدى كتابات مانيتون نجده فى كتاب الكاتب "جورج الراهب" المعروف باسم "سينسلوس".

وعلى الرغم من هذه المقتطفات فإن الصورة الفعلية للعمل الأصلى لمانيتون لم تتضح بأكملها، ولم يبق منه سوى قوائم ملكية بأسماء ملوك، مرتبة فى أسرات مصحوبة غالبًا بإشارات عن مدد حكمهم، وبها أحيانًا بعض القصص المشكوك فيها.

ومن الصعوبات الهامة التى خلفها لنا مانيتون هو أنه أعطانا أسماء الملوك فى صيغة يونانية، فكان من الصعب فى بعض الأحيان مطابقة هذه الأسماء بالنقوش المصرية القديمة.

ويرجع إليه الفضل فى تقسيم الملوك إلى عدة أسرات، وأطلق على المجموعة الأكثر قدمًا – الأسرة الأولى – ويذكر بعد ذلك السلالات الملكية المختلفة التى توالت حتى الفترة التى عاش فيها أى العصر البطلمى. ولا نعرف لماذا اتبع مانيتون هذا التقسيم ؟ ومن الذى أشار عليه به ؟

ومن الملاحظ أن كل الأسرات التى ذكرها قد حكمت على التوالى، وكان الاعتقاد السائد فى مصر هو أن المعبودات هى التى كانت تمارس السلطة مباشرة على الأرض حتى أصبح البشر أكثر تحضرًا وإدراكًا بما فيه الكفاية، لذلك صعدت المعبودات إلى السماء وتركت وراءها مباشرة الأحياء على الأرض. وطبقًا لرأى مانيتون كان مينا هو أول هؤلاء الأحياء. ويبدو أن مانيتون قد نقل هذا الاعتقاد من سجلات كانت موجودة فى معابد منف أو غيرها. ويبدو أنه كانت هناك قوائم كاملة لتتابع الملوك وذلك من بعد "مينا" ولذا كان المصريون ينسخون هذه القوائم على أوراق البردى ابتداء من الدولة

الحديثة، وللأسف لا نملك إلا بردية واحدة لهذه القوائم هى بردية تورين التى ذكرناها من قبل[١٧].

وقد تناول مانيتون فى تقسيم تاريخ مص رالقديمة إلى أسرات أسماء الملوك وسنوات حكمهم وأهم أعمالهم. ونجد أن تاريخ مصر كتب كاملاً، فبعد حكم المعبودات وانصاف المعبودات، قسم التاريخ إلى إحدى وثلاثين أسرة، مبتدئًا بالملك مينا وينتهى بفترة غزو الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م.

وقد أعطى مانيتون كمجموع لسنوات حكم الأسرات الأعوام الآتية:

- من الأسرة الأولى حتى الأسرة الحادية عشرة ٢٣٠٠ عام.
- من الأسرة الثانية عشرة حتى التاسعة عشرة ٢١٢١ عام.
- من الأسرة العشرين حتى وفاة دارا ١٠٥٠ عام.

وهكذا فإن تقسيم تاريخ مصر القديمة إلى أسرات ملكية أصبح قاعدة هامة لعلماء علم الدراسات المصرية القديمة فى العصر الحديث، الذين اتبعوا هذا التقسيم وساروا عليه و لم يتخلوا عنه حتى الآن.

وعلى الرغم من وجود بعض الأخطاء البسيطة فى كتابات مانيتون فإنها تعتبر ذات أهمية كبرى بالنسبة لنا ولا زالت هذه الكتابات تحتفظ لنا بمفاجآت مثل ما ذكره مانيتون عن ملك غير معروف يسمى نفرشرس Nefercheres الذى وضعه بين ملوك الأسرة الحادة والعشرين. فقد حدث منذ بضع سنوات أنه أمكن التعرف على شخصية هذا الملك بفضل أثر صغير عثر عليه فى تانيس.

وقد بين لنا شامبوليون فى كتابه الذى نشر عام ١٨٢٨ "موجز — Precis" أنه تعرف على حقيقة بعض أسماء الملوك الذين ذكروا بواسطة مانيتون منهم :

امنحتب، تحوتمس، رمسيس، ششنق، اوسركون، بسماتيك، نفريتس، آخوريس (وقد أدرجوا الآن ضمن تاريخ أسرهم بطريقة صحيحة)[١٨].

اراتوسثينيس Ertatosthenes :

ولد فى قورنية حوالى عام ٢٨٤ ق.م. عاش فى الإسكندرية فترة من حياته وتوفى فى حوالى ١٩٢ ق.م. وشغل منصب أمين مكتبة الإسكندرية الكبرى فى عهد بطلميوس الثالث وبطلميوس الرابع. وكان له مؤلفات عديدة فى الجغرافيا والتاريخ السياسى والفلسفة وتاريخ الأدب والفلك، وأهم مؤلفاته كتابه فى تسعة أجزاء يسمى "عالم التاريخ" وكتابان فى الجغرافيا. وقد أعطانا فى كتابة التاريخى قائمة تحتوى على ثمانية وثلاثين اسمًا للملوك الطيبيين مكتوبة باللغة اليونانية وقد أضاف "ابو للودور Apollodorec" إلى هذه القائمة ثلاثة وخمسين اسمًا. وقد نقلها وأضاف إليها "جورج الراهب" (سينسلوس). وهناك عدة آراء حول حقيقة وجود هذه الأسماء فى القوائم الملكية[١٩].

ديودور الصقلى :

مؤرخ يونانى عاش فى نهاية القرن الأول قبل الميلاد. صنف مجلدًا فى التاريخ العالمى بعنوان "المكتبة التاريخية" وتقع هذه المكتبة التاريخية فى ٤٠ كتابًا لم تصلنا منها كاملة سوى الكتب ١ – ٥، ١١ – ٢٠ وشذرات من بقية الكتب ٢١ – ٤٠ وردت ضمن مؤلفات المؤرخ الكنسى يوسيبيوس وكتاب العصر البيزنطى. ويتناول ديودور فى الكتب الأولى تاريخ الفترة السابقة على الحروب الطروادية، مستعرضًا أحوال الأقطار غير اليونانية:مصر وبلاد الرافدين والهند وسكيثيا وبلاد العرب وأثيوبيا وشمال أفريقيا. وفى الكتاب الأول يستعرض تاريخ مصر القديمة (الأساطير والملوك والعادات)وقد زار مصر فى عام ٥٩ ق.م وهو عام قنصلية قيصر الأولى وقرار إعادة بطلميوس الزمار إلى عرشه فى الإسكندرية وروى المؤرخ بعض مشاهداته الطريفة منها، أما عن مدة إقامته فى مصر فلا تزال غير معروفة. وفى الحق أن ما كتبه عن مصر وإن كان معظمه منقولاً عن غيره فإنه يلى وصف هيرودووت فى الأهمية فقد اعتمد فى كتاباته على مؤلف هيكاتيه الأبديرى[٢٠].

استرابون – البونتى :

زار هذا الجغرافى الشهير مصر ما بين عامى ٢٥ – ٢٤ ق.م، وعاش أكثر من خمس سنوات فى الإسكندرية، وقد ألف كتابًا عن جغرافيــة العــالم القديم وحدثنا فى الجزء الخاص بمصر (الكتاب السابع عشر) عن المدن المصرية وعواصمها وعادات سكانها[٢١].

بلينى الجغرافى :

كاتب رومانى عاش فى الفترة من ٢٣ إلى ٧٩ ميلادية وزار خلالهـــا مصر وغيرها من البلدان، وترك لنا كثيرًا من المؤلفات، منها مؤلف عن التاريخ الطبيعى، وقد أظهر إعجابه بهندسة بناء الأهرام[٢٢].

بلوتارخ – الخايرونى :

مؤرخ يونانى ولد فى خيرونيا بإقليم بويوتيا فى بلاد اليونان، وعاش بين أعوام ٥٠ و ١٢٥ ميلادية، ودرس الفلسفة ولاسيما الفلسفة الأخلاقية والعلوم الطبيعية والبلاغة فى أثينا، التى اكتسب حق المواطنة فيها ورحل إلى روما وزار بلاد كثيرة من بينها الإسكندرية وتنقسم مؤلفاته تبعًـــا لـــذلك إلى قـــسمين كبيرين:

(١) الأخلاقيات، وهى على الرغم من عنوانها لا تقتصر علـــى دراســـات فى الأخلاق، بل تشمل أيضًا دراسات فى الديانة والطبيعة والسياسة والأدب وهى بحوث مكتوبة فى شكل محاورات أو رسائل نقدية هجائية لاذعـــة. وتشمل كذلك أساليب الفضيلة والتربية وديانة إيزيس وأوزير.

(٢) التراجم وهى أهم كتاباته من الناحية التاريخية، وتشمل سير بعض القواد والساسة اليونان والرومان بعنوان : "الموازنـــة بـــين مـــشاهير اليونـــان والرومان".

وغير هؤلاء هناك بعض الكتاب واصل الفكر من اليونان والرومان الذين أقاموا فى مصر أو الإسكندرية وأصبحوا مواطنين منها وكتبوا عن تاريخها بنقلهم ومقطتفات من كتابات مانيتون أو زاروا معابدها أو اهتموا بعقائدها ولغتها وكتابتها، ومن أمثال هؤلاء(٢٣) :

"يوسيفوس – فلافيوس Josephus" :

كاتب يهودى، عاش فى ٣٧ – ٩٥ ميلادية، وقد نقل هذا الكاتب مقتطفات من كتابات مانيتون، وقد ألف كتابًا فى تاريخ حروب اليهود، وهو يتضمن أنباء هامة عن العرب وخاصة الأنباط، وكتب كتابًا آخر يحمل اسم "الرد على ايبون" مدافعًا فيه عن بنى جنسه ضد ما كتبه ايبون الكاتب السكندرية الذى اتهم اليهود بكل الضغائن والأحقاد، فحاول يوسيفوس أن يمحو ذلك عن بن جنسه فادعى أن الهكسوس هم اليهود(٢٤).

القس "كلمنت السكندرى : Clement d'Alexandrie" :

كات وطبيب مسيحى عاش بين عامى ١٥٠ – ٢١١ ميلادية، واهتم بالكتابة الهيروغليفية واللغة المصرية القديمة.

"جوليوس الأفريقى Julius dit 'africain" :

الذى عاش فى حوالى عام ٢٣٠ ميلادية، ونقل مقتطفات من كتابات مانيتون.

"اوسب (او بوسيبوس) Eusebe" :

كاتب مسيحى عاش فى حوالى ٢٦٥ – ٣٤٠ ميلادية، ونقل بعض الفقرات من كتابات مانيتون.

"جامبليك Jamblique" :

ولد هذا الفيلسوف اليونانى فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، وتوفى فى عام ٣٢٥ أو ٣٣٠ ميلادية، وكتب كتابًا عن أسرار مصر(٢٥).

"ارنوبيوس Arnobius" :

كاتب لاتينى عاش فى القرن الثالث الميلادى وتـوفى فى عـام ٣٢٧ ميلادية، واهتم بالديانة المصرية.

"هورابوللون Horapollon" :

الذى عاش فى منتصف القرن الرابع الميلادى وقام بكتابة بعض الفصول شارحًا بنوع من الدقة أصول الكتابة الهيروغليفية.

"جورج الراهب Georges le Moine" :

الذى عرف أيضًا باسم "سينسلوس Syncellus، وعاش فى النـصف الثانى من القرن الثامن الميلادى، وكان آخر من نقل بعض المقتطفـات عـن مانيتون فى كتابه "تاريخ العالم"(٢٦).

بالنسبة لمصادر الرحالة والكتاب اليونان والرومان ومانيتون :

أ- نلاحظ فيما كتبه الرحالة والكتاب اليونان والرومان ما يأتى :

١- إن الروايات والشواهد التى نقلها إلينا هؤلاء الرحالة والكتاب لا تمثل إلا الشىء القليل من معالم تاريخ وحضارة طويلة الزمن لذلك فمن الـصعب القول أنها تغطى كل المظاهر الحضارية، وعند الاستشهاد بها يجب فحصها فحصًا دقيقًا.

٢- إن هؤلاء المؤرخين زاروا مصر فى نهاية ما يسمى بحكم الأسرات الوطنية أى زاروها فى أيام ضعفها، وفى عصورها المتأخرة، مثل هيرودوت الـذى زار مصر فى نهاية الحكم الفارسى لمصر، ولو أتاحت الظـروف لـبعض هؤلاء الرحالة زيارة مصر خلال عصور نهضتها، وفى أيام مجدها وقوتهـا لتغير الكثير من آراءهم وانطباعاتهم.

٣- إننا لا نجد أحدًا من هؤلاء المؤرخين أو الفلاسفة على دراية ولو بقـدر يسير باللغة المصرية القديمة وكتاباتها المختلفة، و لم يعتمد أحد منهم علـى

المصدر الرئيسى إلا وهو الوثائق العديدة التى كانت موجودة فى دور السجلات العامة، ولكنهم رددوا وسجلوا أقوالاً نقلوها عن غيرهم ممن قابلوهم من المصريين وبخاصة صغار الكهنة، ولا نعرف مدى درجة علم ومعرفة الذين لجأوا إليهم وأمدوهم بالمعلومات المختلفة، كما أدى عدم معرفتهم باللغة المصرية القديمة إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره هؤلاء المصريين ونقلوه عنهم بسوء فهم أيضًا.

٤- إنهم لم يعاصروا أكثر الأحداث التى نقلوا أخبارها إلينا فى كتاباتهم، كما أن المصريين بدورهم كانوا يحدثونهم عن عصور مضت منذ آلاف النسين، فاختلط بذكرياتها الكثير من الخرافات والأساطير، مما أدى إلى شيوع بعض الأخطاء عن تاريخ مصر القديمة وحضارتها.

٥- لم يحدثنا أى من هؤلاء الرحالة أو الكتاب عن مقابلتهم لأهل الفكر والأدب فى مصر القديمة، أو أية شخصية من الشخصيات الأدبية الهامة التى عاشت فى المجتمع المصرى فى العصور التى جاءوا فيها إلى مصر.

٦- إن إقامة هؤلاء الرحالة والكتاب كانت فى أغلب الأحيان فى مدن الوجه البحرى أو عواصم المدن حيث اتخذت المظاهر الحضارية طابعًا خاصًا، فلم يتبينوا أوجه الحياة اليومية والتقاليد والعقائد فى كل الأقاليم، وخاصة أقاليم الوجه القبلى، ولهذا فقد أخطأواو فى بعض ما صوروه عن مظاهر الحضارة المصرية.

٧- إن هؤلاء الرحالة والكتاب لم يتجهوا فى كتاباتهم اتجاهًا علميًا سليمًا، ولم يهتموا باستقصاء الحقائق بقدر ما حرصوا على الإفاضة فى المبالغات والإغراق فى القصص الخيالية حتى يثيروا فى نفوس قراءهم غريزة حب الاستطلاع. ونلاحظ أن هيرودوت كان يستعين فى بعض الأحيان بقصص شعبى لا يعتمد على الواقع أو الحقائق التاريخية، أو يذكر بعض القصص الخيالية التى تنسب إلى بعض الملوك[٢٧].

ب- نلاحظ فيما كتبه مانيتون ومن جاءوا من بعده ما يأتى :

١- مما يؤسف له أن التاريخ الذى كتبه مانيتون فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية و لم يصلنا منه إلا بعض مقتطفات و لم يصل إلينا كاملاً حتى نستطيع معرفة مادته التاريخية وفهم الكثير من الحقائق التى يصعب الوصول إليها الآن.

٢- إن مانيتون أعطانا أسماء الملوك المصريين باليونانية، فكان من الصعب قراءة بعض الأسماء ومقارنتها بالأسماء الموجودة على الآثار والوثائق لاختلاف النطق.

٣- نجد فى النسخ أو المقتطفات التى وصلت إلينا عن كتابات مانيتون بعض الأخطاء الواضحة، خاصة بالنسبة لملوك الأسرة الثامنة عشرة التى نعلم عنها الكثير بفضل المصادر الأثرية الأخرى ونصوص تلك الفترة المتعددة. ونلاحظ أيضًا أن كلا من جوليوس الأفريقى وأوسب لم يتفقا على الإطلاق على ما جاء عند مانيتون. فنجد مثلاً أن الأفريقى يعطى للأسرة الثانية والعشرين أسماء تسعة ملوك على حين يعطى أوسب ثلاثة ملوك فقط. ويعطينا مانيتون أحيانًا عدد الملوك فقط دون أسمائهم ومثال ذلك عدد ملوك الأسرة السابعة والعاشرة والعشرين، وأحيانًا يعطى أصل مدنهم التى خرجوا منها، وأحيانًا أخرى نجد أسماء الملوك مختلطة إلى حد كبير، فمثلاً اسم الملك سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة كان يتشابه فى طريقة الكتابة مع اسم ششنق الذى حكم فيما بعد بحوالى ألف عام تقريبًا.

٤- نجد أحيانًا أن طول مدة حكم كل ملك كما جاء عند مانيتون تختلف عما جاء فى القوائم الملكية الأخرى.

٥- إن فقدان المصدر الأصلى لما كتبه مانيتون أعطى أهمية خاصة لما كتبه من جاءوا من بعده.

وإذا تغاضينا عن كل هذه الثغرات فى المصادر التى ذكرناها فيما يخص تاريخ مصر القديمة وحضارتها، نقول إن هذه المصادر تبين لنا ما يأتى :

١- إن فترات الاستقرار فى هذا التاريخ هى الفترات الأكثر طولاً، على حين أن فترات الفوضى والاضطرابات والثورات وعدم الاستقرار هى الفترات الأكثر قصرًا.

٢- على الرغم من كثيرة الآثار والوثائق التى تمدنا الآن فإنه لا يزال هناك بعض الفترات التى يسودها الغموض والشك خاصة عصر الانتقال الأول والثانى، ثم الفترة بين الأسرة الحادية والعشرين والرابعة والعشرين.

٣- إن الفترات المعروفة جيدًا تمثل فى التاريخ المصرى القديم الثلث من مجمل هذا التاريخ، أما الفترات المعروفة قليلاً أو غير المعروفة فهى تمثل الثلثين، فمن الثلاثين أسرة التى حددها لنا مانيتون، نعرف فقط، بطريقة واضحة تاريخ إحدى عشرة أسرة.

٤- منذ تقسيم مانيتون وحتى الآن يقوم علماء الدراسات المصرية القديمة بتقسيم المائة والتسعين ملكًا (بعض العلماء يعطى ٢٥٠ ملكًا) الذين حكموا مصر على ثلاثين أسرة، ولكن لفظ أسرة يجب أن يؤخذ هنا بمعناه المحدد، وذلك لأن عددًا معينًا من الملوك كانوا ينتمون إلى أسرة واحدة، وغالبًا ما تنقصنا معرفة الروابط التى كانت تربط بين الملك وخليفته، ولهذا فإن تتابع الملوك ليس مؤكدًا، وأحيانًا نرى بعض الشخصيات القوية التى تنجح فى الظهور وتستولى على تقاليد الحكم.

٥- نجد أن جميع الأسرات ليس لها نفس الأهمية، فبعضها غير حقيقى (مثل الأسرة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة) والبعض الآخر لا يحتوى إلا على عدد قليل من الملوك، مثل الأسرة الرابعة والعشرين التى كان بها ملكان والثامنة والعشرين وبها ملك واحد فقط،

والبعض الآخر كان يحتوى على أكثر من عشرة ملوك مثل الأسرة الثامنة عشرة التى كانت تشمل أربعة عشر ملكًا.

٦- يمكن القول أيضًا أن من بين هؤلاء الملوك الذين تذكرهم القوائم الملكية والآثار المختلفة، من كان غير معروف، والكثير منهم لم يساهم إلا بدور بسيط فى السياسة الداخلية أو الخارجية و لم يكن لهم أى دور يذكر أو أى تأثير فى مجريات الأحداث.

٧- على الرغم من الثغرات الموجودة، والاختلاف الواضح بين قوائم الملوك المختلفة وما يعطيه مانيتون، فإن هذا الترتيب المستمر يغطى فترة خمسة وثلاثين قرنًا، وهو ما يمكن أن نسميه تاريخًا موحدًا، وذلك مما يعطى للتاريخ المصرى القديم أهمية كبرى، لأننا لا نملك فى أى مكان آخر، قوائم ممتدة ومستمرة مثل ما نجد فى تاريخ هذا البلد العريق، بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التاريخ، المفصل لمصر القديمة قد بدأ فى فترة بعيدة جدًا وغاية فى القدم، وفى هذا الموكب المتسع لتتابع السنوات والقرون، سوف نرى وفود مئات الملوك على عرش مصر القديمة.

٨- إن هذه القوائم ليست نهائية،ولكن مع استمرار الاكتشافات الأثرية الحديثة نأمل فى المزيد من القوائم الملكية أو أى أثر أو وثيقة تزويد من معلوماتنا عن ترتيب ملوك تاريخ مصر القديمة. مثل الدراسة الحديثة التى قام بها "يويوت Yoyotte" وأثبت فيها أن هناك ملكًا غير معروف يدعى أوسركون ابن مهيب اونشى كان والدًا لششنق الأول فى الأسرة الثانية والعشرين. وهكذا فإن مجال الكشف لا يزال مفتوحًا، ومجال البحث لا يزال يتطلب المزيد من الجهود(٢٨).

رابعًا: بعض الإشارات فى الكتب المقدسة وفى كتابات الرحالة:

بالنسبة لبعض الإشارات التى جاءت فى الكتب المقدسة وفى كتابات المؤرخين العرب، فهى إشارات لها أهميتها. فبالنسبة لما جاء فى كتاب العهد القديم من إشارات لأحداث وقعت فى مصر وفلسطين، فهى أحداث تؤكدها بعض نقوش المصادر الأثرية، أما بالنسبة لما جاء فى آيات القرآن الكريم من أحداث فإننا لم نعثر فى المصادر الأثرية المختلفة بما عليها من نقوش وكتابات على أية معلومات أو إشارة عن فترات وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب وسيدنا يوسف وسيدنا موسى مع فرعون. ومن المحتمل أن يكون ذكرهم موجودًا فى بعض الوثائق التى لم يكشف عنها حتى الآن، والتى ما زالت مطمورة فى طى الكتمان(٢٩).

أما بالنسبة للإشارات التى جاءت فى كتابات المؤرخين العرب، فهى إشارات لها أهميتها أيضًا بالنسبة للوصف الدقيق لبعض الآثار القديمة والتى اندثرت بعض معالمها الآن.

هوامش الفصل الثانى :

(١) رمضان عبده السيد، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٦٦ — ٦٧.

(٣) أحمد أمين سليم، مصر منذ عصر التأسيس وحتى بداية الدولة الحديثة، الإسكندرية، ٢٠٠٨م، ص ٤٨.

(٤) رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٥) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٦) ألفه نخبة من العلماء : تاريخ الحضارة المصرية، ج١، ص ٨٨.

(٧) رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٨) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٩) حياة إبراهيم : نبوفذ نصر الثانى، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد ١٩٨٣، ص ٦٢ — ٧٠.

(١٠) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٣٠ — ٣٥.

(١١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة، ص ١١٢.

(١٢) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم ١٩٧٩، ص ٥٦ — ٦٠.

(١٣) ألفه نخبة من العلماء : المرجع السابق، ص ٦٦.

(١٤) حسن بيرنيا : المرجع السابق، ص ٧٠ — ٧٢.

(١٥) رمضان السيد : المرجع السابق، ص ١٢٠.

(١٦) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٩٠ — ٩٢.

(١٧) المرجع نفسه، ص ١٠٢ — ١٠٣.

(١٨) رمضان عبده السيد : المرجع السابق، ص ١٢٣ — ١٢٥.

(١٩) أحمد أمين سليم : المرجع السابق، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢٠) رمضان السيد : المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٢١) ألفه نخبة من العلماء : المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢٢) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٩١.

(٢٣) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢٤) رمضان السيد : المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(٢٦) ألفه نخبة من العلماء : المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٢٧) رمضان السيد : المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢٨) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١٢٢

(٢٩) رمضان السيد : المرجع السابق، ص ١٣٠.

الفصل الثالث

نشأة علم المصريات

أولاً : معرفة اللغة المصرية القديمة :

جاءت الخطوة الأولى لنشأة علم المصريات مع حملة "نابليون بونابرت" (١٧٦٩ – ١٨٢١م) على مصر فى أخريات القرن التاسع عشر (١٧٩٨ – ١٨٠١م) إذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة، وكان من بين هذه الدراسة آثار مصر ومعالمها التاريخية، والتى نشرت نتائجها فى كتاب علمى ضخم من أربعة وعشرين جزءاً هو كتاب "وصف مصر" (Description of l'Egypte) الذى نشر فى باريس فيما بين عامى ١٨٠٩، ١٨١٣م، وكان بداية الأعمال التى تهدف إلى دراسة تاريخ مصر القديمة دراسة وافية.

وقد صادف هذه الخطوة، خطوة أخرى طيبة، إذ عثر أحد رجال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠١م) فى عام ١٨٩٩ على الأثر المعروف باسم "حجر رشيد" (Rosetta Stone)، وهو حجر من البازلت الأسود عثر عليه الضابط الفرنسى "بيير فرانسوا – اكسافييه بوشاده" (١٧٧٢ – ١٨٣٢م) فى أغسطس ١٧٩٩م، أثناء أعمال نقل الأتربة فى قلعة "جوليان" فى حائط قديم بهذه القلعة على مقربة من رشيد، ثم أرسل الحجر بعد ذلك إلى المجمع العلمى المصرى بالقاهرة، حيث اهتم به العلماء، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على الأثر، لترسل إلى العلماء فى مختلف بقاع أوربا، ثم نقل بعد ذلك إلى منزل الجنرال "مينو" بمدينة الإسكندرية.

وقد حاول الفرنسيون بعد ذلك الخروج بحجر رشيد من مصر، غير أن هزيمتهم فى "أبو قير" فى أغسطس ١٧٩٨م، أدت إلى انتقال كل الآثار التى معهم، ومنها حجر رشيد، إلى أيدى الإنجليز، بمقتضى المادة السادسة من معاهدة العريش التى عقدت فى يناير ١٨٠٠م، ومن ثم فقد نقل الإنجليز حجر رشيد فى فبراير ١٨٠٢م إلى إنجلترا، حيث أودع الجمعية الأثرية بلندن، ثم نقل إلى المتحف البريطانى بعد ذلك[١].

هذا وقد نقش على حجر رشيد هذا، قرار مكتوب بلغتين (المصرية واليونانية) وبكتابات ثلاث (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية)، وقد أصدره مجمع الكهنة المصريين فى منف فى ٢٧ مارس عام ١٩٦ ق.م، تمجيداً للملك "بطليموس الخامس" ايفانس (٢٠٥ – ١٨٠ ق.م)، وشكرًا له على إعفاء معابدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليه، ومنحهم الهبات والهدايا، كما رمم وبنى بعض المعابد ومقاصير الآلهة، وقدم الهدايا إلى أبيس ومنفيس وكل الحيوانات المقدسة فى مصر.

وأما النصان الديموطيقى واليونانى فيكادان أن يكونا كاملين، وأما النص الهيروغليفى فلم يكن كذلك، وسرعان ما ثبت أن هذه الوثيقة الثمينة تتيح فرصة لحل الرموز، أكثر مما أتاح أى شيء آخر قبلها، هذا وقد اهتم العالم الفرنسى "البارون سفتر دى ساسى" بذلك.

غير أن أول خطوة جادة كانت تلك التى قام بها الدبلوماسى السويدى "أكر بلاد" حيث ركز جهوده على الكتابة المختزلة المنقوشة تحت "الهيروغليفية" مباشرة، مدركًا أنها "الديموطيقية" التى أشار إليها هيرودوت، وبعد أن وثق – عن طريق المقارنة باليونانية– من مكان أسماء الأعلام، استطاع أن يميز حوالى نصف حروف الهجاء وأن يستوثق من أن اللغة المستعملة هى التى عاشت بعد ذلك تحت اسم "القبطية"، ثم نشر مقالاً بذلك عام ١٨٠٢م[٢].

وفى عام ١٨١٤م توصل العالم الإنجليزى "توماس يونج" إلى صلة القرابة الشديدة بين طرائق الديموطيقية والهيروغليفية ولاحظ أن القسم اليونانى من حجر رشيد كان مليئًا بكلمات تتكرر. وقد نجح فى تقسيم الديموطيقية إلى ست وثمانين مجموعة من الكلمات معظمها صحيح.

وأما بالنسبة إلى الهيروغليفية فقد كانت نقطة البدء عنده أن الخراطيش أو الحلقات الملكية تحوى أسماء الملوك والملكات، ومن ثم فقد استطاع أن

يتوصل إلى خرطوش "برنيس"، فضلاً عن خرطوش بطليموس المعـــروف، ثم اقترح خرطوشًا آخر نسبة إلى "تحوتمس" كما استطاع كـــذلك أن يميـــز فى الهيروغليفية حرفى "ف" و"ت" وكذا المخصص الذى يستخدم فى النـــصوص المتأخرة لنهاية الكلمات المؤنثة، كما تعرف عن طريق المتنوعات فى البرديات إلى أن الحروف المختلفة تستطيع أن تكون لها نفس القوة، وبالاختصار توصل إلى مبادئ "الجناس"، وكان كل هذا مختلطًا بكثير من البدايات الزائفة، ولكن الطريقة التى اتبعها أدت من غير شك إلى حل نهائى للرموز.

وجاء "جان فرانسوا شامبليون" (١٨٩٠ – ١٨٣٢)، حيث كتب له نجحًا بعيد المدى فى مهمته، بعد أن ظل حل المشكلة يروغ منه زمنًا طـــويلاً، بل إنه ظل مترددًا مدى سنة بعد اكتشافه العظيم فى الجزم بأن الهيروغليفيـــة ليست كتابة رمزية خالصة، ورغم تردد شامبليون، فإنه قد أثبت عن طريـــق مقارنة العلامات الديموطيقية بنظائرها من الخراطيش أن الهيروغليفية تـــستطيع كذلك – ولو فى بعض المناسبات – أن تصبح هجائية(٣).

هذا وقد توصل "شامبليون" إلى الدليل الحاسم عـــن طريـــق مـــسلة مصرية نقلت إلى إنجلترا فى عام ١٨١٩م، ونـــشرت نقوشـــها الهيروغليفيـــة ونقوش أخرى يونانية سجلت على قاعدتها عام ١٨٢١م، وتـــضمنت هـــى الأخرى اسم "بطليموس" و"كليوبترا" وبالمقارنة بين الحروف المشتركة بـــين الاسمين، وضح ثلاثة عشر حرفًا، ذات اثنى عشر صوتًا، وكان هذا الـــسلاح الجديد دافعًا على أن يقدم على تمييز الكتابة الهيروغليفية من الكتابـــات الـــتى تحمل أسماء الكسند وبرنيس وتبيريوس ودومـــسيان وتراجـــان، إلى جانـــب الألقاب الرفيعة مثل "أوتو كراتور" وقيصر وسباســـتوس، وهكـــذا أمكـــن الوصول إلى حل فيما يتصل بخراطيش العصر اليونانى الرومانى.

ثم سرعان ما استطاع أن يحل الرموز الهيروغليفية بعد ذلك، وأن ينشر جانبًا كبيرًا من أبحاثه فى "خطاب إلى مسيو داسيه عن أبجدية الهيروغليفية الصوتية" فى عام ١٨٢٢م، و"موجز للنظام الهيروغليفى" فى عام ١٨٢٤م، وأن ينجح قبل موته – وهو فى الأربعين من عمره – فى أن يكشف عن المعنى العام لمعظم النصوص التاريخية.

وتابع العلماء بعد ذلك الدراسات اللغوية على الآثار وصفحات البردى، جيلاً بعد جيل، مما أدى إلى تقدم الدراسات اللغوية حتى أصبحت اللغة المصرية القديمة تعرف اليوم بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح، هذا وقد استطاع "كارل ريتشارد لبسيوس" (١٨١٠ – ١٨٨٤م) فى مقال نشر عام ١٨٣٧م، أن يسكت نهائيًا أصوات أولئك الذين كانوا لا يزالون يرتابون فى صحة حل الرموز، وكان من أوائل الباحثين فى هذا المضمار "صموئيل برش" (١٨١٣ – ١٨٨٥م) و"ادوارد هنكس" (١٧٩٢ – ١٨٦٦م)، ثم ظهر بعد ذلك بقليل "ك. وجودوين" فى إنجلترا، ثم "دى روجيه" و"شابات" و"ديفيريا" فى فرنسا، ثم أعظمهم جميعًا "هينرش بروجش" (١٨٧٢ – ١٨٩٤) فى ألمانيا.

ثم هناك كذلك "يوهان بيتر أدولف أرمان" (١٨٥٤ – ١٩٣٧م) الذى استطاع مع تلاميذه، بخاصة "كورت هينرس زيته" (١٨٦٩ – ١٩٣٤) أن يضع حدودًا مميزة بين المظاهر المختلفة للغة، وأن يضع أسس قواعد علمية لكل منها، وما قام به "فرنسيس للون جريفث" (١٨٦٢ – ١٩٣٤م) الذى برزت عبقريته الممتازة كعالم فى الكتابات القديمة، مكنته من قراءة مختلف الخطوط الهيراطيقية والديوطيقية بصورة بذ بها كل من سبقوه[٤].

ثانيًا: الكشف عن الآثار:

وأما عن البحث عن الآثار،فمن المؤسف حقًا، أن صاحب هذه الفترة

(أى منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر) فترة تعتبر من أظلم وأبشع الفترات التى مرت على آثار مصر - بل وأمم الشرق الأدنى القديم - إذ كانت فترة نهب وتخريب، فقد كان الحفار يبحث فقط عن التحف الغالية، غير عابئ بالطريقة التى يعثر بها عليها، ولا بدراسة، حتى وإن كانت سطحية، عن ظروف المكان الذى يعمل فيه، ولا بالمحافظة على الآثار المنقولة العادية، مثل الفخار الذى يساعد على التأريخ، ويحدد مراحل التطور فى الحضارة.

وهكذا ظهرت طائفة من الأجانب من أدعياء البحث الأثرى، كان أغلبهم أفاقين نهابين، اجتذبتهم الشهرة التى عمت العالم عن كنوز مصر وفنونها وعجائبها، والرغبة فى تحصيل الثراء عن أقرب طريق، وشجعهم على ذلك استعداد المتاحف الأجنبية وكبار الأثرياء على شراء كل ما يعرضونه عليهم منها، ويسر لهم ذلك فتح أبواب مصر فجأة أمام الأجانب، منذ أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) وأيام محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩)، بعد أن كانت موصدة أمامهم فى عهد سيطرة العثمانيين، ثم معاونة القناصل لهم، واستخدامهم إياهم لصالحهم فى فترات الضعف من عهد محمد على، وعن طريق هؤلاء جميعًا وعلى رأسهم (جيوفانى بلزونى) الإيطالى و"فردريك كايو" الفنرسى (١٧٨٧ - ١٨٦٨م) انتقلت كنوز مصرية كثيرة إلى المتاحف الأوروبية، وإلى مجموعات الأثرياء، و لم تقتصر شرورها على تسرب آثار مصر إلى الخارج، وإنما امتدت شرورها إلى تحطيم الهش من هذه الآثار، وتحطيم المئات من الجثث مما لم يكن الأفاقون يقدرون له أهمية مادية كبيرة(٥).

ومن عجب أن تنتقل حتى المسلات، فهناك - غير تلك التى تقوم الآن فى ميدان اللاتيران بروما منذ عام ١٥٨٨م -مسلتان للفرعون العظيم "تحوتمس الثالث"، الواحدة نقلت إلى لندن، حيث أقيمت على شاطئ التايمز عام ١٨٧٧م، بعد أن كان محمد على قد أهداها للإنجليز عام ١٨٣١، والأخرى

نقلت إلى نيويورك، حيث أقيمت فى "سنترال بارك"، ومن عجب، بل قام من الجهل الفاضح، أن المسلتين إنما تسميان باسم واحد، هو "مسلة كليوبترا".

على أن هذا كله، لا يمنع من القول بأن هناك من كانوا على غير ما ذكرنا آنفًا، كما أن هناك بعثات أجنبية منظمة، جاءت للكشف عن الآثار المصرية، فضلاً عن أولئك الذين قاموا بجهود فردية، ومنهم "سير جون جاردنر ويلكنسون" الإنجليزى، والذى قام بزيارة موقع "العمارنة" (أخيتاتون) عام ١٨٢٠م،حيث كشف هناك عن عدة مقابر، هذا فضلاً عن رحلة "شامبليون" بصحبة "روسيلليني" الإيطالى عام ١٨٢٨، والتى قدمت بمجموعة ضخمة من الرسوم نشرت فى مجلدات من الحجم الكبير، ثم تلت ذلك بعثة بروسية برياسة العالم الكبير "كارل رتشارد لبسيوس" بزت الجهود السابقة بالمجلدات الاثنى عشرة الضخمة.

ولم تكن بريطانيا متوانية فى هذه الرحلة، فسرعان ما ظهر فيها "روبرت هاى"، و"جيمس برتون"، وقد انتجا – بالتعاون مع جون ويلكنسون – مجموعات لا نظير لها من جزازات النقوش واللوحات الملونة، والكتابات التى لا تزال لها قيمتها الكبيرة حتى اليوم، لأن أصول كثيرة منها بليت، أو نالها الكثير من التلف(٦).

وأخيرًا تنبهت الحكومة المصرية إلى أهمية الآثار المصرية، ومن ثم فقد بدأ الاتجاه إلى إنشاء متحف مصرى منظم للآثار، وإن اكتفت فى هذه المرحلة بإنشاء إدارة للآثار، وبتخزين المكتشف منها فى دار بالأزبكية مدة، وفى دار بالقلعة مدة أخرى، حتى جاء العالم الفرنسى "أوجست فرديناند فرانسوا ماريت" (١٨٣١ – ١٨٨١م)، وكان من المقربين إلى الخديوى سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣)، ومن ثم فقد نجح فى تأسيس متحف بولاق عام ١٨٥٩م، والذى نقل إلى سراى الجيزة فى عام ١٨٩١م، وأما المتحف المصرى الحالى، الموجود الآن بميدان التحرير بالقاهرة فقد أنشئ فى عام ١٩٠٢.

ونشط التنقيب عن الآثار فى هذه الفترة بموافقة الدولة، وترأسه "ماريت" – وكان قد عين مديرًا لمصلحة الآثار عام ١٨٥٨ – وقد قدر لهذا الرجل أن ينقب فى أرض مصر قرابة ثلاثين عامًا، أظهر فيها نشاطًا كبيرًا وبخاصة فى منطقة سقارة.

وجاء العالم الفرنسى "جستون ماسبرو" (١٨٤٦ – ١٩١٦) مديرًا لمصلحة الآثار بعد ماريت، وكان أول من أباح للبعثات العلمية حق التنقيب العلمى فى مصر، فتألفت على أثر ذلك جمعيتان، الأولى "جمعية الكشوف الأثرية المصرية" فى لندن (Egypt Exploration Society) والثانية جمعية فرنسية فى القاهرة (La Mission Archeologique Francise au Caire) فبدأت بذلك عصر البحوث العلمية المنظمة، وأخذ علم الآثار يرتكز على دعامات قوية، ويتطور على أيدى علماء مبرزين(٧).

وقد دخلت أمريكا الميدان متأخرة، وإن استطاعت أن تعوض ما فاتها من زمن، حتى لنشهد النشر الرائع لمقابر طيبة الذى قام به "متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك" (Metropolitan Museum of Arts in New York) الذى يرجع الفضل فيه إلى العالمة الإنجليزية "نورمان دى جارس ديفز" (١٨٦٥ – ١٩٤١)، ويكاد يبرزها فى أهميتها العمل فى المقابر، الذى قام "معهد الدراسات الشرقية فى جامعة شيكاغو Oriental Institute of The University of Chicago)، وهو المنظمة الأثرية الكبيرة التى تدين بوجودها إلى همة العالم الأمريكى الكبير "جيمس هنرى برستد" (١٨٦٥ – ١٩٣٥).

ومع ذلك فقد ظل الحفر العلمى بطيئًا فى أول الأمر، حتى عام ١٨٨٤م، حين استخدم "سير وليم ماثيوس فلندرز بترى" (١٨٥٣ – ١٩٤٢)، وربما كان أنجح الحفارين جميعًا، أكثر الوسائل دقة، كما كان مثلاً طيبًا، لم يحتذ إلا فى النادر القليل، للنشر السريع لنتائج بحوثه.

وعلى أى حال، فلقد وفدت إلى مصر بعثات أثرية كثيرة أوفدتها الجمعيات والجامعات الأوربية والأمريكية منذ عام ١٨٩٠م واستمر لها

نشاطها خلال القرن العشرين فى صعيد مصر ودلتاها، ولاسـيما فى منـاطق الجيزة وسقارة والفيوم وتل العمارنة وأبيدوس وطيبة ونقادة ونخن والكـاب، فكشفت عن قرى ومدن وأهرام ومعابد، واسـتخرجت كنـوزًا، ونـشرت مخطوطات ووثائق ونصوص كثيرة[٨].

هوامش الفصل الثالث :

(1) Brugsch, H., Die Ägyptologie, Leipzig, 1897, pp. 52 – 59.

(2) Baines, J., and J. Malek, Atlos of Ancient Egypt, New York, 1980, pp. 150 – 159.

(3) Davies, W., Egyptain Hieroglyphs, London, 1987, pp. 25 – 32.

(4) Brugsch, H., op. cit., pp. 62 – 65.

(5) Hoffman, M., Egypt Before the Pharoohs, London, 1991, p. 57.

(6) Davies, W., op. cit., pp. 40 – 47.

(7) Baines, J., and J. Malek, op. cit., p. 160.

(8) Hoffman, M., op. cit., pp. 65 – 73.

الفصل الرابع

حضارات ما قبل التاريخ فى مصر

حضارات ما قبل التاريخ فى مصر

- قامت في مصر كل الحضارات أي منذ فجر العصر الحجري القديم الأسفل واستمرت بعد ذلك في كل المراحل والعصور الحضارية، وظاهرة الفجوات الحضارية التي يمكن ملاحظتها في بعض مناطق العالم ، والتي سيرد لها أمثلة عند متابعة المسيرة الحضارية في العراق نجدها غير واضحة في مصر، ربما تظهر فقط عند ترتيب حضارات عصر معين ، هذا الترتيب يشوبه أحياناً نقص الأدلة الأركيولوجية التي ربما تحفظها أرض الوادي والدلتا ولم يكشف النقاب عنها بعد. ومن المعروف أن التطور الحضاري منذ العصر الحجري الحديث أو ربما قبله أصبح واضحاً، وأمكن تحديده بدقة، فالحضارات المصرية منذ هذا العصر وصولاً إلى عصور المعدن صارت سابقة لمناطق حضارية عديدة في العالم، وربما تقف العراق معها في نفس المستوى.
- اتخذ اتجاه التطور الحضاري أبعاداً مكانية مختلفة، وبعبارة أخرى أن التطور الحضاري لم يكن في مكان واحد في مصر، وهى تشبه في ذلك التطور الحضاري في العراق، ففي العصرين الحجري القديم الأسفل والحجري القديم الأوسط عاش الإنسان في مصر على مدرجات النيل والوديان الشرقية وفى الواحات الخارجة وفى منخفض الفيوم حيث نمىَ العشب وتوافرت حيوانات القنص والصيد، وفى العصر الحجري القديم الأعلى عاشَ في الأراضي التي تجاور النيل خاصة في حوض كوم أمبو أو في سهل العباسية بالإضافة إلى الواحة الخارجة، وربما عاش على السهل الفيضي حيث مارس القنص والصيد
- وعادت مظاهر الاستقرار إلى وادي النيل مع العصر الحجري الحديث الذي ظهرت فيه الزراعة المستقرة وما صاحبها من تربية الحيوان ، ومن المعروف أن أقدم مواقع الاستقرار الزراعي في أرض مصر ترجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد، تلك المواقع (الفيوم – أطراف الدلتا – بعض المواقع الصحراوية) جمعت بين الزراعة والرعي وشئ من صيد الأسماك، ومنذ ذلك العصر استمرت المواقع الحضارية مرتبطة بالسهل الفيضي حتى وقتنا الحاضر وإن كان للبعض رأى آخر في ذلك.

كان لموقع مصر أهميته في التطور الحضاري، فموقعها في شمال شرق إفريقيا في نقطة اتصال بين قارة آسيا والشاطئ الشرقي للبحر المتوسط وبين قارة إفريقيا. ويتميز موقع مصر بشئ من الحماية، فالصحراء تحيط بها من الشرق والغرب، وفى الشمال يحدها البحر المتوسط، وفى الجنوب توجد الصحراء أيضاً ومجرى النيل، وقد ساعدت تلك المواقع على تطور الحياة وعلى تقدم الحضارة التي كانت تنعم بفترة هدوء إلى حد ما، ما لم تعرفه الكثير من حضارات العالم القديم، غير أن هذا الموقع كانت له بعض السلبيات إذ بدأت في العصور التاريخية تتعرض للغزو الخارجي[1].

ورغم الحماية التي وفرها البحر سواء من الشرق أو الشمال فقد تميزت السواحل بوجود عدد من الثغور والمنافذ اتصلت مصر عن طريقها بالحضارات القديمة خاصة في جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان وبلاد الشام والعراق. ولم تقف الصحارى حائلاً دون اتصال مصر بهذه المناطق بل اخترق الصحراء الشرقية عدد كبير من الأودية ربطت بين الوادي والبحر الأحمر، هذه الصحارى الوعرة أحياناً أبرزت بطريقة أخرى غنى الوادي.

- واستكمالاً لهذا الحديث، يلاحظ أن العامل الجغرافي كان له الدور الرئيسي في أصالة الحضارة المصرية، فهناك أربع ظواهر أثرت في إنسان المجتمع المصري القديم : هي الواحات ، والصحراء الجافة ،والشكل الطولي، ثم النيل.

فمصر واحة صحراوية وجدت لأسباب طبيعية وأخرى بشرية، وفى ظل مناخ جاف لا بد من توافر ثلاثة عوامل لقيام الواحة وهى المياه والأرض الصالحة للزراعة والمجهود البشرى، هذه العوامل تعمل متشابكة، فغياب إحداها يؤثر في العاملين الآخرين، فالمياه بدون الأرض الصالحة للزراعة تصبح مستنقعات وقد تحققت هذه الصفة في العصور الحجرية القديمة، والأرض الصالحة بدون مياه تصبح جرداء ثم الأرض والمياه بدون المجهود البشرى لا قيمة لها، هذه الصفة تقلل من المقولة الشهيرة لهيرودوت "مصر هبة النيل" أي

أن مصر هبة النيل (الأرض والماء) والمصريين،وتأتى أهمية النيل كمصدر رئيسي للمياه في بيئة جافة بشكل عام، وكان فيضان النيل يأتي في يوليو ويصل إلى قمته في أغسطس بعد وصول مياه هضبة الحبشة وبعبارة أخرى يزامن وصول الفيضان ارتفاع درجات الحرارة في مصر، فعندما تتحول الأرض المصرية إلى بركة من المياه لا تلبث الحرارة العالية أن تصل بها إلى الجفاف الكامل، وفى أثناء فصل الشتاء عندما ينخفض منسوب النهر، فهناك الوسائل البدائية التي يمكن استخدامها لإمداد الأرض الزراعية بالمياه عن طريق الري.

ونأتي إلى الجانب الآخر للنيل، فهو مصدر الطمي الذي أعطى الأرض اللون الأسود ووفر لها الخصب.

أما عن دور الإنسان فقد بدأ الاستقرار أول الأمر على الهضبة الصحراوية حول مناطق المياه، و لم يبتعد كثيراً عن النيل حتى يضمن عدم فقدان الكثير من الأراضي الصالحة للزراعة، وعلى أطراف الأراضي الزراعية المتاخمة للصحراء شيد المصريون قراهم وذلك لعد نجاحهم في إقامتها فوق الهضبة أو مكان مرتفع في مأمن عن الفيضان، ولا شك أن المناخ الجاف من شأنه معيشة الإنسان المصري القديم في سكن للحماية من هذه الظروف.

أما عن الشكل الطولي لمصر، فهي في خط مستقيم في أغلب الأحوال، ومتعرج أحياناً، ويمثل هذا الخط الوادي، الذي ينتهي بمثلث مقلوب وهو الدلتا، قاعدته في الشمال بطول حوالي ٢٤٠ كم ورأسه في الجنوب، هذا الشكل الطولي له أبعاد جغرافية مختلفة، فمعظم الأراضي الزراعية قامت في الشمال، كما أن هذا الشكل والذي ليس له طريق غير النيل كان يعمل في الاتجاه المضاد، ويساعد على الانفصال وتفتت السلطة المركزية، ومن الصعب على أي حاكم أن يمارس بنشاط أي سلطة محلية في مناطق تبعد عن العاصمة أكثر من ١٠٠٠ كم.

• نعود مرة أخرى إلى الإنسان المصري من حيث أصوله، إذ لا يعرف بالضبط أصل الإنسان المصري القديم في العصور الحجرية القديمة، غير أنه بعد انقسام البشرية إلى سلالات قديمة في العصر الحجري القديم الأعلى أمكن التعرف على نوع من الإنسان عاش في مصر في حوض كوم أميو وهو صاحب الحضارة السبيلية، وهي فرع من سلالة البحر المتوسط، عاش أصحابها بعد ذلك في العصر الحجري الحديث، وحسب رأى "جارود" فإن الإنسان الذي عاش في مصر في العصر الحجري القديم ربما كان من نوع نياندرتال[1].

ولم تعرف مصر التنوع السلالي إلى منذ عصر ما قبل الأسرات فأصبح عنصر الشمال وعنصر الجنوب يمثلان فرعين من سلالة واحدة تجمعها صفات مشتركة وإن كان لكل فرع صفاته الخاصة، ويرى البعض أن كان مصر في هذا العصر من أصل محلي[2].

غير أن الوادي بسبب خصبه اجتذب كثيراً من الهجرات على مدى التاريخ الطويل، إذ تقدم الليبيون من الشمال الغربي وتسرب الساميون من الشرق بالإضافة إلى هجرات أخرى متعددة وفدت إلى مصر من الجنوب والجنوب الغربي حيث حملت إلى الوادي العناصر النوبية والليبية. وقد حافظت مصر على نقاوتها الجنسية حتى نهاية العصور الفرعونية وما تلاها من عصور حتى عندما تأثرت بالإغريق الذين استقروا في شمال وغرب مصر، فظلوا في هذه المناطق بعيداً عن كتلة السكان الأصليين[3].

وفي العهد العربي تأثرت بموجات من الهجرات عن طريق شبه جزيرة سيناء، ولم تغير هذه الهجرات من صفات المصريين، إذ أن العلاقة بين وادي النيل الأدنى وشبه الجزيرة علاقة قديمة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، ولم تكن هذه الهجرات إلا مجرد تأكيداً وإبرازاً للصلات القديمة التي ربطت مصر والجزيرة العربية من قبل[4].

وهكذا منذ ستة آلاف سنة أو تزيد لم يكن هناك تغير في صفات الإنسان المصري حتى بات من الصعب على المرء أن يفرق بين تقاطيع وجوه تماثيل مصر القديمة، تقاطيع وجوه كثير من الفلاحين الذين يعيشون اليوم في قرى الصعيد.

تلك إذن هي قصة الإنسان المصري صاحب أعظم الحضارات التي نتابع مسيرتها بتقسيمها إلى مراحل تبدأ بحضارات العصور الحجرية القديمة والعصر الحجري الوسيط، ثم حضارات العصر الحجري الحديث وصولاً إلى حضارات العصر الحجري – النحاسي وعصر ما قبل الأسرات، أما عن عصر الأسرات وما تلاه من عصور ربما لا يسمح المجال بتتبعها في هذه الدراسة.

١- حضارات العصور الحجرية القديمة والعصر الحجري المتوسط:

مر الإنسان في مصر بنفس الأدوار التي رمز بها إنسان أوروبا، غير أن معرفتنا بالحضارات المصرية القديمة لا زالت تكتنفها الغموض، ومع ذلك فإن ما توافر من أبحاث أثبتت وجود أدوات وأسلحة تنسب إلى العصر الحجري القديم سواء في داخل الصحراء أو على جوانب النيل في النوبة والصعيد.

وربما تبدأ أول خطوات الحضارة المصرية منذ فجر العصر الحجري القديم الأسفل، حيث عثر على قطع حجرية كبيرة الحجم خلت من أي مظاهر التشكيل أو التهذيب في مرتفعات منطقة طيبة، وقد اعترض بعض العلماء على وجود هذا العصر، وأن تلك الأحجار بشكلها الحالي لم تتكون إلا بفعل عوامل طبيعية.

أما عن حضارات العصر الحجري القديم الأسفل، فقد وجدت أدوات هذا العصر في عدة مواقع في مصر، وهي حسب تتابعها التاريخي، أدوات شيلية من الفؤوس اليدوية صنعت من الصوان وجدت على مدرجات النيل وأودية الصحراء الشرقية التي تعلو ٣٠ متراً فوق مستوى السهل الفيضي الحالي كما في جنوب أسوان وسهل العباسية والجبل الأحمر والغابة المتحجرة

وجبل المقطم في شرقي وجنوب شرقي القاهرة، وفى إسنا وطوخ (بالقرب من قوص) وفى قنا بالإضافة إلى الصحراء الغربية، وتشبه الأدوات الشيلية في مصر مثيلتها في أوروبا مما جعل البعض يفترض وحدة الجنس البشرى في شمال أفريقيا ومصر وأوروبا الذي ساعد على وجوده المعابر البرية التي ربطت شمال أفريقيا بجنوب أوروبا في البليستوسين(٥) وفى رواسب مدرجات النيل ١٥ متراً عثر على أدوات الحضارة الأشولية، وتميزت الصناعة بالفؤوس اليدوية أيضاً، وإن اختلفت عنها في الحضارة الشيلية بأنها صارت أكثر إتقاناً وأصغر حجماً، ومن مواقع الحضارة الأشولية جبل السلسلة (محافظة أسوان) وبالقرب من أسوان ومنطقة المقطم، كما عثر عليها في الواحات الخارجة مختلطة بأدوات كلاكتونية.

وفى العصر الحجري القديم الأوسط، كانت حضارات مصر ذات صبغة إفريقية عرفت صناعتها باسم الصناعة اللفلواظية، وهى تختلف بعض الشئ عن صناعة الشظايا الموستيرية التي عرفتها أوروبا في هذا العصر، وقد عثر على الأدوات اللفلواظية على مدرجي ٩، ٣ أمتار في الوادي وعلى مدرج ٢٨ متراً في الفيوم، وذلك في عدة مواقع كما في محاجر الجبل الأحمر وسهل العباسية وسفوح مرتفعات طيبة وفى قصر باسل بالفيوم بالإضافة إلى عدة مواقع في الصحراء الشرقية في مصر العليا خاصة في المستوى الأول لحوض كوم أمبو وفى مصر الوسطى(٦) وقد أثيرت عدة قضايا بالحضارة اللفلواظية في مصر، ففي الواحات الخارجة كان لها حضارة خاصة أطلق عليها حضارة "اللفلواظية الخارجة" استمرت بعد ذلك في العصر الحجري القديم الأعلى، وعاشت الحضارة اللفلواظية في مصر أطول مما عاشت الحضارة الموستيرية في أوروبا ومعنى ذلك أن مصر ظلت في مرتبة العصر الحجري القديم الأوسط الوقت الذي كانت فيه أوروبا قد انتهت من مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى(٧)، ومع ذلك فالفرق واضح بين النوع اللفلواظى في مصر والنوع

الموستيرى في أوروبا، فالحضارة اللفلواظية في مصر حضارة مبكرة من حضارات العصر الحجري القديم الأعلى، فهي في مستوى أعلى من مستوى حضارات العصر الحجري الأوسط في أوروبا.

وقد ظلت الحضارة اللفلواظية في مصر محتفظة بطابعها المحلى و لم تتأثر بالحضارة الموستيرية في أوروبا، وربما يعزى ذلك إلى أن أصحاب الحضارة الأخيرة عندما انتقلوا إلى جنوب غربي آسيا ظلوا هناك حيث المناخ الرطب، و لم يتجاوزوها إلى وادي النيل[٨] ومع ذلك فقد تأثرت الحضارة اللفلواظية في مصر ببعض المؤثرات الخارجية خاصة الحضارة العاطرية التي أثرت في حضارة الخارجة وبعض المواقع الحضارية في وادي النيل، وقد استمر تأثير هذه الحضارة بعد ذلك في حضارات العصر الحجري القديم الأعلى[٩].

وفى العصر الحجري القديم الأعلى تطورت الحضارات المصرية عن حضارات العصر القديم الأوسط على عكس قارة أوروبا، في هذا العصر ظهر شبه تخصص حضاري داخلها، وقد ظل الاعتقاد لفترة طويلة أن الحضارة اللفلواظية ظلت في مصر حتى قيام حضارات العصر الحجري الحديث إلى أن كشفت "فينارد" Vignard النقاب عن حضارات للعصر الحجري القديم الأعلى في حوض كوم أمبو وفى منطقي نجع حمادي.

وتنسب إلى هذه الفترة الحضارة السبيلية الوسطى في كوم أمبو، كما عرفت في الواحات الخارجة باسم اللفلواظية المصغرة [١٠] أو EPI- Levalloisian كما أسمتها "كيتون طومسون"، كما انتشرت حضارات هذا العصر أيضاً في مصر الوسطى وأطراف الدلتا.

وهناك من يعتقد أن الحضارة القفصية التونسية كان لها تأثير في بعض مواقع حضارات هذا العصر، على أساس أن هذه الحضارة قد أثرت في حضارات سوريا وفلسطين، ووجدت هي ذاتها في شمال أفريقيا وذلك فمن

الصعوبة بمكان ألا توجد هذه الصناعة في مصر، غير أن سكان مصر عاشوا في هذا العصر بالقرب من النيل أو ربما ظهرت بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع (١١) وقد تميزت حضارات العصر الحجري القديم الأعلى في مصر بصناعة أدوات من النصال من الأزاميل والمدى والمقاشط اتخذت أشكالاً هندسية مختلفة، ومارس سكان مصر حياة القنص والصيد إذ كان المناخ لا يزال رطباً.

١- حضارات العصر الحجري المتوسط :

وجدت بقايا حضارات هذا العصر في عدة مواقع في سهل كوم أمبو على المستوى الثالث، وحلوان والواحات الخارجة والفيوم وفى وادي الشيخ شرقي مغاغة بمحافظة المنيا، وقد أثير جدل واسع حول الحد الفاصل بين حضارات العصر الحجري القديم الأعلى وحضارات هذا العصر، فأدوات هذا العصر التي تميزت بأشكال هندسية وكانت قزمية وهى امتداد لصناعات العصر الحجري القديم الأعلى خاصة الحضارة السبيلية العليا في سهل كوم أمبو (١٢)، وفى الواحات الخارجة اختفت الأدوات الفومية إلا من رؤوس السهام، كما اختفت هذه الأدوات أيضاً في الفيوم (١٣)، ويعتقد البعض أن حضارة حلوان جاء أهلها من فلسطين عن طريق الحضارة الناطوفية منذ نهاية الألف الثامن قبل الميلاد، ويرى "عامر" أن هذا الرأي غير صحيح على أساس أن حضارة حلوان أقدم من الحضارة الناطوفية ، وأن انتشار الصناعة إنما كان من حلوان إلى فلسطين وليس العكس (١٤).

٢- حضارات زراع العصر الحجري الحديث :

مال المناخ في مصر إلى الجفاف في بداية العصر الحجري الحديث مما اضطر الإنسان المصري إلى معرفة الزراعة واستئناس الحيوان، ولكن لم تلبث الأحوال المناخية أن تحسنت بفترة مطر ثانوية أشير إليها في موضع سابق.

وهناك من يرى أن خطوات الزراعة قد تعلمها المصريون من أصل آسيوي، غير أن الأراضي المصرية كانت لا تحتاج إلا أقل الأدوات البدائية لتنتج بعد ذلك محصولاً وفيراً [١٥].

وقد لاحظ المصريون في هذا العصر أنه بعد انحسار مياه فيضان النيل كانت تترسب طبقة من الطين والطمي الخصب لا تحتاج إلى أكثر من بذر تقاوي الحبوب، وقد تعلم المصريون الوقت المناسب لأعداد الأرض للزراعة سواء بحرثها أو تسميدها لزيادة خصبها، وتضافرت جهود الفلاحين المصريين في زيادة مساحة الأراضي الزراعية، وتشترك حضارات العصر الحجري الحديث في مصر في أن أصحابها زرعوا القمح والشعير، واستأنسوا الأغنام والماعز والماشية والخنازير والحمير، وصنعوا أواني فخارية، كما عرفوا صناعة السلال ونسجوا الكتان، كما كانت لهم أدواتهم الخصة مثل الفؤوس المصقولة الصوانية التي استخدمت في الزراعة وقطع الأشجار كما عرفوا القوارب.

ولم يبدأ العصر الحجري الحديث في مصر بشكل مباغت بل سبقته مراحل تعلم فيها المصريون رعاية النباتات والحيوانات، واختلفت الآراء أيضاً حول بداية هذا العصر فهناك من يرى أنه قد بدأ في الألف العاشر أو الثامن ق.م. أو في حوالي ٦٥٠٠ ق.م. ، أو ٥٠٠٠ ق.م.، وكما اختلفت الآراء حول بداية هذا العصر اختلفت أيضاً فيما بينها حول ترتيب حضارات العصر، فربما كانت الفيوم (أ) هي أقدمها وديرتاسا هي أحدثها [١٦]، وفيما يلي دراسة لحضارات هذا العصر.

أ– حضارة الفيوم (أ):

أشير في موضع سابق إلى منخفض الفيوم وظروف تكونه وتذبذب بحيرة قارون في الزمن الجيولوجي الرابع، وتؤرخ حضارة الفيوم (أ) بحوالي ٥٠٠٠ ق.م. أو ربما قبل ذلك بقليل (٥٢٠٠ ق.م.) [١٧] وانتشرت محلات العصر الحجري الحديث في الفيوم على امتداد بحيرة قارون عندما كان منسوبها

يعلوا منسوب سطح البحر بحوالي ١٨ متراً، وكان اختيار إنسان الفيــوم (أ) مكان استقراره اختياراً موفقاً، وإلى حسن درايته بتأثير الرياح واتجاهاتها ، فقد اختار مواضع المحلات العمرانية في مواقع تحتمي من الرياح بالأرض المرتفعــة التي تحيط بالشاطئ الشمالي للبحيرة، بالإضافة إلى قربها من الخلجان ورؤوس البحيرة حيث يسهل ممارسة حرفة صيد الأسماك، كما لم تكن بعيــدة عــن الأرض التي تكونت بعد انحسار البحيرة حيث قاموا بزراعتها[١٨].

وكانت منازل أهل الفيوم (أ) عبارة عن عشش استخدمت الأخشاب في تشيدها وقامت في مواضع مرتفعة عن الأرض الرطبة، ولذلك فليس مــن الغريب أن تشير كلاً من "كيتون طومسون" و "حاردنر" إلى أكوام ميــزت بحروف أبجدية، وبين المنازل وجدت أعداد من المواقد بلغ عددها حوالي ٤٢٨ موقداً وبعيداً عن القرى أقام أهل الفيوم (أ) مخــازن الحبــوب في ســاحتين متعاقبتين فوق ربوة تعلو بعض الشئ عن مستوى القرى [١٩]،وبلــغ عــدد المخازن نحوا ١٦٥ مخزناً [٢٠]، وقد اختلفت الآراء حول وجود هذه المخازن بعيداً عن مواقع السكن في الفيوم (أ)، وفى رأى "هيرمان يــونكر" أن أهــل الفيوم أخذوا بشيوع الملكية الزراعية ومحاصيلها، وقد يزكى هذا الرأي ما رواه بعض الرحالة المحدثين عن شيوع الأرض والقوت لدى بعــض الجماعــات البدائية واستمراره فيها حتى خضعت للاستعمار الحديث، ويزكى هذا الرأي أيضاً أن أرض الفيوم الزراعية كانت ضيقة المساحة نسبياً ولا تتيح فرصاً كثيرة للتملك الفردي أو الأسرى [٢١]، ومع ذلك فثمة فرض آخر في ابتعاد مخــازن الغلال في الفيوم عن منطقة السكن وهو رغبة أصحابها في إبعادها عن رطوبة الأرض القريبة من شواطئ بحيرة قارون [٢٢].

وتمتاز أدوت الفيوم (أ) بوجود الفؤوس الحجْرية، بعــضها صــنعت بطريقة التشظية والصقل، كما صنع أصحاب حــضارة الفيــوم (أ) أدوات

مشظاة من الوجهين ، اتخذت شكل ورق الشجر، واستخدمت هذه الأدوات كرؤوس حراب أو مدى أو خناجر، كما توافرت المناجل ورؤوس السهام.

وبرع أصحاب حضارة الفيوم (أ) في صنع السلال مـن أليـاف لم يستدل على نوع نباته ، واستخدمت السلال في تبطين مخازن الحبوب والمقابر واتخذت السلال شكل أطباق كبيرة أو القوارب، كما عرفوا الفخار اليدوي ،ونسجوا الكتان وكان خشناً، ويفهم من ذلك أنهم عرفوا زراعة الكتان كما عرفوا المغازل والأنوال، وفوق ذلك كله كان لأصحاب هذه الحضارة أدوات للزينة ، إذ عثر على أقراط مصنوعة من بيض النعام وعقـود مـن الحجـر الجيري وأنواع أخرى من الأحجار، كما استخدموا الأصداف في صنع أنواع من الخرز.

وقام الأساس الاقتصادي لمجتمع الفيوم (أ) على حرف متعددة كـان أهمها الزراعة ، حيث زرعوا القمح والشعير والكتان ، وفوق أرض الهضبة أو في داخل المنخفض ربوا الأغنام والأبقار والخنازير وفى بحيرة قارون مارسـوا صيد الأسماك، كما قنصوا بعض الحيوانات البرية مثل الخترير البرى والتيتل.

ويشكك البعض في وضع حضارة الفيوم (أ)،وقيل أنها مـا هـي إلا حضارة بدائية على غرار القرى المعزولة المتطرفة، وينفى هذا الرأي الأدلة التي تثبت أن أصحاب هذه الحضارة كانت لهم صلات تجارية مع بعض منـاطق البحر الأحمر والبحر المتوسط أو مع حضارة مرمده بنى سلامة.

ب- حضارة مرمدة بنى سلامة:

يطلق علـى هـذه الحـضارة أحيانـاً Mremdah أو Mremdat أو Merimde [٢٣]، وتقع مرمده بنى سلامة على الحافة الغربية للدلتا على بعـد حوالي ٥١ كم من القاهرة ، ويرجع الفضل لكشف النقاب عن هذه الحضارة إلى الأثري الألماني "هرمان يونكر" في الفترة بين ١٩٢٩- ١٩٣٩ ثم المعهـد

الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة في عامي ١٩٧٨، ١٩٧٩، ولا يعرف بالضبط عمر هذه الحضارة فربما تعود إلى حوالي ٤٤٠٠ ق.م.

وحضارة مرمدة بني سلامة تمثل المرحلة النهائية من حضارة العصر الحجري الحديث في الدلتا وموضع قرية مرمدة على أرض مرتفعة بالقرب من احد فروع النيل القديمة وجدت أسفل طبقة رقيقة من الطمي، وقد أشير إلى هذه النقطة في موضع سابق.

وترجع أهمية قرية مرمدة إلى أنها أول قرية في التاريخ عرفت التنظيم، إذ تكونت من صفين يفصل بينهما طريق ضيق،وتتخذ أيضاً كنموذج للتنظيم الاجتماعي ووجود سلطة في القرية (٢٤).

وتعد قرية مرمدة من القرى كبيرة الحجم نسبياً -في عصرها - (٦٠٠× ٤٠٠ متر) (٢٥)، أقيمت مساكنها بالقرب من حواف وشطآن المستنقعات وفى ظل حماية النباتات الكثيفة التي كانت تعمل كمصدات للرياح (٢٦) وكانت مساكنه مرمدة من نوعين ، الأول بيضاوي القاعدة شيد من الطين في حفرة متسعة بحيث يظل جزء منه تحت مستوى سطح الأرض مما يؤدى إلى ثبات جدرانه وإلى حمايته من الرياح الشديدة، والنوع الثاني عبارة عن دورة بيضاوية القاعدة أيضاً شيدت من البوص قرب المزارع، ويلجأ الزراع إليها في أوقات الراحة نهاراً ويبيتون فيها في ليالي الصيف ومواسم الحصاد،ولا شك أن مثل هذا النوع لا يزال يتكرر في بعض قرى الوجه القبلي.وإلى جوار القرية قامت المقابر، وهى حفر مستديرة فيها بعض الهياكل البشرية تشير إلى أن أرجل الموتى كانت تثنى لتلامس البطون، وإن الرؤوس كانت توجه نحو الشرق اى نحو النيل(٢٧).

وعلى عكس حضارة الفيوم (أ)، اعتاد أصحاب حضارة مرمدة أن يختزنوا حبوبهم في مخازن صغيرة داخل القرية، ويستدل من ذلك على استقلال كل أسرة بملكيتها الزراعية ومحاصيلها، وقد يتفق هذا الفرض مع ما هو

معروف من أن الزراعة قد أيدت خاصية التملك ، وأن أرض مصر الزراعية كانت من الجود بحيث تتيح فرص التملك الكثيرة أمام من يسعى إليها من الأفراد والأسر [٢٨].

وساد حضارة مرمذة بني سلامة أدوات حجرية مشظاة من الوجهين تشبه أدوات الفيوم (أ)، ومن هذه الأدوات المناجل والمكاشط والمدى ورؤس السهام، ويندر وجود الفؤوس المصقولة في هذه الحضارة . وعرف أهل هذه الحضارة الفخار اليدوي، وهو درئ غير مصقول وغير مزين وربما يشبه فخار الفيوم (أ)، وكان لهم شئ من الذوق الفني تجلى في وجود تماثيل صلصالية صغيرة بالإضافة إلى ذلك صنعوا أوان حجرية من البازلت، كما عثر في مرمدة على نموذج من الفخار لقارب يغلب على الظن أنه قاربه الأصيل كان يصنع من حزم البردي ويعتبر بدوره من أقدم الشواهد على اعتياد أهل الفترات الأولى من العصر الحجري الحديث على ركوب النيل [٢٩]، كما عثر في مرمدة على بعض أدوات الزينة عبارة عن عقود مصنوعة من العظم والأصداف.

وكانت حرفة الزراعة هي الحرفة الأولى عند أصحاب حضارة مرمدة إذ زرعوا القمح والشعير، كما ربوا الأغنام والماعز، وكان لمرمدة صلات تجارية مع الفيوم (أ).

جـ- حضارة العمرى*:

تعرف هذه الحضارة أحياناً باسم "حلوان العمر" ، إذ تقع إلى الشمال من حلوان بحوالي ثلاثة كيلو مترات ،وإلى الشرق من النيل بحوالي سبعة كيلو مترات، بالقرب من مصب وادي حوف في موضع يرتفع عن مستوى السيول، وتؤرخ هذه الحضارة بحوالي ٥٠٠٠ ق.م. وبالتالي فهي تسبق حضارة مرمدة بني سلامة، ويعتبرها "حزين" ضمن حضارات العصر الحجري الحديث المبكر [٣٠].

* أطلق اسم هذه الحضارة تخليداً لذكرى أمين العمرى أول من دل عليها عام ١٩٢٣

وسكن أصحاب حضارة العمري منازل مستديرة على هيئة أكـواخ مبنية من فروع الأشجار والحصير والطين، وتركت في سقف المـترل فتحـة صغيرة لخروج الدخان، وقد عثر على بعض الحفر التي استخدمت كمواقـد وجدت بالقرب من المترل أو بجواره، كما وجدت بعض المقابر وكانت المقبرة على هيئة حفرة دفن فيها الميت القرفصاء.

واستخدام أهل العمري رؤوس السهام والمناجل والمناشير من الصوان، والأواني البيضاوية والرحى والبلط، كما عرفوا صناعة الفخـار واسـتطاع "ديبونو" أن يميز حوالي ١٧ نوعاً من الفخار، ويشبه فخار العمري إلى حـد كبير فخار مرمدة بني سلامة، لونه أسود خال من الزينة، ومـصنوع باليـد ومحروق بدون عناية[٣١]، كما صنعوا خارزاً عظمية وشصوصاً مـن قـرون الحيوانات ، وفوق ذلك كله كان لأهل هذه الحضارة معرفة بصناعة النسيج والسلال، وعثر ضمن مخلفات العمري على بقايا عظام لحيوانات مختلفة ربوا بعضها مثل الماعز وقنصوا البعض الآخر مثل الخترير البرى والظباء والنعـام، كما عرفوا صيد الأسماك بالإضافة إلى التمساح وفرس النهر، وكانت الزراعة أقل أهمية، إذ زرعوا القمح والشعير، وكان للعمري صلات تجارية قامت بينها وبين الفيوم(أ) ومرمدة بني سلامة.

د- حضارة ديرتاسا:

ترجع هذه الحضارة إلى حوالي عام ٤٨٠٠ ق.م. [٣٢] وتقـع علـى الضفة الشرقية للنيل أمام مدينة ابوتيج، وإلى الشمال من البدارى في محافظـة أسيوط، وقد كشف عنها "برنتون" G.Brunton عام ١٩٢٧ في عدة مواقـع في ديرتاسا، ونزلة المستجدة والخوالد [٣٣] وفيما بين ديرتاسا والمـستجدة في قرية الشامية عثر سامي جبري على حوالي ٤٧ مقبرة تتبع هذه الحـضارة ، وتوضع هذه الحضارة ضمن حضارات بداية العـصر الحجـري الحـديث في الصعيد.

وكانت منازل دير تاسا عبارة عن عشش وأكواخ من القش ، وقامت المقابر في مكان بعيد عن المنازل ،وهى عبارة عن حفر صغيرة بيضاوية، وضع فيها الموتى ملفوفين في حصر أو في جلود الحيوانات، ووضعت معهم بعض القرابين وبعض الحلي وأدوات الزينة، وعثر في بعض المقابر على ما يمكن أن يعد بداية التطور إلى استخدام التوابيت، إذ كان الطفل المتوفى يوسد أحياناً في سلة شبه مستطيلة من البوص والأغصان يغطيها الحصير [٣٤].

وصنع أصحاب حضارة ديرتاسا أدوات حجرية من الصوان والحجر الجيري أهمها البلط والمدى والمثاقب والمخارز ورؤوس السهام والرحى، كما صنعوا شصوصاً من العظم والعاج والأصداف استخدمت في صيد الأسماك ورغم أن حضارة ديرتاسا لم تكن في مستوى حضارات العصر الحجري الحديث في الدلتا، فإنها تفوقت على هذه الحضارات في صنع أنواع جيدة من الفخار متعدد الأشكال والزخارف والألوان، وقد قسم "برنتون" فخار المستجدة إلى نوعين حسب اللون، نوع أسود وآخر بني،وربما استخدمت الأواني الفخارية في الطهي [٣٥]، وأجمل الأواني الفخارية تلك الآنية التي تشبه زهرة اللوتس ملونة من الخارج وعليها حفر على هيئة مثلثات ومستطيلات وخطوط متموجة [٣٦].

وتشبه ديرتاسا حضارتي الفيوم ومرمدة بني سلامة في الأساس الاقتصادي ، فالزراعة كانت أهم ما امتهنه أصحاب هذه الحضارة إذ زرعوا القمح والشعير، وجاءت حرفة الرعي بعد الزراعة إذ ربوا الأغنام والماشية، بالإضافة إلى ذلك مارس أهل ديرتاسا حياة الصيد ،وكان لهم صلات بالفيوم ومرمدة والخارجة.

٣- حضارات العصر الحجري – النحاسي :

لم يحدث الانتقال من حياة العصر الحجري الحديث إلى عصر المعدن فجأة، إذ كشف النقاب عن بعض المواقع الحضارية التي تجمع بين ملامح

العصر الحجري الحديث واستخدام النحاس على نطاق محـــدود،ويمثل هـــذه المرحلة حضارتا الفيوم (ب) والبدارى.

أ- حضارة الفيوم (ب):

اختلفت الآراء حول تبعيت هذه الحضارة للعصر الحجري الحديث أو للعصر الحجري النحاسي، ويميل معظم المؤرخين في الوقت الحاضر إلى وضع هذه الحضارة ضمن العصر الحجري الأخير على أساس أنها لاتسبق عصر مـــا قبل الأسرات بفترات طويلة إذ تذهب "كيتون طومسون" إلى توقيت هـــذه الحضارة بحوالي ٤٢٠٠ ق.م. [٣٧] وفى رأى آخر بحوالي ٤٥٠٠ ق.م.[٣٨] وقد عثر على مخلفات هذه الحضارة مختلطاً مع بقايا حضارة الفيوم (أ) علـــى مدرج ٤ أمتار ، بالإضافة إلى مـــا وجـــد منـــها مطمـــوراً في مـــدرج - ٢ متراً[٣٩].

وتعد حضارة الفيوم (ب) فقيرة في انجازاتها الحضارية ، فهـــي أقـــل مستوى من حضارة الفيوم (أ) إذ لم يعثر فيها على فخار أو مخازن الحبوب أو المواقد، وكانت أدوات أصحاب هذه الحضارة قزمية معظمهـــا مـــن رؤوس سهام غير متقنة في صناعتها ، أضف إلى ذلك لم تثبت معرفة أهل الفيوم (ب) للنحاس الذي بدأ يعرف في الصعيد أبان عصر هذه الحضارة.

وتتعدد آراء الباحثين حول أسباب تدهور هذه الحضارة ، إذ يعتقـــد البعض أن أصحاب حضارة الفيوم (أ) كانوا يعتمدون على الزراعة بـــشكل رئيسي ، وأن التربة الزراعية عندما أنهكت لم يحاول أصحاب حضارة الفيوم (ب) تجديد خصوبتها، ومن ثم فقد تدهورت حضارتهم، وهاجر كثير منهم إلى الوادي[٤٠] ،ويرى البعض الآخر أن السبب في تدهور هذه الحضارة يرجع أساساً إلى وصول هجرة من أصحاب القفصية الذين كانوا لا يزالون يعيشون في صحراء شمال إفريقيا مستخدمين أدواتهم القومية التي عرفوها منذ العـــصر الحجري القديم الأعلى [٤١]ويلقى هذا لرأى المعارضة على أســـاس أن أدوات

حضارة الفيوم (ب) القومية تتشابه مع الأدوات القومية التي عثر عليها في حلوان ووادي العنجبية في الشمال وأدوات سيوه في الشمال الغربي ورنان في الجنوب (٤٢).

ب- حضارة البدارى:

تقع البدارى على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ابويتج وطما ، وعثر على مخلفات هذه الحضارة في عدة مواقع خاصة المستجدة والبدارى والهمامية بواسطة برنتون وطومسون وجاردنر وبترى ، وتؤرخ حضارة البدارى بحوالي ٤٥٠٠ ق.م.، وقد صنف"بريتون" المحلات العمرانية لهذه الحضارة إلى قرى أو مدن قامت في مواضع مرتفعة على حواف الصحراء بعيداً عن الأحراش والمستنقعات التي تغطى السهل الفيضى وفى رأى أخر لم تكن هذه المحلات كمدن أو قرى كبيرة ثابتة بل هي محلات أو نجوع متنقلة غير ثابتة. وكانت المنازل عبارة عن حفر مستطيلة أو مستديرة ، شيدت من الطين والقش والبوص ، وربما كانت الكثافة السكانية في قرى البدارى عالية بدليل كثرة المقابر التي عثر عليها .وكانت المقابر بعيدة عن المساكن وهى عبارة عن حفر مستطيلة أو مستديرة وكانت مقابر النساء أكثر اتساعاً من مقابر الرجال، وقد وضع مع الموتى بعض تماثيل الحيوانات خاصة فرس النهر وتماثيل أخرى للنساء والطيور وقد عثر على بعض المقابر دفنت فيها بعض الحيوانات كالثور والكلب وابن آوى وحيوانات أخرى، ويفسر دفن الحيوانات برغبة أهل هذه الحضارة بالتعبير عن أهميتها لديهم واعتزازهم بها، وربما إلى مجموعة أخرى من الأسباب (٤٣)وكان البداريون أقرب إلى القصر منهم إلى الطول إذ لم يزيدوا في المتوسط على ١٦٠ سم، وكانوا نحاف الجسم وتقاطيع وجوههم دقيقة، وسعرهم مموج أسود (٤٤)، وبعبارة أخرى كانت صفات البداريين قوقازية بالدرجة الأولى غير أن الآراء اختلفت عن أصل البداريين فهناك من ذهب إلى أنهم قدموا من جنوب الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وليس عن طريق برزخ

السويس على أساس أن حضارتهم لم تتعد مدينة أسيوط إلى الشمال (٤٥) والشئ الذي لا يمكن أن ينكره أحد أن البداريين قد طوروا حضارتهم في المواقع التي عثر فيها على مخلفاتهم كما أفادوا من حضارة ديرتاسا التي اختلطت بحضارتهم.

وكان لأصحاب حضارة البدارى أدواتهم الخاصة فمن الحجر الرملى صنعوا المناجل والنصال والحراب، كما صنعوا بعض الأدوات من العظم والعاج والخشب خاصة الملاعق التي كانت مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية (٤٦). واستخدم أصحاب هذه الحضارة النحاس في صنع أدوات الزينة فصنعوا مجموعات من الخرز الصغير، كما صنعوا منه مثاقب طويلة استخدموها في ثقب الخرز الحجري ، دبابيس طويلة استخدموها في شبك أرديتهم الجلدية والكتانية (٤٧).

وتميز البداريون بصناعة نوع جيد من الفخار تميز بزخارفه وصلابة مادته ورقة جدران أوانيه وهو من اللون البني والأحمر وبه تموجات وله حافة وسوداء وقد عثر على هذا النوع من الفخار في حضارات عصر ما قبل الأسرات مما يدل على وجود أثر حضاري امتد بضعة قرون، ومع ذلك صنع البداريون نوعاً آخر من الفخار كانت جدران أوانيه سميكة وأشكاله بسيطة، واستخدمت هذه الأواني في الطهي (٤٨).

ومارس البداريون حياة الرعي ، فربوا الماشية والأغنام والماعز والخنازير كما مارسوا الزراعة واضطروا على تجفيف المستنقعات ليكسبوا بعض الارضى الزراعية حتى يسهل ريها بدلاً من الاعتماد على الأمطار التي أدركوا أنها لا تكفى لري الأرض المتزرعة (٤٩)، وكانت الحبوب هي أهم ما زرعه أصحاب هذه الحضارة وكانت ذات أصول آسيوية وفى نفس الوقت لم ينسوه حياة الصيد إذ قنصوا الحيوانات البرية واصطادوا الأسماك مستخدمين شصوصاً نحاسية أو عظمية.

وكانت للبداريين صلات تجارية إذ استوردوا الزجاج الطبيعي والنحاس ودهلنج كما استوردوا الأصداف من البحر الأحمر والخليج العربي[٥٠] وربما كانت لهم صلات مع سوريا لاستخدامهم أشجار الصنوبر.

ومن الملامح العامة التي ميزت حضارة البدارى وحضارة ديرتاسا صناعة الفخار وعادات دفن الموتى وهو ما يجعلنا نخرج بحقيقة هامة، وهى أن ما اشتهرت به العصور التاريخية المصرية من الإيمان بحياة أخرى نبتت بذوره في أرض مصر وبأيدي أهلها وامتدت جذوره إلى ما قبل عصورها التاريخية بقرون طويلة[٥١]

٤- حضارات عصر ما قبل الأسرات

عصر ما قبل الأسرات يمثل الفترة منذ انتهاء حضارة البدارى حتى بداية الأسرة الأولى حوالي ٣٢٠٠ ق.م. وتقابل هذه الفترة استخدام النحاس، وقبل أن نتابع حضارات هذا العصر يحسن التوقف عند بعض الملامح العامة لهذا العصر والتي تتلخص في النقاط التالي:

- يعتقد البعض أن حضارة ما قبل الأسرات قد نشأت نشأة محلية أي أنها تطورت عن حضارة البدارى على أساس وجود تشابه كبير بين أنواع الفخار بين الحضارتين ، كالفخار الأحمر المصقول، والفخار الأسود المصقول والفخار ذي القمة السوداء.
- اختلفت الآراء أيضاً عن أصل الحضارتين حضارة ما قبل الأسرات فهناك من يرى أنها لم تنشأ في جنوب مصر، وإنما أتى قوم من جنوب الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وليس عن طريق برزخ السويس ، أو ربما جاء أهل هذه الحضارة من المناطق الواقعة بين الوادي والبحر الأحمر وربما قدموا من النوبة، غير أن الرأي الأخير ضعيف على أساس أن مصر هي التي أمدت النوبة بعناصر الحضارة وليس العكس [٥٢].

- التزم المصريون في هذا العصر للوادي بصفة نهائية، وإن كان هناك من يعتقد أن هذه الفترة لم تشهد الاستقرار الكامل (٥٣)، وفى هذا العصر ارتقت الزراعة وتنوعت المحاصيل الزراعية وتعاون أفراد المجتمع فيما بينهم فاستطاعوا شق القنوات ليوصلوا مياه النيل إلى الأجزاء البعيدة عن النهر، كما نجحوا في تجفيف مساحات كبيرة من المستنقعات ،فضلاً عن ذلك أقاموا الجسور للحماية من خطر الفيضانات، مثل هذه الأعمال استلزمت وجود زعيم يحترم الجميع أوامره،كما فرضت طبيعة أرض مصر أن يتجمع عدد كبير من السكان في قرى قريبة من بعضها خاصة في الأجزاء التي يتسع فيها السهل الفيضي، و لم يمض وقت طويل حتى تكونت وحدات إقليمية كان لكل منها زعيم له السلطة على من حوله (٥٤)، هذه الوحدات الإقليمية كانت مقدمة لتكوين مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحري إيذاناً بتوحيد المملكتين في مملكة واحدة حوالي ٣٢٠٠ ق.م.
- عاش أصحاب حضارات عصر ما قبل الأسرات في بيئة انتشرت فيها المراعى وبعض النباتات الأخرى مثل أشجار السنط والأثل والصفصاف والجميز ، وبسبب وجود المناقع البرك في شمال الدلتا نمت بعض النباتات مثل اللوتس والبردي والغاب، كما عرفت مصر في هذا العصر أنواعاً مختلفة من الحيوانات أشرنا إليها في موضع سابق (٥٥) (شكل٥٦).
- كشفت الأدلة الأركيولوجية عن تركيز حضارات عصر ما قبل الأسرات في الصعيد ولا يعنى ذلك أن الدلتا كانت أقل حضارة من الصعيد، إذ ترتب على زيادة معدلات إرساب الطمي إلى دفن مخلفات هذا العصر، ولذلك لم يكشف النقاب عن حضارات هذا العصر في الدلتا إلا في هوامشها أو في المناطق المرتفعة في وسطها.
- اختلفت حدود مصر في عصر ما قبل الأسرات عن العصور التي سبقته أو تلك التي لحقت به، فالحدود الجنوبية كانت غير واضحة إذا لم يكشف عن

آثار لهذا العصر في الجنوب إلا في منطقة خــور باهـــان Khor Bahan في منطقة النوبة وكان البحر المتوسط هو الحد الشمالي لمصر نذاك.

- وعلى أساس توزيع مواقع حضارات هذا العصر تباينت الآراء حول تقسيم منطقة الوادي ،فالقسم الجنوبي من الوادي أطلق عليه مصر العليـــا حـــتى أسيوط على أساس أن معظم مواقع هذا العصر وجدت إلى الجنوب مـــن أسيوط (العمرة وسمانية) ، كما اعتبرت الأجزاء القريبة من القاهرة الحـــد الشمالي للقسم الثاني والذي أطلق عليه مصر السفلى (يطلق عليـــه مـــصر الوسط) والذي حوي مواقع حضارية تتبع فترة نقادة الثانية، ثم يأتي بعـــد ذلك القسم الثالث وهو الدلتا.

• تقسيم حضارات عصر ما قبل الأسرات:

في عام ١٨٩٤ عثر "فلندر بترى" على عدد من المقـــابر في المنطقـــة الواقعة بين البلاص في الشمال ونقادة في الجنوب، ومن الفخاريات التي عثـــر عليها داخل هذه المقابر أمكنه وضع نظام خاص لتأريخ حضارة عصر ما قبل الأسرات أطلق عليه التوقيت المتتابع Sequence Dates [٥٦]، وبدأ "بترى" هذا التقويم عند رقم ٣٠ وانتهى إلى رقم ٨٠، وترك الأرقام من ١-٢٩ لاحتمال ظهور اكتشافات جديدة أقدم من حضارات البدارى وضعها بـــين الـــرقمين ٢٠-٢٩،وقسم "بترى" حضارات عصر ما قبل الأسرات إلى قسمين ، الأول وهو الأقدم ويقع بين الرقمين ٣٠- ٣٧، والثاني وهو الأحدث ويقـــع بـــين الرقمين ٣٨- ٨٠ ، وعاد "بترى" لتعديل هذه المرحلة بحيث تنتـــهي عنـــد الرقم ٧٦.

- هذا التقسيم أظهر بعض الأخطاء ، فقد اعتمد "بترى" في تقسيمه على نوع الفخار، فالمرحلة الأولى تميزت بوجود خطوط متقاطعة لونها أبيض نسبه إلى فترة تقع بين الرقمين ٣١-٣٤، هذا النوع من الفخار استمر وجوده حتى الرقم ٣٨، وربما أحدث من ذلك ، وتميز فخار المرحلة الثانية بنـــوع لـــه

مقابض مموجه وجد في المعادى وبالتالي من الصعب الأخذ بالتوقيت المتتابع، وهناك بعض نقاط الضعف الأخرى أشار إليها عدد من الباحثين[٥٧] وهناك تقسيم آخر لحضارات هذا العصر يتمثل على النحو التالي:

- حضارة نقادة الأولى أو العمرة وتقع بين الرقمين ٣٠- ٣٧ وتقابل عصر ما قبل الأسرات الأسفل.
- حضارة نقادة الثانية وتقسم بدورها إلى فترتين ، جرزة وتقع بين الرقمين ٣٨- ٦٣، ثم السمانية وتقع بين الرقمين ٦٤- ٧٦. وتقابل كل منهما عصر ما قبل الأسرات الأوسط وما قبل الأسرات المتأخر على الترتيب، ويضاف إلى الفترة الأخيرة حضارة المعادى [٥٨]، وفيما يلي دراسة لهذه الحضارات .

أ- حضارة العمرة :

كان "دى مورجان" أول من اكتشف هذه الحضارة، غير أن اكتشافاته لم تكن على درجة عالية من الدقة إلى أن تمكن "فلندز بترى" من اكتشاف بقاياها في قرية العمرة جنوبي شرقي أبيدوس بمركز البلينا (محافظة سوهاج)، و وجدت آثار لهذه الفترة في عدة مواقع أخرى كما في أرمنت وخزام (تقع الأخيرة إلى الشمال من القصر بحوالي ١٥ كم) وفى نقادة والبلاص وهو على الضفة الغربية للنيل ، وفى أبيدوس والمحاسنة والهمامية بمحافظة سوهاج.

- وتعرف هذه الحضارة باسم "حضارة نقادة الأولى" وترجع إلى عام ٤٤٠٠ أو ٣٩٥٠ ق.م،.[٥٩] وقد تأثرت حضارة العمرة بحضارة البدارى ، كما أثرت بدورها في حضارتي جرزة وسمانية.
- ويعتقد "بترى" أن حضارة العمرة ليبية الأصل ، بينما يراها "الكسندر شارف" أفريقية خالصة من أصل حامى [٦٠]،وقد نجح أصحاب حضارة العمرة في استخدام النحاس في صنع أدواتهم ، كما صنعوا

فخاراً أحمر عليه خطوط متقاطعة باللون الأبيض، وذلك مما دعي إلى تسمية فخارهم باسم White Cross- Lined Pottery ، وفى مرحلة تالية صنعوا نوعاً آخر من الفخار لونه أسود عليه رسوم محفورة بلون أبيض ،وكانت معظم هذه الرسوم لأنواع من الحيوانات عاشت في هذه الفترة والتي اتخذت كرمز إلى أصحاب الأواني وصناعها وكرمز أيضا إلى معبودات أصحابه أو للتعبير عن الأوضاع السياسية ، كما صنع أهل العمرة تماثيل من الفخار والصلصال كان أغلبها تماثيل للنساء.

وأظهرت حضارة العمرة تقدماً ملموساً في صناعة الطلاء بالمينا، واستخدام ألواح لطحن الكحل من الأحجار الصلبة، وكانت على هيئة أشكال حيوانية مثل فرس النهر والماعز والسلحفاة [٦١]، كما صنع أصحاب هذه الحضارة أدوات من الأحجار خاصة المناجل والمدى ومن النحاس صنعوا المخارز والدبابيس.

وفى عصر العمرة ارتقى السكن عما كان عليه في الحضارات السابقة، فقرب نقادة عثر على بقايا مدينة قديمة تنسب إلى عصر ما قبل الأسرات تعرف باسم "نوبت" قامت على مساحة ١٠٠ م^{٢} ، هذه المساحة بلا شك أقل بكثير من الرقعة المبنية لهذه المدينة، وهذا الرقم لا يعبر إلا عن الجزء المكتشف، وقدر "بوتزر" مساحتها بحوالي ١٥ ألف م^{٢} [٦٢]، وكانت مدينة نوبت محصنة وربما استمرت في النمو بعد ذلك في عصر الأسرات وقد حوت الكثير من الآثار مثل الأواني الحجرية والمنازل ودبابيس نحاسية وألواح من الاردواز [٦٣] وفوق ذلك كله كان لأهل العمرة صلات تجارية مع المناطق المجاورة، إذ جلبوا النحاس من سيناء والذهب من النوبة.

ب- حضارة جرزة :

توضع مع حضارة العمرة ضمن حضارات مصر العليا في عصر ما قبل الأسرات، ورغم أن حضارة جرزة توضع ضمن حضارة نقادة الثانية فإن

البعض يضعها كحضارة مستقلة لعصر ما قبل الأسرات الأوسط كما اشير إلى ذلك في موضع آخر.

وتقع جرزة في شمال ميدوم بمركز العياط، محافظة الجيزة وكشف عنها "بترى ووابن رايت وماكاى" وتؤرخ جرزة بحوالي ٣٩٥٠ — ٣٤٠٠ ق.م.[٦٤] وقدر عدد سكانها بحوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة [٦٥] وسكن أهل الجرزة — كما في سماينة بعد ذلك — منازل شيدت من البوص وفروع الأشجار إلى جانب الطوب اللبن، كما ظهرت منازل مربعة المساحة مرتفعة ومسطحة السقوف، ودفن أهل هذه الحضارة موتاهم في حفر بسيطة بيضاوية أو شبه مستطيلة.

وبلغت الصناعات الحجرية مبلغ قمتها عند أصحاب هذه الحضارة، صنعت من الصوان خاصة الآلات الحادة ذات المقابض والتي بلغ طولها أكثر من ٤٠ سم [٦٦]، ويتميز فخار جرزة بلونه البرتقالي الذي يميل إلى الصفرة وعليه رسوم وأشكال باللون الأحمر، وكانت رسوم القوارب أهم ما ميز فخار جرزة، وهو ما يعنى أن أهل جرزة استخدموا القوارب في أغرض السفر في النيل لنقل المنتجات والأفراد ورفات الموتى من ضفة إلى أخرى، كما استخدمت القوارب في الملاحة البحرية أيضاً إذ ظهرت في صورها بقمرتين أو (كابينتين) من سيقان الغاب والنباتات المجدولة كان يفصل بينهما ممر ضيق مكشوف أو مسوقف، وبجريدة نخل طويلة تراوحت أعداد فروعها من ١–٥[٦٧].

ومن المؤكد أن أصحاب حضارة جرزة استخدموا النحاس في صنع بعض الأدوات ، كما عثر على أدوات عديدة مصنوعة من الذهب والفضة بطريقة فنية وخاصة مقابض المدة من الصوان المغطاة بصفائح الذهب أو بخيط رفيعة من الذهب[٦٨].

وحضارة جرزة أرقى من حضارة العمرة ، ففيها أرسيت قواعد الحضارة الزراعية المصرية ، وتعقدت الحياة الدينية وأمكن تقسيم السنة إلى مواسم زراعية بما يتفق ومواعيد ارتفاع النهر وهبوطه، وظروف المناخ كما أقيمت الجسور وحفرت الترع، وبالتالي زادت المساحة المزروعة وزاد إنتاج الأرض وأصبح هناك فائض للطعام، وهو أول ما يشير إلى إرساء قواعد حضارة راقية(٦٩).

نقطة أخيرة... هناك من يعتقد أن أصحاب حضارة جرزة قدموا من سورية أو جبال البحر الأحمر وهناك رأى أخر يعتقد أن هذه الحضارة ترجع أصلاً إلى الدلتا وأنها تسربت إلى مصر الوسطى ثم انتقلت بعد ذلك إلى مصر العليا حيث انتشرت وحلت محل حضارة العمرة، وربما كانت هذه الحضارة قائمة في الدلتا أول الأمر ويؤيد ذلك الرسومات التي وجدت على الفخار خاصة الطيور المائية التي تشير إلى كثرة البحيرات والقنوات مما يتفق وطبيعة الدلتا آن ذاك(٧٠)

جـ - حضارة سمانية:

تقع قرية سمانية في مركز دشنا ، بمحافظة قنا، وتبتع فترة تقادة الثانية في مرحلتها الثانية، وتمتاز هذه الفترة بحروب ومنازعات داخلية تشير إليها الصور المرسومة على مقابض المدى.

واستمرت صناعة الأدوات الحجرية التي وصلت إلى مرحلة راقية في عدد حضارة جرزة ، ووصلت في عهد حضارة سمانية إلى قمة تطورها خاصة المدى ذات المقابض العاجية والتي حفرت عليها رسوم تدل على تأثر الفن المصري بالفن السومري (٧١).

ويعتقد معرفة أهل سمانية للكتابة أواخر عهدهم ، ويرى "بترى" أن العلامات التي تركوها على أوانيهم الفخارية لم تكن مجرد رموز عشوائية ، وإنما كانت علامات كتابية تخطيطية بدأت شخصية ثم شاع بعضها وأصبح

أداة خطية من أدوات التفاهم بين الناس، ويبدو أن هذه العلامات قد ظهرت في عهد نقادة الأولى، كما لجأ أهل سماينة للتعبير عن أغراضهم برسوم تصويرية مثل صورة الشمس وهيئة الزراعيين المرفوعتين إلى أعلى، واستمرت صورهم الكتابية هذه في طريقها حتى طغت على العلامات التخطيطية وأصبحت أكثر قبولا عنها وأكثر شيوعاً منها، ثم وجدت عليها علامات هجائية قليلة ، ورثتها العصور التاريخية بعد ذلك(٧٢).

وشهدت حضارة سماينة تطوراً آخر تمثل في ظهور المقابر ذات الجدران الأربعة، تم تكسيتها من الداخل بطمى سميك ثم بالبوص أو الحصير، وأحياناً بألواح خشبية وانتهى الأمر بتقسيم المقبرة إلى قمسين ، قسم للدفن، وآخر للأثاث الجنائزي وكانت هذه المقبرة مقدمة لظهور المصطبة والأهرامات في عصر الأسرات بعد ذلك.

وبسبب لمنازعات الداخلية لم تصل حضارة سمانة إلى مستوى حضارة جرزة في التقدم الزراعى وإن زاد استخدام النحاس خاصة في صناعة الخناجر.

د – حضارة المعادى :

تمثل حضارة المعادى حضارة الشمال أوالدلتا، وتتبع عصر نقادة الثانية أو عصرما قبل الأسرات المتأخر، وقد عثر على مخلفات هذه الحضارة إلى الشرق من القاهرة بحوالي عشرة كيلو مترات، وموضعها على ربوة ضيقة يمتد طرفها الغربي حتى نهاية السهل الفيضي ، وتشرف من ناحية الشرق على وادي التيه، ومن ناحية الجنوب وادي دجلة * ويحميها من الشرق هضبة مرتفعة من الحجر الجيري وإن كان هذا لا يمنع من سهولة اتصالها بساحل خليج السويس وشبه جزيرة سيناء من هذه الناحية (٧٣).

---

* وادي دجلة هو آخر أودية الصحراء الشرقية من الشمال ترفده مجموعة من الأودية أهمها وادي التيه الذى ينبع من جبل الخشب.

وتتكون قرية المعادى من منازل شيدت من الطين ثم من الطوب اللبن في مرحلة ثانية، وقد عثر في منطقة المعادى على ثلاثة أنواع من المنازل، منازل بيضاوية الشكل، ومنازل ذات قباب ثم منازل مستطيلة وإلى جوار المنازل وجدت حفر كثيرة بعضها متسع يستخدم للتخزين وبعضها متوسط يستخدم كمواقد وبعضها صغير تستخدم كمواضع لطحن الحبوب بواسطة مدقات. ويدل ازدحام المساكن في المعادى وكثرتها والمساحة الكبيرة التي شغلتها القرية والتي تقدر بحوالي ٤٠ فداناً على سكانها بعدد كبير من السكان.(٧٤) وكان أهل المعادى يدفنون موتاهم داخل القرية أو في خارجها في موضع على وادي دجلة ورافده التيه، وأحياناً وضعت جثث الصغار في قدور داخل المنازل.

وكان لمجتمع المعادى أدواته الخاصة، إذ عرف أصحاب هذه الحضارة الفؤوس النحاسية ،كما صنعوا فخاراً كان أقل جودة من فخار نقادة الأولى.

وقام الأساس الاقتصادي لحضارة المعادى أساساً على الزراعة، كما اهتم أصحابها بتربية الماشية والخنازير والحمير، كما اشتغل بعضهم بالحرف اليدوية والبعض الآخر بالتجارة ، إذ اتسعت دائرة المناطق التي تاجر معها أصحاب هذه الحضارة بسبب موقعها المتوسط شرقي رأس الدلتا إذ جلبوا النحاس من سيناء، والصوان والبازلت من أبي زعبل والفيوم وأبي رواش، بالإضافة إلى الجرانيت من جبال البحر الأحمر وأسوان، كما كانت لهم صلات مع فلسطين إذ جلبوا منها "القار" (٧٥).

وكان لأهل المعادى حياتهم الروحية الخاصة إذ عبدوا التمساح وربما عبدوا ابن أوى ، كما أن دفن الأجنة في أوان فخارية لكل منها ثقبان لكي تعود منها الروح إلى الجسد، إنما يشير إلى عقيدة البعث بعد الممات (٧٦).

والخلاصة أن حضارة المعادى تثبت حقيقة هامة وهى أن الدلتا لم تكن أقل حضارة من الصعيد في عصر ما قبل الأسرات، وانتهى المطاف في نهاية هذا العصر بتكوين مملكة الجنوب في الصعيد ومملكة الشمال في الدلتا،

إلى أن جاء "مينا " ووحد الوجهين القبلي والبحري في دولة واحدة مؤسساً الأسرة الأولى، ولتبدأ مصر مرحلة جديدة من مراحل الحضارة نحو مستقبل مشرق.

المدن والتقسيم الإداري :

أطلقت على المراكز العمرانية القديمة في مصر مسميات مختلفة، فعلى المدينة أطلق اسم "Niwt" وعلى البلدة "Dmi" والتي تعنى في الوقت الحاضر Town ، ويعنى الاسم الأول المدينة التي نمت بشكل طبيعي سواء كانت كبيرة أو صغيرة، بينما أطلق الاسم الثاني على المحلات العمرانية المخططة، وسميت المساكن باسم "بر" (٧٧) وتحاول الدراسة في هذا الجزء إلقاء الضوء على نشأة المدن المصرية القديمة وخصائصها وعوامل قيامها، وتجدر الإشارة إلى أن المراكز الحضارية في كل من مصر والعراق قد توافرت لها مقومات ظهور المدن مبكراً، ففي كل من مصر والعراق يوجد واد طويل خصب غنى بالتربة الزراعية المتجددة وبالمياه التي تجرى طول العام في قنوات وشرايين مائية. وسيشار في الفصل موضع لاحق إلى بعض نواحي الاختلاف بين الحضارتين المصرية والعراقية، ولعل أبرز هذه الاختلافات أنه في العراق قامت دول المدن بينما قامت في مصر دولة موحدة أي لم تعرف نظام المدن المستقلة هذا التباين من الدولتين يفسره اختلاف المجتمع في كل منهما واختلاف طريقة حياة سكانهما.

وتشير الأدلة الأركيولوجية إلى أن مصر لم تعرف المراكز العمرانية المستقرة إلا منذ العصر الحجري الحديث، وتبدأ أول ملامح تمدين المجتمع في مصر العليا حيث قامت البدارى التي جمعت خمس محلات عمرانية اتخذت مواضعها على حافة الهضبة الشرقية ، تلتها العمرة (نقادة الأولى) ثم المحاسنة والكاب، وفى الوجه البحري قامت بعض المراكز العمرانية الأخرى.

وارتبط قيام المدن في مصر بنظام جريان النيل، ففي وقت انخفاض النهر يكون سطح الماء منخفضاً عن الأراضي التي على جانبي النهر، أما في وقت الفيضان فكانت مياه النيل ترتفع تدريجياً وببطء ، وما تلبث أن تنتشر في الوادي أو على الأقل في الجزء الأدنى منه، ومع انحسار المياه يبدأ السكان في إلقاء البذور على جانبي النهر ثم ينتظرون بعد ذلك نمو ونضج المحصول(٧٨)

ولا شك أن هذه الطريقة كانت لا تسمح باستيعاب أعداد كبيرة من السكان، لذلك لجأ المصريون إلى طريقة الري الحوضي بهدف زراعة أكثر من محصول ولتحقيق الاكتفاء الذاتي وفائض من الطعام.

وكانت الرغبة في تبادل المنتجات دافعاً إلى وجود سوق يتبادل فيه سكان القرى منتجاتهم، وقد تمخض عن ذلك قيام مدن الأسواق، هذه الوظيفة كادت أن تقترن بكل المدن المصرية القديمة، بالرغم من قيام بعض المدن بوظائف أخرى، ومع ذلك فقد ظلت ظاهرة المدن غير مميزة في مصر في عصر ما قبل الأسرات حتى يمكن أن نصفها في هذه الفترة بأرض المجتمعات القروية وربما كانت بعض المراكز الدينية التي يلجأ إليها سكان القرى لعبادة آلهتها بمثابة مراكز الخدمات تجذب إليها سكان القرى المجاورة، ولهذا السبب قسمت مصر إلى مجموعات كبرى أو مقاطعات، غير أن هذه المقاطعات لم تتم لتصبح عواصم قيادية رغم الدور القيادي الذي كان تقوم به في فترات الأزمات(٧٩).

خصائص المدن المصرية القديمة:

تميزت المدن المصرية القديمة ببعض الخصائص أهمها:

١- كانت معظم المدن صغيرة الحجم، وقد ارتبط هذا الحجم بنمو الاقتصاد المصري السائد الذي قام أساساً على الزراعة، وقامت المدن بتجميع أصحاب المحلات التجارية وأصحاب الحرف المتعددة ورجال الدين والكهنة والذين الحقوا بخدمة المعبد الذي وجد في كل مدينة، ورغم هذا

التنظيم فلا يمكن أن نعتبره تنظيماً مدنياً صحيحاً بحيث يمكن أن يطلق على المدن.

٢- ارتفاع نسبة السكان من الزراع القاطنين للمدن وهو ما يعكس وظيفة المدينة المصرية، وبدون شك أن هذه السمة لازالت تميز معظم المدن المصرية في الوقت الحاضر.

٣- مع استمرار التطور في نشأة المدن المصرية أمكن التمييز بين عدة مجموعات من المدن، كل مجموعة تقوم بوظيفة معينة، تأتي على رأس القائمة مدن عواصم المقاطعات والتي سيشار إليها عند تتبع التقسيم الإدارة.ويمكن أن نعتبر من مدينة الكاب في الوجه القبلي وبوباسطة في الوجه البحري نموذجاً لهذا النوع من المدن(٨٠) ثم المدن المخططة والتي يطلق عليها أحياناً اسم "قرى العمال" ومن أمثلتها "داير المدينة" الواقعة إلى الشمال من مدينة هابو على الضفة الغربية للنيل، ثم مدن الحدود ، والمدن الدينية وأخيراً مدن عواصم الإمبراطوريات ، وبالرغم من كل ذلك يمكن القول أن حواضر الأقسام الإدارية تجلت فيها وظيفة الحكم والوظيفة الدينية (٨١)

٤- خلت المدن المصرية القديمة من وجود الأسوار التي تحيط بها، وقد ظهرت الأسوار في بعض المدن في العهدين الأغريقى والروماني وبعد ذلك في العهد العربي، والاستثناء الوحيد للمدن القديمة هي مدينة الكاب حيث شيد حولها سور ضخم في عهد أمنمحات الثالث في عهد الأسرة الثانية عشرة، وكانت خطة مدينة الكاب تقوم على الشكل الدائري وللمدينة وسور خارجي شيد من الطين بسمك ٢,٧٤ متر وآخر داخلي بسمك ٢,٤٤ متر (٨٢) وقدرت الرقعة المبنية للمدينة بحوالي ٢٥ فداناً يقطنها حوالي ٦٠٠٠ نسمة، ووجود السور حول مدينة الكاب ربما يفسر تقليد المدن السومرية ، أما عدم وجود الأسوار حول المدن المصرية القديمة

بشكل عام فيفسره ندرة الغزو وهذه هي طبيعـــة المجتمعـــات الزراعيـــة (الشكلان ٥٧، ٥٨).

٥- اختلفت مساحة الرقعة المبنية للمدن المصرية من مدينة إلى أخرى بسبب تباين وظيفة كل مدينة وحجم السكان، ويعطى الجدول الآتي تقـــديرات لمساحات بعض المدن المصرية.

مساحات بعض المدن المصرية القديمة :

المدينة	المساحة بالفدان	المدينة	المساحة بالفدان
دايرة المدنية	١,٦	بوباسطة	١٨٥,٣
خنت كاوس	١,٦	خاتانا	٤٩٤,٢
بوهين *	٨,٨	ممفيس	١١٣٦,٧
هابو	٩,٩	العمارنة	١٠٨٧,٢ - ٢٩٦٥
الفنتين	١١,١	طيبة (الضفة الشرقية)	٨٤٠,١
سيسبى *	١٣,٣	طيبة (الضفة الغربية)	٩٨٨,٤
جوروب	١٣,٦	جملة طيبة	١٨٢٨,٥
الكاب	٢٤,٧	بى رمسيس	٢٤٧١
اللاهون	٣٤,٦	هليوبوليس	٥٦٨٣,٣

المصدر : Uphill, 1988: 66

ويظهر الجدول التفاوت الكبير في مساحات المدن المصرية القديمـــة، فأكبر المدن هليوبوليس ، ومساحاتها تنم عن تاريخ طويل للمدينة وكعاصمة سياسية وثقافية بدأت منذ عصر ما قبل الأسرات المتأخر (أونو)، تليها مدينة طيبة التي قامت على ضفتي النيل وصارت عاصمة لمصر أربع مرات، وكانت عاصمة لإمبراطورية مترامية الإطراف، ثم تأتى تل العمارنة (أخيتاتون) والـــتي

* من مدن النوبة.

يمكن اعتبارها نموذجاً صادقاً للمدنية المصرية بشكل عام وإن كان لا يمكن اتخاذها بالضرورة مثلاً للأحوال الحضرية في مصر وقت قيامها وتصل مساحة بعض المدن إلى أرقام متواضعة لا تتجاوز لبعضها الفدانيين.

ونحاول عند تتبع التقسيم الإداري لمصر التعرف على توزيع المدن بين أقاليم مصر المختلفة ، وتسهيلاً للدراسة يمكن أن نحدد عدداً من المراحل تبدأ بالفترة التي سبقت عصر الأسرات وتنتهي بأواخر القرن التاسع عشر.

١- المدن والأقسام الإدارية في عصر ما قبل الأسرات المتأخر:

عرفت مصر التقسيم الإداري قبل أن يبدأ عصر الأسرات ففي الفترة التي سبقت هذا العصر قسمت مصر إلى ٣٦ مقاطعة أو إمارة [٨٣]، هذه المقاطعات أو الأقسام جاءت نتيجة عدة عوامل بدأت باستقرار الإنسان في الوادي والدلتا، وتكوين مجموعة من العشائر والقبائل لها أرضها الخاصة، ويتزعم كل قبيلة زعيم ، ويؤكد التقسيم الإداري لمصر في هذا العصر الشارات التي وجدت على الأواني الخارية، واتخذت هذه الشارات شكل صور حيوان أو بشر أو شئ آخر من مظاهر الطبيعة التي كان يلجأ الإنسان لعبادتها في بادئ الأمر لميزة خاصة امتازت بها.

وقد تميز عصرما قبل الأسرات المتأخر بأول محاولات الوحدة بين أقاليم مصر والتي انتهت بقيام دولة موحدة منذ ٣٢٠٠ ق.م. وقد تحسن إشارة هنا إلى مراحل تكون الأقاليم للتعرف على أهم المدن التي قامت في هذه الفترة وتتلخص هذه المراحل في:

أ- تجمعت أقاليم الوجه البحري في مملكتين ، إحداهما في الشرق وعاصمتها "عنجة" أو "عنجت" التي أصبحت في العهد الفرعوني عاصمة للمقاطعة التاسعة في إقليم الدلتا ، وقامت المملكة الثانية في غرب الدلتا وكانت عاصمتها مدينة "حورس" التي أطلق عليها بعد ذلك في العهد الروماني "هرموبوليس بارفا" وهى مدينة دمنهور الحالية ، وهناك من يرى أن

عاصمة هذه المملكة كانت بحدت Behedet(تل البلامون حالياً) وامتدت هذه المملكة نحو الجنوب حتى أوسيم.

ب- ثم اتحاد مملكتي الدلتا في مملكة واحدة، عاصمتها "ساو" أو "سايس" التي قامت على أطلالها "صا الحجر" على فرع رشيد وكانت "نيت" هي معبودة سكان المملكة الجديدة وقبل أن تتكون هذه المملكة بحوالي ثلاثة قرون نشأت مملكة أخرى في مصر الوسطى اتخذت من مدينة "حنن نسوت" Henen Nesout عاصمة لها (أهناسيا الحالية) ،وامتدت أراضى هذه المملكة نحو الجنوب لمسافة ٤٠٠ كم وأقام حكامها حصوناً وأسواراً للدفاع عن حدودهم الشمالية عند أي غزو يأتي من الدلتا [٨٤].

جـ- في خطوة ثالثة تجمعت أقاليم الصعيد تحت زعامة مدينة "نوبت" التي أشير إليها في موضع سابق والتي قامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية غربي مدينة قوص، واعترف الصعيد بزعامة ربها "ست" وازدهرت حضارة نقادة الأولى في ظل مملكة "نوبت" ودل على عمرانها ورخائها النسبي كثرة مقابرها التي تدل بالتالي على كثرة سكانها، كما اتصلت أسباب التبادل التجاري بين مملكتي الصعيد والدلتا، ودل عليها وجود أدوات تجمع بين خصائص حضارتيهما في نقادة.

د- انتقلت عاصمة الوجه البحري بعد ذلك من غرب الدلتا إلى شرقها أي من مدينة "ساو" إلى مدينة "عنجة" التي سميت بعد ذلك باسم "جده"

هوامش الفصل الرابع :

(1) Garrod, 1980: 74.

(٢) محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى ، ١٩٧٥: ٣٦٣- ٣٦٤.

(٣) محمد بيومى مهران ١٩٨٨: ٢٦.

(٤) سليمان حزين ، ١٩٦٢: ٢٨-٣٠.

(5) Petrie, 1915:133.
(6) Caton- Thompson & gardner, 1932: 403

(٧) نجيب ميخائيل، ١٩٦٥: ٢١.

(8) Huzayyin, 1941: 211.
(9) Garrod, 1980: 73; Sandford & Arkell, 1933: 116- 118
(10) Huzayyin, 1941: 269 Diminiutive

(١١) محمد بيومى مهران ، ١٩٨٨: ٢٠٣.

(١٢) مصطفى عامر، ١٩٦٢: ٥٠.

(13) Garrod, 1980: 73.

(١٤) مصطفى عامر، ١٩٦٢: ٥٠.

(١٥) سيريل ألدريل، ١٩٩٢: ٤٤.

(١٦) أحمد سليم ، ١٩٩٥: ٤٥.

(17) HUzayyin, 1941: 296
(18) Caton- Thompson & Gardner, 1934: 89.

(١٩) عبد العزيز صالح ، ١٩٧٤: ١٩.

(20) Caton- Thompson & Gardner, 1934: 9.

(٢١) عبد العزيز صالح ، ١٩٧٢: ٢٠.

(22)Caton- Thompson & Gardner, 1934: 91
(23) Huzayyin, 1941: 299.

(٢٤) عبد العزيز صالح ، ١٩٨١: ٤٤.

(25) Huzayyin, 1941: 300.

(٢٦) سيريل ألدريد، ١٩٩٢: ٥١.

(٢٧) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٤٤.

(٢٨) عبد العزيز صالح، ١٩٧٤: ١٩- ٢٠.

(٢٩) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٤٥.

(30) Huzayyin,1941: 301

(٣١) محمد بيومى مهران، ١٩٨٨: ٢٣٥.

(٣٢) أحمد فخرى ، ١٩٧١: ٤٨.

(33) Bruntin, 1937: 3

(٣٤) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٤٧.

(35) Baumgartel, 1980: 468.

(٣٦) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٤٦- ٤٧.

(٣٧) عبد العزيز صالح ، ١٩٨١

(38) Huzayyin , 1941: 298.
(39) Huzayyin, 1941: 298.

(٤٠) محمد بيومى مهران ، ١٩٨٨: ٢٥٨.

(41) Caton- Thompson & Gardner, 1934: 55.
(42) Huzayyin,1941: 296.

(٤٣) رشيد الناضورى، ١٩٦٨: ١٢٩.

(٤٤) أحمد فخرى / ١٩٧١: ٤٠.

(٤٥) محمد بيومى مهران ، ١٩٨٨: ٢٥٦- ٢٥٧.

(46) Baumgartel, 1980: 470.
(47) Caton- Thompson & Gardner, 1928: 7
(48) Baumgartel, 1980: 470.

(٤٩) نجيب ميخائيل، ١٩٦٥: ٣٠.

(50) Baumgartel, 1980: 470.

(٥١) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٤٩.

(٥٢) محمد بيومى مهران، ١٩٨٨: ٢٦١- ٢٦٣.

(53) Baumgartel, 1980: 463.

(٥٤) أحمد فخرى ، ١٩٧١: ٤٢.

(55) Butzer, 1959: 65- 70.
(56) Petrie & Ouibell, 1896.

(٥٧) محمد بيومى مهران ، ١٩٨٨: ٢٦٤- ٢٦٩.

(58) Baumgartel, 1980: 463- 465.

(٥٩) أحمد فخرى ، ١٩٧١: ٤٨.

(٦٠) نجيب ميخائيل ، ١٩٦٥: ٣١- ٣٢.

(٦١) رمضان السيد ، ١٩٨٨: ١٥٢- ١٥٣.

(62) Butzer, 1980: 50.
(63) Baumgartel, 1980: 476.

(٦٤) أحمد فخرى ، ١٩٧١: ٤٨.

(65) Butzer, 1980: 50

(٦٦) رمضان السيد، ١٩٨٨: ١٥٣.

(٦٧) عبد العزيز صالح، ١٩٨١: ٥٦- ٥٧.

(٦٨) رمضان السيد ،١٩٨٨: ١٥٣.

(69) Childe, 1951: 137

(٧٠) نجيب ميخائيل، ١٩٦٥: ٣٢-٣٣.

(71) Peak & Fleure, 1946:20.
(72) Petrie, 1940: 41

(٧٣) مصطفى عامر ١٩٦٢، ٦١-٦٢.

(74) Butzer, 1980: 50

(٧٥) عبد العزيز صالح، ١٩٦٢: ٦٧.

(٧٦) محمد بيومى مهران ، ١٩٨٨: ٢٩١.

(77) Uphill, 1988: 6

(٧٨) يسرى الجوهرى وناريمان درويش، ١٩٨٥: ٥٢٨- ٥٢٩.

(٧٩) يسرى الجوهرى وناريمان درويش، ١٩٨٥: ٥٣٠.

(80)Uphill, 1988:15-19.

(٨١) أدولف أرمان وهرمان رانكه ، بدون تاريخ: ١٠.

(82) Uphill, 1988: 14-15.
(83) Uphill, 1988: 15

(٨٤) رمضان السيد ، ١٩٨٨: ١٦٣.

الفصل الخامس

العصر المبكر

أولاً : عصر ما قبل الوحدة :

عصر الأسرتين "صفر صفر" و"صفر" :

إن مصطلحات الأسرة "صفر" والأسرة "صفر صفر" إنما ترجع فى ظهورها إلى العثور على أسماء ملكية وأشياء ولقى أثرية من فترات أقدم من البدايات الأولى لعصر الأسرة الأولى، فتلك الفترة تقع فى المرحلة فيما بين نهايات نقادة الثانية ونقادة الثالثة.

وقد استخدام كوبيل مصطلح الأسرة صفر لوصف المواد الأثرية التى تعود لفترة ما قبل الأسرات والتى تم العثور عليها فى موقع الكوم الأحمر بإدفو بمحافظة أسوان. كذلك الآثار التى عثر عليها فلندرز بترى ومن ثم قام بتأريخها ثم أشار لبعض الحكام أمثال نعرمر وكا ايب تحت مسمى الأسرة "صفر"، لكن لم تفلح تلك المسميات كثيرًا منذ منتصف القرن الماضى، حتى تم قبول هذا المصطلح بشكل عام بعد أبحاث وكتابات كايزر فى عام ١٩٩٠م[1].

وقد دفن حكام ملوك الأسرة "صفر" فى "ثينى" أبيدوس، وقد عرفت بشكل عام باسم مقابر "أم القعاب" والتى أصبحت فيما بعد مدفنًا لكل ملوك الأسرة الأولى.

ولم يكن ما ظهر عقب أعمال الآثاريين مجرد افتراضًا أساسيًا لوجود الأسرة صفر، فقد أثبتت قوائم وحوليات الملوك وكذلك بردية تورين والمصادر اليونانية أن العديد من الملوك قد حكموا فى مصر العليا ومصر السفلى فى الفترة التى سبقت ما يعرف بالأسرة الأولى.

إلا أن مصطلح أسرة ملكية قد استخدم هنا بشكل غير صحيح نظرًا لأنه يشير إلى سلسلة من الحكام فى مكان بعينه أى مقر حكم أو عاصمة، وهذه السلسلة ليست من أصول متساوية وثابتة (مثل أسرات المؤرخ مانيتون) فلا تحتوى الأسرة صفر فى واقع الأمر فقط على ملوك أبيدوس الذين سبقوا

الملك حورعا، بل إنها تشمل أيضًا الحكام فى أماكن أخرى مثــل طراخــان والكوم الأحمر وقسطل فى النوبة.

الأسرة "صفر صفر" :

الملك العقرب الأول – الملك جوحين :

إن الأبحاث القائمة الآن بفضل الألمان بقيادة كل من فيلدرنح ودراير وبيتاك وكايزر وكوبلر وغيرهم فى مختلف مناطق مصر والتى تعود لفترة ما قبل الأسرات تؤكد بأن هناك ملوك لفترة ما قبل الوحدة أى أن هناك أكثر مــن حاكم فى فترة واحدة.

لكن لا زالت المصادر التى تؤكد نشاط هؤلاء الحكام قليلة ونادرة لذا فتم تصنيف الأسرتين صفر صفر، و"صفر" على النحو التالى :

الأسرة "صفر صفر" وتشمل الملك "العقرب الأول" و"الملك جوحين":

تلك هى مجرد أسماء أتفق العلماء الألمان على قراءتها بهذا الشكل حيث تم العثور على سرخات فى مناطق أبيدوس وبوتو تل الفراعين وبعض القطــع الأثرية فى الكوم الأحمر بأسوان.

هذا بالإضافة إلى ما تم العثور عليه فى الجبانة "L" بمنطقــة قــسطل، بالنوبة – ففى عام ١٩٦٢ قامت بعثة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو بحفريات فى قسطل بالنوبة بقيادة الأمريكى "كيت سيلى"، وبعد وفاته قام بنشر أعماله "بروس ويليامز" الذى لفت أنظار الجميع بهذا العمل حيث تم العثــور علــى جبانة لا تقل أهمية عن جبانة أبيدوس فيذكر بروس ويليامز فى مقاله فراعنــة النوبة المنسيين الآتى «إن العثور على مدافن بهذا الحجم والثراء فى أى موقع فى مصر يعتبر دليلاً قويًا على وجود الملكية.. لكن بما أن هذا الاكتــشاف قــد حدث فى منطقة النوبة، فى وقت ومكان يعتقد باستحالة وجود ملكية فيهما، فإن القول بوجود ملكية يحتاج إلى إبراز أدلة إضافية، ولحسن الحظ فإن تلك

الأدلة الحاسمة موجودة وتتمثل فى المباخر المنقوشة بالرسخات»، وتم رصد كل المباخر التى تحمل السرخات وبالدراسة توصل ويليامز إلى أن هنـــاك خمـــسة ملوك قد حكموا قبل فترة الملك كا وسبعة آخرين يمكن أن نعتبرهم فى فتـــرة حكم الأسرة "صفر" ولعل ما يؤكد ذلك العثور على ختم يصور رجلاً يجلس على عرش ويرفع إحدى يديه تحية لواجهة القصر أو للقوس رمز المملكة الذى يتوسط الرجل والقصر، وطائر الصقر يقف على بوابة القصر بنفس الطريقـــة الموجودة على المبخرة. كما يوجد خلف الرجل رموزًا مثل حرف D يعتقـــد أنها تمثل مذابح القربان.

كما تم العثور على أثر للملك آخر وهو وجود سلطانية فى القبر رقـــم ٢٣ تصور منظرًا لموكب تظهر فيه ثلاث إناث عقاب اثنان منهما تحملات فى مخلبيهما ثعابين وتهجمان عليها بمنقاريهما، مثـــل المنـــاظر الـــتى تتكـــرر فى مصنوعات عاجية مصرية من فترة قبل الأسرات وترمز إلى صراع أو حـــرب بين جنوب مصر (إناث العقاب) وشمالها (الأفاعى).

الملك "كا" :

تم العثور على مقبرته بأبيدوس وهى عبارةعن غرفة مزدوجة أبعادهـــا ٥,٩ متر × ٣,١ متر، والثانية ٦ × ٣٢ متر وعمق كلا الغرفتين حوالى ٢م، فسر العالم درابر الكتابات المدونة حيث يظهر الاسم مكتوبًا بشكلين مختلفين فهو يظهر بعلامة "كا" المعروفة وأيضًا بنفس العلامة ولكنها مقلوبة.

وقد وجد أكثر من ٤٠ نص فى غرفة دفن الملك "كا" أحدها علـــى ختم أما الباقى فقد نقش على قوارير طويلة أو أوانى أسطوانية تم نقـــشها أو كتابتها بالحبر الأسود.

وبعيدًا عن هذا الموقع فإن الشاهد الوحيد الذى يشير إلى الملك "كا" فى مصر العليا هو اسم الملك مطبوعًا على جزء من قارورة وجدت حديثًا فى

منطقة العضايمة للشمال من السباعية وجنوب إسنا بحوالى ٨كم على الضفة الغربية للنيل[٢].

كما وجدت آثارًا أخرى للملك "كا" فى مواقع شمالية ففى المقبرة "A" فى طراخان حيث وجد إناء أسطوانى الشكل مدون عليه اسم الملك بالحبر الأسود. أيضًا أعمال الحفر والتنقيب التى قام بها فكرى حسن فى منطقة كفر حسن داوود عند الحدود الجنوبية لوادى الطميلات[٣]. فقد عثر على سرخ مرسومًا على آنية فخارية.

وأخيرًا فإن هناك ختم أسطوانى وجد فى حلوان به سرخ مجهول الاسم لكنه عبارة عن شكل إنسان رافعًا يديه إلى أعلى بجانب السرخ ووضع يده اليمنى على السرخ فى المكان الذى يجب أن يكون الاسم مدونًا فيه، ومن هذا الشكل يمكن أن يفسر الباحث رفع اليدين لأعلى هو مقابل علامة كا ومن هنا يمكن أن يطلق على كا اسمه الحورى أى حورس كا.

الملك إرى حور :

يعد الملك إرى حور هو أقدم الملوك الذين عرفوا فى الجبانة B بأبيدوس وقد قرأ بترى اسمه على أنه "رو" إلا أننا نشكك فى التعريف باسم ملكى نظرًا لوجود النسر فى داخل العلامة مباشرة ولم يظهر فى السرخ مطلقًا، إلا أن قراءة اسم الملك على أنها إرى حور قد قبلت بشكل عام بعد مقال نشرته بارتا[٤] عام ١٩٨٢.

وبعد إعادة التنقيب فى مقابر أم العقاب ١٩٦٣ على يد كايلونى والذى عثر على اسم هذا الملك لكنه فسر الاسم بـ ور-رع وهكذا ترجم الطائر على أنه طائر الـ ور[٥].

ثانيًا : عصر الوحـــدة :

لقد حدث تغيير كبير فى مصر منذ نحو ٣٤٠٠ سنة قبـــل المـــيلاد. وتحولت الدولة بسرعة من ثقافة العصر الحجرى الحديث المتقدمة، مـــع مـــا تختاط به هذه الثقافة من صفات قبلية، إلى مملكتين لهما نظام سليم، إحـــداهما تشمل منطقة الدلتا والأخرى وادى النيل، وفى نفس الوقت ظهر فن الكتابة، كما تطورت العمارة والفنون والحرف تطوراً مذهلاً، وتشير كل الدلائل إلى وجود حضارة تتسم بحسن النظام والرخاء . وقد تم كل ذلك فى فترة قصيرة نسبياً، ذلك لأنه يبدو أن هذه التطورات الجذرية فى الكتابة والعمارة كـــان أساسها السابق ضئيلاً إن لم يكن معدوماً .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول سبب هذا التقدم الحضارى المفاجئ، ولكن من المرجح أن السبب الرئيسى يرجع إلى أن شعباً جديداً قد وفـــدا إلى وادى النيل، جالباً معه أساس الحضارة، التى يجـــوز أن نـــسميها بالحـــضارة الفرعونية، حيث يعوزنا اسم أفضل، هذا و لم يثبت بعد ما إذا كان هذا الغزو قد أخذ شكل تسرب تدريجى أم أنه كان غزواً جماعياً، ولكن إذا وازنا القرائن التى لدينا – وأهمها ما أمدتنا به النقوش التى تزين يد سكين من العاج عثـــر عليها فى الجبل العرق، والرسوم التى وجدت على جدران إحدى مقابر العصر السابق للأسرات فى مدينة هيرا كونيوليس – رجحت فكرة الغزو الجماعى . فعلى يد السكين نرى أسلوباً من الفن يظن البعض أن أصله ربما كـــان فنًـــا عراقياً أو سورياً قديماً، كما نرى منظراً قد يمثل معركة بحرية ضد غزاة، وهو الموضوع الذى رسم أيضاً بطريقة بدائية علىَ جدران مقبرة هيرا كونبوليس . وفى كلا المنظرين نرى مراكب مصرية أصلية بحتة، كما نرى مراكب غريبـــة عالية المقدمة والمؤخر، ولا يمكننا أن نخطئ فى أن أصلها عراقى قديم.

وعلى أية حال ، فحوالى الألف الرابع قبل الميلاد تجد القوم المعروفين فى الأساطير "أتباع حوريس" يكونون على ما يبدو السادة المتحـــضرين، أو

الجنس السيد الذى يحكم مصر كلها . ومما يعزز النظرية القائلة بوجود هذا الجنس ذى السيادة، اكتشاف مقابر من أواخر العصر السابق للأسرات فى الجزء الشمالى من الوجه القبلى، تحتوى على بقايا آدمية لقوم جماجمهم أكبر حجماً وأجسامهم أضخم من أجسام السكان الأصليين[٦]. وكان الاختلاف بيناً حتى ليستحيل القول بأن هؤلاء القوم انحدروا من السكان الأصليين السابقين . ولابد أن أندماج الجنسين كان ملحوظاً، ولكنه لم يكن من السرعة بحيث يمكن اعتباره قد تم عندما توحدت البلاد، إذ كان من المستطاع خلال العصر العتيق كله التمييز بين طبقة السادة المتحضرين وبين عامة الشعب، لاسيما فيما يختص بعادات الدفن ونجد عند نهاية الأسرة الثانية فقط الدليل على أن الطبقات السفلى من الشعب تستعمل العمارة الجنائزية وطريقة الدفن التى يستعملها سادتهم .

والجنس الأصلى لهؤلاء الغزاة غير معروف، كما أن الطريق الذى دخلوا منه إلى مصر لايزال أيضاً غامضاً . وإن أوجه التشابه فى الفن الزخرفى، والاشتراك معاً فى استعمال الختم الأسطوانى، وفوق هذا كله نظام الدخلات والخرجات فى عمارتهم الأثرية، لتشير دون خطأ إلى وجود صلة بحضارة ما بين النهرين فى ذلك الوقت ومع وجود أوجه التشابة هذه، فهناك أيضاً أوجه اختلاف كبيرة . ومن الجرأة حقاً ونحن على هذا القدر من المعلومات أن نبت برأى قاطع فى هذا الموضوع البالغ الأهمية . وإذا فرضنا أن مجئ هؤلاء القوم الذين كونوا الأسرات إلى مصر كان على هيئة غزوة جماعية، وأنهم قد أتوا من الشرق، فإن الدلائل تشير إلى أن دخولهم كان عن طريق وادى الحمامات، ذلك الطريق التجارى العظيم الذى يعبر الصحراء الشرقية، ويربط ساحل البحر الأحمر عند القصير بالنيل عند بلدة قفط ولكنه قد ثبت أن طريق وادى الحمامات لايخلو من عقبات كثيرة تعترض أية قوة حربية كبيرة، بسبب نقص الماء فى مسافة تزيد على ٢٠٠٠ كيلو متر، وكبديل لهذا الطريق فى دخول

مصر، يحتمل أن يكون الغزو قد سلك طريق وادى الطميلات، الذى يقع فى شرق الدلتا، وهو طريق قد يمكن الجيوش الهاجمة من اكتساح الدلتا وإذا ما سارت على حافة الصحراء وصلت إلى المجرى الرئيسى للنيل فتخضع فى النهاية الوجه القبلى وتجعله تحت سيطرتها، ومثل هذا الغزو بأى الطريقين، لم يكن ليتم إلاعلى مدى فترة زمنية طويلة(٧). وبغزوات عديدة وقادة مختلفين وقبائل متنوعة، مما أدى فى النهاية إلى تأسيس ولايات عدة تتصارع على الزعامة وإذا كان الأمر كذلك، فإننا نجد أن مصر فى فجر العصر التاريخى كانت تنقسم إلى مملكتين متنافستين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب، ويحكم كلاهما بيت ملكى وسادة من نفس الجنس، وعرف كلاهما باتباع حورس أو "أنصاف الآلهة" طبق ما ورد فى تاريخ مانيتون . ويبدو أن العاصمتين الأصليتين لهاتين الدولتين كانتا "بوتو" فى الوجه البحرى و"هيرا كونيوليس" فى الوجه القبلى، ولكن عندما تمت الوحدة النهائية كانت أهم المدن الرئيسية فى هاتين القوتين هما "سايس" فى الشمال و"طينه أو أبيدرس" فى الجنوب . وهناك من الأسباب ما يدعونا إلى الظن بأنه فى تاريخ أسبق هزمت مملكة الشمال مملكة الجنوب وأن ملوك الشمال قد سيطروا على مصر كلها فترة من الزمان غير أن ميزان القوى قد انقلب أخيراً، وأصبحت الدلتا فى النهاية خاضعة لحكام الوجة القبلى .

وقد عثرنا فى مدينة هيرامونيوليس، وهى العاصمة الدينية القديمة للجنوب، على وثائق الحروب الخاصة بالوحدة، وأهم هذه الوثائق النقوش المحقورة على رأسى صولجانين من الحجر الجيرى كان يستعمل فى الاحتفالات، وكذلك نقوش وجهى لوحة كبيرة جنائزية من حجر الشمست الأخضر . وهذه الآثار يرجع تاريخها إلى ملكين مختلفين، ولكنها جميعا تسجل هزيمة الشمال أولا بواسطة ملك يسمى "العقرب الثانى" ثم على يد نعرمر، الذى يعتبره كثير من المؤرخين الملك مينا .

فرأس صولجان الملك العقرب الثانى من الحجر الجيرى عليه نقوش فى ثلاثة صفوف، يبين الصف الأول طيوراً ميتة معلقة فى أعلام قبائل الجنوب، وهذه الطيور تمثل ولايات الشمال المتحالفة . أما الصف الثانى فإنه يصور الملك لابسا تاج الوجه القبلى الأبيض ويقوم بحفر قناة وسط منظر يمثل أفراحاً، ويرمز هذا بوضوح إلى إعادة تنظيم الدولة . ونرى فى الصف الثالث رجالا قد انهمكوا فى الأعمال السلمية الزراعية، وعلى هذا فإن رأس الصولجان تسجل لنا بذلك الانتصار وإعادة التنظيم والسلم .

وتمدنا لوحة نعرمر وكذلك رأس الصولجان الثانى الذى يرجع إليه أيضاً بأدلة أكثر مادية، ولا يتسرب الشك بأى حال من الأحوال إلى الأحداث التى صورت عليها فعلى لوحة نعرمر نرى الملك لابسا تاج الوجهين القبلى والبحرى، ومن الجلى أنه بهذا يدعى حكم الأرضين، ونراه سائراً فى احتفالات ومعه موظفوه وحمله أعلام جيوشه يستعرض جثث أعدائه الشماليين وقد ربطوا بالحبال وقطعت رءوسهم، كما نراه واقفاً تلك الوقفة التقليدية التى يقفها الفرعون المنتصر، يهوى بدبوس القتال (الصولجان) على رأس عدوه المطروح أرضاً .

أما رأس الصولجان، فنرى عليه نعرمر لابساً التاج الأحمر لدولة الشمال المهزومة وجالساً على عرشة تحميه الإلهة نخبيت إلهة هيراكونيوليس فى شكل رخمة، وأمامه حملة ألوية جيشه وكذلك شخص يجلس فى محفة وأشخاص يمثلون أسرى وأرقام وعلامات تمثل ١٢٠،٠٠٠ ، ٤٠٠،٠٠٠ ثور، ١،٤٢٢،٠٠٠ ماعز وهى غنائم الحرب . ويفسر بعض المؤرخين صورة الشخص الجالس بأنها صورة رجل، ولكن بمقارنته بأشخاص مشابهين على بطاقة خشبية "عثر عليها فى سقارة" يتضح عدم احتمال ذلك، وأن هذه الصورة تمثل سيدة بكل تأكيد، وقد اقترح أنها أميرة من الشمال وقعت فى الأسر، ربما اتخذها الملك المنتصر زوجة له . ومع أن هذا مجرد فرض، إلا أنه

ليس من غير المحتمل ، وربما تكون لدينا هنا صورة لاقتران نيت حتب بنعرمر، فهناك دليل قوى على أن فاتح الشمال قد حاول أن يجعل موقفه شرعياً باتخاذه أميرة الشمال زوجة له . ولا يعرف إلى أى حد قد عزز نعرمر فتوحاته، ولكن يلاحظ أننا لم نعثر على مبان كبيرة من عصره شمال مدينة طرخان، هذا رغم أنه قد وجدت قطعة من الحجر الجيرى عيها شكل يمثل الملكة فى إحدى مقابر حلوان المقابلة لمدينة منف القديمة وبالإضافة إلى نشاطه الحربى، فإن نعرمر قد أرسل بعثات تجارية إلى الصحراء الشرقية، وقد وجد اسمه على صخور وادى القاش جنوب الطريق التجارى العظيم الذى يربط بين فقط والقصير. وقد أمكن التحقق من أن مقبرة نعرمر هى المقبرة المعروفة برقم ١٠ فى المجموعة الشمالية الغربية من مقابر أبيدوس وهى تتكون من حفرة كبيرة كسيت جوانبها باللبن وطولها الكلى ١١ × ٩,٤ أمتار . وهذه المقبرة فى غاية الضآلة إذا ما قورنت بمقبرة الملكة نيت حتب فى نقادة . ونستطيع أن نستنتج أنها لم تكن سوى مقبرته الجنوبية، وأن المكان الحقيقى الذى دفن فيه لا يزال ينتظر الكشفت عنه، ربما فى طرخان أو فى سقارة .

ومقبرة الملكة تعتبر أثراً رائعاً وأطوالها الكلية ٥٣,٤ × ٤٦,٧ أمتار، ومع أنها أول مقبرة من الطراز الشمالى لها بناء علوى ذو دخلات وخرجات، إلا أنها أكثر بدائية فى تصميمها من شبيهاتها فى سقارة، وذلك لأن حجرات الدفن فيها قد بنيت على مستوى الأرض داخل المبانى العلوية ومن العجيب أن تضطر الملكة إلى أن تدفن هكذا بعيداً فى الجنوب، ولايسعنا إلا أن نستخلص من ذلك أنها قد ماتت قبل أن يتم إخضاع الشمال.

ومع أن اسم الملك نعرمر قد وجد على بعض القطع الأثرية التى عثر عليها فى المقبرة، إلا أنه يبدو أن أبنها حورعحا هو الذى قام بدفنها، إذ وجدت قطع عديدة فى هذه المقبرة تحمل اسمه وكذلك أسماء الملكة.

الأسرة الأولى

حور عحا :

بموت نعرمر آل عرش مصر الموحدة تقريباً إلى الملك حورعحا، الذى يعتبر فى رأى العلماء أول ملك من ملوك الأسرة الأولى، وربما يكون هو الملك مينا الذى ذكره المؤرخون القدماء، وقد كان اسمه الأول حور عحا (الصقر المقاتل) بوصفه حاكماً لشعب حورس فى الوجه القبلى، ولكنه بوصفه ملكاً للدولتين المتحدتين فقد اتخذ لنفسه اسم "من" (الثابت) مسبوقاً بلقب "نبتى"، وهذا يرمز إلى الحقيقة التى تعنى أن حامله كان القوة الموحدة لأراضى الشمال والجنوب[٨]. وقد ثبتت العلاقة بين الاسمين عندما عثر فى مقبرة الملكة نيت حتب بنقادة على لوحة صغيرة من العاج، كتب عليها جنباً إلى جنب الاسم الحورى، وهو حورعحا والاسم النبتى وهو مينا. وقد كان لهذه اللوحة من الأهمية ما جعل العالم جارستانج أن يعيد حفر مقبرة نقادة، وهدفه الأساسى العثور على قطعة كانت ناقصة من هذه اللوحة. وقد نجح نجاحاً ما كان يتوقعه، ففضلاً عن العثور على الجزء الناقص فقد اكتشف جزءاً كبيراً من لوحة أخرى ذات رسم مشابه، واستطعنا بفضل هذا الجزء الثانى من اللوحة أن نكمل جزءاً هاماً وسط الصف الأوسط له أهمية تاريخية كبيرة، ولو أنه يعتبر ثانوياً بالنسبة للاسمين المترابطين اللذين يأتيان بعد القبين الحورى والنبتى، ويبدو أن هذا المنظر يمثل بعض الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة ذكرى توحيد الأرضين[٩].

وإذا فرضنا أن حورعحا هو ابن نعرمر من نيت حتب، فإن حقه فى حكم القطرين فى الجنوب والشمال يكون قائماً على أساس متين، سواء عن طريق الفتح أوعن طريق الميراث، رغم أنه قد يبدو أن بعض أجزاء الشمال تعارض حكمه، إلا أن معظم البلاد كانت خاضعة له، وكان المصريون

والليبيون يدينون له بالطاعة وقدموا له الجزية، وكان حقًا ملكـاً للأرضـين، وساد الهدوء الدولة، حتى إنه وجه همه نحو الجنوب حيث هـزم النـوبيين. وثبت حكمه فى إعالى النهر حتى الجندل الأول وكمثل يـضرب لـسياسته الحكيمة فى تهدئة الوجه البحرى، فإنه لدينا وثيقة بناء معبد فى مدينة سـايس (صا الحجر) للإلهة نيت حامية الشمال[١٠].

أما أعظم ما أنجزه حورعحا فى مضمار البناء فكان تأسيس عاصـمة جديدة لمصر المتحدة فى منطقة تبعد نحو ٢٠ ميلا جنوب رأس الدلتا قريباً من الحدود الطبيعية بين الشمال والجنوب . وبناء هذه المدينة التى قدر لها أن تكون مركز الحكم والثقافة لمدة ثلاثة آلاف سنة، ليعتبر مـن الأعمـال الهندسـية العظيمة، إذ كان من الضرورى تحويل مجرى النيل[١١]. ويذكر لنا هيرودوت أن الأمر استدعى تجفيف الأرض من الماء ببناء سد كبير . وقد سميت العاصمة الجديدة "الحائط الأبيض" وعرفت بعد ذلك بمنف[١٢]، ومن هـذه النقطـة الاستراتيجية حكم حورعحا مصر الحديثة العهد بالوحدة . وهناك فى عاصمته الجديدة بنى معبداً كبيراً كرسه للأله بتاح، الذى ظل المعبود الخاص للمدينـة طوال تاريخها الطويل . وهناك أيضاً على حافة الصحراء وإلى الغـرب مـن المدينة شيد مقبرته الشمالية، وهى الأولى فى سلسلة طويلة من المبانى الجنائزية، التى كان على خلفائه من بعده أن يقوموا ببنائها . ويقص علينا المؤرخ ديودور عن فرعون مصر الأول قصصاً أسطورية قليلة القيمة، ومن الصعب تصديقها . فيقول إن الملك خلال رحلة صيد قام بها فى الفيوم، قد هاجمته كلاب صيده بخيانة، و لم ينج منها إلا بالقاء نفسه فى بحيرة وريس، حيث حمله تمـساح إلى الضفة المقابلة، ولكى يحيى ذكرى هذا الهرب العجيب شيد مدينة هناك وكرس البحيرة للتمساح . ويذكر ديودور أن الملك أيضاً بنى هرماً ليدفن فيه بجـوار هذه البقعة . كما يذكر أن المصريين قد تعلموا أول ما تعلموا كيف يعبدون الآلهة وكيف يعيشون فى حالة متحضرة، وربما كان ذلك صـدى لأعمـال

التهدئة التى قام بها نحو البلاد بعد فترة طويلة شاعت فيها الفوضى والمذابح خلال الكفاح من أجل الوحدة[١٣].

ويذكر مانيتون (رواية أفريكانوس) أن الملك العظيم قد مات فى السنة الثالثة والستين من حكمه بسبب الإصابات التى لحقته من فرس النهر. وليست هذه الرواية بغير المحتملة، لأننا نعرف أن صيد فرس النهر كان رياضة شغف بها ملوك الأسرة الأولى، ومع ذلك فيجوز أن تكون هذه القصة رواية أخرى بديلة لقصة التمساح التى ذكرها ديودور.

وقد عثر فى نقادة وأبيدوس على قطع أثرية صغيرة من العاج وبطاقات تحمل اسم بر-أيب الذى يجوز ترجمته "حلو القلب"، وقد أمكن التعرف على مقبرة هذا الشخص فى الشمال الغربى من مجموعة أبيدوس وعلى مقربة جداً من المقبرة المنسوبة إلى حورعحا، وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون بر-أيب ملكته.

وفيما عدا المقبرة الكبيرة الموجودة فى نقادة، وهى المقبرة التى ربما بناها حورعحا لوالدته الملكة نيت – حتب، فلا يزال يوجد مقبرتان كبيرتان لهذا الملك فى أبيدوس وسقارة يبدو أنهما مقبرتاه الشمالية والجنوبية[١٤].

أما عن مقبرة أبيدوس المرقومة برقم ١٩ وهى أكبر مقبرة فى المجموعة الشمالية الغربية فقد أمكن التحقق من أنها مقبرة حورعحا وذلك من القطع الأثرية التى عثر عليها عند عمليات الحفر. وككل مقابر العصر العتيق فى أبيدوس قد أزيلت مبانيها العلوية تماماً ولم يبق سوى حجرة كبيرة سفلية كسيت جوانبها باللبن، ووجدت فى أرضيتها حفر لتثبيت الأعمدة الخشبية التى كانت تحمل سقفها. وتبلغ الأطوال الكلية لهذه المقبرة شاملة الحوائط الساندة الضخمة ١١,٧ × ٩,٤ أمتار. وقد عثر بترى فى مقبرة صغيرة ملاصقة للمقبرة ب ١٩ على قضيب ذهبى لا يعرف الغرض منه، محفور عليه اسم "حورعحا"[١٥].

والمقبرة الشمالية فى سقارة، وهى المعروفة برقم ٢٣٥٧ أكبر حجماً بكثير، كما أن عمارتها أكثر روعة[١٦]. ومع أنها أصغر من مقبرة الملكة نيت – حتب وتشبهها فى التصميم العام، إلا أنها أتقن صنعاً، وتوضح تطوراً أحدث لاسيما فى حجرة الدفن السفلية . وهى تتكون من حفرة كبيرة قطعت فى طبقة الحصى والصخر وقد قسمت إلى خمس حجرات منفصلة بجدران قاطعة وقد كانت هذه الحجرات السفلية مسقوفة بالخشب ويوجد فوقها وعلى مستوى الأرض بناء علوى من اللبن مستطيل الشكل، وجزؤه الداخلى أجوف، ومقسم إلى مجموعة من المخازن عدها ٢٧ سبعة وعشرون خصصت لحفظ المعدات الجنائزية الأخرى[١٧]. والبناء العلوى مع جدرانه الخارجية المحلاة بدخلات وخرجات والذى يحيط به سوران، له أطوال كلية مقدارها ٤٨,٢ × ٢٢متراً . وفى الجانب الشمالى للمقبرة كانت هناك مجموعة من المبانى النموذجية الصغيرة وحفرة كبيرة لمركب مبنية باللبن وكان بداخلها فى الأصل مركب شمس مصنوع من الخشب، بقصد أن تسافر فيه روح الملك العظيم مع الآلهة السماوية فى رحلتها عبر السماوات نهاراً، وعبر العالم السفلى ليلاً[١٨].

وقد أمدتنا مقبرتا أبيدوس وسقارة بقطع أثرية تحمل اسم حورعحا على بطاقات خشبية فى غالب الأحيان، وعلى سدادات للأوانى من الصلصال. وفى مقبرة سقارة عثر على مئات من الجرار الفخارية الصغيرة تحمل كل منها الاسم الملكى ومحتوياتها[١٩].

الملك دجر :

بعد وفاة حورعحا خلفه على عرش البلاد الملك دجر، وربما يكون هو الحاكم الثانى الذى ذكره مانيتون، والذى يقرر أنه حكم مدة ٥٧ سبعة وخمسين عاماً[٢٠].

ومن وثائق عصر الملك دجر بطاقتان بالغتا الأهمية، إحداهما من العاج وقد عثر عليها فى أبيدوس، والأخرى من الخشب وقد وجدت فى سقارة، والظاهر أن البطاقات التى من هذا الطراز كانت تشير إلى السلعة التى كانت البطاقة ملتصقة بها ولكنها أرخت بإحدى سنى حكم الملك، وسجلت عليها الحوادث الرئيسية فى تلك الفترة، وللأسف فإن معلوماتنا عن اللغة المصرية فى العصر العتيق محدودة لدرجة لا نستطيع معها الآن إعطاء ترجمة موثوق بها لهذه النصوص التى لا يمكن تقدير قيمتها، ونستطيع فقط أن ننتقى كلمات غريبة ومجموعات من العلامات التى لاتعطينا سوى أكثر التفسيرات غموضاً . ومن هاتين اللوحتين يبدو أن لوحة أبيدوس تسجل زيارة الملك لبلدتى بوتو وسايس وهما البلدتان المقدستان فى الوجه البحرى كما يظهر أن لوحة سقارة تسجل احتفالاً دينياً هاماً قدمت فيه ضحايا بشرية[٢١]. وقد واصل دجر حروب سلفه فى النوبة، وتوغلت جيوشه جنوباً حتى الشلال الثانى، إذ يوجد بالقرب من وادى حلفا على الضفة الغربية للنيل نص صخرى يرينا الاسم الحورى للملك دجر وأمامه يقف فى مظهر الأسير ممسك بالقوس وهو علامة تمثل بلاد النوبة، وهناك أسير أخر يرى مربوطاً فى مركب حربى مصرى بأسفله أجسام لأعداء مذبوحين ويستحيل البت فيما إذا كان هذا الأثر البدائى يسجل دجر بجرد حملة تأديبية قام بها دجر أم أنه انتصار فعلى، ولكنه قد عثر فى بلاد النوبة السفلى على أشياء من هذا العصر لا يشك فى صناعتها المصرية[٢٢]. ومن الممكن أن يكون دجرقد شن حرباً عند الحدود الشرقية، إذ وجدت فى مقبرته فى سقارة لوحة من المرمر عليها نقش بدائى يبين الملك فى وقفته المألوفة كفرعون المنتصر يصرع أسيراً ليبياً[٢٣]. وقد أسفرت الحفائر الحديثة فى سقارة عن الكشف عن مقبرة كبيرة للملكة حور- نيت، ومما عثر عليه فيها من آثار مكتوبة يمكننا اعتبارها زوجة للملك دجر[٢٤].

واستمر تدعيم وحدة مصر طوال حكم الملك دجر، إذ لا توجد أية وثائق عن وجود نزاع داخلى بل على العكس هناك ما يصح أن يكون خطوة هامة فى سبيل الرخاء . ويتبين ذلك من التوسع فى الإنتاج الفنى والصناعى ومن أميز أمثلة هذا التوسع تلك الحلى التى اكتشفت فى مقبرة الملك الجنوبية فى أبيدوس، وكذلك المجموعة الضخمة من الأوانى النحاسية والآلات والأسلحة التى وجدت فى المقبرة الشمالية بسقارة والسكين الظران البديعة ذات المقبض الذهبى المحفوظة الآن فى متحف تورنتو[٢٥].

ومقبرة دجر الجنوبية فى أبيدوس أكبر بكثير من مقبرة سلفة الموجودة بنفس المنطقة . فهى تتكون من حفرة كبيرة مستطيلة مكسوة باللبن ولها مخازن غير منتظمة فى ثلاثة جوانب . ويظهر أن حجرة الدفن الأصلية كانت مبنية بالخشب ، وكانت المقبرة كلها فى الأصل مسقوفة بكتل وألواح خشبية، على أننا لم نعثر على أى أثر للمبنى العلوى[٢٦]. وتبلغ الأطوال الكلية لهذه المقبرة بما فى ذلك المبنى العلوى ٢١,٥ × ٢٠متراً وكان يحيط بالمقبرة صفوف من مقابر جانبية عددها ٣٣٨ مقبرة. حوت رقاب الخدم الذين ضحى بهم عند دفن الملك، وكان معظم هؤلاء الضحايا من النساء، ووجد مع كثير منهن لوحات حجرية خشنة الصنع تسجل أسماءهن. وعثر أيضاً فى المقبرة على قطع من اللوحة الملكية الكبيرة، ولكن أعجب ما عثر عليه كان تلك الحلى التى أشرنا إليها سابقاً، والتى تشمل أساور ثمينة من الذهب والفيروز والجمشت واللازورد التى وجدت على عظام ذراع آدمية تركها اللصوص لسبب لا يمكن تعليله، ويزيد فى دهشتنا تغاضى لصوص أتوا بعد ذلك عن هذه الحلى[٢٧].

أما المقبرة الشمالية فى سقارة والتى يعزوها البعض مؤقتاً إلى الملك دجر فهى أكبر بكثير من مقبرته فى أبيدوس، وتشبه فى الحجم إلى حد كبير مقبرة حورعحا الشمالية، ولكنها أكثر إتقاناً وتبرز تقدمًا عظيماً فى تطور العمارة لاسيما فيما يختص بحجرة الدفن السفلية والمخازن السبعة المنحوتة إلى عمق

أكبر . و لم يكشف حول المقبرة عن سياجها أو مقابرها الجانبية، ومن الممكن أنها دمرت عند بناء مقابر العصور المتأخرة، وتبلغ الأطوال الكلية للمقبرة ٤١,٣٠ × ١٥,١٥متراً[٢٨].

وقد كشف أيضاً فى سقارة عن مقبرة أخرى ذات تصميم ومقاييس مشابهة، عثر فيها على سدادات أوان عليها أختام، وربما يستنتج من ذلك أنها أيضاً من عصر الملك دجر[٢٩].

الملكة مريت – نيت :

إن الوضع التاريخى والاجتماعى لمريت – نيت غير مؤكد، ولكن هناك ما يحملنا على الفرض بأنها ربما كانت خليفة الملك دجر، وثالثة ملوك هذه الأسرة، ذلك لأنه عند الكشف عن المقبرة المرقومة بحرف (ى) فى أبيدوس سنة ١٩٠٠ وجد فيها بترى لوحة كبيرة تحمل اسم مريت – نيت فقط دون أن يحيط به واجهة القصر التقليدية التى يعلوها الصقر[٣٠]. وكان يعتقد فى ذلك الوقت أن مريت – نيت اسم ملك، والأبحاث التى أجريت بعد ذلك أوضحت أنه اسم امرأة . وإذا حكمنا بناء على ثراء المقبرة فإنها تكون ملكية[٣١]. ومع أن اسمها ظهر على أوانى حجرية وجدت فى المقبرة، إلا أنه لم يعثر فيها على أختام سدادات الأوانى باسم مريت – نيت، وإنما وجدت سدادات كثيرة تحمل اسم أوديمو خامس ملوك الأسرة، وكنتيجة لذلك رأى بعض المؤرخين خطأ أنها زوجته[٣٢]. ومن المؤكد أن أختام أوديمو دخيلة على هذه المقبرة لأن مقبرته ملاصقة لها . وبعثرة مثل هذه القطع كان للأسف مظهراً للحفائر التى أجراها أميللينو، ومع ذلك فقد كشفت الحفائر الحديثة بسقارة عن مقبرة أخرى يظهر أنها للملكةمريت نيت . وذلك لأن النصوص التى وجدت على الأوانى الحجرية وعلى أختام سدادات الأوانى متشابهة مع تلك التى عثر عليها فى أبيدوس وأحدها يظهر أنه اسمها داخل واجهة القصر

"سرخ" يعلوه سهام نيت المتقاطعة وهذه الأختام تشبه أختام نيت — حتـب التى عثر عليها فى نقادة[٣٣].

ومقبرة سقارة رقم ٣٥٠٣ أكبر بكثير من مقبرة أبيــدوس، ويمكــن تأريخها استناداً إلى تصميمها وإلى ما عثر عليه فيها، إلى أوائل الأسرة بكــل تأكيد، فقد عثر فيها على أختام سدادات للملك دجر الذى يبدو جيداً أنه قد سبقها فى الحكم . ويشبه البناء العلوى لهذه المقبرة المبانى العلوية فى مقبرتــى حورعحا ودجر اللتين تقعان على مقربة منها . والواقع أن مريت نيت تمتلك وحدها دون كل سيدات الأسرة الملكية مقبرتين كبيرتين، إحداهما فى أبيدوس والأخرى فى سقارة بجوار مقابر الملوك، مما يوحى بأنها كانت أكثر من زوجة، بل ربما كانت هى شخصياً ملكة حاكمة[٣٤].

ومقبرتها فى أبيدوس تعتبر من أكبر مقابر المجموعة وأحـسنها بنـاء . وتتكون من حفرة كسيت جوانبها باللبن وتقسمها جـدران متقاطعـة إلى حجرة دفن كبيرة فى الوسط تحيط بها ثمانية مخازن، وكان البناء السفلى كله فى الأصل مسقوفا بالخشب كما كان لحجرة الدفن أرضـية خـشبية . وتبلـغ الأطوال الكلية للمقبرة بما فى ذلك البناء العلوى المهدم إذا تخيلنا الصورة التى كان عليها ١٩,٢ × ١٦,٣متراً . ويحيط بالمقبرة ٤١ قبراً جانبياً وجد فيهـا عدد قليل من اللوحات التى تشبه ماعثر عليه فى مقبرة الملك دجر[٣٥].

ولمقبرة سقارة أيضاً مدافن جانبية تحيط بالبناء العلوى الــذى تبلـغ أطواله ٤٢,٦ × ١٦متراً . ولهذه المدافن أهمية كبيرة إذا وجد الكـثير منـها سليماً، ويضم أجسام الضحايا من الخدم الذين دفنوا ووضعت مع كل منهم الأدوات التى تشير إلى ما كان يؤدية لسيدته الملكة،وذلك مثل نماذج قوارب ومعها قبطانها، وأوانى الطلاء موضوعة مع الفنان،والأوانى الحجرية، والآلات البرونزية مع صانع الأوانى، وغير ذلك[٣٦].

ومثل حورعحا كان للملكة حفرة مركب مبنية باللبن إلى الشمال من مقبرتها، وكانت أصلا تحوى مركب شمس طوله ١٧،٧٥ متراً، وذلك لكى تبحر فيه روحها مع إله الشمس .

وبالإضافة إلى مقبرتى أبيدوس وسقارة، فقد عثر فى أبيدوس على مجموعة أخرى من المدافن عددها ٧٧ مدفناً لخدم مريت – نيت، سويت فى صفوف منظمة حول الجوانب الثلاثة لمستطيل . وعلى مقربة من هذا توجد مستطيلات مماثلة لمدافن خدم كل من الملكين دِجر وأوادجى[٣٧]. ولم يتضح لنا بعد بطريقة مرضية المقصود من هذه الجبانات الغربية، ولكن يرى البعض أن المدافن قد صفت حول مبان عظيمة اختفت تماماً، ومهما كان الأمر فيهمنا أننا للمرة الثانية نجد مقبرة للملكة مريت – نيت ذات حجم كبير وعلى مقربة من مقابر الملوك، ونستطيع أن نحكم من اسمها وهومريت نيت أى نيت منتصرة أنها أسوة بالملكة [illegible] حتب كانت أميرة من الشمال وعلى ذلك عاملاً قوياً فى الميزان السياسى فيما بعد الوحدة التى لابد أنها كانت مزعومة فى ذلك التاريخ المبكر من بدايتها . وكما أشرنا سابقاً، فإن هذه الوحدة لم تدعم بواسطة حق الفتح فحسب، بل بواسطة الوحدة الزوجية أيضاً[٣٨].

وادجى "الثعبان" :

إذا فرضنا أن مريت – نيت كانت ملكة حاكمة، سواء قبل الملك دجر أو بعده مباشر فإن وادجى قد يكون الملك الرابع فى الأسرة ويبدو محتملاً إذا فحصنا إحدى بطاقات سقارة المكتوبة، أن لقب نبتى لهذا الملك كان يسبق الاسم إيترتى Iterti ، وهو اسم يجوز أن ينطبق على أى من الأسماء الثانى أو الثالث أو الرابع من الأسماء الموجود ة على قائمة ملوك أبيدوس، ويبدو أيضاً أن أيترتى هو نفس أثوثيس Athosis فى عرف مانيتون الذى اعتبره الملك الثانى فى الأسرة وهو اعتبار يستحيل قبوله، بالنسبة لأوادجى الذى تولى الملك بعد دجر ومريت نيت[٣٩]. وقد وجد اسم وادجى على

صخرة طبيعية فى الصحراء الشرقية جنوب إدفو، يشير إلى إحدى البعثات المرسلة إلى هذه المناجم وربما إلى شاطئ البحر الأحمر وخلال حكمه استمر التقدم فى الأعمال المعمارية والفنية، ومع أن مقبرته الجنوبية فى أبيدوس تمثل تطوراً ضئيلاً بالنسبة إلى المقابر العظيمة التى يحتمل أن تكون مقبرته، وهى تبين خطوة حاسمة للأمام، سواء فى التصميم أو فى فن البناء(٤٠).

وقد كشف عن لوحة وادجى الجنائزية فى مقبرة أبيدوس، ويمكن اعتبار هذه اللوحة أول عمل عظيم فى الفن المصرى وصلنا من مصر القديمة وهى توضح كمالاً فى التصميم والصناعة يتعذر التفوق عليه فى العصور التالية الجوفاء وهى الآن من أعظم كنوز المجموعة المصرية فى متحف اللوفر (لوحة ٢ب)(٤١). وقد أمدتنا المقبرة الشمالية فى سقارة أيضاً بقطع أثرية لها قيمتها الفنية الهامة، لاسيما تلك المصنوعة من الخشب المنقوش والأثاث وقطع اللعب المصنوعة من العاج . وهناك شخص يدعى سخم – كا، ربما كان موظفاً هاماً فى ذلك الوقت، وطالما ظهر اسمه مقروناً باسم الملك على قطع أثرية عثر علها فى مقبرة سقارة(٤٢).

وتتكون مقبرة وادجى الجنوبية فى أبيدوس من حفرة كبيرة وجدت بها بقايا حجرة دفن خشبية، يحف بها من ثلاثة جوانب مجموعة من المخازن المبنية باللبن وتبلغ أطوال المقبرة كلها مع إضافة البناء العلوى، كما اقترحنا ترميمة ١٩×١٥متراً وكان يحيط بالمقبرة ١٧٤مدفناً للضحايا من خدم الملك عثر فيها على وادجى أسوة بما كان للملكة مريت نيت مستطيل كبير يضم ١٦١مقبرة للخدم فى الأرض التى هى أكثر انخفاضاً فى أبيدوس(٤٣).

ويبدو أن المقبرة الكبيرة رقم ٣٥٠٤ فى سقارة كانت المدفن الشمالى للملك، مع أن تكرار اسم الموظف الكبير المسمى سخم – كا على قطع أثرية عثر عليها فى المقبرة يرجح أن المقبرة له وليست مقبرة الملك، إلا أنه من المستحيل غالباً أن يتصور الإنسان أن نبيلا مهما كانت عظمته، يمكن أن

يمتلك مقبرة أعظم بكثير من مقبرة سيده، ذلك لأن المقبرة تكاد تكون ضعف مقبرة أبيدوس فى الاتساع والتصميم العام للمبنى يمثل تطوراً فى طراز المقابر التى بنيت فى سقارة خلال حكم الملكين حورعحا ودجر، ولكن فيما عدا هذا فإنها تعتبر أكبر، وأطوالها الكلية هى ٥٦,٤٥ × ٢٥,٤٥ متراً[٤٤].

ويتكون البناء السفلى من حفرة كبيرة نحتت تحت مستوى الأرض، وتقسمها جدران متقاطعة إلى خمس حجرات، الوسطى منها هى حجرة الدفن، وكان لها فى الأصل لوحات من الخشب المطعم بشرائط من صفائح ذهبية . ولهذه الحجرات الخمس مجموعة من المخازن المبنية فى الجانبين الشرقى والغربى . وقد سقف بالخشب كل المبنى السفلى وحجراته، كما غثر على نقش يفيد عبارة "أول مرة لضرب الشرق". فكانت الحرب ضد سكان الصحراء الشرقية ضرورية لتأمين الطرق التجارية فى وادى المغارة لاستخراج النحاس والبرونز من مناجم سيناء وهى مواد بالغة الأهمية[٤٥].

والسنة الثالثة تسجل مهرجانات تسمى "ظهور ملك الوجه القبلى" ثم (ظهور ملك الوجه البحرى)، والاحتفال بالعيد الثلاثينى للملك وهو المعروف بعيد "سد" وهذا الاحتفال كان إحياء للزمن الذى لم يكن مسموحاً للحاكم فيه أن يتخطى مدة ثلاثين سنة، ولكن بحلول الأسرة الأولى تطورت هذه العادة إلى عيد ثلاثينى واحتفال سحرى، كان الملك يجدد فيه صباه ويستمر فى الحكم وهناك لوحة أخرى من أبيدوس وخاتم سدادة بالطين من سقارة يسجلان أيضاً هذه الحوادث[٤٦].

والسنة الرابعة تسجل إحصاء لجميع سكان المقاطعات فى الغرب والشمال والشرق، كما تذكر السنة الخامسة الحلول الثانى لعيد الإلهة واجيت، المعبودة الحامية لمدينة بوتو، وهى إحدى المدن الرئيسية فى الوجه البحرى .

والسنتان السادسة والسابعة تذكران تصميم ووضع أساس قصر أو معبد يسمى "عروش الآلهة" وفى السنة الثامنة يذكر افتتاح البحيرة المتصلة بهذا

المبنى . وفى هذه السنة أيضاً سجلت حادثة صيد فرس النهر، وهى حادثة ذات أهمية كبيرة جاء ذكرها أيضاً على ختم سدادة إناء عثر عليه فى أبيدوس[٤٧].

والسنة التاسعة تسجل مقراً من المفروض أنه خاص بالملك عند بحيرة الإلهة مرسانيس فى هيرامليوبوليس (إهناسيا) ويبدو أن هذا أيضاً قد سجل على بطاقة من أبيدوس رسم عليها هيكل المعبود .

والسنة العاشرة تسجل تدميراً حربياً لمنطقة غير معروفة تسمى "وركا" والسنة الحدتية عشر تحدد فيها احتفال يقال له ميلاد الإله سد .

والسنة الثانية عشر تسجل احتفالاً يسمى "ظهور ملك الوجه البحرى" وكذلك "الحلول الأولى لجرى أبيس" وهذه الحادثة الأخيرة لها أهمية عظيمة، حيث نجد أنها تظهر أيضاً على ختم سدادة إناء من سقارة . والاحتفال بجرى أبيس يظهر أنه كان من طقوس الإخصاب التى كانت مرتبطة برباط وثيق باحتفال عيد سد.

والسنتان الثالثة عشر والرابعة عشر تسجلان احتفالات الآلهة "سشات" و"مفدت Mefdet " وظهور ملك الوجه القبلى[٤٨].

وللأسف تنتهى قطعة حجر بالرمو عند هذه النقطة ولا تعطينا حلاً لبدء الحكم أو نهايته[٤٩].

الملك أوديمو :

ونلمس فى حكم أوديمو تقدماً مطرداً فى الفنون والحرف، ودليلاً واضحاً على حالة التحضر فى ظل حكومة حسنة التنظيم . وقد قام نبيل يسمى حماكا بدور هام فى هذه الحكومة، حيث كان كبيراً للقضاة وله مكانة مرموقة ويحمل لقب "المسيطر على قلب الملك" ويظهر اسم هذا النبيل العظيم مراراً على بطاقات وعلى أختام السدادات من أبيدوس وسقارة، كما يظهر عليها أيضاً اسم آخر لموظف كبير فى هذا العصر يسمى "عنخ كا"[٥٠].

وقد كشف فى سقارة فى سنة ١٩٣٥على مقبرة كبيرة، ظن حينذاك أنها مثوى حماكا، ولكن الاكتشافات الحديثة فى مقبرة أخرى فى سقارة قد بُينت على وجه التأكيد خطأ هذا الظن وأنه من الواجب الآن أن تعتبر هذه المقبرة الكبيرة رقم (٣٠٣٥) أنها لم تكن مقبرة كبير القضاة، ولكنها الضريح الشمالى للملك أوديمو . ومهما كان الأمر فإنها تعتبر أكبر مقبرة من عصر هذا الملك وحجمها يكبر بكثير عن حجم مقبرة الملك الجنوبية فى أبيدوس . وتبلغ الأطوال الكلية للمقبرة ٥٧,٣ × ٢٦متراً وتحتوى على بناء سفلى من ثلاث حجرات منحوتة فى الصخر تفتح على حفرة كبيرة مكشوفة كان لها فى الأصل سقف من الخشب. وقد كان الوصول إلى البناء السفلى عن طريق درج منحدر تحت الأرض، أغلق على مسافات بواسطة سدادات حجرية مستطيلة، كانت توضع فى أماكنها بعد الدفن. وكان يوجد فى الجزء العلوى بناء مستطيل مبنى باللبن يحوى ٤٥مخزناً، وله جدران خارجية بنيت كالعادة بطريقة الدخلات والخرجات. وبعض هذه المخازن قد نجا من سطو اللصوص القدماء، وكشف عنها سليمة مع مجموعة من القطع الأثرية التى ظلت حيث هى لم تلمسها يد إنسان لمدة ٥٠٠٠سنة . ووجدت بكثرة آلات وأسلحة ودمى وأوانى من البلور الصخرى والمرمر والشيست، وهى تكون حالياً أكبر مجموعة كشف عنها من آثار العصر العتيق(٥١).

ومع أن مقبرة أوديمو فى أبيدوس أصغر بكثير من مقبرة سقارة إلا أنها تدل على تقدم معمارى كبير، وإذا قورنت بمقابر الملوك السابقين كانت عمارتها أعظم تأثيراً . وبها مثل مقبرة سقارة درج ينحدر إلى أسفل حيث يؤدى إلى حفرة كبيرة كانت مسقوفة أصلاً بالخشب ولها أرضية من كتل الجرانيت . وقد اختفى البناء العلوى تماماً، ولكن من المحتمل أن أطواله كانت ٢٣,٥ × ١٦,٤متراً، ويحيط بالمقبرة نحو١٣٦ مدفناً للخدم، منها ما كان يضم رفات رجال ونساء . وجد فيها الكثير من اللوحات العادية الخشنة

الصنع، كما عثر على أختام جرار للملك أوديمو فى المقبرة التى ظن أنها للملكة "حرنيت" زوجة الملك دجر، ولا يوجد أدنى شك فى أنهـــا دفنـــت خـــلال حكمه[٥٢].

ويبدو أن حكم أوديمو كان أزهى حكم فى الأســـرة الأولى كلـــها، وظلت ذكرى الملك العظيم فى الأذهان فى العصور التالية فـــسجلت برديـــة أيبرس الطبية وصفة طبية تعزى إلى هذا الوقت، وترجع إلى الوراء ١٥٠٠ سنة كما أن الفصل الرابع والستين من كتاب الموتى يعزى إلى حكمه، ومن أشهر القطع التى حصلنا عليها من مقبرة أبيدوس غطاء صندوق من العاج لابد أنـــه كان فى الأصل معداً لحفظ خاتمه الذهبى المخصص للأحكام[٥٣].

عدج – إيب :

خلف أوديمو على العرش الملك عدج – إيب وكان اسمـــه المـــسبوق بلقب "نسوبيتى" هو مربابن وعلى ذلك يمكـــن معرفتـــه باســـم مبـــديوس Miebidos طبقاً لمانيتون، الذى أفاد بأنه حكم ستة وعشرين عاماً[٥٤]. وكان عدج إيب أول ملك ورد ذكره فى قائمة سقارة الملكية، ومن هذا نستنتج أنه كان أول حاكم من طينة اعترف الوجه البحرى به كحاكم شرعى. ومـــن الجدير بالأهمية أن اسمه المكتوب على الأوانى الحجرية قد أزيل مراراً بواســـطة خلفه سمرخت، وهذا بدوره قد أزيل اسمه أيضاً من قائمة سقارة . وكل ذلك يوحى بنـــزاع فى الأسرة بين المتنافسين على الحكم، الذين نال واحد منـــهم تعضيداً من الوجة القبلى، بينما عضد الوجه البحرى الآخر . ومع ذلك فـــلا يبدو ما يدل على حدوث انقسام معين فى وحدة القطرين خلال حكم عدج – إيب على أقل تقدير، وذلك حيث توجد مقبرتان، إحداهما لايشك فى أنها مقبرته وهى تقع فى أبيدوس بينما يحتمل أن الأخرى وهى من عصره أيـــضاً مثواه فى سقارة، ومع هذا يلاحظ أن مقبرته فى أبيدوس هى أصغر وأفقر المبانى

فى المجموعة كلها وحتى مقبرة سقارة مع إبداع تصميمها وعمارتها فهى ولا شك أصغر من المقابر الآخرى من هذا الطراز فى المنطقة . وتتكون مقبرة أيدوس من حفرة يكسوها بناء من اللبن وتنقسم بواسطة جدار قاطع إلى حجرتين يمكن الوصول إليهما بواسطة درج ينحدر من الشرق إلى الغرفة الرئيسية وكان لحجرة الدفن فى الأصل أرضية وجدران وسقف من الخشب. وأطوالها الكلية، بما فى ذلك البناء العلوى كما نتخيله ١٦,٤×٩متراً. ويحيط بالمبنى الرئيسى أربعة وستون مدفناً فقير البناء للضحايا من الخدم(٥٥).

وتقدم إلينا مقبرة رقم ٣٠٣٨ مظاهر معمارية هامة وشيقة لم تحفظها لنا حتى الآن أية مقابر أخرى من ذلك العصر فالبناء يرجع تارخه إلى "عدج – إيب" ومع أن اسم أحد الموظفين ويدعى "نبت كا Nebitka" قد وجد على اختام سدادات للجرار وعلى أشياء أخرى، إلا أنه يبدو محتملاً أن هذه المقبرة هى المكان الذى دفن فيه الملك . وعندما كشف عنها فى بادئ الأمر، ظهر أن البناء العلوى للمقبرة يتبع التصميم الشائع لمنصة مستطيلة، قد زين خارجها بدخلات وخرجات، ولكن مع موالاة الحفر ظهر مبنى هرم مدرج مخبأ بداخلها(٥٦). ولم يبق من البناء المدرج سوى جزء منخفض ربما استمر بناؤه إلى أعلى مكوناً بذلك شكل هرم مدرج كامل وقد اتضح أن مقبرة الملكة "حرنيت" فى سقارة كانت ذات مظهر مشابه، مع أنها من نوع أكثر قدما، وقد أخذ هذا المظهر شكل رابية ترابية مستطيلة يكسوها بناء من اللبن، ومن الواضح أن هذا طراز سابق لداخل المبنى العلوى لمقبرة عدج إيب . وقد وجدت بقايا هذه الركمة الترابية فى مقابر أخرى بسقارة، وهناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المبنى التالى، وهو البناء اللبنى المدرج، كان مظهراً عادياً لمعظم المقابر الكبيرة فى الشمال فى النصف الأخير من الأسرة . وسبب إخفاء تصميم داخلى آخر ذى فكرة مختلفة جذرياً يدعو إلى الحيرة، ولكننى أظن أن التفسير المحتمل لذلك هو أنه يمثل الارتباط بين تصميمات المبانى العلوية فى الوجهين

القبلى والبحرى فى مبنى واحد، وهو الركمة الترابيـــة أو المـــبنى المـــدرج فى الجنوب والمبنى المستطيل ذو الدخلات والخرجات فى الشمال . والتأثير الممكن لهذه الظاهرة المعمارية الغربية على تطور تصميم الهرم. وهناك ظـــاهرة غـــير عادية أخرى لمقبرة عدج إيب الشمالية وهى الدرج ذو المـــدخلين أحـــدهما لحجرات الدفن السفلية، والآخر إلى حجرة فوقها وإلى مخزن حبوب به صوامع قمح مبنية والأطوال الكلية لهذه المقبرة هى ٣٧ × ١٣,٨٥متراً(٥٧).

سمرخت :

يرى بعض المؤرخين أن سمرخت كان مغتصباً للملـــك، ولكـــن إلى جانب محوه لاسم سلفه على الآوانى الحجرية وإغفال اسمه من قائمة سقارة لا يوجد برهان قوى على ذلك . ومع ذلك يظهر ان حكمه لم يكن مـــستقراً، لآن اسم سمنبتاح Semenptah الذى كان يأتى بعد كل من لقبى نبتى ونسوبيتى يمكن بالتأكيد أن يكون سمبسيس Semempaes الذى ذكره مانيتون والـــذى ورد عنه أنه خلال حكم هذا الملك كانت توجد نذر شؤم عديدة وكارثـــة عظيمة ويقدر مانيتون مدة حكمه بثمانى عشرة سنة، ولكن قطعـــة الحجـــر الموجودة بالقاهرة من حجر بالرمو تعطيه تسع سنوات فقط وإلى وقت قريب كان يعتقد أن لوحة صخرية كبيرة فى وادى المغارة بشبه جزيرة سيناء سجلت انتصارات سمرخت فى غزوة بتلك المنطقة(٥٨). ولكن الاسم الموجود على هذا الأثر أمكن معرفته الان باسم "سخم خت" وهو أحد الملوك الأوائل فى الأسرة الثالثة، وقد كشف عن هرمه الناقص فى سقارة سنة ١٩٥٤. و لم يعثر حـــتى الآن على أى أثر للملك سمرخت فى سقارة، ولكن مقبرتـــــه فى أبيـــدوس تفوق بكثير مقبرة سلفه عدج – إيب وتتكون من حجرة دفن سفلية كسيت جدرانها باللبن ويمكن دخولها من الشرق بواسطة ممر منحدر وكانت المقـــبرة فى الأصل ذات سقف خشبى، يحيط بها مدافن منتظمة جيدة البنـــاء للخـــدم

الملكى، ويظهر أنه من المحتمل أن البناء العلوى كان يغطى حجرة الدفن كما يغطى المدافن الجانبية وتبلغ أطواله الكلية نحو ٢٩,٢ × ٢٠,٨ متراً . وقد عثر فى المقبرة على لوحة كبيرة من حجر الكوارتز الأسود وعليها اسم الملك يعلوه لقب الصقر (الحورى)[٥٩].

ويظهر على بعض بطاقات عاجية وجدت فى مقبرة سمرخت اسم المدعو "حنوكا Henuka" الذى يمكن اعتباره موظفاً كبيراً خلال حكم هذا الملك وحكم خلفه[٦٠].

قاعا :

بعد أن حكم سمرخت البلاد لفترة قصيرة خلفه على ما يبدو الملك قاعا، الذى قد يكون الملك كبحو Kebhu الذى ورد اسمه فى قائمة أبيدوس ويعطى مانيتون اسم بينيخيس Bieneches لآخر ملك فى الآسرة، كما يذكر أنه حكم مدة ستة وعشرين عاماً، ولكن لا يوجد دليل ما يؤيد انطباق هذا الاسم على الملك قاعا، ومن الممكن أن المؤرخ المصرى قد أخطأ على الأقل فى الاسم مع جواز أن يكون ما قرره عن مدة حكمه صحيحاً[٦١].

ويلاحظ بوضوح تقدماً فى التصميم المعمارى خلال هذه الفترة وعدا مقبرته الجنوبية أو التذكارية فى أبيدوس، فقد كشف حديثاً فى سقارة على أربع مقابر كبيرة من عهد الملك قاعا، إحدها وهى رقم ٣٥٠٥ وهى بكل تأكيد المكان الذى دفن فيه فعلا .

ومقبرة الملك فى أبيدوس أكثر إتقاناً فى البناء من مقبرة سلفه، والتصميم العام لمبناها العلوى يضاهى بدقة مبانى نفس العصر فى سقارة وهى تتكون من حفرة مستطيلة عميقة ذات مدخل على شكل درج ينحدر من الشمال الغربى، وعلى كلاجانبى الدرج يوجد مخزنان . وقد كان لهذه المخازن ولحجرة الدفن سقف خشبى . ويحيط بالمبنى الأوسط مخازن أكثر. وكذلك

أربعة وعشرون مدفناً للخدم، لها جميعاً أرضية على مستوى أعلى من حجرة الدفن والدرج . وهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن البناء العلوى المهدم كان يغطى فى الأصل المقبرة كلها، وكانت أطواله تبلغ ٣٠ × ٢٣ متراً. والتى كشف فيها على بقايا لوحتين فى الجانب الشرقى للبناء وكلاهما يحمل الاسم الحورى للملك قاعا ولكن هذه المقبرة الهائلة فى أبيدوس تعتبر صغيرة وقبيحة المنظر إذا قورنت بالمقبرة الكبيرة المكتشفة عام ١٩٥٤ فى سقارة. فيتكون المبنى من بناء علوى مستطيل من اللبن مزين من الخارج بالدخلات والخرجات العادية التى وجد عليها طبقة جصية (فرسكو) متعددة الألوان فى حالة جيدة من الحفظ، وتتكون من رسوم هندسية تقلد زخارف الحصير، ويوصل ممر منحدر إلى حجرة الدفن المنحوتة فى الصخر وإلى مخازن تخطيطها يشبه تخطيط مقبرة أبيدوس ويحيط بالبناء العلوى ذى الدخلات والخرجات سور سميك، بداخله على الجانب الشمالى من المقبرة معبد جنائزى يتكون من العديد من الحجرات والدهاليز يشبه المعابد الجنائزية للأهرامات(٦٢). وفى الحقيقة يمكن اعتبارهذا المبنى العظيم الذى يرجع تاريخه إلى نهاية الأسرة الأولى الطراز السابق لمبانى الأهرامات وملحقاتها فى العصور التالية . وتبلغ الأطوال الكلية لهذه المقبرة ٦٥×٣٧متراً . ولم يعثر حول المقبرة على مدافن إضافية للضحايا من الخدم، ويظهر أنه فى عهد قاعا تلاشت هذه العادة الهمجية فى الشمال الأكثر تحضراً . صحيح أن هناك مقبرة جانبية على قدر من الحجم قد كشف عنها فى الجانب الجنوبى من مدخل المقبرة، ولكنها كانت مقبرة نبيل، من المحتمل أن تكون قد أعطى شرف الدفن داخل حرم القبر الملكى . وقد وجدت لوحة هذا النبيل المسمى "مركا" لوحة ٣٠ (أ) على مقربة من المقبرة . وهذا الأثر المكتوب بالإضافة إلى لوحة أخرى أصغر لنبيل يدعى "سابف" وجدت فى مقبرة أبيدوس ويبينان بما عليهما من قائمة طويلة بالألقاب، إنه فى زمن قاعا كانت الكتابة قد تطورت فى العصر العتيق .

وفضلا عن ذلك فإن ألقاب هذين النبيلين كانت تقريباً بالشكل التقليدى الذى أصبح القاعدة فى العصور التى تلت ذلك[٦٣].

وهناك مقبرة أخرى كبيرة فى سقارة وهى رقم ٣٥٠٠ ترجع أيضاً إلى عصر الملك قاعا، وربما كانت تخص زوجته أوتخص شخصية أخرى هامة من الأسرة الملكية . وقد وجدت أربع مقابر جانبية ملاصقة لهذه المقبرة، ومع أنها جميعاً تدل على أن دفناتها كانت فى نفس الوقت إلا أنها لاتوحى بالتضحية الجماعية التى رافقت دفن الملوك فى أبيدوس. وفيما عدا مركا وسابف، فإن النبيل حنوكا استمر يتقلد وظيفته خلال حكم الملك قاعا[٦٤].

موجز الأسرة الأولى

الاسم	المقابر الهامة	المراجع
حورعحا	المقبرة رقم ب١٩ أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٣٥٧ فى سقارة	(Emery, Hor-aha)
	مقبرة نيت حتب فى نقادة	(De Morgan, Recherches Sur Ies origins de I,Egypte , Tambas Royal de Nagadeh Borchardt. Das Grab des Menes. Zeitchrift Fur Agyptische Sprach,36)
دجر	المقبرة و٥ ق إبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٤٧١ فى سقارة	(Emery, Great Tombs,I)
	المقبرة ٢١٨٥ فى سقارة	(Quibell, Archaic Mastabas)
مريت-نيت	المقبرة ىYفى أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٥٠٣ فى سقارة	(Emery.Great TombesII
	سياج مدافن الضحايا	(Petrie, Tombs of the Courtiers)
وادجى (الثعبان)	المقبرة زZ فى أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٥٠٤ فى سقارة	(Pertie,Great Tombs II
	مقبرة الجيزة	(Patrie, Gizeh and Rifeh)
أوديمو	المقبرة تT فى أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٠٣٥ فى سقارة	(Emery, Tomb of Hemaka)

الاسم	المقابر الهامة	المراجع
	المقبرة ٣٠٣٦ فى سقارة	(Emery, Great Tombs I)
	المقبرة ٣٥٠٦ فى سقارة	(Emery, Great Tombs II)
عذج-إيب	المقبرة ٣٠٣٨ فى سقارة	(Emery, Great Tombs I)
	المقبرة س X فى إبيدوس	(Petrie Royal Tombs)
سمرخت	المقبرة U فى أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
قاعا	المقبرة قQ أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
	المقبرة ٣٥٠٥ فى سقارة	(Emery Grest Tombs III)
	المقبرة ٣٥٠٠ فى سقارة	(Emery, Great Tombs III)

الأسرة الثانية

حتب سخموى :

لا نعرف سبب سقوط الأسرة الأولى كما أن الفرق بين البيتين المالكين غير واضح . ويذكر مانيتون أن كليهما كانا أصلا من طينة، ولكن مقابرهم الجنوبية — باستثناء مقبرتى خعع سخموى وبر إيب سن — إن كان لهاتين المقبرتين وجود، لم يعثر عليهما بعد فى المنطقة، وهى بالتأكيد لا تشكل جزءاً من مجموعة أبيدوس فى أم الجعاب[٦٥]. وعلى ذلك نستنتج أن ما ذكره مانتيون عن تغيير فى الأسرة إنما يستند إلى أساس ثابت . وهو يخبرنا بأن الأسرة تكونت من تسعة حكام حكموا جميعاً مدة ٣٠٢ سنة[٦٦]. وقد ثبت بناء على أسانيد أثرية نظام تعاقب الأربعة الأول من هؤلاء الملوك، ولكن بعد ذلك أصبح تسلسلهم أو التعرف عليهم غير مؤكد . وكان الأسم الحورى لمؤسس الأسرة هو حتب — سخموى ؛ الذى يمكن أن يكون بوزاو Buzau الذى ورد فى قوائم الملوك وكذلك بوذوس Boethos فى عرف مانيتون[٦٧]. ويظهر اسمه "حتب سخموى" مع أسماء اثنين من خلفائه المباشرين على تمثال من الجرانيت وجد فى منف، وقد ظن البعض كنتيجة للعثور على إناء من الظران فى الجيزة أن ترتيب الأسماء على التمثال ليس من الضرورى أن يكون مطابقاً للتاريخ، ولكن هذا الظن ليس محتملاً، ويبدو أن تسلسل الأسماء كان صحيحاً[٦٨]. ولم يعثر على مقبرته بعد، ولكن استناداً إلى الكشف فى دهليز سفلى بالقرب من هرم أوناس فى سقارة عن أختام سدادات جرار تحمل اسمه يجعل من المحتمل أن مقبرته كانت تقع فى هذه المنطقة . ويذكر مانتيون أنه خلال حكمه الذى استمر ثمانية وثلاثين عاماً، حدث تشقق فى الأرض فى بوبسطة وأن كثيرين قد هلكوا ونظراً لأن هذه المنطقة من الدلتا دلائل

جيولوجية تشير إلى اضطرابات بركانية، فمن المحتمل أن يكون لهذه القـــصة أساس من الحقيقة[٦٩].

رع - نب :

خلف حتب سخموى على عرش البلاد الملك رع – نب وهو يسمى كاكاو Kakaw فى قوائم الملوك وكـــايخوس Kaichos طبقـــاً لمـــانيتون، ولم يكشف عن مقبرته بعد، غير أنه كخلفه حتب سخموى[٧٠]، قد وجد اسمـــه على أختام طينية عثر عليها فى الدهاليز السفلية بالقرب من هرم أونـــاس فى سقارة حتى أن مقبرته يحتمل وجودها فى مكان ما فى هذه المنطقة[٧١]. وعلى مقربة من طريق تجارى قديم يوصل للواحات الغربية خلف أرمنت، وجد اسم رع – نب مكتوباً على صخر بطريقة خشنة[٧٢].

ويذكر مانيتون أنه خلال حكم رع – نب، استقرت عبادة عجـــل أبيس فى منف، وعجل منيفيس Meaevis فى هيليوبوليس، والماعز فى منديس ولكنا كما لاحظنا نرى أن عبادة أبيس كانت قائمة منذ الأسرة الأولى ويذكر المؤرخ المصرى أن رع – نب حكم تسعة وثلاثين عاماً[٧٣].

يمكننا التعرف على نى نثر، خليفـــة رع – نـــب، باســـم بـــاننتيرو Banentiru الذى ورد فى قوائم الملوك وأيضاً باسم بينوثريس Binothris الذى ذكره مانيتون، والذى يقول عنه، أنه حكم مدة سبعة وأربعين عاماً[٧٤]. وقد حفظ لنا حجر بالرمو أخباره فيما بين السنة السادسة والسنة العشرين مـــن حكمه، ولكنها ليست أخباراً عظيمة الأهمية، لأنها تنصب أساساً على الأعياد الدينية وأرقام الإحصائيات العادية، ومع ذلك تسجل إنشاء قصر أومبنى آخر هام يسمى حور– رن Hor-ren فى السنة السابعة، ومماهو أكثر أهمية وجـــود إشارة فى هذه الأخبار إلى حرب أهلية فى السنة الثالثة عشرة، وفيها ما يـــشير أيضاً إلى تدمير شمرا Shemra وها Ha (بيت الشمال) . وتذكر الأخبار أيضاً "جرى أبيس" فى السنة التاسعة والسنة الخامسة عشرة[٧٥].

وبناء على ماذكره مانيتون، فإنه قد تقرر خلال حكم نى نثر أن المرأة قد تستطيع أن تتولى العرش، وهذا يثير سؤالاً هاماً بالنسبة إلى مايحيرنا عن مركز الملكة مريت – نيت فى الأسرة السابقة(٧٦).

والظاهر أنه لم يعثر بعد على مقبرة نى نثر ، ولكنه قد عثر على أختام أو أن تحمل اسمه بالقرب من الجيزة، ولابد من أن نوضح أنه من الممكن أن تكون هذه المقبرة هى المكان الذى دفن فيه رغم وجود ثلاث مقابر كبيرة فى سقارة لا يشك فى أنها من عصره، وإحداها رقم ٢٣٠٢ وهى ذات حجم كبير يمكن اعتبارها المكان الذى وجد فيه راحته الأبدية(٧٧). ومع ذلك فقد عثر داخل المبنى العلوى لهذه المقبرة على بقايا إناء حجرى يحمل اسم أمير يدعى راوبن Rauben والبناء العلوى الذى تبلغ أطواله ٥٨ × ٣٢,٦٤متراً قد بنى باللبن وحشيت جدرانه بالطمى الأسود – والبناء الخارجى للمقبرة بسيط وله مشكاه عند الطرف الشمالى والجنوبى من الجانب الشرقى وينحدر الدرج من الشرق ويميل بزاوية قائمة ناحية الجنوب مؤدياً عبر سدادة إلى سلسلة معقدة من الحجرات السفلية المنحوتة فى الصخر وقد وجدت سدادات جرار تحمل اسم نى نثر على مقربة من هرم أو ناس فى سقارة(٧٨). وفى مجموعة ميخا يليدس فى القاهرة تمثال صغير جالس من المرمر يعزى إلى نى نثر ، وذلك بناء على نص مكتوب على العرش . وقد صور الملك لابساً التاج الأبيض ومرتدياً رداءه التقليدى الذى يلبس فى احتفال عيد سد(٧٩).

سخم – إيب (بر – إيب – سن):

خلال حكم سخم – إيب، الذى عرف فى قائمة الملوك باسم، وادج نس Waznes كما عرف باسم تلاس Tlas عند مانيتون قامت بوادر إحدى الثورات السياسية والدينية ومع أننا لانستطيع التأكد من مكانها إلا أنه يبدو محتملا أن السكان الأصليين لوادى النيل كانوا لا يزالون يحتلون مساحة واسعة

من البلاد حيث كانوا يعبدون ست الملك الإله لمصر قبل أن يدخلها أتباع حورس و لم تعرف البواعث السياسسة وراء عمليات سخم – إيب، ولكن فى وقت ما خلال حكمه القصير، الذى استمر سبعة عشر عاما، كما يذكر مانيتون، يبدو أنه قد تنازل عن ولائه للإله حورس وعبد الإله ست وغير اسمه إلى برإيب – سن[٨٠]، وكتب هذا الاسم فى إطار سرخ يعلوه حيوان الإله ست بدلا من الصقر الذى كان يعلو اسمه الأصلى سخم – إيب[٨١]، وكما صنع إخناتون فى الأسرة الثامنة عشرة، فإن الملك محا اسمه الأصلى من لوحته الجنائزية التى أقامها فى مقبرته الجنوبية فى أبيدوس ووضع مكانه اسمه الذى حمله من جديد يعلوه رمز الإله ست وقد وجد اسم سخم – إيب مع لقب قاهر البلاد الجنوبية على قطع إناء حجرى عثر عليه فى الهرم المدرج ولكن عدا ذلك لم يعثر على أية بقايا تعزى إليه فى سقارة والأثر الوحيد الذى تركه يتمثل فى مقبرة أبيدوس[٨٢]. ومما يثير الدهشة أن هذه المقبرة تقع ضمن مجموعة المقابر الملكية للأسرة السالفة. وقد تحطم تماماً بناء المقبرة العلوى و لم يبق منها سوى حفرة البناء السفلى التى كسيت باللبن، والتى تحوى حجرة الدفن الوسطى تحيط بها بعض المخازن ومبناها هزيل، لا يمكن حتى مع بنائها العلوى أن تتعدى بكثير الأطوال الكلية ٢١ × ١٨,٥ متراً[٨٣]. ومن المظاهر غير العادية أن المدخل فى الشرق، وقد عثر بالقرب منه على اللوحتين اللتين تغيرت نقوشهما. و لم يعثر للآن على أى دليل يمكن أن يعلل ارتداد حاكم من أسرة من طينة إلى عبادة الإله ست، ولكن وجهة نظر سخم إيب "برإيب سن" موضحة تماماً فى تغييره لاسمه على لوحته الجنائزية فى أبيدوس وصور ست فوق "اسم برإيب سن" على أختام كثيرة ولاسيما على ختم لأحد نبلائه عثر عليه فى مقبرته . ويقرأ هذا الختم "إله أومبوس" Ombos مركز قبائل ست فى الوجة القبلى إلى ابنه برإيب سن ومن المحتمل أن أتباع ست الذين كانوا

يمثلون أهل البلاد قد زادت قوتهم إلى درجة كبيرة خلال تداعى قوة طينة، حتى أن الملك رأى أن من السياسة الحكيمة أن يعبد إلههم، ومن المؤكد أن خليفته خع سخموى أيضاً وكان أكثر منه قوة، رأى أن من الضرورى أن يضع فوق اسمه صورة ست مع حورس على قدم المساواة ومعلوماتنا عن هذا العصر ضئيلة، لدرجة يستحيل معها أن نفترض أية نظرية تتفق مع كل الحقائق[٨٤]، ولكن يبدو من المؤكد تماماً أنه خلال حكم سخم إيب قد حدثت ثورة دينية أضعفت من حكم قوة ملوك طينة . وهناك حقيقة أثرية ربما تفسر حوادث هذا العصر المضطرب حقاً، ألا وهى حرق المقابر الملكية . وقد وجدت كل المقابر الملكية تقريباً فى كل من أبيدوس ونقادة وسقارة مدمرة تماماً بواسطة الحريق، وقد ظن بادئ الأمر أن ذلك الحريق كان من عمل اللصوص الأوائل الذين أرادوا محو كل ما يشير إلى انتهاكهم حرمة هذه المقابر . ولكن الحفائر الحديثة فى سقارة قد قدمت دليلا يعزز بقوة إلى أن هذا الإحراق كان عمداً وبموافقة رسمية، وربما نلمس هنا أهداف الجماعات المحاربة التى كانت تسعى وراء تدمير الحياة الأخرى لخصومهم من جنس الأسرات وقد حدث بلا شك تدمير هذه المقابر بواسطة الإحراق فى تاريخ مبكر، وربما لا نكون مخطئين إذا عزوناه إلى هذه الفترة التى ساد فيها الغليان الدينى والسياسى بشكل واضح[٨٥].

ومهما كانت آثار هذه التغييرات على ولائه الدينى فإن روح سخم إيب حظيت بالاحترام والتبجيل، وظلت عبادته قائمة فى منف مع عبادة خليفته المباشر سندجى Sendji، وذلك حتى الأسرة الرابعة[٨٦].

سندجى :

لا توجد آثار من عصر سندجى، الذى خلف على ما يبدو سخم إيب فى حكم البلاد، ومن المحتمل أنه كان يسمى (سيثينيس Sethenes فى

عرف مانيتون الذى يذكر أنه حكم مدة واحد وأربعين عاماً . ومـــع قلـــة المعلومات حالياً عن هذا الملك، إلا أنه من الواضح أنه فيما عدا حكمه الطويل كان حاكماً هماماً ونحن نعرف أن عبادته ظلت قائمة حتى عصر متأخر، وفى الواقع فإن تمثالا برنزيًا يحمل اسمه قد نحت فى الأسرة العشرين بعد موته بأكثر من ألفى سنة(٨٧).

نتركا :

كان مانيتون يسمى سادس ملوك الأسرة خـــايريس Chaires وقـــد حكم سبعة عشرة عاماً و لم يعثر على وثائق تاريخية يمكن أن تعزى إليه مـــن العصر الذى عاش فيه، ولكن تبعاً لما ذكر فى قائمة الملـــوك بتـــورين، فـــإن سندجى قد خلفة على عرش البلاد شخص يدعى نتركا Neterka ومـــع أن قائمتى سقارة وأبيدوس لم تذكرا شيئاً عنه، إلا أنه مـــن الجـــائز أن نتركـــا وخايريس كانا اسمين لشخص واحد(٨٨).

نفركارع :

طبقًا لما أورده مانيتون فإن خايريس قد خلفه فى الحكم نفر خيريـــس Nephercheres الذى يمكن التعرف عليه تحت اسم نفركارع كمـــا ورد فى قائمة ملوك أبيدوس . ويخبرنا المؤرخ المصرى أنه حكم مدة خمس وعـــشرين سنة، وأنه توجد أسطورة تقول إنه خلال حكمه فاض النيل لمدة أحد عـــشر يوماً(٨٩).

خع سخم :

تنتهى الأسرة الثانية بملكين : خع سخم وخع سخموى، ويعتقد بعض المؤرخين أن كليهما شخص واحد . وأن الاسم الأول كان نـــسخة ســـابقة للاسم الآخر الذى اتخذه الملك عندما أعاد توحيد مصر بعد الحروب الدينيـــة التى قسمت الدولة، ومعنى الاسم الثانى "ظهور القوتين" بدلا مـــن "ظهـــور

القوة" ولكن بالموازنة يظهر أن خع سخم وخع سخموى كانـــا شخـــصين مختلفين . ومن المحتمل أنهما الثامن والتاسع من ملوك الأسرة(٩٠).

وعلى ذلك يمكن التعرف على خع سخم تحت اسم حوزيفا Huzefa (نفركاسكرNeferka.Sokar) الذى ورد ذكره قائمتى ملوك سقارة وتـــورين، وكذلك تحت اسم "سيزوخريسSesochres" الذى ذكره مانيتون، والـــذى يقول عنه أنه حكم مدة ثمانية وأربعين عاماً(٩١). ومع أن اسم الملك قد أغفل فى قائمة أبيدوس، إلا أننا قلما نشك فى أن سلطانه امتد على مـــصر كلـــها، وذلك لأنه قد عثر من هذا العصر فى مدينة هيراكونبوليس على آثـــار لـــه . ولكن يبدو أن حكمه كان عاصفاً، وتسجل الآثار الوحيدة التى عثر عليها من هذاالعصر، ألا وهى تمثالان ولوحة وثلاث أوانى حجرية، الحرب التى شـــنها الملك وكذلك انتصاره(٩٢). ومع أنه يجوز أن بعض هذه الحوادث قد حدثت فيما وراء حدود مصر، إلا أنها تشير إلى فترة مـــن القلاقـــل الداخليـــة(٩٣). والتمثالان أحدهما من الشيست والآخر من الحجر الجيرى، ولهما قيمة فنيـــة لاتقدر، وهما يمثلان خع سخم جالساً على عرشه وفوق رأسه تـــاج الوجـــه القبلى مرتدياً الرداء الذى يلبس فى احتفال عيد سد . وحول قاعدتى التمثالين صف من صور آدمية ملتوية، تمثل أعداء مذبوحين، وعلى مقدمة التمثال كتب الأعداء الشماليون وعددهم ٤٧٢٠٩. وقد روى أن الأعداء الشماليين كانوا من الليبين الذين أغاروا على الدلتا، ولكن يجب ألا نغفل إمكان حدوث ثورة داخلية فى الوجه البحرى(٩٤).

وقد وصلنا برهان آخر على ثورة الشمال فى شكل نص مدون على ثلاثة أوانى حجرية كتب عليها "عام مقاتلة العدو الشمالى" داخل مدينة نخب؛ والإلهة نخبت على شكل نسر تقبض على دائرة ختم بداخله كلمـــة "بـــش Besh" (ثوار)، بينما يرتكز مخلبها الآخر على رمز وحدة مصر أمـــام خـــع سخم(٩٥).

وهذه القطعة من اللوحة تبين جزءاً من أسير راكع على منصة تنتهى برأس شخص أجنبى على رأسة قوس. وفى أسفل هذا المنظر يرى اسم خع سخم مع عبارة "مخضع البلاد الأجنبية" وجدير بالملاحظة أن الملك يرى على تماثيله لابساً التاج الأبيض فقط، وهو تاج الوجه القبلى، وعلى الأوانى الحجرية يرى الصقر الذى يعلو اسمه يلبس أيضاً التاج الأبيض . ويلوح لنا من هذا الدليل المحدود والمقبول أن خع سخم كان أحد حكام الأسرة الطينية فى مصر العليا، وهى الأسرة التى جددت وحدة وادى النيل بعد الحروب الدينية بين أتباع حورس وأتباع ست، التى يحتمل أنها قسمت الدولة منذ حكم الملك برإيب سن ومجرد اسمه ظهور القوة لايخلو من مغزى، كما أن عدم وجود أى أثر له فى هذا الوقت بسقارة يوحى بشدة بأن حكمه كان مركزاً فى أقصى الجنوب، إذ لم يكتشف بعد حتى فى أبيدوس أى أثر له[٩٦]. فجميع الآثار السابق وصفها قد وجدت فى هيراكونبوليس وهى العاصمة الأصلية لأتباع حورس . و لم يعثر بعد على مقبرته ومن المحتمل أنه دفن فى هذه المنطقة .

وإذا سلمنا بأن خع سخم هو الملك الثامن فى عرف مانيتون، فلابد أنه كان قائداً، إذ أن هذا المؤرخ قد ذكر أن طول سيزوخريس Sethorches كان خمسة أذرع وثلاثة كفوف، مما يجعل منه عملاقاً طوله نحو مترين ونصف المتر[٩٧].

خع سخموى :

تولى العرش بعد خع سخم الملك خع سخموى، الذى ربما أنه أبرز ملك فى هذه الأسرة ففى عهده استقرت وحدة الدولة نهائياً ووضع أساس التوسع المذهل وتطور القوة الفرعونية فى الأسرة الثالثه وحيث أن ترتيبه التاسع بين ملوك الأسرة الثانية.فإنه يمكن إعتباره الملك جاجاى Zazai الذى ورد اسمه فى القوائم الملكية، وأيضاً الملك خينيريس Cheneres تبعاً لمانيتون الذى نسب إليه.

وقد انتهى النـــزاع بين أتباع حورس وأتباع ست وبعد أن كان اسمه خع سخموى "ظهور القوتين" أضيف إلى اسمه الكامل "الإلهان فى سلام" ونجد دائماً على الكثير من أختام سدادات الجرار أن صورة الصقر وحيوان الإلـــه ست قد اعتلت اسم الملك، وهذه إشارة أخرى إلى أن نوعاً مـــن الوحـــدة القائمة على المساواة قد تحقق(٩٩).

وتعتبر المقبرة الجنوبية لخع سخموى فى أبيدوس مقبرة غريبـــة البنـــاء لاتتشابه أبداً مع المقابر الأخرى بالمنطقة، أو حتى مع أى مبان من هذا العصر فى سقارة. وللأسف لايوجد لها الآن أى مبنى علوى، شأنها فى ذلـــك شـــأن المقابر الأخرى فى أبيدوس وليس لدينا سوى المبنى السفلى الذى يدل علـــى ضخامة حجم المبنى . ويبلغ طوله ٧٨,٩٧متراً، ويتراوح عرضه بين ١٧,٦ ، ١٠,٤متراً . وهويتكون من ثلاثة أقسام، فيوجد فى الناحية الـــشمالية بـــاب يؤدى إلى ثلاثة صفوف تضم ثلاثة وثلاثين مخزناً للقرابين والأثاث الجنائزى، ثم حجرة دفن مبنية بالحجر يحف بها من كلا الجانبين أربع حجرات، ويلـــى ذلك عشرة مخازن أخرى، خمسة منها على كل من جانبى الردهة الموصلة إلى الباب الجنوبى الذى يحف به أربع حجرات أخرى(١٠٠).

وكان من المعتقد فى وقت ما أن حجرة الدفن هى أقدم مثل للعمارة الحجرية القائمة ولكن حفائر سقارة وحلوان بينت أن البناء بـــالحجر كـــان معروفاً فى الأسرة الأولى ومن المظاهر الغريبة فى مقبرة خع ســـخموى عـــدم انتظامها والخطأ فى تخطيطها، ومع أن حجمها كان هائلا، إلا أنه من الصعب أن نعتقد أن سنين قليلة فقط تفصلها عن هرم زوسر المدرج الرائع البنـــاء فى سقارة . وعلاوة على بقايا الأثاث الجنائزى من أوان حجرية ونحاسية وأدوات من الظران والنحاس والأوانى الفخارية والسلال فقد وجدنا فى المقبرة صولجان الملك المصنوع من الذهب وحجر السارد الأحمر(١٠١).

وقد شيد خع سخموى أيضاً مبان عديدة فى هيراكونبوليس، حيث عثر على كتف باب من الجرانيت عليه الاسم المزدوج للملك يعلوه الصقر وحيوان ست ومن المحتمل أن مصدرهذا الحجر هومعبد تهدم منذ زمن بعيد وصناعة الحجر متقدمة وتشبه بوضوح، فى طرازها وفى طريقة التنفيذ، أعمال النحت فى أوائل الأسرة الثالثة . وعلى ظهر الكتف يوجد نص أزيل جزء منه يصور الملك والإلهة سشات فى احتفال يبدو أنه كان لوضع أساس[١٠٢]. ويبدو أن خع سخموى شأنه فى ذلك شأن أسلافه من أوائل الأسرة الأولى . قد طبق الخطة السياسية بزواجه من إحدى أميرات الشمال، ويبدو أن زوجته كانت الملكة نى ماعت حَب، وهى طبقا لختم إناء من أبيدوس، كانت تحمل لقب الأم الملكية وقد عبدت فى العصور التالية بصفتها جدة ملوك الأسرة الثالثة[١٠٣].

وبموت الملك خع سخموى انتهى العصر العتيق فى تاريخ مصر، ووقفت المملكتان المتحدتان على أبواب عصر بناة الأهرام المجيد .

موجز الأسرة الثانية

الاسم	الآثارة الهامة	المراجع
حتب سخموى	مقبرة غير معرفة	(Barsanti Fouilles autour
	أختام جرارمن سِقارة	de la Pyramide d,Ounas Annales du service des A..iquites. Vol. III p. 182)
رع — تب	مقبرة غير معروفة	
نترِن	مقبرة غير معروفة	
	مقبرة راوبن رقم ٢٣٠٢في سقارة	(Quibell,Archaic Mastabas
سخم إيب– برإيب	سن المقبرة ب .p في أبيدوس	(Petrie, Royal Tombs)
سندجى	لا وجد آثار من عصره	
نتركا	لا وجد آثار من عصره	
نفركارع	لا وجد آثار من عصره	
خع سخم	مقبرة غير معروفة	
	تماثل ولوحة من هيراكونبوليس	(Quibeil, Hieraconpolis)
خع سخموى	لمقبرة فV في أبيدوس	(Perrie, Royal Tombs)
	بقايا معبد من هيراكونبوليس	(Quibell, Hierakonplis)

هوامش الفصل الخامس :

1- Dreyer, Umm el-qaab1, Mainz, 1998.

2- Spencer, A. J., Aspects of early Egypt, London, 1996.

3- Vercoutter, J., L'Egypte et la vallée du Nil, vol.I, Paris, 1992

4- Dreyer, op-cit.

5- Spencer, A. J., op-cit.

6- Ibid.

7- Wilkinson, A.H., Early dynastic Egypt, London, 1999.

8- Edward, J.B., Hor-aha and Nubians, Serapis 4, 1977 – 78, p. 1- 2.

9- Hendrick X., Stan, El Kab V. The Nagada III cemertery. Brussels, 1994., p. 56.

10- Spencer, A.J., Early Egypt. The Rise of Civilization in the Nile Valley, London, 1993, pp. 65 – 66.

11- Adams, Barbara, Predynastic Egypt, Shire Egyptology, 7, Aylesbury, 1988, p. 44.

12- Kemp. Barry, J., Ancient Egypt, Anatomy of a Civilization, London, 1989, pp. 82 – 85.

13- Gardiner, A.H., Ancient Egyptian onomostica , Vol.1, Oxford, 1947, pp. 58 – 63.

14- Emery, Walter Bryan, Hor-Aha, With the collaboration of Zaki Saad, Cairo, 1939, pp. 23 – 35.

15- Cottrell, L., The Warrior Pharaohs, London, 1968, pp. 54 – 59.

16- Edward, J.B., op. cit., p. 2.

17- Kemp. B. J., op. cit., p. 88.

18- Kaiser, W., & Dreyer, G., Umm – el – Qaab., Nachuntersuch – ungen im frühzeittichem Königsfriedhof., 2, Vorbericht, in : MDAIK 38, 1982, pp. 211 – 269.

19- Cottrell, L., op – cit., p. 62.

20- Needler, W., A Flint Knife of King Djer, JEA. 42, London, 1956, pp. 41 – 44.
21- Godron, G., Ėtudes sur L'époque orchaique, BIFAO, 57, Cairo, pp. 143 – 155.
22- Serpico, M., & Raymond, W., A Report on the Analysis of the Contents of a Cache of Jars from the Jomb of Djer, in : Aspects of Early Egypt, pp. 128 – 139.
23- Vercoutter, J., L'Egypte et la vallée du Nil – Vol.I, Des origins à la fine de L;Acien Empire, Paris, 1992, pp. 122 – 128.
24- Kemp, Barry, J., Abydos and the Royal Tombs of the first Dynasty, JEA 52, London, 1966, pp.13– 22.
25- Westendof, W., Bemerkungen zu den Namen der Kõnige Djer – Athothis und Neferka in : olz 61, 1996, pp. 534 – 542.
26- Kemp, Barry, J., op – cit., p. 19.
27- Serpico, M., & Raymond, W., op – cit., p. 132.
28- Spencer, A.J., op – cit., p. 68.
29- Osing, J., "Onomasktika", in : lexicon der Ãgyptologie, 4, Wiesbaden, 1981, spl 572.
30- Gardiner, A.H., Ancient Egyptian onomatica, vol.2, Oxford, 1947, pp. 155 – 159.
31- Nims, Charles, F., "Egyptian Catalogues of things", Journal for Near Eastern Studies 9, 1950, pp. 253 – 262.
32- Kemp, Barry, J., op – cit., p. 20.
33- Nims, Charles, F., op – cit., p. 260.
34- Osing, J., op – cit., spl. 572.
35- Vercoutter, J., op – cit., p. 125.
36- Kemp, Barry, J., op – cit., p. 21.
37- Ibid, p. 22.

38- Osing, J., op – cit., spl 573.
39- Frankford, H., The Birth of Civilization in the Near East, N.Y., 1956, pp. 95 – 99.
40- Osing, J., op – cit., spl. 573.
41- Kemp, Barry, J., op – cit., pp. 13 – 22.
42- Ibid, p. 20.
43- Spencer, A.J., op – cit., p. 68.
44- Ibid, p. 72.
45- Ibid, p. 73.
46- Cottrell, L., op – cit., pp. 60 – 63.
47- Ibid, p. 65.
48- Kaiser, W., & Dreyer, G., op – cit., pp. 250 – 260.
49- Ibid, pp. 262 – 264.
50- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford, 1992, pp.32– 39.
51- Cottrell, L., op – cit., pp. 66 – 67.
52- Grimal, N., op – cit., pp. 40 – 42.
53- Spencer, A.J., op – cit., pp. 67 – 69.
54- O' Connor, D., New Funerary Enclosures (Talbezirke) of the Early Dynastic period at Abydos, JARCE 26, 1989,
55- Grimal, N., op – cit., pp. 50 – 52.
56- O' Connor, D., op – cit., pp. 51 – 86.
57- Spencer, A.J., op – cit., pp. 69 – 70.
58- Goodwin, C.W., on King Semempses of the 1 st dynasty, in : ZÃS5. 1867, pp. 34 – 36.
59- Goodwin, C.W., King Semempses and King Ases –kaf, in : ZÃS 5, 1867, pp. 82 – 85.
60- Adams, B., Potmark Forgery : A Serekh of Semerkhet from Abydos, DE 25, 1993, pp. 5 – 12.
61- Henfling, E., Nilflutontation und thronwechsel von Kõnig semerchet zu Kõnig Qaa der 1. Dynasty, in : Quaerentes scientiam, Festabe Westendof, pp. 55 – 61.

62- Kaiser, W., & Dreyer, G., op – cit., pp. 211 – 269.

63- Gardiner, A.H., op – cit., pp. 70 – 75.

64- Nims, Charles, F., op – cit., pp. 253 – 262.

65- Grimal, N., op – cit., pp. 55 – 60.

66- Spencer, A.J., op – cit., pp. 75 – 80.

67- Kaiser, W. & Dreyer, G., op – cit., pp. 250 – 260.

68- Ibid., p. 262.

69- Ibid., p. 263.

70- Fischer, H.G., An Egyptian Royal Stela of the second Dynasty, Artibus Asiae, Ascona 24, 1961, pp. 45 – 56.

71- Lauer, J., A propos de la stele de l'Horus Raneb, in : Orientalia 35, 1966, pp. 21 – 27.

72- Kaiser, W., Zu den Königsgräbern der 2.Dynastie. in sakkara ind Abydos, in Esaays Goedicke, pp. 113 – 123.

73- Stadelmann, R., Die oberbauten der Kõnigsgräber der .2.Dynatie in Sakkara, in : Mélanges Mokhtar 11, pp. 295 – 307.

74- Kaiser, W., op – cit., pp. 115 – 120.

75- Fischer, H., G., op – cit., pp. 46 – 48.

76- Stadelmann, R., op – cit., pp. 297 – 305.

77- Ibid, pp. 300 – 307.

78- Fischer, H.G., op – cit., pp. 48 – 50.

79- Ibid, p. 52.

80- Kaiser, W., op – cit., pp. 116 – 126.

81- Ibid., p. 120.

82- Stadelmann, R., op – cit., pp. 299 – 305.

83- Moret, A., fragments, du mastaba de sherry, prêtre des rois peribsen et send, in : Monpiot 25, 1922, pp. 273 – 298.

84- Fischer, H.G., op – cit., pp. 55 – 60.
85- Moret, A., op – cit., pp. 280 – 290.
86- Kaiser, W., op – cit., pp. 113 – 123.
87- Ibid, pp. 113 – 123.
88- Ibid, pp. 113 – 123.
89- Ibid, pp. 113 – 123.
90- Moret, A., op – cit., pp. 276 – 298.
91- Gardiner, A.H., op – cit., pp. 80 - 82.
92- Henfling, E., op – cit., pp. 55 – 60.
93- Fischer, H.G., op – cit., pp. 48 – 55.
94- O'Connor, D., op – cit., pp. 52 – 85.
95- Grimal, N., op – cit., pp. 60 – 63.
96- Adams, B., A Fragment from the Cairo statue of Khasekhemwy, in : JEA 76, London, 1990, pp. 161 – 163.
97- Farag, R.A., A stela of Khasekhemwy from Abydos, in : MDAIK 36, 1980, pp. 77 – 79.
98- Adams, B., op – cit., pp. 161 – 163.
99- Legge, G.F., Was Khasekhmwy Called Mena ? in : PSBA 31., 1909, pp. 128 – 132.
100- Kemp, B.J., Excavations at Hierak on polis fort, 1905, A Perliminary Note, in : JEA 49, London, 1936, pp. 24 – 28.
101- Kaiser, W., Zu den Kõnilichen Jalbezirken der 1. und 2. Dynastie, in Abydos und Zur Baugeschichte des Djoser – Grabmals, in : MDAIK 25, 1969, pp. 1 – 21.
102 – Adams, B., op – cit., pp. 161 – 163.
103- Kemp. B.J., op – cit., pp. 24 – 28.

الفصلِ السادس

الدولة القديمة

(٢٧٨٠ — ٢٢٦٣ ق. م)

الدولة القديمة

من عصر الأسرة الثالثة إلى نهاية عصر الأسرة السادسة

نمت الحضارة المصرية فى الدولة القديمة نموًا داخليًا قوميًا بلـــغ ذرى عالية من التنوع والضخامة لاسيما فى شئون العمارة الدينية والفنون، وشئون السياسة الداخلية والعقائد.

أولاً : عصر الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ – ٢٧٨٠ ق.م) :

بدأت الدولة القديمة بعصر الأسرة الثالثة، وبدأ هذا العصر بتولى الملك (نثرخت) الذى اشتهر فيما بعد باسم (زوسر)، عرش مصر لنحو ١٩ عامًا.

وسجلت بردية تورين التاريخية اسم هذا الملك بالمداد الأحمر تأكيـــدًا لتميزه وأهمية عهده، كما اعتبره المؤرخ مانيثون بداية لملوك منف (وإن كـــان الأصح أنه أكثر من أسلافه استقرارًا فيها)[1].

ارتبطت بعهد زوسر معالم حضارية كثيرة، أهمها مجموعته المعماريـــة الرائعة فى منطقة سقارة، ومدلولات قصة المجاعة، وابتـــداع التقـــويم المـــدنى (النجمى والشمسى) فى عهده. و لم يكن الفضل فى كل ذلك للملك بقـــدر ما كان للرجل الأول فى دولته وهو "إيمحوتب"[2].

سجلت ألقاب أيمحوتب هذا فى عهد زوسر باعتبـــاره تاليًـــا لـــه، ومهندسًا، ومسجلاً للحوليات، وأمينًا لأختام الوجه البحرى، وناظرًا للقصر العالى، وكبيرًا للرائين بصفته رئيسًا لكهنة مدينة عين شمـــس ذات الـــشهرة الفكرية والفلكية القديمة. ويدل تنوع هذه الألقاب على أن الشخصية المثالية فى عصره كانت هى شخصية من يجمع من كل ثقافة بنصيب ولا يقصر علمه على معرفة واحدة ضيقة.

وشاعت شهرة أيمحوتب حتى بعد وفاته لقرون طويلة. وجعله مثقفو الدولة الحديثة على رأس الحكماء والمعلمين. واعتاد بعض الكتبة على أن يسكبوا قطرات من الماء مع التمتمة باسمه تبركًا به كلما هموا بكتابة أمر خطير(٣).

وزاد كتبة العصور المتأخرة فقدسوه باعتباره ولدًا للمعبود بتاح رب الفن والصناعة. ثم رفع أخيرًا لمرتبة الربوبية واعتبر ربا للشفاء، وذكره الإغريق المتمصرون باسم "اموتس" وشبهوه بالمعبود الإغريقي "أسخليبيوس" راعى الطب والحكمة. ومجد كما روى المؤرخ مانيتون لمهارته الطبية. وفى كل هذا ما يعنى أن مجد الشهرة فى مصر القديمة لم يكن يقتصر على الملوك الفراعنة وحدهم، وإنما كان لأفذاذ العلماء المصريين نصيب منه قد يفوق نصيب ملوكهم أحيانًا(٤).

أشرف أيمحوتب على بناء قبر ملكه زوسر وتوابعه فى منطقة سقارة المجاورة لعاصمته. وأجرى فيه ثلاثة تجديدات رئيسية، هى : استخدام الحجر على نطاق واسع لأول مرة فى الجزء العلوى من القبر وتوابعه، والانتقال بهيئة هذا الجزء العلوى من شكل المصطبة المستطيلة إلى هيئة الهرم المدرج، ثم تقليد وتخليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التى كانت شائعة قبل عهده، فى تزيين عمارته الحجرية الجديدة، وبدأ أيمحوتب بمراحل البناء الثلاث التى عرفها أسلافه فى بناء المقابر الكبرى هى مصطبة وإضافتان. ولكنه عمل على بنائها بالحجر وليس من اللبن، وشجعته صلابة الحجر على تنفيذ مشروع كبير يتفق مع جلال ملكه ورخاء عهده، فعمل على أن يضيف إلى جوانب المصطبة الحجرية الكبيرة إضافات جانبية مائلة، تعتمد كل إضافة جديدة منها على الأخرى، وتعتمد كلها على المبنى الأصيل للمصطبة الذى كان يزداد ارتفاعه قبل كل إضافة، وتم ذلك فى ثلاث مراحل أخرى، حتى تحولت هيئة المصطبة المدرجة إلى هرم مدرج ظهر فى هيئته الأخيرة كما لو كان ذا ست درجات،

بلغ ارتفاعه بها نحو ستين مترًا، وبلغ طولها من أسفل نحو ١٣٠ مترًا، وعرضها نحو مائة متر وعشرة(٥).

توسط هرم زوسر فى سقارة مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به وشغلت معه مساحة تزيد على ٢٥١ ألف متر مربع، وأحاط به معها سور ضخم كبير بلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، بالحجر الجيرى الأبيض الأملس، وشيدت فيه نفس الدخلات الرأسية المتعاقبة التى ظهرت قبل عهده فى عمارة اللبن مع زيادتها عمقًا وسعة بما يتناسب مع ضخامة بنائها ومادة بنائها.

وتضمنت مجموعة زوسر هذه ست عمائر دنيوية ودينية بخلاف الهرم والسور، قلدت فيها بعض مظاهر العمارة النباتية واللبنية القديمة. فأقيمت فيها أساطين ذات أضلاع محدبة متجاورة تقلد هيئة سيقان الغاب المحزومة، وأساطين ذات أضلاع مقعرة متجاورة تقلد أساطين شجرية مشذبة، وأساطين ثلاثية المقطع تقلد هيئة سيقان البردى بتيجانها وأوراقها. وأساطين أخرى نصف دائرية المقطع تقلد نباتًا كان رمزًا للصعيد. كما نحت أبواب من الحجر على هيئة الدلف الخشبية المفتوحة، وشكلت السطوح الداخلية لبعض السقوف على هيئة فلوق النخيل نصف الدائرية(٦).

وبنيت حجرة دفن الملك زوسر أسفل الهرم من أحجار جرانيتية ضخمة على عمق ثمانية وعشرين مترًا، وكان فى قطع ونقل هذه الأحجار الجرانيتية الضخمة من محاجر أسوان أو من مرتفعات البحر الأحمر مما يدل على مجهود كبير بالنسبة لعصره. وقطع الصناع فيما يجاور سطح حجرة الدفن هذه سراديب وغرفًا كثيرة كسيت بعض جدرانها بقراميد صغيرة محدبة من القاشانى الأزرق تقلد هيئة الحصير الفاخر، وتضمنت سراديب الهرم وحجراته ما يزيد على ٤٠ ألفًا من أوانى الفخار والألباستر والشست والبرشيا الفاخرة التى بلغت بعض جدرانها حدًا من الرقة جعل سطوحها الخارجية تكاد تكشف

عن سطوحها الداخلية، وكان بعضها متاعًا وميراثًا لصاحب الهرم وأسرته، وبعضها الآخر هدايا إليه من أقاليم دولته[٧].

التقويم المدنى :

زاد الاهتمام فى عهد زوسر بمدينة "أونو" أو عين شمس مقر عبادة إله الشمس. وتلقب كبير مهندسيه أيمحوتب بلقب كبير المتطلعين (إلى السماء) لرصد الكواكب والنجوم فيها .. باعتباره رئيس الفلكيين فى مدينته[٨]، وارتبطت أهمية المدينة بخطوة حضارية جديد اهتدى فيها علماؤها إلى ابتداع تقويم مدنى يجمع بين خصائص التقويم الشمسى والتقويم النجمىَ منذ عام ٢٧٧٣ ق.م. واحتسبوا أيام السنة على أساسه ٣٦٥ يومًا وقسموها اثنى عشر شهرًا، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يومًا، ثم اعتبروا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد يحتفل فيها بذكريات الأرباب أوزير، وايسة، وست، ونبت حت، وحور (أى أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس وحورس)، وهى أيام النسيء الخمسة التى تحتفظ السنة الزراعية المصرية بمثلها حتى الآن[٩].

ومن المرجح أن المصريين كانوا يؤرخون قبل عهد زوسر بالشهور القمرية شأنهم شأن بقية الشعوب القديمة، ويأخذون بالتقويم النيلى الذى يبدأ ببداية وصول فيضان النيل إلى منطقة "برحعبى" الواقعة بين عين شمس ومنف قرب جزيرة الروضة الحالية. وشيئًا فشيئًا لاحظ بعض كبار المصريين المحتفلين بعيد وفاء النيل أن فجر وصول فيضانه إلى ما يجاوز هذه المنطقة يقترن بظاهرة سماوية لافتة للنظر، وهى أنه بعد اختفاء نجم الشعرى ذى الضوء الساطع، الذى اعتبروه أنثى وسموه سويدة، عن مجال الرؤية نحو سبعين يومًا، يعود فيتألق فى أفق السماء ويبقى حتى مطلع الشمس المبكر كأنما يبشر ببداية الفيضان الجديد. ومع مر الزمن أصبحوا يترقبون اجتماع هذه الظواهرالطبيعية عن قصد، وأطلقوا على نجم الشعرى لقب جالبة الفيضان، واعتبروا بداية ظهورها فى الأفق الشرقى عند الفجر (حوالى ١٧ يوليو من التقويم اليونانى)

أول يوم فى أول شهر فى أول فصل، وهو فصل الفيضان. ثم حسبوا ما بين كل ظهور صادق وظهور صادق آخر للشعرى مع مطلع الشمس فوجدوه ٣٦٥ يومًا، ووجدوه يتضمن اثنى عشر شهرًا قمريًا وكسورًا لاتصل إلى نصف الشهر، فأكملوا عدة كل شهر ثلاثين يومًا وتبقت خمسة أيام احتسبوها نسيئًا وأعيادًا، ثم اعتبروا السنة ثلاثة فصول: فصل الفيضان "آخة"، وفصل خروج النبت من الأرض "برة" وهو يوازى فصل الشتاء، ثم فصل التحاريق "شمو" وهو تقسيم قد يناسب المناخ المصرى أكثر من تقسيم الأربعة الفصول الحالى[١٠].

غير أن الابتداع الرائع لفكرة التقويم المدَنى الثابت الذى ربط المصريون بينه وَبين دورة الشعرى، كما ربطوا بينه وبين الانقلاب الشمسى، وقسموا الشهور على أساسه اثنى عشر شهرًا، وسبقوا به كل شعوب العالم القديم التى ظلت تؤرخ بالتقويم القمرى وحده، لم يكن بغير نقيصة تؤخذ عليه، فهم قد احتسبوا السنة ٣٦٥ يومًا وليس ٣٦٥ يومًا وربع يوم. وكان من شأن فارق ربع اليوم أن يصبح يومًا كل أربع سنوات يصبح شهرًا كل ١٢١ عامًا وربع عام تقريبًا. وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة المدنية الحسابية الفلكية (الشمسية النجمية) أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهرًا بعد كل ١٢١ عامًا وربع عام ... ثم لا تعود لتتفق معها إلا بعد أن يبلغ الفارق بينهم حولاً كاملاً .. بعد كل ١٤٥٦ عامًا[١١].

وأدرك المصريون هذاالفارق وتندر أدباؤهم به ولكنهم استمروا عليه بحكم العادة، و لم يعملوا على تلافيه إلى ان أشار قرار كانوب (أبو قير) الذى أصدره مجمع الكهنة المصريين عام ٢٣٧ ق.م إلى اتجاه النية حينذاك إلى إضافة يوم على أيام النسىء الخمس، لولا أن هذا التعديل لم يطبق بصورة دائمة إلا منذ عهد أوجسطوس فى عام ٣٠ ق.م حين انتفع تقويمه اليوليانى بفكرة التقويم المصرى وثبت العام بمقتضاه ٣٦٥ يومًا وربع يوم[١٢].

وظل المصريون القدماء يميزون الشهور بأرقامها، إلى أن ربطوا بينـــها وبين أسماء ومناسبات مقدسة خلال الدولة الحديثة، ثم استقرت هذه الأسماء، منذ القرن السادس ق.م وبقيت حتى الآن مع قليل من التحريف اللفظـــى فى مثل شهر توت وكان يوافق عيد الإله تحوتى، وشهر هاتور وكان يوافق عيد الربة حتحور وهلم جرا. وما زال هذا التقويم بأسماء شهوره القديمة متبعًـــا فى أساسه فى الريف المصرى بالنسبة للسنة الزراعية .. أو ما يعرف تجاوزًا بالسنة القبطية، ويفضله المزارعون عادة عن التقويم الميلادى أو التقـــويم الهجـــرى، ويرونه أنسب لتعيين مواقيت الحرث والبذر والرى والحصاد على الرغم مـــن نقص ربع اليوم الفلكى فيه وما زال بعض المزارعين يحتفظـــون بـــذكريات أجدادهم فى تسمية ليلة الفيضان "ليلة النقطة" أو "ليلة سقوط الدمعة" فى ١٢ بؤونة، أى الليلة التى دمعت فيها الربة ايسة "إيزيس" المرموز إليهـــا بـــنجم الشعرى على زوجها أوزير فجرى الفيضان من دمعتها(١٣).

الملك حونى :

تعاقب بعد عهد الملك زوسر عدد من ملوك أسرته اعتبرتهم القـــوائم الملكية بين الأربعة والستة، وجعلهم المؤرخ مانيتون ثمانية، واحتفظت الآثـــار القائمة بأسماء ما بين الثلاثة والخمسة منهم(١٤)، وانتهت أيام الأسرة الثالثـــة بالملك حونى، الذى حكم أربعة وعشرين عامًا، وشيد له هرم ضخم فى منطقة ميدوم تغير تصميمه أكثر من مرة، وظهر أخيرًا على هيئة هرم مدرج ذى ثمانى درجات(١٥)، وبدأ كساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء، ولكن الملك مات قبل إتمامه(١٦)، وتم ذلك فى عهد ولده سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة، مع مـــلء الفراغات بين درجاته بالأحجار ليكون مستوى الجوانب أو ليتخذ هيئة الهرم الكامل، وتهدمت أغلب أجزاء هذا الهرم و لم يبق منه حتى الآن غـــير ثلـــث ارتفاعه الأصلى(١٧).

ثانيًا : عصر الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٩ ق.م) :

عهد سنفرو :

بدأ عصر الأسرة الرابعة بعهد الملك سنفرو الذى حكم أربعة وعشرين عامًا تلقب بلقب معبر وهو "نب ماعت" أى رب العدالة، واحتفظ له الأدب المصرى بذكرى عطرة قلما احتفظ بها لملك مصرى سواه.؟ فوصفه بأنه "ملك فاضل"، وصوره متواضعًا يميل إلى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع، ويكتب بنفسه ولا يأبى أن يسأل حكماء قومه عما لا يعرفه. كما صوره فى الوقت نفسه ميالاً إلى المرح وحب الاستمتاع[١٨].

وامتازت الأوضاع السياسية فى عهد سنفرو بإنشاء منصب الوزارة فيه رسميًا لأول مرة فى التاريخ القديم، وإن ظل من نصيب كبار الأمراء وحدهم، حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة[١٩].

وكان عهد سنفرو ذا اهتمام خاص بالملاحظة بحيث ذكرت حولياته مشروعًا لصناعة ستين سفينة لكل واحدة منها ستة عشر مجدافًا، كما ذكرت ورود أربعين سفينة من فينيقيا.محملة بأخشاب (عش) من فصيلة الصنوبر، فى أعوام حكمه. واستخدمت بعض هذه الأخشاب فى صناعة سفن كبيرة بلغ طول الواحدة منها مائة ذراع ملكى، أى نحو ٥٢ مترًا، كما استخدم بعضها الآخر فى صناعة أبواب القصور الملكية وفى بعض الأجزاء الداخلية من هرم سنفرو[٢٠].

ومع هذا الطابع المدنى، سجلت حوليات سنفرو أخبار تجريدات عسكرية واسعة وجهها لتأمين الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية والغربية، وإلزام قبائلها البدوية النظام والطاعة .. وظلت ذكرى سنفرو ماثلة فى شبه جزيرة سيناء أجيالاً طويلة واعتبره خلفاؤه من حماتها وقدسوه فيها وضموه إلى

رعاها من المعبودات، كما ظلت بعض نقط الحراسة على حدودها الشمالية تعرف باسمه حتى الدولة الوسطى[٢١].

وسمح رخاء عهد سنفرو بتشييد هرمين له فى منطقة دهشور وإكمال هرم أبيه حونى فى ميدوم، ومثلت هذه الأهرام والمعابد الملحقة بها مرحلة جديدة من مراحل العمارة المصرية القديمة. فقد شيد له هرم فى دهشور ليكون هرمًا كاملاً منذ بدايته، وبدأه المعماريون بزاوية ميل قدرها ٥٤,١٤ درجة، ولكنهم بعد أن وصلوا بهذا الميل إلى ما يزيد ارتفاعه على تسعة وأربعين مترًا، أدركوا أنهم لو واصلوا البناء على أساسه فسوف يرتفع الهرم إلى أكثر مما قدروه له أو أكثر مما تحتمل قاعدته[٢٢]، وبدأت بعض الجدران الداخلية فيه تتشقق بالفعل، فغيروا زاوية الميل إلى ٥٣,٢١٠، وأكملوا بناء الهرم حتى بلغ ارتفاعه ١٠١,١٥ من الأمتار، ولكنه ظهر فى صورته الأخيرة كأنه منكسر الزاوية فى منتصفه، ولهذا استغلوا إمكانيات عهدهم فى تشييد هرم ملكى آخر شمالى الهرم الأول[٢٣]، وبدأوه بزاوية ميل مناسبة تبلغ ٤٣,٤٠ درجة، وعندما تم أصبح أول هرم كامل صحيح النسب حاد الزوايا مستوى الجوانب، بلغ ارتفاعه نحو ٩٩ مترًا، وكسى هو والهرم الأول بأحجار جيرية بيضاء ملساء. وأطلق على كل منهما اسم "خع سنفرو" بمعنى شع سنفرو، أو تجلى سنفرو، وكان بين هذا الاسم وكساء الهرمين وصاحب الهرمين نوع من الارتباط المقصود، فقد كان من شأن الكساء الأبيض الناصع لكل هرم أن يستقبل أشعة الشمس القوية ويعكس نورها على ما حوله، فيبدو فى أسفل الوادى كأنما يصدر عن الهرم نفسه، أو بمعنى آخر كأنما يشع عن صاحبه الثاوى فيه[٢٤].

عهد خوفو:

خلف سنفرو ولده "خوفو"، أو "خنوم خوفوى" كما ورد اسمه الكامل، وهواسم يعنى الإله "خنوم يحمينى"، ويدل بهذا على الإيمان بحاجة

خوفو إلى معبود أكثر قدرة منه يرعاه ويحميه. وصور أديب مصرى الجانب الإنسانى من شخصية خوفو فى قصة تخيله فيها يسامر أولاده ويستمع إلى رواياتهم عن حكماء العصور السالفة، كما يستمع إلى كاهن مرتل من عهده، ويكاد يجهل بعض ما يعرفه، وفى هذا وفيما سبق ذكره عن أبيه سنفور ما يعنى أن وصف ملوك مصر القديمة بأوصاف الربوبية فى نقوشهم كان شيئًا، وأن واقع الحياة بالنسبة لهم ولحكمائهم كان شيئًا آخر(٢٥).

وعلى الرغم من شهرة خوفو الواسعة كصاحب الهرم الأكبر، لم يبق من تماثيله وصوره شيء ذو بال، ومنه تمثال صغير لايزيد ارتفاعه على تسعة سنتيمترات وجد فى معبد أبيدوس، ثم عدد من أجزاء تماثيل مهشمة عثر عليها قرب هرمه وليس فيها ما يحمل رأسه.

ولا جدال فى أن هرم خوفو فوق هضبة الجيزة هو الدليل الصريح على عظمة عهده، ولا شك كذلك فى أن مهندسه (أو مهندسية) قد استفاد من التجارب التى سبقت عهده والتى أدت إلى تنفيذ هيئة الهرم الكامل فى دهشور. ولكنه تفوق عليهم جميعًا بضخامة هرمه الهائلة والدقة البالغة التى تم بها بنيانه. فقد شغل هرم خوفو (وملحقاته القريبة منه) ما يقرب من ١٣ فدانًا، وكان ارتفاعه ١٤٦ مترًا أنقصتها العوامل الطبيعية إلى ١٣٩ مترًا، وقيل أنه استخدم فى بنائه نحو مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية تراوحت زنة الواحدة منها بين الطنين ونصف والثلاثة أطنان. وقد قطعت من محاجر هضبة الجيزة التى شيد الهرم فوقها عدا الكساء الخارجى للهرم الذى قطعت لوحاته السميكة الضخمة من محاجر طرة التى امتازت بأحجارها الجيرية الناصعة البياض(٢٦).

بنى الهرم أساسًا ليكون ملجأ أمينًا لجثة الملك ومقتنياته الخاصة عند وفاته، وليكون شاهدًا على ثرائه وسعة سلطانه، ووسيلة لخلود ذكراه وذيوع شهرته، ودليلاً على رفعة شأنه فى الدنيا والآخرة وصورة من صور رقى

العمارة فى عهده. أى أنه لم يكن مجرد مقبرة فى جبانة وإنما كان ولا يزال عملاً فنيًا رائعًا فى داخله وخارجه. وقد أطلق عليه اسم "آخت خوفو" بمعنى مشرق خوفو أو أوفق خوفو(٢٧). وتضمن ثلاث حجرات كبيرة للدفن، حجرة أسفله فى باطن الصخر هجرت قبل أن ينتهى العمل فيها، وأخرى فى باطنه تسمى خطأ باسم غرفة الملكة وهجرت هى الأخرى بعد أن أوشك العمل فيها على الانتهاء، وحجرة ثالثة فى نصفه العلوى دفن الملك فيها، وأدى تعدد هذه الحجرات* إلى رأى مقبل(٢٨)، مؤداه أن الهرم بنى على ثلاث مراحل انتقل المهندس فيها من مرحلة منها إلى الأخرى نتيجة لازدياد خبراته وازدياد إمكانيات عهده، ونتيجة لامتداد أجل ملكه، وشيدت حجرة الدفن العلوية الرئيسية فى الهرم من أحجار جرانيتية هائلة وأقيمت فوقها خمسة سقوف يتعاقب كل منها فوق الآخر بعد ارتفاع قليل، رغبة فى تخفيف الضغط عن سقفها الأول الذى تألف من تسعة ألواح تزن فى مجموعها نحو ٤٠٠ طن، وجعلت أربعة من هذه السقوف مسطحة، وبنى خامسها (وهو العلوى) مثلثًا على هيئة الجمالون لتوزيع ضغط البنيان العلوى من الهرم على جوانب الحجرة وسقوفها دون أن يتركز على وسطها، وكانت كلها إجراءات بارعة بالنسبة لعصرها، ويصل بين غرفة الدفن الوسطى وغرفة الدفن العليا فى باطن الهرم دهليز صاعد يعتبر من آيات الفن المعمارى لعصره، كسيت الأجزاء السفلى من جانبيه بأحجار مصقولة ضخمة، وبرز كل مدماك من مداميكه العليا، وعددها سبعة فى الجانبين، عن المدماك الذى يرتكز عليه بمقدار ثلاث بوصات، والتصق كل مدماك منها بالآخر وكل حجر منها بالآخر فى إتقان شديد دفع بعض الباحثين إلى المبالغة فى تقديره بقولهم أن ما بين كل حجر وآخر لا يكاد يسمح للشفرة بالنفاذ منه. ومن الأوصاف الممتعة فى تصوير مدى الدقة فى بناء الهرم، ما يقال من أن متوسط الخطأ فى طول جوانبه لا يعدو ١ : ٤٠٠٠، وأن الخطأ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لا يعدو

كسرًا عشريًا يساوى دقيقة واثنتى عشرة ثانية، وأن معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد على ٣ : ١٠٠٠، وأن الفواصل بين أحجاره لا تزيد على نصف المليمتر، وعلى أية حال فما ينبغى أن يقصر الاهتمام على الهرم وصاحبه ومهندسه مجهول الاسم فقط، وإنما يجب التفكير كذلك فى شأن بقية الطوائف المصرية التى شاركت فى بنائه والظروف التى أحاطت ببنائه، ذلك أنه يتضح للضخامة الفريدة مع البراعة الفائقة التى امتاز الهرم الأكبر بها أكثر من دلالة. فهى من الناحية السياسية تنم عن نظام سياسى وإدارى كان يسمح للملك صاحب الهرم بتصرف واسع فى إمكانيات البلاد المادية والبشرية. وهى من الناحية المعمارية تشهد لمهندس الهرم أو لمهندسيه بدراية واسعة بمبادئ الهندسة وفن العمارة، وهى من الناحية العملية تشهد للصناع الفنيين بمهارة كبيرة فى نحت الأحجار الضخمة وتسويتها وتثبيتها، ومهارة مماثلة فى تنفيذ ما خططه المهندسون بنجاح كبير. وهى من الناحية البشرية تشهد لآلاف العمال العاديين الذين اشتركوا فى بناء الهرم بجلد شديد فى قطع أحجاره الضخمة من محاجر الجيزة ونقلها ثم رفعها إلى مواضعها من بنائه، ثم هى من الناحية الإدارية تشهد لرجال الإدارة المشرفين على نظام العمل بالكفاية فى رسم الخطط لتجميع آلاف العمال وتموينهم وحسن الاستفادة بهم وضمان استمرار قوتهم البدنية على مواصلة العمل، مع تنظيمهم وتقسيمهم فرقًا ما زالت بعض أسمائها مسجلة على أحجار متفرقة من جوانب الهرم[٢٩].

اتصلت بهرم خوفو مجموعة دينية ومعمارية واسعة تألفت من معبد شعائره الذى لم تبق منه غير أرضية، ومعبد الوادى وما زالت بقاياه مختفية تحت قرية نزلة السمان الحالية، والطريق الواصل بينهما وقد أشاد به المؤرخ هيرودودت إشادة كبيرة، ثم خمسة مواضع لمراكب كبيرة، ثلاث منها تقع شرق الهرم وقد وجدت خالية، واثنان منها فى جنوبه وقد كشف عن أحدهما، بينما بقيت الأخيرة مغلقة حتى الآن[٣٠].

ووجدت فى المكان المكتشف ألواح كثيرة من أخشاب الأرز أو فصيلة الصنوبر لمركبة خشبية يبلغ امتدادها ٤٣,٢٠ من الأمتار ويبلغ أكبر عرض لها ستة أمتار. وقد فككت أجزاؤها ورتبت إلى حد ما بحيث تسهل إعادة تجميعها، ووضعت معها مجاديفها وحبالها وجوانب كبائنها وأساطينها الخشبية، وغطيت حفرتها الصخرية بألواح حجرية ضخمة سميكة رتبت فى عناية شديدة وإحكام كبير. ودلت براعة صناعة هذه المركبة بعد إعادة تركيبها على أن روح الإتقان والإجادة فى عهد خوفو لم تقتصر على ما يتصل بهندسة بناء هرمه وإنما امتدت كذلك إلى ما يتصل ببقية الفنون والصناعات فى عهده. ونمت التجارب الأولية لاستطلاع داخل حفرة المركبة الثانية على أنها لا تزال تحتفظ بمركبها، وإذا صح أن المواضع الأخرى التى وجدت خالية كانت كلها تتضمن مراكب فعلية مثل المركب المكتشف، فثمة عدة احتمالات للأغراض التى كانت تخدمها، وهى أن واحدة منها استخدمت الباقيات أو بعضها خلال حياته فى مناسبات دينية ورسمية، مثل جولاته الإدارية بين مراكز الوادى، وحفل تتويجه، وزياراته للمعابد الكبرى ولمدن الحج المقدسة .. فضلاً عن تخصيص واحدة منها أو أكثر لجولاته الروحية فى العالم الآخر[٣١].

وشاد عظماء عهد خوفو مقابرهم من الحجر لأول مرة بعد أن كانت أمثالها تبنى من اللبن، وذلك مما يعنى تشجيعه لهم وامتداد الرخاء الذى سمح ببناء هرمه وتوابعه الفخمة إلى من شملهم برعايته من شعبه[٣٢].

وشيدت هذه المقابر على نسق متشابه ورتبت فى صفوف مستقيمة وتجمعت على جانبى الهرم وأسفله كأنه يشرف عليها من عل كما كان صاحبه يشرف على أصحابها فى دنياه[٣٣].

وتباينت الآراء قديمًا وحديثًا فى شأن تحديد عوامل الرضا أو عوامل التسخير التى أحاطت إنشاء هرم خوفو وملحقاته، هو وما يماثله من أهرام

وآثار كبيرة. ويحسن أن نتصور لهذه القضية كل أطرافها المحتملة فى ضوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية التى عاش فى ظلها الملك خوفو وطوائف المشتركين فى بناء هرمه، وليس ذلك لمجرد الاستشهاد بأكثر ما يمكن من الآراء، لكن اعترافًا بما فى الحياة من أوجه متعددة يعايش بعضها بعضًا، وقد يتآلف بعضها مع بعض كما قد يتعارض بعضها مع بعض ..، واعترافًا كذلك بوجوب تقدير أن لكل عصر منطقه، وأن ما قد يقبله عصر ليس من الضرورى أن يجيزه عصر آخر(٣٤).

ففى الحياة الاقتصادية اعتمدت مصر القديمة فى أغلب حياتها الزراعية على دورة سنوية رئيسية واحدة كان من شأنها أن تؤدى إلى تعطل صغار المزارعين والأجراء عدة شهور من كل عام ومنها شهور الفيضان. وفى هذه الشهور أو فى بعضها كانت الحكومات المصرية القديمة تعمل على تجميع أعداد غفيرة من عمال الأرض وأجرائها ليخدموا مشاريعها العامة والمنشآت الملكية أساسًا، ثم ليتكسبوا ضمنًا من العمل فى هذ المشروعات والمنشآت مورد رزق مناسب يقوم بأودهم وأود أسرهم فى مواسم تعطلهم عن العمل. وذلك إلى جانب الصناع الفنيين الذين كانوا يعملون طوال غالبية شهور السنة(٣٥).

وأشار هيرودوت إلى مثل هذا الوضع فذكر أنه سمع أن العمل فى الهرم كان يجرى (وعلى الأصح كان يشتد ويتضاعف) فى مواسم الفيضان والتعطل عن الزراعة من كل عام. وترتب على ذلك أن بناء الهرم الأكبر وملحقاته استنفد عشرين عامًا كاملة(٣٦).

ومن حيث السلطة التنفيذية سلف القول بما توافر للملوك المصريين وحكوماتهم من نفوذ إدارى واسع جعل لهم الحق فى تكليف من شاءوا من الأيدى العاملة بالعمل فى منشآتهم الدنيوية والدينية. وقد يكون فى هذا نوع

من التسخير من وجهة نظر العصر على أقل تقدير، ولكنه كان تسخيرًا مألوفًا فى كل الشعوب والعصور القديمة[٣٧]. ولم يصل فى مصر القديمة إلى حد التسخير العشوائى وإلا كانت حكومة خوفو قد أنهت بناء هرم ملكها فى وقت قصير دون استمرار العمل فيه عشرين عامًا إذا صحت رواية هيرودوت عنه. والطريف كما أضاف هيرودوت نفسه أنه رأى فى منطقة الهرم لوحات صورت عليها مقادير هائلة من المأكولات ظن أنها خصصت لتوزيعها على العاملين فيه، بما يعنى أنهم كانوا يؤجرون على عملهم فيه. وإن كان الواقع أن هذه اللوحات صورت القرابين التى كان يرجى أن تقدم لأصحاب المقابر حول الهرم وليس بالضرورة للعاملين فى بناء الهرم[٣٨].

أما من الناحية الروحية، فإلى جانب السيطرة السياسية والإدارية التى توافرت للملوك المصريين وحكوماتهم، أكد هؤلاء الملوك لأنفسهم قدرًا كبيرًا من القداسة الروحية والسيادة الدينية، وادعوا أنهم ورثة الأرباب ومن نسلهم (وإن لم يبلغوا بهذه الادعاء إلى حد التأله الصريح)[٣٩]. واستغلوا هذه القداسة الدينية والروحية أوسع استغلال. وليس من المستبعد أن الوعاظ والكهان من أعوانهم كانوا يتعمدون فى مواعظهم أن ييسروا على الكادحين فى سبيل الرزق شقاءهم ويخففوا عنهم متاعبهم بالأمل فيما ينتظرهم فى الآخرة من الشفاعة وحسن الجزاء من ملوكهم الذين أوهموهم أنهم سوف يتحكمون فى شئون الحياة الثانية كما حكموا فى شئون الحياة الدنيا سواء بسواء[٤٠].

أما من حيث المعاملة الفعلية فى المجالات العملية، فيلاحظ أنه إن لم تتبق نصوص صريحة تنم عن طريقة معاملة رجال خوفو لعمال هرمه، فإنه يمكن الاستشهاد من جانب آخر بنصوص الأثرياء عصر الأسرة الرابعة وما بعدها تدل على وجود وازع دينى كان يدعو المقتدرين إلى حسن معاملة الأتباع والأجراء[٤١].

ومن هذا القبيل أن قال أحدهم «كل صانع عمل فى مقبرتى أرضيته».

وقال آخر «أرضيت كل الصناع الذين أتموا لى عملاً فى هذا القبر بالطعام والشراب وكل شىء طيب». وقال غيره «أنفقت على قبرى هذا من متاعى الحلال ولم يحدث إطلاقًا أن اغتصبت متاع شخص ما». وليس من المستبعد أن مثل هذه الروح الإنسانية الخيرة تحكمت فيما بين خوفو ورجاله وأتباعه وأجرائه(٤٢).

انعقدت ولاية عهد خوفو لولده الأكبر "كاوعَب"، وكان أول أمير مصرى مثَل فى تماثيله على هيئة الكاتب تنويهًا بثقافته(٤٣)، لولا أنه توفى مبكرًا. وخلف خوفو ولد آخر وهو "جدف-رع" الذى سجل اسمه عدة مرات على بعض الأحجار التى غطت على موضع مركبته المكتشفة تدليلاً على قيامه بالإشراف على دفنه، ثم خلافته على عرشه(٤٤).

وقد مثل بعض أولاده فى تماثيلهم على هيئة الكتاب والقراء مما يعنى أنه استحب لهم حياة الثقافة مثل عمهم، لولا أن العلاقات بينه وبين بعض كبار أسرته وإخوته لم تكن طيبة. ولأمر ما ابتعد بقبره عن منطقة الجيزة وشيده فى أبو رواش، ولم يظل عهده أكثر من ثمانى سنوات ثم خلفه أخوه غير الشقيق "خفرع".

عهد خفرع :

أعاد خفرع الوئام بين أفراد أسرته الحاكمة، وطال عهده خمسة وعشرين عامًا أو تزيد .. وأضاف إلى ديباجة القابة الملكية لقبًا جديدًا وهو "سارع" أى ابن الشمس، أو ابن إله الشمس رع، مسايرة منه لانتشار مذهبه من ناحية، وتدليلاً على أنه يعتلى العرش بناء على بنوته له، ورغبة فى أن يقدر له دوام مثل دوام كوكبه فى الدنيا وفى الآخرة(٤٥).

تألفت أهم آثار العمارة والفن الباقية من عهد خفرع، من هرمه ومعبديه، والطريق الواصل بينهما على هضبة الجيزة، ثم عدد من تماثيله الملكية، وتمثال أبو الهول، ويقل هرمه قليلاً عن هرم أبيه ضخامة وارتفاعًا، ولكن مهندسه شاده على جانب من الهضبة أكثر ارتفاعًا بقليل من الجانب الذى بنى عليه هرم أبيه فعوضه بعض الشيء عن قلة ارتفاعه عنه، ويمتاز فى حالته الراهنة باحتفاظ قاعدته بكساء من حجر الجرانيت، واحتفاظ قمته بأجزاء ألواح الحجر الجيرى الأبيض التى كانت تكسوه.

تبدأ ملحقات هذا الهرم بمعبد الوادى، وهو معبد ضخم يعتبر أكمل معبد من عصره وجد حتى الآن. وقد شيد من أحجار هضبة الجيزة وارتفعت واجهته نحو ثلاثة عشر مترًا، وكسيت بألواح ضخمة سميكة من الجرانيت، وهى ظاهرة لا تقتصر أهميتها على الدلالة على ما كان يكسو المعبد من جلال وروعة فى عهد صاحبه، وإنما تمتد كذلك إلى إكبار من قطعوا ونقلوا كل هذه الألواح الضخمة من محاجرها فى أسوان حتى الجيزة على الرغم من بساطة الإمكانات المتيسرة فى عصرهم البعيد. وتستقبل واجهة المعبد ناحية الشرق بمدخلين يرمزان إلى الوجهين، الوجه القبلى والوجه البحرى، كما تطل على مرساة لقناة تربط بين المعبد ونهر النيل.

أدى معبد الوادى للهرم الثانى، وما يشبهه من معابد الوادى الأخرى، ثلاثة أغراض رئيسية، وهى أن جانبًا منه اعتبر استراحة مؤقتة للملك فى حياته كلما زار منطقة الجيزة ليشرف على بناء هرمه فيها. وأن جانبًا منه جرت فيه طقوس تحنيط جثة الملك بعد وفاته. وأنه أصبح يستخدم بعد دفن الملك لاجتماع وفود الكهان وكبار الزائرين خلال المواسم والأعياد الدينية. وكانوا يجتمعون فى بهو داخلى فخم يتوسط المعبد، وهو بهو كسيت أرضيته بالألباستر الأبيض وكسيت جدرانه بالجرانيت الوردى، ورفع سقفه ستة عشر عمودًا

ضخمًا من الجرانيت، وكان يستقر على جوانبه ثلاثة وعشرون تمثالاً لخفرع مثلته جالسًا فى مهابة يضم يمناه إلى صدره ويرسل يسراه على فخذه. وقد نحت بعضها من الألباستر الأبيض، ونحت بعضها من الديوريت الأزرق، ونحت بعضها الآخر من الشست الأخضر. وكانت ألوانها مع ألوان الجدران والأرضية والأعمدة تتوهج تحت أشعة الشمس الذهبية التى تندفع إليها من فتحات السقف الحجرى ثم تنعكس عليها من الأرضية البيضاء الناصعة، لتضفى على بهو المعبد جلالاً وبهاء ما بعدهما من جلال وبهاء، وتهشم أغلب هذه التماثيل وبقى أقلها سليمًا. ومن هذا القليل تمثال من الديوريت (نقل إلى المتحف المصرى) خلع الفنان على ملامح وجهه مهابة وقداسة تليقان بصاحبه، ظلل مؤخرة رأسه صقر شامخ يرمز إلى المعبود حور ويفرد جناحيه حول رأس الفرعون كأنه يظلله ويحميه. واستطاع الفنان أن يذلل صخر الديوريت بسهولة فى تمثاله، وهو من أشد الصخور قسوة، فأظهر تقاطيع خفرع فيه دقيقة ناطقة، وأظهر عضلات بدنه مشدودة قوية واضحة.

وبعد أداء مراسم دينية معينة كانت وفود كبار الزائرين تخرج من الباب الخلفى للمعبد بين تراتيل الكهنة وأنغام الموسيقى ليبدأوا مسيرتهم على طريق صاعد مسور يمتد نحو ٤٩٤,٦٠ من الأمتار ويؤدى إلى مدخل معبد شعائر الملك المتوفى. وهو معبد يجاور الهرم من ناحيته الشرقية و لم يكن يقل فى ضخامته وجلاله عن ضخامة وجلال معبد الوادى لولا أن تهدم أغلبه، وكان يتألف حين اكتماله من عناصر كثيرة تتوزع فى قسمين، قسم أكبر يغلب عليه طابع العمومية، وقسم أصغر تغلب عليه صفة الخصوصية[٤٦].

أبو الهول :

طغت شهرة أبو الهول من عهد خفرع على شهرة هرمه ومعبديه،وله جسم أسد رابض ورأس إنسان ناهض كما هو معروف، جمع الفنان بينهما

فى انسجام عجيب لا يكاد الرائى يشعر معه أنه أمام كائن مفتعل غريب. ونحت الفنان الرأس فيما يرجح على هيئة رأس الملك خفرع تزينه شارات الملك، وهى عصابة رأس مخططة عريضة تصنع من قماش مقوى لتغطى الرأس ومؤخرته، وحية حارسة تنهض على جبين الملك ولحية مستعارة ترمز إلى التحاء أوائل الملوك الأقدمين (وقد سقطت الحية واللحية من موضعيهما لتطرفهما). وعبر الفنان فى تكوين التمثال عن مثالية الملك الذى كان من المفروض أن يجمع فيها بين سمو التفكير البشرى وبأس الأسود.

ينهض تمثال أبو الهول فوق قاعدة مرتفعة نحت معها فى الصخر الطبيعى لهضبة الجيزة، ولكنها كسيت بأحجار جيرية ملساء، وبلغ ارتفاعه معها نحو اثنين وعشرين مترًا، وقام فى مواجهته معبد كبير، لعله أعد لتقديم القرابين والدعوات باسم التمثال نفسه على أساس أنه بعد أن كان يرمز إلى خفرع أصبح يعتبر حارسًا لمدينة الموتى فى منطقة الجيزة ويستحق التقديس تبعًا لذلك. ونسى بعض المصريين القدامى أصل تمثال أبو الهول، أكثر فأكثر، واعتبره أهل الدولة الحديثة صورة من صور إله الشمس وقدسوه على هذا الاعتبار، وأقاموا النصب باسمه بين يديه وفى معبده. واستوى فى ذلك الملوك ورعاياهم. وأضاف أحد الباحثين رأيًا عن تمثال أبو الهول، مؤداه أنه رمز منذ بدايته إلى "ماعت" وهى العدالة المستقرة أو النظام المستقر، وذلك فى مقابل دلالة الهرم على النظام الهرمى الذى كان الفرعون يحتل أرفع مكانة فيه.

أما عن اسم أبو الهول فمن الآراء فى تعليله أنه عاش فى منطقة الجيزة بعض الكنعانيين خلال الدولة الحديثة فتعبدوا تمثاله باعتباره صورة من معبودهم القومى "حورون" وأطلقوا اسمه عليه. وربما أجاز المصريون ما أتى الكنعانيون به، ثم حرف الاسم الكنعانى إلى حورنا وأخيرًا إلى "حول". وقرب رأى آخر بين اسم التمثال ولفظ ورد فى النصوص المصرية المتأخرة بمعنى

الأسد. وانتهت أسماء التمثال إلى اسمه الحالى أبو الهول، وهو اسم يعبر فى اللغة العربية عن طابع الرهبة أو طابع الهول الذى اكتسى التمثال به وظنه النـــاس فيه، ولكنه لا يخلو فى الوقت نفسه من صلة تربطه بالاسم القديم "حـــورون" أو "حول"(٤٧).

ثالثًا : النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة :

عهد منكاورع:

أعقب خفرع على عرش مصر ولده منكاورع، وبدأت بعد سنوات قليلة من حكمه فترة جديدة فى تاريخ أسرته، اختلفت فى إمكاناتها وأحجـــام عمائرها وعلاقات حكامها بمحكوميها عن الفترة التى سبقتها والتى انتـــهت بحكم خفرع وامتدت إلى سنوات قليلة من عهد منكاورع.

ويتضح مدى اختلاف الإمكانات واختلاف الأوضاع بين الفتـــرتين بمقارنة عمائر منكاورع وخلفائه بعمائر أسلافهم.. فأهم الآثار الباقيـــة مـــن عهده هو هرمه ومعبد شعائره. ويبلغ الارتفاع الحالى لهرمه نحو ٦٢ متـــرًا لم يزد ارتفاعه الأصلى على ٦٦ مترًا، أى أقل من نصف ارتفاع هرم أبيه خفرع وأقل من نصف هرم جده خوفو، وأن امتاز فى حالته الراهنة بأن ستة عـــشر رمدماكًا من مداميكه السفلى كسيت بأحجار جرانيتية ضخمة ... وللـــهرم معبدان وطريق صاعد شأنه شأن بقية أهرام الأسرة الرابعة : معبد شعائر كبير ضخم معقد التركيب، بدأ بناؤه بأحجار ضخمة هائلة وأنفق فيه جهد كبير، ولكنه لم يتم فى عهد صاحبه، على الرغم من أنه حكم أكثـــر مـــن واحـــد وعشرين عامًا، وترك إلى عهد ولده "شبسسكاف" حيث استكملت بعـــض أجزائه بقوالب اللبن دون الحجر، وطريق صاعد كان شـــأنه شـــأن معابـــد الشعائر، رصف رجال منكاورع جزءًا من أرضيته بالحجر ثم أتمه رجال ولده

شبسسكاف فبنوا بقية أرضيته وجدرانه من قوالب اللبن. ثم معبد الوادى، و لم يكن منكاورع قد أنشأ منه شيئًا ذا بال حتى وفاته، فأمر شبسسكاف بتشييده باللبن أيضًا ما خلا أعمدته وأعتاب أبوابه التى كان لابد من أن تبنى بالحجر، وفى ذلك كله ما يباعد بين آثار منكاورع (وآثار خليفته أيضًا شبسسكاف وخنتكاوس) وفخامة آثار أسلافه سنفرو وخوفو خفرع(٤٨).

ومع ذلك لم تخل أيام منكاورع من ميزات فنية وأخرى سياسية واجتماعية تحتسب له ولرجاله.

فقد نحتت للملك عدة تماثيل رائعة، مثله بعضها وحده، ومثله بعضها مع زوجته، ومثلته ستة تماثيل صغيرة منها يقف مشدود القامة بين معبودين، المعبودة حتحور على جانب ومعبود آخر يرمز إلى إقليم من الأقاليم المصرية الكبيرة على جانب آخر، وكانت لحتحور منزلة خاصة فى عهده ووصف بأنه حبيبها، وظهرت فى بعض تماثيلها الرائعة معه تحيط خصره بذراعها وتلمس ذراعه بكفها.

وتهيأ لكبار الأفراد فى عهد منكاورع من الثراء وحرية التصرف فى مقابرهم أكثر مما تهيأ لهم ولأسلافهم فى عهد أبيه وعهد جده، فكثرت تماثيلهم فى مقابرهم وزادت نقوشهم ومناظرهم على جدرانها، ونحتوا بعض هذه المقابر داخل الجدار الصخرى لهضبة الجيزة، ومارسوا شعائرهم فيها بحرية أوسع من الحرية التى سمح لهم بها أبوه وجده.

وبدأ منكاورع سنة سياسية جديدة، ففتح قصره لأبناء المقربين إليه من كبار موظفيه، وعهد بتربيتهم إلى كبار رجال القصر مع أبنائه، ليشبوا أوفياء له مخلصين لبلاطه. وكان منهم شاب يدعى شبسسبتاح. صور صلات منكاورع بكبار رجاله واهتمامه بكسب ولائهم عن طريق السماحة، نص سجله رجل يدعى "دبحن"، ويفهم منه أنه واجه موكب الملك وهو يتفقد

أعمال البناء فى هرمه ورجاه أن يأذن له بتشييد مقبرته قرب هرمه، فقبل منكاورع رجاءه، وأذن له بتشييد مصطبة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون، وعهد إليه بخمسين عاملاً، وأذن بإعفائهم من كافة الأعباء خلال أعباء بناء المصطبة وتمهيد الأرض حولها، وأمر بأن يشرف على تشييدها مهندسه الخاص واثنان من كبار الفنانين فى قصره. وسمح له بأن يستورد من أحجار طرة ما يكفى لكسائها وبناء مقصورتها وصناعة بابين وهميين فيها، ونحت تمثال يمثله بحجم أكبر من حجمه الطبيعى، فضلاً عن نحت تمثالين لمساعديه .. وكانت أمثال هذه اللفتات من منكاورع لكبار رجال رعيته وتساهله فى الإذن لهم بإقامة التماثيل فى مقابرهم وممارسة الشعائر فيها فى حرية مطلقة أصلاً فيما يبدو لما سمعه المؤرخ هيرودوت فى العصور المتأخرة من أن المصريين أحبوا منكاورع أكثر مما أحبوا أباه وجده(٤٩).

الملك شبسسكاف :

أشادت نصوص ما بعد منكاورع باسم ولده للملك شبسسكاف، وقد شيد قبره فى جنوب سقارة، ويسمى الآن باسم مصطبة فرعون، ولم يبن على طراز الهرم الكامل، وإنما على هيئة تابوت ضخم مستطيل مائل الجوانب ترتفع جوانبه فوق مستوى سقفه. وأقيم فوق قاعدة منخفضة وكسى بأحجار بيضاء وأحيطت قاعدته بإزار من الجرانيت وأقيم له معبدان صغيران.

وواصل شبسسكاف سياسة أبيه فى ضمان ولاء كبار قومه عن طريق رعاية أبنائهم فى قصره. ويذكر له أنه زوج ابنته الكبرى لابن أحد عظماء الصعيد، وهو شبسسبتاح الذى كان الملك منكاورع قد رباه فى قصره وواصل رعايته. وكانت هذه هى المرة الأولى التى قبل فيها ملك أن يزوج ابنته من أحد أفراد رعيته، ليس فى مصر وحدها وإنما فى العالم القديم كله.

وسلك شبسسكاف سياسة مماثلة فى ضمان ود كبار كهنة المعابد بإعفائهم أو إعفاء معابدهم من بعض التكاليف المفروضة عليهم، وبدأ ذلك بمجموعة هرم أبيه منكاورع[٥٠].

ولم يطل عهد شبسسكاف أكثر من أربع سنوات، ثم انتهت وراثة العرش فى الأسرة الرابعة إلى الأميرة خنتكاوس. وقد طال نقاش الباحثين فى نسبها، ويتجه بعض الرأى إلى اعتبارها أختًا غير شقيقة لشبسسكاف من أبيه منكاورع وزوجته مرس عنخ الثالثة التى كانت من سلالة الملك جدف-رع. وقد شيدت مقبرتها بالجيزة قريبة الشبه بمقبرة أخيها، على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة صخرية طبيعية عالية، وجوف معبد شعائرها فى صلبها بينما بنى معبد الوادى التابع لها قريبًا من معبد وادى هرم أبيها منكاورع.. ولقبت خنتكاوس فى نصوص مقبرتها بلقب تحتمل قراءته "ملكة الوجهين أم ملك الوجهين بنت الرب"، وقد يعنى هذا أن انحصار وراثة العرش فيها سمح لها بأن تتلقب بلقب الملكة، ثم الملكة الوالدة فى عهد ولدها الذى سوف يؤسس الأسرة الخامسة بعد.

لا شك إذن فى أن ظروف وإمكانات النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة قد اختلفت عن مثيلاتها فى نصفه الأول اختلافًا كبيرًا، بالنسبة لآثار الملوك على أقل تقدير، وإن اتصفت سياسة ملوك هذا النصف الثانى بظاهرة مستحبة وهى عملهم على تقريب كبار موظفيهم وكهنتهم إليه وضمان ولائهم[٥١].

ويمكن إيجاز الاختلاف بين ظروف كل من الفترتين فى عدة عوامل وهى :

أولاً : أن الأسرة وإن بدأت عصرها برخاء عظيم وجهد كبير فى تنمية موارد البلاد عن طريق تنشيط الاستثمار الداخلى وتوسيع التجارة الخارجية، فإن الأهرام الضخمة ومعابدها وتماثيلها التى أسرف سنفرو وخوفو

وخفرع فى إنشائها لأنفسهم، وألحقوا بخدمتها الأعداد الغفيرة من الكهنة، ووقفوا عليها الأوقاف الواسعة، وزادوا عليها إنشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمة لأبنائهم مع متطلباتها من النفقات الجارية، قد استنفدت نصيبًا كبيرًا من إمكانات البلاد المادية، واستنزفت جانبًا كبيرًا من موارد الخزائن الملكية ذاتها.

ثانيًا : ما يحتمل من أن فترات التنافس الداخلى على العرش، التى بدأت عقب وفاة خوفو، وربما كذلك عقب وفاة منكاورع، وعقب وفاة شبسسكاف، قللت بعض الشيء من هيلمان الملوك المصريين، وأشعرتهم بأهمية تأييد كبار رعاياهم وضرورة كسب ودهم ولو على حساب خزائنهم أو خزائن حكومتهم.

ثالثًا : أن ملوك الأسرة سايروا ديانة إله الشمس رع وشجعوها. ولم تكن ديانة الشمس فى حد ذاتها جديدة فى مصر، وإنما كان الجديد فيها هو اعتراف الدولة بها على نطاق واسع. بل إن اعتراف الدولة بها لم يكن فى حد ذاته ذا خطر، ولكن الخطر كان فى أن يعقبه أمران، وهما : أن ينصرف جانب من ولاء الرعايا إلى عبادة الإله رع رب الشمس وهو المعبود الظاهر لكل الناس، على حساب ولائهم للملوك وربهم الخفى حور، وأن ينصرف جانب من الموارد المالية إلى الديانة الجديدة، ديانة الشمس، على هيئة أوقاف وهبات وإعفاءات لمعابدها ومرتبات لكهنتها الذين أخذت أعدادهم تتزايد باستمرار على حساب موارد الدولة وخزائنها، وبمعنى آخر على حساب موارد الملكية وخزائنها.

وكان أكثر المستفيدين من هذه الظروف هم كبار أنصار ديانة الشمس بالذات الذين أخذوا يتطلعون إلى مزيد من الدالة على حكومتهم، وعلى العرش صاحبه، وتهيأت لهم فرص هذه الدالة وهذا التأثير منذ انتهت

وراثة عرش الأسرة الرابعة إلى الأميرة خنتكاوس بعد وفاة أخيها، فشجعوا أحد خاصة المناصرين لهم على الزواج منها وهو "وسركاف"، وكان فيما يعتقد حفيدًا للملك جدف-رع، ورث الإمارة عن أمه نفرحتب اس، بنت جدف-رع، ولم يرثها عن أبيه الذى يحتمل أنه كان من أنصار الشمس وكبار كهنتها، وعندما تزوجها نقلت إليه شرعية الحكم التى ورثتها عن أبيها وأخيها، واشتركت معه فى تأسيس أسرة حاكمة جديدة، وهى الأسرة الخامسة(٥٢).

رابعًا : عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م) :

ظهرت عائلة ملكية جديدة فى الأسرة الخامسة ومعها بدأت تظهر أهمية عبادة الشمس. وهناك أسطورة مصرية ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة، تقص علينا كيفية نشأة الأسرة الخامسة، وهى بردية وستكار والمعروفة باسم قصص أبناء الملك خوفو، والتى صورت الملك خوفو يسامر أبناءه ويسمع من كل منهم قصة أو معجزة قام بها ملك من عصر سابق أو كاهن أو ساحر قدير(٥٣). فقص جدف حور لوالده خوفو قصة الساحر الذى تنبأ بأسماء ثلاثة من ملوك الأسرة الخامسة الذين سوف يتولون الحكم بعد مدة طويلة، وذلك عندما سأله الملك عن معرفته لعدد الخزائن السرية المقدسة المخصصة للمعبود تحوت معبود الحكمة والمعرفة، قال له جدى أن الذى يعرف ذلك هو أكبر أبناء سيدة تدعى رود جدت زوجة كاهن المعبود رع "سيد ساخبو" وسوف تحمل فيهم من روح المعبود رع نفسه وهؤلاء الثلاثة سوف يباشرون السلطة فميا بعد، وعندئذ انزعج خوفو، فطمأنه جدى أن ذلك لن يحدث فى حكمه أو حكم ابنه أو حفيده(٥٤).

ويحكى أنه قبل حكم خوفو أو أثناءه، هاجر أحد نبلاء الفنتين، بالقرب من الشلال الأول وكان يسمى وسررع، إلى ايونو، حيث وجد له مكانة هامة بين كهنة معبود الشمس رع، وقد تزوج هذا الكاهن من أميرة يجرى فى عروقها الدم الملكى، وقد حملت هذه الزوجة بالثلاثة الملوك الأوائل للأسرة الخامسة، وحملت من روح المعبود رع الذى اعتبر آبا روحيًا لهؤلاء الملوك الثلاثة، وقد ولد لها ثلاثة أبناء أكبرهم وسركاف، الذى ولد فى عهد خوفو، وربما أصبح كبيرًا للكهنة المعبود رع فى ايونو تحت حكم الملك منكاورع(٥٥).

وفى الواقع أن عبادة معبود الشمس رع أصبح لها أهمية كبرى وذلك لأن أصل الأسرة كان من ايونو، وربما أيضًا أن كهنة هذه المدينة قد ساهموا فى الاستيلاء على السلطة بواسطة أسرة هؤلاء الملوك[٥٦].

ومنذ بداية هذا العصر نجد أن الملوك يتلقبون بصفة دائمة بلقب ابن رع وغلب على حياة هذا العصر الطابع الدينى الذى يمكن أن نراه أولاً فى أسماء الملوك أنفسهم حيث نجد اسم المعبود رع يظهر دائمًا فى أسمائهم وهم تسعة ملوك :

١- وسر كاف (اير ما عت).

٢- ساحورع (نب خعو).

٣- نفر ار كارع – كاكاى (اوسر خعو).

٤- شبسسكا رع.

٥- نفر اف رع (نفر خعو).

٦- نى اوسر رع – انى (ست ايب تاوى).

٧- منكاو حور – ايكاو حور (من خعو).

٨- جد كارع – اسيسى (جد خعو).

٩- ونيس (واج تاوى).

وسر كاف :

كان من بين المرشحين للعرش حين توفى شبسسكاف، وعندما انتهت الأسرة الرابعة، أعلن وسر كاف ملكًا وكان يبلغ عندئذ الخمسين عامًا أو أكثر، ولم يمكث وسر كاف على العرش إلا لمدة قد تزيد عن سبع سنوات. فطبقًا لما جاء فى بردية تورين ومانيتون نجد أنه حكم ثمانى سنوات. ولا نعرف أى شيء عن الأحداث التى تمت خلال حكمه، وقد عثر على اسمه منقوشًا على عمود من الجرانيت فى طيبة وعثر على اسمه منقوشًا على آنية من المرمر

وجدت فى جزيرة سريجو Cerigo بالقرب من الشاطئ الجنوبى لليونان، مما يبعث على الاعتقاد بأنه أقام علاقات تجارية مع الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط، وشيد وسر كاف هرمه على بعد قليل من الناحية الشمالية لهرم جسر، ويطلق عليه الآن اسم الهرم المخربش، وقد شيد بقطع صغيرة من الأحجار الجيرية.

ونعرف من مصادر أخرى أنه أول من بنى معبدًا للشمس فى أبو صير، وعثرت فيه البعثة السويسرية عام ١٩٥٧ على رأس من حجر الشست كانت لتمثال، وهى على درجة كبيرة من الإتقان، وربما كانت هذه الرأس جزءًا من تمثال للمعبودة نيت، التى كان لها عبادة هامة فى منف بجوار معبد بتاح فى الدولة القديمة(٥٧).

ومن أهم الشخصيات فى عهده "نى كا عنخ" الذى كان يشغل وظيفة رئيس حجاب القصر وله مقبرتان فى طهنا الجبل، وقد عثر على اسم الملك فى مقبرة نى كا عنخ. وتعتبر فترة حكمه من أهم الفترات فى التاريخ المصرى القديم، بالنسبة لتعاون البلاط الملكى مع كهنة معبود الشمس رع، ونرى أيضًا تأثير ديانة الشمس فى العمارة وفى المعابد، وتذكر لنا حوليات حجر بالرمو، بناء الكثير من المعابد لمعبود الشمس رع.

ساحورع (٢٥٥٣ – ٢٥٣٩ ق.م) :

جاء من بعد وسر كاف، ساحورع الذى شيد لنفسه هرمًا صغيرًا فى منطقة أبى صير شمال سقارة، وكان أول ملوك الأسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير ليشيدوا فيها أهرامهم وملحقاتها، وتبعه أربعة ممن جاءوا من بعده وهم "نفر ار كارع شبسسكا رع"، نفر اف رع، نى أوسر رع، وكان لمعبد الوادى للملك ساحورع مرسى فى شرقه وآخر فى جنوبه، وكانت أرضيته من البازلت المصقول، والسقف من حجر جيرى، ويعتمد على ثمانية

أساطين نخيلية، وقد أصبح الطريق الصاعد يسقف لحماية ما ينقش على جدرانه من الداخل(٥٨).

ويمتاز المعبد الجنائزى للملك ساحورع باتزان أجزائه ويتألف من خمسة أجزاء رئيسية : ردهة وفناء مكشوف وخمس مشكاوات ومخازن وقدس الأقداس. وفى الجنوب الشرقى من هرم كل من ساحورع ونى اوسررع ونيس هرم صغير، يقع مدخله فى شماله ويؤدى إلى منحدر يؤدى إلى قاعة، وهو ما عرف باسم هرم الطقوس.

وتجمع بين عمارة معابد الوادى والمعابد الجنائزية فى الأسرتين الخامسة والسادسة صفات عامة مشتركة، ومع ذلك فهى تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل(٥٩).

وقد شيد ساحورع كذلك معبدًا لمعبود الشمس رع فى المنطقة نفسها على غرار معابد الشمس فى هليوبوليس ويتكون من فناء كبير مفتوح يحيط به من الجوانب مجموعة من الحجرات، أسقفها محمولة على أعمدة، وفى نهاية الفناء يوجد منصة من الحجر الجيرى أمامها مائدة قربان ضخمة. ويعد هذا المعبد من أفخم المعابد واستخدمت فيه أعمدة الجرانيت ذات التيجان النخلية، وبلغ من عناية المهندس المعمارى أن جعل مياه الأمطار تنساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أسد تسقط المياه من أفواهها إلى قنوات صغيرة فى باطن الأرض، ثم تسير المياه منحدرة إلى الخارج. أما المياه المستخدمة داخل المعبد فكانت تسير فى مواسير تحت أرضية المعبد، وكانت مصنوعة من النحاس ومتماسكة إلى بعضها بالرصاص. وتسير إلى خارج المعبد حيث تصب فى خزان فى أحد الأماكن المنخفضة بعيدًا عن المعبد. وقد نقشت على جدرن هذا المعبد، مناظر بعض الأحداث التى تمت فى عصره، من بينها، رحيل أحد الأساطيل إلى شواطئ سوريا العليا وذلك لإحضار أخشاب الأرز من غابات لبنان، ونرى ضمن المناظر أيضًا عودة السفن وعليها بعض البحارة الآسيوين،

وربما عادت السفن بأميرة ليتخذها الملك كزوجة له، ومن بين المناظر تصوير لوفود أسرى ليبيين، و لم يبق من هذه النقوش إلا القليل، ونعلم أيضًا أنه أرسل حملة إلى سيناء لتأديب قبائل البدو الذين يعملون على السلب والنهب وأرسل حملة إلى بلاد النوبة السفلى — بين الشلال الأول والثانى — وذلك بغرض تأديب الزنوج الثائرين، وقد عثر على لوحة باسمه فى محاجر الديوريت بالقرب من أبى سمبل. ونعرف من حجر بالرمو أنه أرسل حملة إلى بلاد بونت، وأن تلك الحملة عادت ومعها مقادير كثيرة من البخور والذهب والأبنوس.

وقد أمر هذا الملك بتشييد باب وهمى لطبيبه الخاص فى جبانة سقارة، وتقص علينا النقوش أن هذا الباب الوهمى، قد نفذ بأمر الملك بواسطة صناع مهرة من معبد المعبود بتاح فى منف، وكان هذا العمل تحت المراقبة حتى اليوم الذى انتهى منه فيه،ويقص علينا الطبيب مفتخرًا تكريم الملك له، وكيف أنه شكر الملك كثيرًا على هذ وصلى للمعبودات من أجل ساحورع.

وقد ذكر مانيتون أن ساحورع حكم لمدة ثلاثة عشر عامًا على حين ذكرت بردية تورين أنه حكم لمدة اثنى عشر عامًا فقط[٦٠].

نفر ار كارع — كاكاى (٢٥٢٩ — ٢٥٢٠ ق.م) :

حكم من بعد ساحورع ملوك جلسوا على العرش فترات قصيرة منهم نفرار كارع — كاكاى الذى أقام لنفسه هرمًا فى أبى صير ولكنه لم يتمه، ويبدو أنه حكم فترة أقل من عشرة أعوام، وكان يبلغ من العمر عند توليه العرش حوالى السبعين عامًا ولكن عاش حتى التسعين، ونقرأ عن أماله فى نقوش حجر بالرمو، ففى السنة الأولى من حكمه منح الأوقاف للمعبودات والتاسوع المقدس ولأرواح هليوبوليس، وقدم مذبحًا للمعبود رع ومذبحًا آخر للمعبودة حتحور. وقدم الهبات للمزارعين الذين كانوا يعملون فى الأراضى التى تملكها المعابد، وأصدر مرسومًا ملكيًا يعلن فيه إعفاء مزارعى المعابد من القيام بأى عمل آخر تتطلبه مشاريع الإصلاح فى الأقاليم الأخرى.

ومن اللمحات الإنسانية التي كان يتصف بها هذا الملك، ما جـاء في نقوش مقبرة زيره "واش - بتاح"[٦١].

ففي يوم ما كان الملك يقوم بصحبة عائلته بزيارة بعض العمـائر الخاصة به، وكان يصحبه واشبتاح الذى كان في سن متقدمة، «وقد لاحـظ جلالته أن واشبتاح لا ينصت إلى ما يقول» وأدرك الملك أن الرجل المسن قد أتته نوبة، فأمر بأن يصحب إلى القصر، «وأمر جلالته بأن يحضروا له كتابًا في الطب، ولكن اتضح من الكتاب أن حالة واشبتاح من الحالات الميئوس منـها ورق قلب صاحب الجلالة بدرجة كبيرة، وقبل أن يقوم بعمل أى شيء انطوى جلالته في واحدة من حجراته قائلاً لواشبتاح أنه سـيفعل كـل مـا يريـد ويرغب[٦٢]، ولكن واشبتاح توفى بعد ذلك بقليل» وأمر جلالته بأن يصنع له تابوت من الخشب مغطى بقطع من المرمر ... وطلب جلالته أن ينقش هـذا الحدث على جدران مقبرته».

وهناك قصة أخرى لشخص يدعى رع ور، الذى كان يعمل مـديرًا للقصر الملكى، «وقد جاء أنه بينما كان يسير إلى جوار الملك أثناء احتفـال رسمى، إذ حدث أن لمست عصا الملك التي كان يحركها ساق رع ور، فاعتذر الملك له، وأمر بأن يسجل هذا الاعتذار على لوحة وضعت في مقبرة ذلـك الموظف»[٦٣].

وقد كشفت عن مقبرة ورع ور عام ١٩٢٩ في منطقة الجيزة وعثـر فيها على عدد كبير من التماثيل، ويكفى أن نذكر أن عدد حجرات المقـبرة وأبهائها وممراتها لا تقل عن خمسين، ولو حصرنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكد لنا أنه كان منها أكثر من مائة في هذه المقبرة.

بقية ملوك الأسرة :

تولى بعد ذلك شبسسكارع الذى حكم لمدة سبع سنوات طبقًا لما جاء فى بردية تورين وفى تاريخ مانيتون، ولا نعلم عنه إلا القليل[٦٤]، وجاء من بعده نفر اف رع الذى حكم أربع سنوات، وشيد هرمًا صغيرًا فى أبى صير، وذكر اسمه فى قائمة أبيدوس[٦٥]. وصعد على العرش بعد ذلك، نى اوسررع — آنى الذى طالت أيام جلوسه على العرش فزادت عن اثنين وثلاثين عامًا وبنى لنفسه هرمًا فى أبى صير أيضًا، كما بنى معبدًا للشمس فى منطقة أبو غرب شمالى سقارة وعلى بعد قليل من المبانى التى شيدها ساحورع، ويظن أنه فى مخططه يشبه معبد الشمس فى ايونو. وكان المعبد يشغل مساحة طولها ١١٠ من الأمتار وعرضها ٨٠ مترًا يحيط بها جدار مرتفع سميك، وتقوم فى مؤخرتها قاعدة ضخمة ترتفع لنحو عشرين مترًا تقريبًا، وكانت تعلوها مسلة كبيرة، وأمام قاعدة المسلة مائدة قربان ضخمة، ويعتبر هذا المعبد من أهم ما كشف عنه من معابد للشمس فى هذه المنطقة. وأطلق على هذا المعبد فى النصوص المصرية القديمة "بهجة رع"، وزين الملك جدرانه بمناظر تمثل مراسيم العيد الثلاثينى، ونرى من بين المناظر ما يدل على خضوع الأعداء الليبيين والآسيويين، الذين كانوا يهددون شرق وغرب حدود الدلتا، ولو أن هناك بعض العلماء ما يرى أنه لم يقم بمثل هذه الحروب، وقد عثر على اسم هذا الملك منقوشًا على صخور محاجر سيناء مما يدل على إرساله لبعثات لاستغلال محاجر المنطقة[٦٦].

ومن أهم الشخصيات فى عهده "تى" الذى كان أحد رؤساء دواوين الكتبة، وشيد مقبرة فى سقارة تعطينا مناظرها فكرة عن الحياة اليومية والاجتماعية فى ذلك العهد. وقد عثر على نقش هام فى مقبرة أحد القضاه الذين عاشوا أيضًا فى عهد هذا الملك، وهو يبين إلى أى مدى أن خلود الروح فى الآخرة يعتمد على القرابين والدعوات التى يقوم بها الأحياء، وأنه كان من

الضرورى احترام دار الآخرة. ويقول فى نصه أنه قام ببناء هذه المقبرة كملك خاص به، وأن الملك وضعه محل تكريم، وأنعم عليه بتابوت خاص له، ويدعو الآخرين الذين يأتون إلى الجبانة لتقديم القرابين أن يفكروا فيه حتى يوصى عليهم المعبود وهو فى العالم الآخر، ويحذر فى الوقت نفسه من الاعتداء على مقبرته أو سلبها(٦٧).

تولى بعد ذلك ملك يسمى منكاوحور وقد جاء ذكر هرمه ومعبد الشمس الخاص به فى بعض النقوش، ولكن لم يعثر عليهما حتى الآن، وتذكر بردية تورين أن حكمه لم يطل أكثر من ثمانى سنوات(٦٨)، جاء من بعده جد كارع – اسيسى (٢٤٧٦ – ٢٤٤٨ ق.م)، وقد عثر على مجموعته الهرمية فى جنوب سقارة وقد حكم طبقًا لبردية تورين ثمانية وعشرين عامًا، وقد عثر على اسمه فى محاجر الديوريت بالصحراء الغربية والنوبة السفلى(٦٩).

وسجلت له بعثة إلى وادى المغارة. ولعل أهم ما قام به الملك جد كارع – اسيسى هو إرساله لحملة تجارية إلى بلاد بونت، بالقرب من الشاطئ الصومالى، وكانت مهمة صعبة وشاقة للغاية لأنه كان يجب على القوات أن تعبر الصحراء بين النيل والبحر الأحمر، وبعد ذلك تم بناء المراكب على الشاطئ غير المسكون، ثم قطعت المراكب مسافة ٢٠٠٠كم بحرًا بطول الشاطئ الخال من المياه الصالحة للشرب، وأخيرًا كان لابد له من إقامة علاقة مع سكان بونت الأصليين والذين كانوا ينظرون إليهم بعين الحرص والحذر، وكان يقود هذه الحملة قائد يسمى "باور جدت"، وقد كافأه الملك كثيرًا على هذه المهمة، لدرجة أن هذه المكافآت كانت هامة ومجال تعليق تحت حكم الملك بيبى الثانى فى الأسرة السادسة.

وكانت تلك البلاد البعيدة مشهورة بالبخور الذى كان يستخدم فى المعابد والطقوس الدينية المختلفة، ومن بين ما أحضرته من أدوات ثمينة، حوالى ثلاثة آلاف عصا من الأبنوس وبعض الأخشاب الثمينة والصمغ والجلود.

وقد قام هذا الملك بعمل قائمة بأسماء أسلافه الملوك وتاريخهم ومدد حكمهم وذلك على لوحة كبيرة من الحجر وهى المعروفة باسم "حجر بالرمو"، فى عام ١٩٤٨ كشفت مصلحة الآثار فى منطقة سقارة القبلية عن هرمه ومعبده الجنائزى، كما كشفت المصلحة فى عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ عن هرم ومعبد آخرين لزوجته فى المنطقة نفسها. ولم يعثر داخل هرم اسيسى على أى نقوش، أما المعبد فكان يمتاز بجمال نقوشه فيما بقى منه. كما ظهرت فى حفائر المعبد تماثيل لأسود وثيران وتماثيل لبعض الأسرى من الأجانب(٧٠).

ومن أهم الشخصيات التى عاشت فى عصره، الوزير بتاح حتب، الذى قام بتأليف كتاب عن الحكم والتعاليم القديمة وجهها إلى والده، وفى مقدمة الكتاب يخاطب بتاح حتب الملك قائلاً :

«أيها الملك، سيدى، لقد حل بى المشيب، وتقدمت نحو الشيخوخة، وقربت أيام زوالى، لقد حل الضعف محل الحيوية، واسحل كل يوم ضمورًا جديدًا فى البدن، لقد كلّ نظرى، وصُمت اذناى، وخارت قوتى، وخيم الظلام على عقلى، وأصبح فمى اخرس لا يتكلم وأصبح لبى (أى عقلى) يدع كل شىء يمر ولا يتذكر حتى أحداث الأمس، وكل عظمة فى جسدى تؤلمنى، ولم يعد السرور إلا تعاسة واختفت جميع المتع».

وعلى ذلك فهو يطلب أن يعفى من وظائفه الرسمية، لكى يستطيع أن يعد هذا الكتاب بعنوان «كلمات كل هؤلاء الذين عرفوا تاريخ العصور الماضية والذين استمعوا إلى كلمات المعبود فى الوقت الماضى». ومن الشخصيات الهامة أيضًا التى عاشت فى عصر جد كارع اسيسى، هو إسى الذى كان مشرفًا على المكاتب الملكية فى منف وأصبح وزيرًا ثم أصبح محل تقديس بعد ذلك ودفن فى مقبرته فى ادفو(٧١).

الملك ونيس :

كان آخر ملوك الأسرة، وكان أول ملك فى الأسرة لا يحتوى اسمه أو يتداخل فيه اسم رع، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يلقب بلقب ابن رع كأسلافه. ولا نعرف عن حكمه إلا القليل، ولكن كان ذا شهرة امتدت إلى أبعد الأماكن، فقد عثر على آنية تحمل اسمه فى البقايا الأثرية التى كشف عنها فى بيبلوس، أكبر المدن التجارية على الشاطئ الفينيقى، وقد استمر حكمه حوالى ثلاثين عامًا، طبقًا لما جاء فى بردية تورين وعثر على اسمه على اثر منحوت فى جزيرة الفنتين، وفى داخل هرمه الصغير الذى بناه فى الركن الجنوبى الغربى لهرم جسر، نقشت فيه لأول مرة ما يسمى بنصوص الأهرام (وقد تساءل بعضهم إذا كانت هذه النصوص لم تحرر وتكتب فقط فى هذه الفترة وليس قبلها)، وكانت جدران حجرة الدفن تحمل نقوشًا تمثل فصولاً طويلة، وهى عبارة عن طقوس مختلفة بالنسبة للملك المتوفى وصعود روحه إلى عالم السماء.

وعثر على بقايا معبد الملك ونيس الجنائزى فى الناحية الشرقية من الهرم وكذلك معبده للوادى. وقد عثر كذلك على جزء كبير من الطريق الصاعد الذى يربط بين المعبدين والذى كشف عنه عام ١٩٣٨. وكان هذا الطريق مسقوفًا بالأحجا روسقفه ملون كأنه سماء زرقاء ويدخل إليه الضوء من فتحات فى السقف، وتمثل هذه النقوش الملك ونيس وهو يؤدى بعض الطقوس الدينية وهو يقضى على أعدائه. ومن بين تلك المناظر ما يمثل الزراعة والحصاد، والصيد فى الصحراء، وما يمثل وصول بعض الأجانب إلى مصر أو بعض الذين حلت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعًا، وللأسف لم يتم الكشف عن باقى أجزاء الطريق الصاعد[٧٢].

خامسًا : عصر الأسرة السادسة (٢٤٢٣ - ٢٢٦٣ ق.م) :

حدث انتقال الملك من الأسـرة الخامـسة إلى الـسادسة دون أى نزاع[٧٣]، ولا نعلم أى شيء ولا نستطيع أن نقول من هو أول ملوكها ومـا هى الروابط التى كانت تربطه بالسلالة السابقة[٧٤]. ومن أهم ملـوك هـذه الأسرة سبعة وهم[٧٥]:

١- تيتى (سحتب تاوى).

٢- وسر كارع.

٣- مرى رع - بيبـى الأول (مرى تاوى).

٤-مرى رع- عنتى ام سا اف (عنخ خعو) (ويسمى أيضًا مر ان رع الأول).

٥- نفر كا رع - بيبـى الثانى (نثر خعو).

٦- مر ان رع الثانى.

٧- نيت اقرت (او نيتو كريس).

تيتـى :

شيد هرمه فى الشمال الشرقى من هرم وسر كاف فى سقارة، وقـد عثر على بقايا موميائه داخل هرمه، وقد عثر على اسمه منقوشًا على آنية عثر عليها فى بيبلوس، وربما أن مدة حكم تيتى لم تتجاوز الاثـنى عـشر عامًـا، وكانت أشهر زوجاته "ابوت"، ومن كبار الشخصيات فى عصره الوزيران : مرى روكا وكايجمنى، وكذلك القائد "ونى" الذى بدأ حياته فى عهد "تـيتى" وتولى عدة وظائف فى عهد بيبـى[٧٦].

وسر كارع :

لا نعلم عنه شيئًا سوى أنه جاء ذكر اسمه فى قائمة أبيدوس، وربمـا حكم ست سنوات و لم يترك آثارًا هامة أو ضخمة[٧٧].

مرى رع – ببى الأول (٢٤٠٢- ٢٣٧٧ ق.م) :

مع ظهور هذا الاسم نجد أننا أكثر حظًا فنعلم عنه أنه شيد الكثير من المعابد، ونعرف بعض التفاصيل عن حياة الملك بفضل تاريخ حياة كبار موظفيه، التى تركوها ووصلت إلينا سليمة، فنعلم أن ببى الأول قد تزوج على التوالى من ابنتين (الواحدة بعد الأخرى) لأحد كبار الموظفين من أبيدوس وأنجب من كل منهن أولادًا ذكورًا حكموا على التوالى من بعده. ففى تلك الفترة برزت بعض العائلات القوية من الأمراء الذين كانوا يتمتعون بسلطة كبيرة فى أقاليمهم مع الطاعة الواجبة للبيت المالك. وكان لكل عاصمة إقليم أمير أو حاكم كان يعيش فيها بصفة دائمة، ولا يذهب إلى منف إلا فى المناسبات لكى يحيى الملك أو يشارك فى احتفالاته. ولم تعد مقابر هؤلاء الأشراف والنبلاء تنتشر حول أهرام ملوكهم، ولكنها انتشرت فى مختلف الأقاليم وخاصة فى مصر الوسطى. وكانت تنحت فى الصخر فى مدنهم الأصلية، ولم تعد مصالح الملك وحكومته مركزة فى العاصمة، ولذلك انتشرت المبانى والمعابد الأخرى فى جميع أنحاء البلاد، ولدينا الكثير من الوثائق والنصوص عن نشاط هذا الملك وخاصة المراسيم الملكية التى أصدرها فى صالح تنظيم الأوقاف الدينية، وتعتبر دراسة هذه المراسيم هامة بالنسبة لدراسة القانون المصرى القديم فى تلك الفترة البعيدة(٧٨).

عمل ببى الأول تبعًا لسياسة الملوك السابقين على مراقبة بلاد النوبة، وقد عثر على اسمه فى النوبة السفلى على صخور توماس، وعثر على نقش له فى وادى المغارة وصور وهو يضرب البدو فى سيناء. وقام بعدة حملات ضد الآسيويين، وفى نقوش أحد كبار موظفيه "ونى" التى تركها لنا على لوحة كانت قائمة فى مقبرته فى أبيدوس ونقلت الآن إلى المتحف

المصرى، والذى بدأ حياته الوظيفية فى عهد الملك تيتى، يبين لنا أن العلاقات مع آسيا لم تكن سليمة فقد هاجم الآسيويون الحدود المصرية ونهبوا شرق الدلتا ومنعوا بعض الحملات إلى سيناء وأرسله بيبى الأول خمس مرات على رأس جيش مكون من آلاف الرجال، منها أربع حملات عن طريق البحر وفى المرة الخامسة اضطر إلى مهاجمة العدو من الإمام فقد ذهب على رأس جنوده وتركز فى نقطة ما فى فلسطين – ربما – جبل الكرمل وهاجم الآسيويين وانتصر عليهم، ولا يدل هذا على احتلال بلاد العدو ولكن يدل على أن الجيوش المصرية كانت تقوم فقط بغارات كبيرة، تشبه بدون شك غارات القبائل الصحراوية، ويفتخر "ونى" فى نقوشه بأن جيشه عاد سالمًا بعد أن حقق الكثير من الأعمال، ويحكى بكبرياء أن لا أحد من جنوده الذين اشتركوا فى الحملة قد نهب مدنيًا أو سرق أغذية من القرى التى عبروها. ويتحدث عن جيشه بأسلوب شاعرى(٧٩).

وكان الملك بيبى الأول مخلصًا لعبادة حتحور فى دندرة وأرسل أوانى عليها أسماء بعض المعبودات المصرية إلى جانب اسمه، وقد عثر فى مدينة نخن على تمثال رائع لهذا الملك مع ابنه بالحجم الطبيعى من النحاس موجود الآن بالمتحف المصرى.

شيد هذا الملك هرمه فى جبانة سقارة، وهو أقل حجمًا من أهرام ونيس وتيتى، ويبلغ طول قاعدته من كل جانب حوالى ٧٢٠ مترًا، وعندما دخل الأثريون حجرة الدفن، عثروا على تابوت من البازلت الأسود كان يحتوى على بقايا بعض العظام.

وحدث إبان هذا الحكم فضيحة فى البلاط الملكى؛ فقد تعرضت الملكة إيمتس للمحاكمة، بتهمة عمل اقترفته لا يزال أمره مجهولاً حتى الآن، وقد تكفل بالتحقيق فى هذا الموضوع ونى، المشرف على القصر، والذى

استمع إلى الشهود فى سرية تامة، وكان فخورًا بذلك وأشار إلى هذه الثقة فى النقوش التى تتحدث عن تاريخ حياته[٨٠].

خلفاء بيبـــى الأول :

مرى رع – عنتى ام – سا – اف :

كان أول خليفة لبيبـــى الأول هو ولده "مرى رع – عنتى ام ســا اف" - الذى كان مريضًا – ويبدو أنه قد توفى صغيرًا حيث لم يطل حكمه أكثر من خمسة أعوام أو ستة فقط، وقد أرسل مرى رع (او مرى ان رع) إلى بلاد النوبة العليا، أحد الرحالة حرخوف الذى وصل بدون شك حتى واحـــة سليمة Selimeh، ويبدو أن مرى رع قد انتقل بنفسه إلى الجنوب حتى يتقبل الهدايا وخضوع القبائل الزنجية، وقد رقى ونى فى هذه الفترة إلى وظيفة "حاكم الجنوب" ويقص علينا أنه أدار البلاد بكثير من الحزم والعدالة، ولم يحدث أن تشاجرت قرية أو عائلة مع جيرانها[٨١].

ومن أهم أعماله مراقبة محاجر الجرانيت والأحجار الأخـــرى الـــتى تستخدم فى مبانى الهرم والمنشآت الأخرى العديدة التى شيدت فى تلك الفترة، ويقول أنه أرسل إلى الشلال الأول لكى يحصل على كتل من الجرانيت مـــن أجل تابوت الملك، وكتلة أخرى لكى توضع فوق قمة الهرم، وثالثة لعمـــل الأبواب وموائد القرابين وقطع أخرى لهرم الأم الملكية، وبعد ذلك أرسل إلى محاجر المرمر، بالقرب من تل العمارنة، وكانت مهمته هو العثور على كتلـــة كبيرة من المرمر لكى تستخدم كمائدة قربان فى المعبد الجنـــائزى للملـــك. ويقص أنه انتهى من هذا العمل فى سبعة عشر يومًا، وفى خلالها شيد أيـــضًا المركب التى سوف توضع عليها الكتلة لتعبر النهر، وبعد هذا، صدرت الأوامر إليه بحفر خمس قنوات عبر سيول المياه السريعة للشلال الأول لكى يـــساعد المراكب التى تأتى من النوبة السفلى على المرور فى السيول دون خطورة.

ولكن كل هذه الأعمال التى قام بها ونى قد أسدل عليها الستار، بسبب خليفته حرخوف الذى كان أصلاً من الفنتين، وتحمل نقوش مقبرته فى أسوان تفاصيل كل أعماله. وقد حفرت هذه النقوش بطريقة تسمح لهؤلاء الذين يأتون لزيارة المقبرة بقراءتها، وهى تبدأ بصيغة مخصصة تحث الزائر على الدعوات لروح المتوفى.

ويصف حرخوف بعد ذلك خروجه فى ثلاث حملات قام بها فى مناطق غير معروفة تمتد إلى ما بعد الشلال الثانى، وكان يطلق عليها فى ذلك الوقت "بلاد الأرواح" وكان يجلب منها البخور والعاج والأبنوس، وجلد الفهد ومنتجات أخرى تنمو بكثرة فى تلك المناطق(٨٢).

أما عن حملته الرابعة وهى الأهم فقد حدثت أثناء حكم الملك بيبى الثانى، وكان من نتيجة هذه الحملات هو النجاح فى سياسة التهدئة والكشف فى بلاد النوبة التى بدأها حرخوف تحت حكم مرى رع، وقد أقيم استقبال رسمى عند الشلال الأول، وبمناسبته عرض أمام الملك الذى كان صغيرًا، أمراء ورؤساء الزنوج، وبعد مرور وقت قليل على هذا الاحتفال سقط الملك الصغير مريضًا وتوفى أثناء رحلة عودته إلى منف، وقد دفن فى هرمه فى جبانة سقارة وعثر فيه على مومياته التى كانت محفوظة حفظًا جيدًا(٨٣).

نفر كارع – بيبى الثانى :

نتيجة لوفاة مرى رع المبكرة، فإن أخاه من أم ثانية هو نفر كارع – بيبى الثانى هو الذى صعد على العرش، وهو يبلغ من العمر ست سنوات فقط، وتعتبر فترة حكم هذا الملك من أطول فترات الحكم فى مصر القديمة حيث أنها بلغت أربعة وتسعين عامًا، وتوفى عن مائة عام(٨٤).

وبعد مرور عدة شهور على تولية العرش، عاد حرخوف من حملته الرابعة من بلاد النوبة العليا مصطحبًا معه قزمًا زنجيًا والذى كان قد تعلم أثناء

حياته فى الغابات بعض الرقصات. وكتب حرخوف على الفور إلى الملك الصغير لكى يحدثه عن هذا القزم الغريب، وقام بنقش الإجابة التى تلقاها من الملك فى النقوش التى تتحدث عن تاريخ حياته فى مقبرته بأسوان، وهذه الإجابة فى صورة خطاب تصور لنا شخصية الملك الصغير الذى كان يجلس على عرش البلاد فى ذلك الوقت، ويبدو أن هذا الخطاب الملكى قد حرر بمساعدة الأم الملكية وصيغته كالآتى :

«لقد سجلت جيدًا الملاحظات التى احتوآها خطابك الذى أرسلته إلى، إلى الملك، فى قصرى، لكى تخبرنى أنك عدت سالمًا معافى من بلاد النوبة السفلى مع القوات التى كانت بصحبتك، وإنك تقول فى خطابك إنك أحضرت من "بلاد الأرواح" قزما (من بين) هؤلاء الذين يرقصون رقصات مقدسة، وقلت لجلالتى، «إن هؤلاء الذين كانوا فى تلك البلاد (من قبل) لم يحضروا ما يشبه ذلك على الإطلاق، فعد سريعًا إلى البلاط، لهذا الأمر واصطحب معك هذا القزم ذا الرقصات المقدسة الذى أحضرته حيًا وفى صحة جيدة من بلاد الأرواح ... لكى يسعد قلب الملك ويدخل السرور عليه، وعندما ينزل فى المركب ضع على جانبى المرسى أناسًا ذوى ثقة يبقون معه واحذر من أن يسقط فى الماء، وفى المساء عندما ينام، عين أناسًا وذى ثقة ينامون إلى جواره فى مقصورته، وكرر نوبات الحراسة عشر مرات فى الليل، إن جلالتى يريد أن يرى هذا القزم أكثر من كل ثروات محاجر سيناء أو بلاد بونت، وعندما تصل إلى البلاط، وإذا كان هذا القزم حيًا وفى صحة جيدة، فإن جلالتى سوف تحقق لك أكثر مما حقق لباورجدت (رئيس البعثة إلى بلاد بونت) فى عهد الملك اسيسى، لأن جلالتى ترغب من قلبها من رؤية هذا القزم». أرسل الملك بعد ذلك أحد حكام أسوان يدعى بيبى نخت الذى قام أيضًا بعدة حملات. فبعد مرور بضع سنوات، قرر الملك إرسال حملة إلى بلاد بونت، وخصص لهذا الغرض، قوة من الجنود والبحارة والعمال لبناء المراكب

اللازمة على شواطئ البحر الأحمر، وكان يرأس هذه الحملة أحد الضباط. ويبدو أن أفراد هذه القوة قد تعرضوا لهجوم قبائل بدو الصحراء الشرقية وقضى عليهم، وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى البلاط الملكى، أرسل الملك - ببيى نخت - بهدف معاقبة هؤلاء البدو والانتقام منهم والعودة بأجسام الذين قتلوا وخاصة إحضار جثة الضابط المقتول، وقام ببيى نخت بهذا العمل وقتل أعدادًا كبيرة من البدو. ويذكر فى نص آخر أن الملك قد أرسله لتأديب بلد إرثت وتهدئة الحالة هناك[٨٥].

جاء من بعد ببيى - نخت ميخو الذى حفظت لنا مقبرته فى أسوان تاريخ حياته وقد توفى فى بلاد النوبة السفلى. وخلفه ولده المسمى سابنى الذى كان حاكمًا للجنوب وترك أيضًا قصة مغامراته فى النوبة السفلى، فقد كان يقيم فى الفنتين عندما تلقى يومًا ما خبر وفاة والده الذى كان قد توفى بالقرب من الشلال الثانى، وعلى ذلك رحل على التوالى المناطق البعيدة بحثًا عن جثة أبيه، مصطحبًا معه عددًا لا بأس به من الدواب المحملة بالبضائع التى كانت توزع كهدايا على السكان هناك نظير مساعدتهم له، وبعد أن تغلب على كل الصعوبات، والمخاطر نجح فى العثور على جثة أبيه ثم وضعها فى تابوت مؤقت وحملها على ظهر دابة وعبر بها بشجاعة مناطق كانت مشهورة بوحشيتها.

وبالقرب من كورسكو الحالية، قابل مركب النجدة الذى أرسله الملك خصيصًا لأنه سمع الكثير عن سابنى وأعجب بالطريقة التى أكمل بها سابنى واجبه كابن بار وعلى ظهر هذا المركب كان يوجد رجال التحنيط ذوى الخبرة مع كل ما هو ضرورى لعملهم - وكان يصحبهم كهنة ونائحات رسميات للاحتفال بالمراسيم الجنائزية، وأخيرًا دفن الأب فى مقبرة بجوار مقبرة حرخوف. ومن الغريب أن سابنى لم يحدثنا عن حملة تأديبية ولذلك يمكن الاعتقاد بأن وفاة أبيه كانت طبيعية[٨٦].

وقد تلقى سابنى بكل سرور خطابًا من الملك، صيغته كالآتى :

«وكمكافأة لهذا العمل الجليل، لأنك وجدت جثة أبيك، أنا –الملك– سوف أحقق لك كل الأشياء الطيبة». وذهب سابنى إلى منف لمقابلة الملك الذى منحه مساحات كبيرة من الأراضى الملكية، وصندوقًا جميلاً يحتوى على قنينات للعطور، ومجموعة من الملابس وأساور من ذهب وكميات كبيرة من المؤونة.

وقد جاء بعد سابنى كحاكم للجنوب شخص يدعى "إيبى" وكان أميرًا لمقاطعة تقوم عليها حاليًا محافظة أسيوط، وفى مقبرته التى لا تبعد كثيرًا عن ذلك المكان، ترك لنا نقشًا يقص علينا فيها فضائله قائلاً :

«كنت محبوبًا من أبى وممدوحًا من أمى».

ومن النقوش التى تدل على تعلق الابن بأبيه، ما سطره زاو لأبيه زاو، الذى يحمل نفس الاسم والذى عاش فى الفترة نفسها من الأسرة السادسة، وفى نصوص مقبرته فى دير الجبراوى يقول :

«وهكذا أعددت (لنفسى) دفنة فى مقبرة واحدة مع زاو هذا لكى أكون معه فى نفس المكان، وهذا بالتأكيد ليس لأنى لم أكن أملك الوسيلة لعمل مقبرة ثانية، ولكن فعلت هذا لكى أرى زاو هذا كل يوم ولكى أكون معه فى المكان نفسه». وهذا يدلّ على صلة الرحم حيًا وميتًا.

ويبدو أن بعض الرحلات التجارية قد أرسلت أيضًا إلى بيبلوس فى الشمال، وقد كشف Weill فى عام ١٩١٠ – ١٩١١ فى مدينة فقط على عدة مراسيم بعضها مؤرخ منذ عهد بيبى الثانى وأغلبها تشير إلى حماية معبد المعبود مين وكهنته من التعرض للأزمات وكذلك عدم قيامهم هم ومن معهم بأعمال السخرة[٨٧].

كان لطول مدة حكم الملك بيبـي الثانى أثره فى ضعف الأسرة. فنجد أنه فى النهاية، بسبب كبر سنه، كان غير قادر على ان يكتسب طاعة أمراء الأقاليم الأقوياء الذين زادت سلطتهم و لم يدينوا بالولاء للملك و لم يدفعوا الجزية للخزانة الملكية وظهرت المجاعة والمرض وظهر عدم استقرار الأمن وانتشرت العصابات فى كل مكان وهاجر الناس من البلاد. وقطعت كل العلاقات مع العالم الخارجى و لم تصل أخشاب الأرز من لبنان وأيضًا الزيوت اللازمة للمراسيم الجنائزية؛ ومنتجات الواحات اللازمة لطقوس المعابد.

وأصبحت البلاد عرضة للغزو الخارجى وسادت الفوضى فى كل مكان وأهملت القوانين وأصبح من المستحيل تحصيل الضرائب أو معرفة من المالك ومن المغتصب ونهبت المقابر الملكية وتوقفت الطقوس الدينية وانهار الصرح الاجتماعى، وطرد الموظفون من وظائفهم.

وعقب وفاة الملك كانت هناك حالة من الفوضى الكاملة، فلم يكن فى إمكان الملك المحافظة على وحدة البلاد التى تقوم فى الواقع على قوة شخصيته، وهكذا بدأ انهيار الدولة القديمة، وفى نهاية حكم الملك بيبـى الثانى يذكر لنا مانيتون فى قائمته اسم ملك وملكة حكما بعد بيبـى الثانى، ولا نعرف إلا القليل عن أحداث عصرهما، وهما الملك مرى ان رع الثانى[٨٨] والملك نيت اقرت (نيتو كريس) التى حكى عنها فيما بعد قصة غريبة، وربما كانت ذات أصل حقيقى، فقد أرادت الملكة التى حكمت بعد زوجها الذى كان يسمى نثر كارع، والذى ارتقى العرش بمساعدة مجموعة من النبلاء، ولكنه قتل أو أغتيل بعد فترة أن تنتقم لموت زوجها – ولتحقيق ذلك – دعت النبلاء الذين اشتركوا فى مقتل زوجها للاحتفال بوضع حجر الأساس

لأحد المعابد الجديدة التى أمرت بتشييده فى الأراضى المنخفضة بالقرب من النيل، ودعتهم إلى القبو. وهناك أقفلت عليهم الأبواب[٨٩]، وتركت المياه تتسرب لتغرقهم جميعًا، وبعد ذلك خشيت انتقام شعبها، وانتحرت بحبس نفسها فى حجرة مملوءة بدخان فحم الأخشاب، وهكذا انتهت الأسرة السادسة والدولة القديمة بحكم ملكة، ذكر عنها هيرودوت قصة انتحارها هذه، ويمكن القول بأن الأسرة انتهت بنوع من الغموض[٩٠].

ومن عصر الأسرة السادسة اشتهر أحد حكام الفنتين "حقا – ايب" بحكمه وفضائله وأصبحت له عبادة فى مقبرته، وعثر على مقصورة له تحمل اسمه فى جزيرة الفنتين[٩١].

هوامش الفصل السادس :

1- Dreyer, G. & Kaiser, W., "Zu den Kleinen Stufenpyramiden ober – und Mitteläologischen Instituts, Abteilung Kairo 36, Cairo, 1980, pp. 43 – 59.

2- Dryer, G., "Dererste Kõnig der 3.dynastie", in stationen : Beiträge Zur Kulturgeschichte Ãgyptens, Rainer Stadelmann gewidmet, Mainz, 1998, pp. 31 – 34.

3- Helck, W., Untersuchungen Zur Thinitenzeit, Ãgyptologische Abhandlungen, 45, Wiesbaden, 1987, pp. 92 – 98.

4- Dreyer, G., op – cit., pp. 31 – 34.

5- Ibid, p. 44.

6- Goneim, M.Z., Horus sekhem – khet, the unhinished pyramid at saqqara, Cairo, 1957, pp. 52 – 59.

7- Dreyer, G. & Kaiser, W., op – cit., pp. 43 – 59.

8- Ibid, p. 56.

٩- عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها، الجـزء الأول، القـاهرة ١٩٦٢، ص ١٠٥، ١٠٧.

١٠- عبد العزيز صالح : المرجع السابق، ص ١١٢.

١١- نفس المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣.

١٢- نفس المرجع السابق، ص ١١٣.

13- Firth, C.M., & Quibell, J., The step pyramid, Vol.1, Cairo, 1935, pp. 89 – 94.

14- Firth, C.M., & Quibell, J., The Step pyramid, vol : 2, Cairo, 1935, pp. 52 – 57.

15- Lauer, J., Saqqara : The Royal Cemetery of Memphis, London, 1976, pp. 90 – 140.

16- Lauer, J., op – cit., pp. 10 – 120.

17- Ibid, pp. 130 – 135.

18- Goneim, M.Z., op – cit., pp. 61 - 64.

19- Wildung, D., Egyptian Saints : Deification in pharaonic Eygpt, New York, 1977, pp. 31 – 81.
20- Dreyer, G., op – cit., pp. 45 – 55.
21- Wildung, D., op – cit., pp. 31 – 81.
22- Ibid, pp. 31 - 81.
23- Ibid, pp. 31- 81.
24- Callender, G., Egypt in the old Kingdom, Melbourne, 1998, pp. 112 – 120.
25- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford, 1992, pp. 92 – 96.
26- Callender, G., op – cit., pp. 115 – 125.
27- Hart, G., Pharaohs and pyramids, London, 1991, pp. 50 – 53.
28- Ibid, pp. 52 – 55.
29- Goedicke, H., Königliche Dokumente aus dem Atten Reich, Wiesbaden, 1967, pp. 72 – 76.
30- Mà;el. J., "La division de L'histoire d'Ėgypte et Ėgyptologie moderne", Paris, 1997, pp. 6 – 17.
31- Goedicke, H., op – cit., pp. 80 – 82.
32- Ibid, pp. 84 – 86.
33- Màlek, J., op – cit., pp. 6 – 17.
34- Ibid, pp. 6 – 17.
35- Ibid, pp. 6 – 17.
36- Grimal, N., op – cit., pp. 103 – 105.
37- Ibid, p. 104.
38- Kerisel, J., pyramide de khéops, Derniéres recherches, in : RdE 44, 1993, pp. 33 – 54.
39- Goedicke, H., op – cit., pp. 80 – 82.
40- Callender, G., op – cit., pp. 118 – 122.
41- Ibid, p. 120.
42- Ibid., p. 124.
43- Hart, G., op – cit., pp. 56 – 57.
44- Ibid., pp. 60 – 61.
45- Goedicke, H., op – cit., pp. 120 – 125.

46- Ibid., p. 127.
47- Ibid., p. 129.
48- Grimal, N., op – cit., pp. 112 – 118.
49- Ibid., pp. 120.
50- Màlek, J., in the shadour of the pyramids Egypt during the old kingdom, London, 1986, pp. 120 – 124.
51- Callender, G., op – cit., pp. 130 – 133.
52- Ibid., pp. 136 – 140.
53- Kaiser, W., "Zu den Sonnenheiligtümern der 5. Dynastie". Mitteilungein des Deutschen Archãologischen Instituts abteilung Kairo 14, Cairo, 1956, pp. 104 – 116.
54- Seipel, W., Untersuchngen Zu den ãgyptischen Kõniginnen der frühzeit und des Alten Reiches, Hamburg, 1980, pp. 71 – 82.
55- Kaiser, W., op – cit., p. 104 – 110.
56- Ibid., pp. 105 – 116.
57- Callender, G., op – cit., pp. 140 – 144.
58- Seipel, W., op – cit., pp. 81 – 83.
59- Krug, A., Die Sahure – Reliefs, Frankfurt, 1978, pp. 50 – 56.
60- Montel, P., Le roi Sahuré et la princesse lointaine, in : Mélanges syriens offerts à Monsieur René Dussaud T.1., Paris, 1939, pp. 191 – 195.
61- Roccati, A., la literature historique sous L'Ancien Empire égyptien, Paris, 1982, pp. 92 – 98.
62- Winter, E., "Zur Deutung der Sonnenheiligtümer der 5, Dynastie". Wiener Zeitschrift für die kimde des morgenlands 54, Berlin, 1957, pp. 222 – 233.
63- Roccati, A., op – cit., pp. 100 – 103.
64- Winter, E., op – cit., pp. 222 – 233.
65- Ibid., pp. 222 – 233.
66- Standelmann, R., Die ãgyptischen pyramiden : Von ziegelbau Zum Weltwunder, Mainz, 1985, pp. 99 – 106.
67- Màlek, J., "La division de l'histoire d'Ėgypte et l'Ėgyptologie. Moderne, Bulletin de la societé Francaise d'Egyptologie 138, Paris, 1997, pp. 6 – 17.

68- Verner, M., Lost pyramids, lost, pharaohs, Abusir, Prague, 1994, pp. 64 – 67.

69- Màlek, J., op – cit., pp. 6 – 17.

70- Ibid., pp. 6 – 17.

71- Ibid., pp. 10 – 15.

72- Munro, P., Der Unas – Friedh of Nord – West I., Mainz, 1993, pp. 91 – 95.

73- Grimal, N., op – cit., pp. 102 – 107.

74- Winter, E., op – cit., pp. 222 – 223.

75- Ibid., pp. 222 – 223.

76- Standlmann, R., Kõnig Teti und der Beginn der 6. Dynostie, in : Hommages leclant, 1, pp. 327 – 335.

77- Grimal, N., op – cit., pp. 110 – 115.

78- Màlek, J., op – cit., pp. 6 – 17.

79- Leclant, J., "Pepy I" , in : Lexikon der Ãgyptologie, Wiesbaden, 1982, pp. 926 – 927.

80- Ibid., pp. 926 – 927.

81- Màlek, J., op – cit., pp. 6 – 17.

82- Ibid., pp. 6 – 17.

83- Spalinger, A., "Dated Texts of the old kingdom" Studien zur Altàgyptischen. Kulture 21, 1994, pp. 275 – 319.

84- Kanawati, N., Governmental Reforms in the old Kingdom., Warminster, 1981, pp. 99 – 109.

85- Beckerath, J., "Pepy II." : in Lexikon der Ãgyptologie, Wiesbaden, 1982, pp. 926 – 927.

86- Jequier, G., Le monument funéraire de pepi II, vol.3, Cairo, 1936 – 1940, pp. 17 – 20.

87- Beckerath, J., op – cit., pp. 926 – 927.

88- Ibid., pp. 926 – 927.

89- Ibid., pp. 926 – 927.

90- Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literature, Vol.1, Berkeley, 1973, pp. 99 – 108.

91- Kanawati, N., op – cit., pp. 120 – 130.

الفصل السابع

العصر المتوسط الأول



تمهيـــد :

انهار النظام الملكى المركزى بمصر، وانتشرت الفوضى الاقطاعية بالبلاد خلال حكم الملك "بيى الثاني" الذى استمر قرابة التسعين عاماً، ثم فى عهـــد آخر ملكين من ملوك الأسرة السادسة اتصف حكمها القــصير بالتـــدهور والضعف، مما اتاح لحكام الأقاليم، وخاصة فى مصر العليا فرصة الاســتقلال إدارياً فى أقاليمهم والانفصال تدريجا عن السلطة الملكية.

وقد أدى ذلك إلى انهيار الأسرة السادسة، وانتهاء تلك الحقبة مــن الزمن التى نطلق عليها حالياً اسم "عصر الدولة القديمة". ومن ثم فقد بـــدأ فى مصر عصر جديد يعد من أسوأ عصور التاريخ الفرعونى، نسميه الآن العصر المتوسط الأول[1]، وهو عصر ضعفت فيه وحدة البلاد، وانفلت زمام الحكم من الملك،وشبت نيران الحرب الأهلية، وساد الإضطراب، واستشرى الانحلال والتفكك الاجتماعي.

ويمكن تقسيم هذا العصر إلى فترتين متتابعتين، ميز بينهما "مانتيون" فى تاريخه. ومن ثم يمكن تحديد الفترة الأولى بالأسرتين السابعة والثامنـــة اللـــتين اتخذتا من منف مقراً للحكم، بينما تضم الفترة الثانيـــة الأســـرتين التاســـعة والعاشرة، واللتين حكمتا من "إهناسية المدينة" فى مصر الوسطي.

أولاً: عصر الأسرتين السابعة والثامنة المنفيتين
(٢٢٠٠-٢١٦٠ ق.م) [٢]

ويعتبر عصر هاتين الأسرتين من أشد عصور مصر القديمة إظلاماً، ومن أكثرها غموضاً وأسوأها حالاً، فقد ساد خلال تلك الأيام الفقر والبؤس، وتتابعت المحن والكوارث، واختل الأمن فنهبت الأهرامات، وسرقت القبور، وحطمت المبانى الدينية، وشوهت الأماكن التراثية.

وقد انقسمت البلاد إلى أقاليم إقطاعية يخضع كل منها لسلطة حاكم طامع فى توسيع مدى ما يحكم على حساب الآخرين. ولقد أصبح من العسير علينا التفريق بين الملك وأى حاكم من حكام الأقاليم، كما أتاحت هذه الأحوال الفرص لإغارة بدو الصحراء الشرقية وسيناء على الدلتا، حيث عاثوا فيها فساداً وتخريباً. بل أن البعض لا يستبعد اتخاذ الهكسوس لهذا الغزو فيما بعد مثلاً وسبيلا[٣].

وقد أشار مانيتون إلى هذه الفوضى حين ذكر أن سبعين ملكاً قد حكموا أيام الأسرة السابعة فى مدى سبعين يوماً. ورغم ما فى هذا القول من مبالغة واضحة غير قابلة للتصديق، فإن الدليل قوى على مدى ما ساد البلاد حينذاك من اضطراب وتفكك، وما أحاط بتلك الأسرة من غموض وإبهام. والواقع أنه ليس لدينا من المصادر الأثرية والوثائق التاريخية ما يمكن الاعتماد عليه فى دراسة هذه الأسرة، مما دفع بعض المؤرخين إلى إنكار قيامها.

كذلك أشار "مانتيون" إلى تتابع ثمانية عشر ملكاً حكموا أيام الأسرة الثامنة لمدة ١٤٦ عاماً، دون أن يذكر أسماءهم، كما ذكر أن الأسرتين السابعة والثامنة قد حكمتا من العاصمة القديمة منف. وقد أوردت بردية "تورين" أسماء سبعة ملوك بعد عهد الملكة "نيورتوكريس" آخر ملوك الأسرة السادسة، كما ورد بقائمة "أبيدوس" أسماء سبعة عشر ملكا تتشابه معظم

أسمائهم مع أسماء ملوك الأسرة السادسة. أما قائمة سقارة فقد تجاهلت الملوك الذين حكموا بعد بيبى الثانى حتى بدء أيام الأسرة الحادية عشرة. وعلى كل حال يبدو أن الضرورة قد اقتضت وجود نظام حكم فى العاصمة "منف" يخلف النظام الملكى المركزى الذى ضعف فى أواخر ايام الأسرة السادسة، ويمثل فترة انتقالية ما بين الحكم الشمولى لمصر الموحدة والحكم الأقطاعى لمصر الممزقة المنقسمة على نفسها. ولعل ذلك كان نوعاً من المحاولة لإيجاد قدر من التوازن بين سلطات الملك المتداعية، وسلطات حكام الأقاليم وطموحاتهم المتزايدة(٤).

كما يبدو أن حكام "قفط" قد نجحوا خلال تلك الفترة فى تكوين أسرة مستقلة فى إقاليمهم، بالإضافة إلى بعض الأقاليم من حوله، أطلق عليها بعض المؤرخين إسم (الأسرة الثامنة والقفطية)، والتى حكمت مدة قصيرة، تراوحت وفقا لتقديراتهم المتباينة ما بين عشرة أعوام، وأربعين عاماً. ومن أهم ما خلفه هؤلاء الحكام تلك المراسيم التى سجلت على لوحات جدارية بمعبد الإله "مين" بالمدينة، وتناولت شئوناً إدارية ومالية ودينية محلية، مثل تحديد أوقات معبد، أو تحذير من العبث بالمخلفات الدينية. وبالرغم من أن مراسيم "قفط" توضع ما كان عليه هؤلاء الحكام من سلطات محدودة وقدرات ضعيفة، فإنها تمثل نوعا من استمرارية نظام شبه ملكى ضيق النطاق.

المظاهر العامة لتلك الفترة:

لعل أهم مظهر تميزت به تلك الفترة هو ضعف الملكية ضعفاً مهد لإنهيارها، وادى إلى ضآلة مقدار الضرائب التى كانت تصل إلى الخزانة الملكية. ومن ثم توقفت البعثات إلى مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء، وعجزت الحكومة عن إقامة المنشآت الدينية والجنائزية. ومن ناحية أخرى فقد نهبت المقابر، واعتدى على المعابد نتيجة لاختلال الأمن، كما انقطعت العلاقات مع جيران مصر.

وقد قويت شوكة حكام الأقاليم فى نفس الوقت، فاستقلوا بأقاليمهم التى حاولوا النهوض بها بقدر طاقتهم. ولكن رغم ما كان لهؤلاء الحكام من قوة نسبية، وما تمتعوا به من سلطات واسعة، فإنهم لم يتمكنوا من الأبقاء على المستوى الفنى والمعمارى الذى بلغته الصناعات والفنون والعمائر أيام الدولة القديمة، بل على العكس فقد انخفضت القدرات الفنية والانتاجية وكافة الأقاليم، انحدرت أنحداراً ملموساً(٥).

وقد اختفت ظاهرة بناء الأهرامات الملكية فى تلك الفترة، عدا هرماً متواضعا بسقارة لملك يدعى "إيبى" من الأسرة الثامنة، حكم مدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات(٦). وقد زينت بعض جدران ذلك الهرم بنصوص الأهرام فيما يبدو كمحاولة للحفاظ على بعض التقاليد الموروثة التى أندثرت الكثير منها فى ذلك العصر المضطرب.

والواقع أن تشييد المقابر الملكية فى مصر القديمة كان إلى حد كبير بمثابة مقياس لقوة الدولة وسلطة الملك، فعندما تكون ضخمة أو متميزة فإنها تدل على قدرات وأهمية صاحبها، أما إذا صغرت أو تضاءلت قيمتها المعمارية والفنية فإنها تشير إلى تضاؤل شأن صاحبها وتقلص قدراته.

ومن أسوأ أحداث تلك الفترة تلك الغارات التى قام بها البدو الآسيويون على شرق الدلتا بوجه خاص، والتى عجز الملك وحكام الأقاليم عن صدها أو الحد منها. ومن الواضح أن هؤلاء البدو لم يحاولوا غزو مصر عسكرياً أو احتلالها، بل هدفوا إلى التسلل والتسرب عبر حدود مصر الشرقية بغية النهب والسلب، ثم السعى إلى الاستقرار فى ربوع الدلتا. وليس هناك من شك فى أن سوء الأحوال السائدة فى مصر وانقسامها وضعف قدراتها الدفاعية قد شجع هؤلاء البدو على الإغارة بعد أن تعرض الكثيرون منهم إلى ضغط شعوب آسيوية أخرى عليهم فى فلسطين وما جاورها.

كذلك بدأت مصر تفقد سيطرتها على حدودها الجنوبية، فقامت فى هذه الفترة حضارة جديدة فى بلاد النوبة مستقلة عن حضارة مصر، ومختلفة عن حضارات النوبة السابقة لها إلى حد كبير. وتعرف هذه الحضاة باسم حضارة المجموعة "ج"، وكان أصحابها رعاة يزاولون تربية الماشية، وينتمون حضاريا إلى العصر الحجرى النحاسي. وقد سيطرت هذه الحضارة على النوبة السفلى (النوبة المصرية) بوجه خاص، كما انتشرت فى بعض المواقع بالنوبة العليا (السودانية).

وقد تضاربت آراء المختصين فى أصل ونشأة هذه الحضارة، فاعتبرها البعض محلية الأصل، بينما رأى البعض أنها حضارة وافدة من الشرق أو الغرب. ورغم وجود نوع من الاتصال بين مصر وأصحاب تلك الحضارة، فإنهم ظلوا بمنأى عن اتجاهات مصر الحضارية ومعتقداتها الدينية حينذاك، حتى جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة، والذين اهتموا بالنوبة السفلى عسكرياً وحضارياً، ونجحوا إلى حد كبير فى تمصيرها.

ولكن رب ضارة نافعة، فقد نتج عن سوء أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية ظهور اتجاهات صورها البعض على أنها أول ثورة اجتماعية وفكرية بمصر، وإن اعترض الكثيرون على هذا التعبير نظراً لبعد اتجاهات الأحداث وأهدافها عن مدلول الكلمة، كما أنها لم تسفر عن أية تغييرات سياسية ملموسة، كتغيير نظام الحكم أو ما شابه ذلك.

وعلى كل حال فقد أدت الأحداث إلى خلق نوع من الوعى بحقوق الإنسان، وقوت من اعتزازه بكرامته، كما حطمت جانبا من تلك الهالة المقدسة التى أحاطت بالملكية منذ أيام الدولة القديمة بوجه خاص، وجلعت الشعب يذوب فى شخصية مليكه، فلقد كان المجد فى الدنيا والآخرة مقصورا فيما سبق على أفراد العائلة المالكة والملتفين حول الملك ممن يسخرهم لخدمته أو الحائزين لرضاه. أما بعد تلك الفترة الانتقالية فقد أضحى المجد فى الآخرة

بوجه الخصوص متوقفاً أساساً على أستقامة الفرد وتقواه وحسن سلوكه، وبصرف النظر عن مركزه الاجتماعى أو رضاء الملك عنه.

والواقع أن هذه الانتفاضة الاجتماعية- إذا صح التعبير- لم تدمر أهرامات الملوك وزوجاتهم ومقابر النبلاء والأمراء فحسب، بل حطمت أيضاً الكثير من الآراء والمعتقدات، فألغت العديد من الامتيازات الدنيوية والدينية التى كانت حكراً على أبناء الطبقة العليا والمحيطين بالملك.

ولقد أصبح المصريون منذ ذلك الحين يؤمنون بالمساواة بين كل الناس أمام الحكام من ناحية، وأمام الآلهة من ناحية أخرى. ومن ثم فقد سمح لأفراد الشعب باستخدام بعض الطقوس والنصوص الجنائزية التى كان استخدامها مقصوراً على الملك وعلية القوم، فى إطار محاولة لإرساء الديموقراطية فى العالم الآخر، مما يعد إنعكاسا للمبادئ السابق إرساؤها فى عالم الأحياء.

كما نجح المصريون حينذاك فى تطوير مجموعة من القيم التى دعمت حقوق الفرد الدينية، وطورت العقيدة الدينية فيما يتصل بالمعبود "أوزيريس" بوجه خاص. وتؤكد متون التوابيت (نصوص الأكفان)- التى نقشت على توابيت أصحابها من كافة الطبقات- ذلك الاتجاه فقد حلت إلى حد كبير محل نصوص الأهرامات، والتى اقتصرت فقط على أهرامات الملوك فى أواخر أيام الدولة القديمة.

ازدهار الأدب:

تميز الأدب فى ذلك العصر بواقعيته واتجاهه للتصدى لمظاهر الفساد والانحراف الذى استشرى فى كافة الأنحاء، كما يعد أهم وأصدق مصادرنا التاريخية عن ذلك العصر الغامض.

وتعد المقطوعة الأدبية للحكيم "أيبو-ور" (أي: ايب العجوز) بمثابة تسجيل صادق لأحوال مصر فى أواخر أيام الدولة القديمة وفى مستهل العصر المتوسط الأول. وقد حفظتها لنا بردية نسخت أيام الدولة الحديثة يحتفظ بها

الآن متحف (ليدن) بهولندا. وتمتاز كتابة "أيبو-ور" – رغم طابعها السياسى – بالواقعية، والرغبة الشديدة فى الإصلاح، والتوصل إلى حكم أفضل ينقذ البلاد من الأخطار التى أحدقت بها، والتى وصفها "أيبو-ور" برؤية سليمة وإدراك واع.

لقد تحدث عن تغير صورة البلاد وتبدل أحوالها وتردى أمورها، وأشار إلى الانحلال والفساد الذى انتشر فى البلاد، وندد بالجريمة التى سادت كل مكان، والتعدى الذى حدث فى كل البقاع، ونعى هيبة القانون التى ضاعت والخير الذى قل، والود الذى اختفي. وتعجب من تحول الاغنياء إلى فقراء، والفقراء إلى أغنياء، كما حذر من البدو الذى تسللوا إلى البلاد. ونراه يخاطب الملك مردداً أن البلاد قد أصبحت تغلى كالمرجل دون أن يرى شيئاً أو يفعل أمراً، وما ذلك إلا لأن البطانة تحجب عنه حقيقة الأمور. وذكره بأن الناس يستغيثون ولا مغيث، ويستنجدون ولا منجد، حتى ليقول الصغير: ليت أمى لم تلدنى، ويقول الكبير: ليتنى مت قبل هذا.

وهناك بردية أخرى سميت حديثاً "الرحل الذى يناحى روحه"، (أو الرجل اليائس من الحياة)، ويحتفظ بها متحف برلين، وترجع إلى الاسرة السابعة. وهى تروى نقاشاً يدور بين رجل سئم الحياة، ويئس من معيشته، فقرر الفرار من عالمه الحاضر عن طريق الانتحار وروحه التى حاولت رده عن عزمه ومنعه من تنفيذ قراره. ويبدو بوضوح من خلال تلك المناقشة مدى تشاؤم هذا الرجل حين يقول مثلاً:

لمن اتحدث اليوم؟ لقد اصبح الأخوة وضعاء، والأصدقاء كارهين.

لمن أتحدث اليوم؟ لقد أصبحت القلوب حاقدة، وأصبح الرجل يسرق زميله.

لمن أتحدث اليوم؟ لقد اختفت الرحمة، وساد اليوم السوء فى كل مكان.

لمن أتحدث اليوم؟ لقد أصبح الناس يعشقون الشر، واضحى الخير يداس تحت الأقدام.

ويتحدث أيضا عن تفضيله الموت هربا من حاضر معتم ومستقبل أشد عتامة، فهو يقول:

لقد أصبح الموت فى ناظرى كشفاء المريض بعد مرض عضال، وكرجوع الرجل إلى بيته بعد حرب ضروس، وكخروج السجين إلى الحرية بعد حبس طويل، وكالعودة إلى الوطن بعد أسر طويل.

وينتهى النقاش بعدول الرجل عن تنفيذ عزمه بعد أن هددته روحه بهجرانه فى الدنيا والآخرة. وهكذا تصور لنا هذه البردية وجهة نظر البائسين والمتشائمين، بعكس بردية "أيبو-ور" التى تعرض لنا وجهة نظر متفائلة إلى حد ما.

وأخيرا لدينا أغنية "العازف على الجنك" (آلة وترية) التى ترجع إلى ذلك العصر أيضا، والتى تدعو إلى التمتع بالحياة الدنيا، وتشكك الناس فى عقائدهم الدينية حين تقول: "لقد سمعتهم حكم "إيمحتب" و "جدف رع" التى يرددها الناس فى كل مكان، فإين أمكنتهم الآن؟ لقد تهدمت مبانيهم، وحطمت جدرانها، وأضحت كأن لم تكن! ولم يحضر أحد من هناك فيحدثنا عما أضحوا عليه أو يخبرنا بمصيرهم. فتمتع ودع قلبك ينسى اليوم الذى ستدفن فيه، وضع كل الأشجان وراء ظهرك، وأمض فى سرور حتى يأتى يوم وفاتك، وسر وراء رغبات قلبك ما دمت حيا"

ثانياً: العصر الأهناسى (الأسرتان التاسعة والعاشرة)
(٢١٦٠ ق.م– ٢٠٤٠ ق.م)

فى خلال تلك الفوضى التى سادت البلاد أيام الأسرتين السابعة والثامنة، ظهرت فى بلدة "إهناسية المدينة" (بمحافظة بنى سويف الحالية) أسرة قوية بزعامة أمير يدعى "خيتى"، تلاه عدد من خلفائه بلغوا حوالى الثمانية عشر، اعتبروا أنفسهم ملوكا على مصر، وأسمتهم النصوص المعاصرة باسم "بيت خيتى" نسبة إلى أول ملوك هذه العائلة، وسجلتهم "مانثيون" تحت اسم الأسرتين التاسعة والعاشرة [٨]، واللتين حكمتا جانبا كبيرا من أرض مصر مدة تزيد عن مائة عام، واتخذوا "أهناسية" عاصمة للبلاد، ومقرا للحكم[٩].

وقد حاول ملوك هاتين الأسرتين نشر سلطانهم على كافة أنحاء مصر، ونجحوا إلى حد كبير فى طرد بدو الصحراء من شرق الدلتا، واعتبروا أنفسهم خلفاء مباشرين وشرعيين لملوك منف. ويمثل عهدهم بوجه عام دور انتقال إلى حكم الدولة الوسطى الطيبية (نسبة إلى مدينة طيبة) التى التقى رؤساء أقاليم مصر العليا حول حكامها.

ومع أن هؤلاء الأهناسيين لم يتركوا لنا آثارا جديرة بالذكر، كما أننا لم نعثر بعد على قبورهم، ما عدا هرم الملك "مريكا رع" أحد ملوك الأسرة العاشرة بجانة سقارة، فإن المؤرخين قد توصلوا إلى بعض الحقائق التاريخية عن ذلك العصر معتمدين على مصدرين مهمين، أولهما: التعاليم التى تركها الملك "خيتى الثالث" لابنه وولى عهده "مريكارع"، وهى خلاصة تجارب ذلك الملك الشيخ طوال حياته الطويلة التى أمتلأت بألوان من الحروب والكفاح، وخاصة تلك الحرب الضروس للسيطرة على "إبيدوس". أما ثانى تلك المصادر فهو النصوص التى دونها حكام إقليم أسيوط المعاصرون والمتحالفون مع "إهناسية" على جدران قبورهم المحلية. ولعل أهم هذه القبور هو قبر الأمير "خيتى" الذى

ذكر أنه تربى وهو صغير فى البلاط الملكى مع إبناء الملك، ثم تحدث عما قام به من أعمال لإسعاد قومه، كما روى الكثير عن شجاعته فى قتاله مع الأعـداء الطيبيين. كذلك سجل خليفته "تف إيب" على جدران قبره أخبار حروبـه، خاصة فى منطقة "إيبدوس".

ملوك إهناسية:

أسس "خيتى مرى إيب رع" (الأول) الأسرة التاسعة وقد تلاه ملوك آخرون يكتنف الغموض تاريخهم. وقد ذكر "مانثيون" هذا الفرعون باسـم "اخيتوس" ووصفه، بأنه كان ظالما متعسفا، سام شعبه العذاب، وأنه فقد قواه العقلية فى أواخر أيام حكمه، وأن حياته انتهت بعد أن التهمه تمساح. ولكننا فى الواقع لم نعثر على اية وثيقة تاريخية تؤكد أو تنفى مزاعم "مانثيون"، كما أنه ليس بمستغرب أتصاف "خيتى" بالشدة والصرامة، إذ كانت البلاد فى ذلك الوقت فى حاجة إلى رجل قوى حازم يقضى على الفوضى الشاملة، ويوفق فى نضاله مع أمراء الأقاليم الذين بلا شك قد قاوموا محاولته لإعادة الوحدة إلى البلاد[١٠]. وقد عثر على اسم هذا الملك على صخرة عنـد الجنـدل الأول، وعلى إناء من البرونز وجد فى أسيوط، وهو الآن بمتحف اللـوفر بـاريس، وكذا على عصا من الأبنوس مدون عليها اسمه، وعثر عليها فى "مير" بمحافظة أسيوط، وعلى جزء من صندوق عاجى عثر عليه فى "اللشت".

وهناك فرعون آخر مهم من بيت "إهناسية" عاش فى أيـام الأسـرة العاشرة، وهو "خيتى واح كارع" (خيتى الثالث)، وقد حكم مـدة طويلـة، حاول خلالها طرد البدو من شرق الدلتا، كما قضى معظم أيامـه فى قتـال شرس مع أمراء طيبة الذين كانوا قد استولوا على منطقة "أبيدوس" وتقـدموا شمالا حتى أسيوط، فكان بذلك آخر ملك عظيم حكم فى إهناسية.

والواقع أن علاقة أهناسية بطيبة كانت سليمة فى بادئ الأمر، إلى أن نشبت الحرب بين البيتين الحاكمين بهما عندما قويت شوكة طيبة، فانقسمت

مصر بذلك إلى مملكتين متصارعتين. ويغشى هذا النزال الطويل المدى (الذى امتد قرابة مائة عام) بكثير من الغموض والأبهام، وتخللته انتصارات وهوائم، وقطعته فترات هدنة وسلام. وقد رجحت كفة ملوك إهناسية وحلفائهم أمراء أسيوط فى بادئ الأمر، ثم اضحت الحرب سجالا بين الفريقين، ثم ما لبثت أن أنقلبت كفة ميزان الحرب فى صالح طيبة، فتقدم الطيبيون فى عهد "خيتى الثالث" إلى قلب مصر الوسطى، مما أحزنه ودفعه إلى كتابةوصيته لأنبه "مرى كا رع" الذى تولى بعده، كما يبدو أن الطيبيين قد وصلوا فى أيامه إلى مشارف "الأشمونين".

وقد انتهيت تلك الحرب الشرسة بانتصار الطيبيين انتصارا تاما، حين تمكن "منتوحتب الثانى" (أحد ملوك البيت الطيبى أيام الأسرة الحادية عشرة وفقا لتقسيم مانثيون) من اسقاط عرش "إهناسية" وجلوسة على عرش مصر المتحدة[١١]، مما كان بشيرا ببدء عهد جديد يعرف باسم الدولة الوسطى.

أزدهار الأدب فى العصر الإهناسي:

ظل الأدب مزدهرا فى العصر الإهناسى، مما يعد استمرارا لازدهاره فى الفترة الأولى من العصر المتوسط الأول، وأن اختلف فى بعض اهدافه ومراميه. وسأكتفى بتقديم مثالين متميزين منه هما: "تعاليم مريكارع"، وقصة "الفلاح الفصيح" اللتين دونتا بأسلوب لغوى بليغ تميز بالتشبيهات والتوريات والكنايات اللطيفة[١٢].

أما تعاليم "مريكارع" فهى عبارة عن وصايا موجهة للملك "مريكارع" من أبيه "خيتى"، تضمنت توجيهات سياسية إلى جانب نصائح اجتماعية ومواعظ دينية. وقد دونت على ثلاث برديات محفوظة الآن بمتاحف لننجراد وموسكو وكوبنهاجن، وترجع إلى أيام الدولة الحديثة. ويفهم منها أن "خيتى" قد نجح فى طرد البدو من الدلتا، واستأنف التجارة، كما استمر فى كفاح الطيبين، وقام بتطهير الترع، ولكنه فى نفس الوقت أهاب بابنه أن

يسالم أهل الجنوب، ويقوى جيشه ويحسن معاملة موظفيه. وحثه على التمسك بالفضائل، وألا يظلم امرأة أو يحرم إنسانا من ثروة أبيه، وأن يطيب خاطر الشاكى، وأن يتبع العدل دائما. ولهذه النصائح دلالة دينية، إذ تدل على أن الملك قد فقد جانبا كبيرا من الوحشة المقدسة، فنراه أحيانا يحدثنا عن أخطائه مرددا عبارات الندم، كما يذكر أن السعادة فى الآخرة لا تنال وفقا لمركز الفرد وجاهه، وإنما تنال منحة لأعماله الطيبة، وسلوكياته الخيرة، فالله يقبل القليل من الشخص المستقيم، ولا يقبل الكثير الذى يقدمه الرجل الشرير.

وتعد قصة "الفلاح الفصيح" من أفضل ما قدمه الأدب المصرى القديم، وقد حدثت أحداثها فى عهد الملك "خيتى نب كاو رع"[١٣] من الأسرة العاشرة. ويرجع تدوين النسخ الأربع التى وصلتنا إلى أيام الأسرة الثانية عشر غالباً. وتتميز هذه القصة بسلاسة الأسلوب وجمال التعبير، كما توضح ما كان يختلج فى قلوب الناس من رفض للتسيب وضيق بالظلم، وتبرز فى نفس الوقت ما رسخ فى قلوب الناس وقتئذ من قيم، مما شجعهم على المطالبة بالحق وبعدم الخضوع للطغاه، مما دفعهم إلى الإصرار على رفع الظلم ورد الحق لإصحابه.

وتتضمن القصة شكوى فلاح فقير من وادى النطرون حمل حميره منتجات إقليمه ليقايض بها فى العاصمة "إهناسية"، وبينما كان فى طريقه طمع فيما يمتلكه الفلاح موظفٌ مسئول يعمل فى ضيعة يمتلكها أحد علية القوم. ومن ثم فقد خدعه بأن مد قطعة من قماش اعترضت الطريق، مما اضطر الفلاح إلى تفادى المرور عليها والنزول بحميره إلى طرف الضيعة الملاصقة للطريق حينئذ قضم أحد حميره خزمة من الشعير من أرض هذا الموظف، وسرعان ما عاقبه الموظف بالاستيلاء على حميره وما تحمله جزاء انتهاكه لأرض ملك غيره. ولما اعترض الفلاح أوسعه ضربا وطرده شر طردة، فبادر الفلاح إلى تقديم شكوى إلى كبير أمناء القصر بالعاصمة، والذى أدهشة

بلاغتها وقوة تعبيرها، فأبلغها بدوره إلى الملك الذى أشار عليه ألا يبت فيها حتى يضطر الفلاح إلى تقديم المزيد من تلك الشكاوى الفصيحة. وأخيرا أمر الملك (بعد تقديم الفلاح للشكوى التاسعة) بأن ترد كافة متسحقاته إليه، وأن يعاقب المعتدى عقابا رادعا. وهكذا انتصر العدل أخيرا، وعاد الحق إلى أصحابه.

وقد صاحب هذا الازدهار الأدبى ازدهار الفن الإقليمى التشكيلى الذى استخدم الخشب بوجه خاص نظرا لتوقف البعثات إلى المحاجر والمناجم. وقد ازدهر نحت نماذج للأفراد والمجتمعات-المهنية بوجه خاص، وعثر عليها فى مقابر مصر الوسطى وخاصة أسيوط، والتى ترجع إلى العصر المتوسط الأول.

هوامش الفصل السابع :

(١) يطلق المؤرخون على هذه الفترة التاريخية أسماء مختلفة مثل "عـــصر الانتقـــال الأول"، أو "عصر الاضمحلال الأول"، أو "عصر اختلفت الآراء فى تقدير المدى الزمنى لتلك المرحلة، فهى تمتد عند البعض إلى ما يزيد على مائتين وخمسين عاما، وأن كانت الآراء الحديثـــة تقدرها بقرابة المائة والخمسين عاما.

(٢) نسبة إلى العاصمة "منف" التى ظلت من الناحية الأسمية عاصمة للبلاد. ومن ثم فهناك من ينادى بضم الاسرتين السابعة والثامنة إلى عصر الدولة القديمة تمشيا مع بردية "تورين" التى وضعت ملوك الأسرة الأولى ومن تلاهم من ملوك حتى نهاية الأسرة الثامنة (وفقا لتقسيم مانيثون) مكملين للعصر الذى سبقهما.

(٣) انظر: أحمد بدوى، فى موكب الشمس، جزء ٢، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٢٢٠.

(٤) يمكن الرجوع فيما يتعلق بهذه الفترة التاريخية إلى مراجع منها:

- محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية، ١٩٦٦
- Stock, Die Erste Zwischen Seit Agypten, Rome, 1940.
- B. Bell, The Mark Ages in Ancient History, I, the First Mark Age in Egypt, American Journal of Archalology, 57, 1941, pp.1-26

(5) G. Jregger & Others, Ancient Egypt, Soclal History, Cambridge, 1983, p. 112.

(٦) حكم لمدة سنتين وفقاً لبردية تورين.

(٧) ليس هناك من شك فى أن هذه البردية وكذا مقطوعة "إيبو-ور" ترجعـــان إلى العـــصر المتوسط الأول وتعبران عن الحالة السائدة وقتذاك.

(٨) لا نعرف الأسباب التى دعت "مانيثون" إلى تقسيم ملوك البيت الأهناسى إلى اســـرتين، خاصة أن بردية تورين قد دونت ملوكها فى مجموعة واحدة قائمة بذاتها. والرأى الـــسائد أن الأسرة التاسعة قد حكمت ثلاثين عاما تقريباً، فى حين أن الأسرة العاشرة قد حكمت مائة عام، فهى أطول كما أن تاريخها أقل غموضا من التى سبقتها.

(٩) أشتق اسم أهناسية من الأسم المصرى القديم "حنن نسوت" أى مدينة الملك الطفل، والتى حرفت فى الكتابة القبطية إلى "هناس"، ونطقها العرب "أهناس"، وتعرف اليوم "بأهناسية المدينة". وقد كانت هذه المدينة عاصمة للأقليم العشرين من أقاليم مصر العليـــا، وتميـــزت بموقعها الجغرافى والاستراتيجى المهم، فهى تقع فى الجانب الغربى للنيل فى منتصف المسافة بينه وبين منخفض الفيوم، كما تميزت أهناسية أهمية سياسية وتاريخية فى فترات عديدة من العصر الفرعونى. وقد أطلق عليها الإغريق اسم "هيراكليوبوليس" نظرا لأن معبودها المحلى كان يمثل بوجه كبش. انظر:

- G. Mokhtar, Thnasga, el Medina (Herapepola Magnal; M. Prez? Die P. Vernus, Excavation in Ehnaisya El Medine, Madrid, 1993.

(١٠) عثر فى "المعلا" (جنوب الأقصر بأربعين كيلو مترا تقريبا) على مقبرة "عـــنخ تـــى فى" حاكم إقليم "الكاب" الذى عاش أيام بيت أهناسية، وكان مواليا لملوكها. وقد نجح فى الاستيلاء على أقليم أدفو، وحاول السيطرة على إقليم أسوان. ولكن طيبة التى بـــدأت تقوى جينذاك عقدت تحالفا مع "قفط" نجحت من خلاله فى السيطرة على إقليمه. انظر:

- J. Vandier, Le Tombe d' Ankhtife a Moolla, Le Caire, 1995.

ويجدر بنا أن نشير إلى قلة معلوماتنا عن طيبة قبل أن تعلـــو مكانتـــها إبـــان العـــصر الأهناسى، وليس لدينا من آثار طيبة قبل ذلك العصر سوى قرابة خمسين مقبرة صخرية محدودة القيمة التاريخية، كما أنه ليس لدينا من أيام الفترة الأولى من العصر المتوســـط الأول، غير بضعة نقوش تحوى ثلاثة أسماء أحكام لهم صلة بأسرة "أنتف" التى اســـست الأسرة الحادية عشر الطيبية، واحتضنت ذلك الصراع الطويل مع ملوك أهناسية.

(11) We Schenkel, Demphis-Herapleolis theben, epegraphishen zeugnessedes 7-11 Dynastie Agyptens, Weisbaden, 1956.

(١٢) من أحدث الكتب التى تناولت الأدب المصرى القديم:

- J. Pritichard (ed) Ancient Near Eastrn Texts releated to the old Jestament, Prncetion, 1969.

وقد قام بترجمة جانب منه د. عبد الحميد زايد، وراجعه د. محمد جمال الدين مختار، بعنوان: نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٨٣.

- N. Lichtheims, Anctent Egyptian Literature, vol. 1, The old and Middle Kingdom, Beslecly, 1970.
- Weke Simpson (ed), The liarture of Ancient Egypt, New Heaven and London, 1973.
- O. Laluttes, Textes, Saores et texles profanes, de l' ancenne Egypte des pharaone et deshmmes, Paris, 1985.

وقد ترجم إلى اللغة العربية

د. سليم حسن، الأدب المصرى القديم، القاهرة.

د. أحمد عبد الحميد، الأدب المصرى القديم، القاهرة.

(١٣) يعتبره العديد من المؤرخين الملك "خيتي الثاني"، وإن كان موقعه بين ملوك أهناسية ما زال موضع نقاش.

الفصل الثامن

الدولة الوسطى

(الأسرتان الحادية عشرة، والثانية عشرة)

٢٠٤٠ق.م — ١٧٨٥ ق.م (تقريبا)

الدولة الوسطى (الأسرتان الحادية عشرة، و الثانية عشرة)[1]
٢٠٤٠ق.م – ١٧٨٥ ق.م (تقريبا)

تضم الدولة الوسطى مجموعتين من الملوك: أولهما ملوك الأسرة الحادية عشرة بعد نجاح "منتوحتب حبت رع" (الثانى) فى القضاء على ملك إهناسية وحكم مصر الموحدة للمرة الثانية فى تاريخها القديم. أما المجموعة الثانية فهم ملوك الأسرة الثانية عشرة، الذين أهتموا برخاء البلاد والنهوض بها اقتصاديا، فوصلت فى عهدهم إلى درجة كبيرة من القوة والازدهار.

وقد ارتبطت أيام الدولة الوسطى بتحقيق ذلك الاتحاد واستمراره الذى أنهى تفرق البلاد وتنابذها، فحل السلام محل الحرب، وعم الازدهار كافة النواحى، واستعادت مصر مكانتها التى وصلت إليها أيام الدولة القديمة.

الأسرة الحادية عشرة الطيبية:

ضمت الاسرة الحادية عشرة (وفقا لتقسيم "مانثيون") سبعة ملوك حكموا ١٤٣ سنة، وهو تقدير زمنى قريب من تقدير المؤرخين المعاصرين. ويمكن تقسيمهم فى لواقع إلى مجموعتين وفقا لما اتخذوه من أسماء. أما المجموعة الأولى فقد اتخذوا اسم "منف"، وهم الذين تحملوا عبء القتال مع الإهناسيين، وعاصرت أيامهم العصر المتوسط الأول. أما المجموعة الثانية فقد غلب عليهم اسم "منتوحتب"، وتمكن أحدهم وهو "منتحتب الثانى" من تحقيق وحدة البلاد التى تفككت فى العصر المتوسط الأول، بادئا بذلك أيام الدولة الوسطي[2].

والواقع أن مصر كانت منقسمة عند بدء هذه الأسرة، وفى فترة حكم المجموعة الأولى منها (الأناتفة) إلى الأقسام التالية:

١ – الدلتا: ويحكمها بعض الحكام المحليين الذين ارتبطوا إلى حد ما بملوك إهناسية. ولا يستبعد تواجد عناصر محدودة من البدو فى شرقها، وهم

فلول أجدادهم الذين تسربوا إليها فى أعقاب الأيسرة السادسة، وعمل الأهناسيون على تطهير الدلتا منهم).

٢- مصر الوسطى التى أمتدت من "منف" حتى أسيوط، ويسيطر عليها ملوك أهناسية المتحالفون مع أمراء أسيوط الأقوياء.

٣- منطقة تضم على وجه التقريب محافظة سوهاج الحالية، وكانت ميدانا للنضال بين ملوك الأسرة العاشرة الأهناسيين، والملوك الأوائل من الأسرة الحادية عشرة الطيبية.

٤- مصر العليا التى تضم تقريبا محافظتى قنا وأسوان الحاليتين، وكانت تحت نفوذ أمراء طيبة بعد أن سيطروا على أقليم "الكاب"، ونجحوا بذلك فى الربط بين أقاليم المنطقة الخمسة القديمة. ومما هو جدير بالذكر أن أسم طيبة قد لمع منذ ذلك الوقت حتى نهاية التاريخ الفرعونى.

٥- النوبة السفلى التى نجحت فى الاستقلال عن مصر منذ أيام الأسرة السادسة، وسيطرت عليها حضارة المجموعة (ج).

وقد نشأت الأسرة الحادية عشرة فى طيبة، والتى لم تكن أيام الدولة القديمة إلا بلدة محدودة الأهمية بين مدن الأقليم الرابع القديم الذى ضم بلدتى "الطود" و"أرمنت" فى الجنوب، و"المدامود" فى الشمال. ومما لا شك فيه أيضا أن بيتا حاكما قد سيطر على حكم طيبة والأرض المحيطة بها فى أواخر أيام الأسرة السادسة، كما حدث فى بقية جهات مصر. ولا نعرف تماما كيف حلت طيبة محل "أرمنت" كعاصمة للإقليم، ولا كيف ذاعت شهرة إلهها "آمون" الوافد من الأشمونيين، بجانب معبودها القديم "منتو" إله الحرب والنزال.

ولا يزال عدد ملوك الأسرة الحادية عشرة وتتابعهم وعدد سنى حكمهم وتسلسلهم الأسرى مجالا للدراسة والبحث، وإن أتفق الجميع على وصفهم بالصلابة والشدة والقدرة على القتال، وكذا عن أهمية الدور الذى لعبوه طوال مائة وخمسين سنة تقريبا فى سبيل توحيد البلاد والنهوض بها من جديد.

أولا: ملوك الفترة الأولى من الأسرة الحادية عشرة
(٢١٦٠ ق.م – ٢٠٤٠ ق.م)

وهم الحكام الذين عاصروا العصر الإهناسى، ويدخل عهدهم فى نطاق العصر المتوسط الأول.

١- يعد "انتف سهر تاوي" الأول[٣] (وفقا لبردية تورين) أول من أدعى الملك بعد "انتف" العظيم الذى سبقه فى وضع الأساس لخلفائه دون أن يدعى الملك[٤]. ويبدو أن طيبة فى عهده قد نجحت فى الإمساك بزمام القيادة فى الجنوب. ورغم ضآلة معلوماتنا عن أيامه التى تقدر بعشر سنوات، فإن الطيبيين الذين عاشوا فى عصور تالية له الدليل على دوره المهم، سواء أكان ذلك لنضاله مع الإهناسيين م لتصديه "لعنخ تفي" حاكم "قفط"، أو غير ذلك من الإنجازات.

وقد ذكره "منتوحتب الثانى" بالخير، وأقام له سنوسرت الأول تمثالا، كما ورد أسمه فى بعض قوائم الملوك، وقد تم دفنه فى منطقة "الطارف" بغرب طيبة.

٢- أما "انتف واح عنخ" (الثاني)، فيبدو أنه كان ابنا أو أخا لانتف الأول، واتصف هو الآخر بالقوة فسيطر تماما على الأقاليم الخمسة الجنوبية لمصر. ويغلب على الظن أنه سيطر على إقليم "إبيدوس" بعد حرب ضروس. وقد عثر العالم الفرنسى "أوجست ماريت" (سنة ١٨٦٠) على لوحة أمام قبره بالطارف، نقلت فيما بعد إلى المتحف المصرى، وتعرف بلوحة "الكلاب"، إذ صور عليها ومعه خمسة كلاب، مما يدلنا على حبه للصيد، وقد جاء بها أنه أقام المقاصير، ورمم المعابد، وقدم القرابين إلى الإله آمون[٥]. وقد ورد ذكر قبره بالطارف فى بردية "أبوت" التى تحدثت عن سرقة المقابر الملكية فى عهد الأسرة العشرين، إذ جاء فى تقرير لجنة التفتيش أنها قد وجدت

مقبرته سليمة ومحتوياتها كاملة، عدا الهرم الذى كان مقاما فوقها فقد سقط.

٣- وقد تولى بعده "انتف نخت نب تب نفر" (الثالث) الذى حكم مدة قصيرة لا تتجاوز الخمس سنوات التى أعطتها بردية تورين لمدة حكمه. ويبدو أنه كان متقدما فى السن عند وفاة سلفه الذى حكم البلاد لمدة تقارب الخمسين عاما. فقد ظلت "أبيدوس" خاضعة لسطانه، إذ ذكر حاكمها وقتذاك أنها تعرضت لمجاعة فانقذها الملك منها، وقد دفن أيضا بالطارف.

٤- ثم تلاه "منتوحتب سعنخ إيب تاوى" (الثاني) الذى كانت أيامه كعهد من سبقوه أيام كفاح وقتال. ويغلب على الظن أنه قد عاصر أيام "خيتى الثالث" وابنه "مريكارع" اللذين قاوما تغلغل الطيبيين قبل أن ينجح خليفته "منتوحتب الثانى" فى توحيد البلاد. وقد بدأ فى إعداد مقبرته بالطارف، والتى زاد حجمها على مقابر من سبقه من ملوك تلك الأسرة، ولكنه توفى قبل أن يتمها، وبعد حكم دام قرابة العشرين عاما.

ملوك الفترة الثانية من الأسرة الحادية عشرة

(عصر الدولة الوسطي) ٢٠٤٠ ق.م – ١٩٩١ ق.م

١– منتوحتب نب حبت رع (الثانى)[٦]:

هو أهم ملوك الأسرة الحادية عشرة، ومؤسس ما اصطلح على تسميته بالدولة الوسطى، وأول من أتخذ طيبة عاصمة لمصر الموحـــدة، وقــد عــده المصريون القدماء أنفسهم بادئ عهد جديد من عهود الوحدة التاريخيـــة، إذ حمل الكهنة فى حفلات تتويج الفراعنة فى الأسرة التاسعة عشرة تماثيل كل من "مينا" الموحد الأول لمصر، ثم "تمثال منتوحتب نب حبت رع"، ثم تمثال "أحمس نب بحتى رع" بطل تحرير مصر من نير الهكسوس وبادئ أيام الدولة الحديثة.

ورغم أن معلوماتنا عن الحروب الطويلة بين إهناسية وطيبة محــدودة ومتفرقة، ولا تزيد على بعض تلميحات وإشارات، يبــدو أن إهناســية قــد سقطت فى قبضته فى السنة التاسعة من حكمه الذى استمر قرابة الأربعين عاما. وقد أضحى "متنوحتب" بزوال حكم الإهناسيين ملكا على الوجهين القبلــى والبحرى.

ومن ثم فقد بدا فى العمل على تأمين حدود مصر واســتقرار أمنـــها، فحارب فبيلتى "التحنو والتمحو" الليبيتين فى غرب الدلتا وشتت فلول بـــدو "المنتو" فى سيناء، وسجل ذلك على جدران مقصورة أقامها فى جبلين جنوب طيبة[٧]. وقد حاول أيضا إعادة نفوذ مصر فى بلاد النوبة، ويبدو رغم شــك بعض العلماء فى ذلك أنه قد أمن على الأقل سبل التجـــارة فى بـــلاد النوبـــة السفلى، مسجلا انتصاراته فى نص من "دير البلاص" ذكر فيه أنه الحق الهزيمة بسكان وأوات[٨]. ويستدل كذلك من نصوص عثــر عليهـــا فى "أبكـــان" (جنوب أسوان بحوالى عشرين كيلو مترا) أنه قد أرسل حملة وصــلت حـــتى "بوهن" فى منطقة وادى حلفا[٩].

أما فيما يتعلق بالشئون الداخلية، فقد أعاد منصب الوزير لمساعدته إداريا، ونحن نعرف أسماء ثلاثة من وزرائه هم داجى يسى وإيى. كما نجح فى الحد من سلطات حكام الإقاليم والقضاء على نزعتهم الاستقلالية إلى حد ما، كذلك شرع فى إرسال البعثات إلى محاجر الصحراء الشرقية، مما يسر له إقامة وترميم المعابد. ورغم العثور على آثاره المعمارية فى عديد من المواقع فى مصر العليا كالكاب وأرمنت والطود وجبلين ودير البلاص ودندرة وأبيدوس وسقارة وفى وادى الحمامات، فإنه لم يعثر له حتى الآن على آثار فى الدلتا، وتشير وفرة الآثار التى تنسب إليه إلى قوته السياسية، ونجاحه فى توفير الخامات والأحجار اللازمة لعمائره رغم مشاغله الأمنية وأعماله العسكرية.

وقد ابتكر مهندسو "منتوحتب" طرازا معماريا يعد تطويرا جديدا وفريدا فى الأسلوب المعمارى وخطوة جريئة فى العمارة الجنائزية بمصر القديمة حين اختاروا لمعبده الجنائزى مكانا فى حضن الجبل بمنطقة الدير البحرى بغرب طيبة، وقد صمم على شكل طابقين يوصل بينهما طريق صاعد. وكان كل طابق يضم صالة أعمدة كبيرة، كما يسود اعتقاد بأن الطابق الثانى كان يحمل هرما من الحجر الجيرى كقبر لمنتوحتب نفسه[١٠]. ولكنه تهدم تماما، كما تهدم المعبد نفسه وسقطت أعمدته واختفت معظم أحجاره[١١].

وقد عثر فى أرضية المعبد على ست مقابر لسيدات الأسرة المالكة، تتكون كل منها من حجرة واحدة بها تابوت ضخم، ويعد تابوتا الأميرتين "عاشييت" و"كاويت" المعروضان بمتحف القاهرة – بالإضافة إلى تمثال منتوحتب الضخم بذلك المتحف– من روائع فن تلك الأسرة، كما أن معبده كان بلا شك أقدم معابد الدولة الوسطي[١٢]، كما وجدت بعثة متحف متروبوليتان بنيويورك جثث ما يقرب من أربعين جنديا فى منقطة ذلك المعبد، ربما سقطوا عند مهاجمة منتوحتب لإهناسية، ثم دفنت أجسامهم بالقرب من

قبر مليكهم. وقد شيد بعض النبلاء مقابرهم بالقرب من قبره، ومنهم الـوزير "إيـي" الذى عثر فى مقبرته على مجموعة من الرسائل، كتبها "حقا نخـت"، أحد المسئولين عن قبر الوزير، ووجهها إلى إبنه. وتكشف هذه الرسائل العائلية عن أخلاقيات كاتبها وملامح شخصيته، كما تزيل النقاب عما كانت عليـه حياة أسرة من الطبقة المتوسطة فى ذلك الوقت، وما كانت تجربه من معاملات كما توضح الأساليب التى أتبعت جينذاك لتوطيد الأمن، وتهدئه الأحـوال فى كافة أنحاء مصر(١٣).

٢- "منتوحتب سعنخ كارع" :

ترك أبوه له دولة منظمة، ورغم أننا لا نعرف الكثير عنه، فيبدو أنـه اتبع سياسية أبيه. وقد قدرت بردية "تورين" مدة حكمه باثنتى عشرة سـنة، ولكنها تركت بعد مدة حكمه فراغا امتد لمدة سبع سنوات قبل بدء الأسـرة الثانية عشرة، مما يسمح بإضافة ملك آخر من تلك الأسرة قبل أنتهاء أيامهـا، وقد بدأ مشروعا لبناء مقبرته ومعبده الجنائزى بجوار معبد أبيه بمنطقة الـدير البحرى، ولكنه توفى قبل تنفيذ مشروعه. وقد عثر على نص منقـوش علـى الصخر بوادى الحمامات يرجع إلى السنة الثامنة من حكمه، ويفيد أنـه قـد أرسل حملة شبه عسكرية تضم ثلاثة آلاف رجل بقيادة "حننـو" لإحـضار الأحجار اللازمة لعمائره، وقد طاردت الحملة البدو وأمنت الطريق إلى المحاجر، ثم استمرت الحملة فى طريقها عبر الصحراء الشرقية حتى وصلت إلى سواحل البحر الأحمر، حيث رأس "حننو" بعثة إلى بلاد "بونت" أتت محملة بمنتجـات تلك البلاد من بخور وعطور وغيرها.

وقد عثرنا على بعض مقابر النبلاء من عهده فى نفس المنطقة، نـذكر منها مقبرة "مكت رع"، التى ترجع شهرتها إلى المجموعة الكبيرة من النمـاذج الخشبية الملونةالتى وجدت بها، والتى تمثل مظاهر الحياة اليومية سـواء داخـل المنـزل أو خارجه، والتى يعرضها الآن متحف القاهرة.

٣- "منتوحتب نب تاوى رع" :

يعد آخر ملوك هذه الأسرة، ويبدو أنه قد حكم مدة قصيرة للغايـــة، ولم تذكره أى من القوائم الملكية، كما لم تعترف به بردية "تورين" الـــتى لم تذكر ملكا معينا فى مدة السبع السنوات التى حددتها ما بين وفاة "منتوحتـــب سعنخ رع" و تولى أول ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم. كذلك لم تتضح لنا صلته بسلفه، ويبدو أن الفوضى قد سادت فى ايامه، وأن البدو الليبـــيين قـــد أعتدوا على حدود البلاد، وأن مجاعة قد حلت بمصر.

ولعل العمل الوحيد الذى ذكر له هو إرساله البعثـــات إلى المحـــاجر والمناجم فى صحراء النوبة وفى منطقة وادى الحمامات بالـــصحراء الـــشرقية، حيث قاد وزيره "أمنمحات" حملة من عشرة آلاف رجل، تركت نقوشا تقص علينا ما حدث من معجزات فى أيام تلك البعثة، كقصة غزالة برية أختـــارات بقعة لتضع ولديها فوقها، واتضح بعد ذلك أنها خير مكان لجلب الأحجـــار اللازمة للتابوت الملكى، وكقصة تحدثت عن عاصفة هبت فجأة وأســـقطت مطرا غزيرا كشف عن بئر كون بحيرة من الماء العذب الذى أسعف تلك البعثة الضخمة وأنقذها من العطش فى جوف الصحراء[١٤].

فيبدو بجلاء أن الوزير امنمحات الذى تدرج فى المناصـــب المختلفـــة وحصل على العديد من الوظائف والألقاب الشرفية والفعلية، والذى ذكرتـــه بعض النصوص من ذلك العهد، هو نفس الشخص الذى أسس فيمـــا بعـــد الأسرة الثانية عشرة، ومن الجائز أنه قد دبر مؤامرة ضد فرعون مكنتـــه مـــن انتزاع العرش بالقوة.

والواقع أن نهاية الأسرة الحادية عشرة لا يزال غامضا بحيث لا يمكننا الجزم الآن بسير الأحداث التى أنهت حكم آخر ملوك تلك الأسرة، وهل قتل ذلك الملك أو عزل أو توفى وفاة طبيعية، ولكن دون وريث يخلفه على العرش.

وعلى كل حال فمن الواضح عندما نستعرض الأحداث التى عاصرت تلك الأسرة، وعندما نتتبع إنجازاتها سواء أثناء النضال الذى خاضته مع أهناسية أو توحيدها لمصر، فإن هذه الأسرة – رغم ما أصابها من إنهاك قرابة مائة عام – قد نجحت فى ممارسة السياسة التقليدية لملوك مصر فحافظت على وحدة البلاد، واهتمت بتوطيد نفوذ مصر فى بلاد النوبة، وحاربت الإقطاع، ودعمت سلطة فرعون المركزية، وأرسلت البعثات إلى المحاجر والمناجم، واستأنفت الملاحة فى البحر الأحمر، وسارعت إلى ترميم وإصلاح المعابد والأبنية الدينية وبناء الجديد منها. كذلك اهتمت هذه الاسرة اهتماما خاصا بمدينة طيبة بجانب اهتمامها الشديد بمدينة أبيدوس المقدسة.

ويلاحظ أن الفن بدأ فى النهوض، وكان فنا إقليميا أخذا فى التطور والنضوج، فتقدم فن النقش تقدمًا ملحوظًا، كما يتمثل فى التوابيت الحجرية للأميرتين "عشاييت" و"كاويت"، بينما نم فنا النحت والتصوير عن نقص فى التجربة والخبرة. أما العمارة الدينية والجنائزية، فيكفى للدلالة على روعتها ذلك المعبد الجنائزى الذى خلفه لنا "منتوحتب" الثانى بمنطقة الدير البحرى.

ولعل خير مثال لفن تلك الأسرة هو ما خلفته تلك النماذج الخشبية التى أبدع الفنانون عن طريقها فى تجسيم مناظر الحياة اليومية بأدق تفاصيلها، فمنها ما يمثل المنازل بحدائقها، أو تلك البيوت المصغرة التى تعرف ببيوت الروح، ثم ما مثل شون الغلال، وحظائر المواشى، وورش النجارة، ومصانع الغزل والنسيج، ومراكب الصيد والنقل والاتجار والنزهة، والتى زودت بالمجاديف إذا ما كانت متجهة مع التيار شمالا، أو بالشراع التى تدفعها الرياح فى طريقها جنوبا. وقد أوضحت تلك النماذج عمليات عجن الخبز وتخمير البيرة، وذبح الماشية، واستعرض القطعان، وتقديم القرابين وسير الجنود.

الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٥ ق.م):

يعتبر عصر هذه الأسرة من أزهى عصور مصر القديمة، وفيه ارتقت الآداب وأزدهرت الفنون، وتقدمت الزراعة وتطورت الصناعة ونشطت التجارة، ونهضت البلاد نهضة لم ترتكز على الملك، وتتبلور فى قصره أو من خلال بلاطه، كما كان الحال أيام الدولة القديمة، وإنما تغلغلت وتبلورت فى الشعب نفسه، وشملت وسادت فى مصر كلها.

وقد أسس هذه الأسرة الملك "امنحات الأول" حوالى عام ١٩٩١ ق.م، ودام حكمها ما يقرب من القرنين الرابع من الزمان.

وقد وصل إلى أيدينا من المصادر والوثائق التاريخية التى ترجع إلى أيامها، ما يكفى لاستخلاص العناصر الأساسية لسياسة الأسرة داخليا وخارجيا، ولتتبع تألقها بالداخل ونشاطها فى الخارج. كذلك تعتبر الأسرة الثانية عشرة الأولى بين أسرات التاريخ الفرعونى التى توصلنا إلى تحديد توقيت لملوكها على جانب كبير من الدقة نتيجة لعثورنا على نص يخبرنا بظهور نجم الشعرى اليمانية فى السنة السابعة من حكم الملك "سنوسرت الثالث"، مما أتاح لعلماء الفلك المحدثين تحديد وقت ابتداء هذه الأسرة وفقا لتقويمنا الميلادى الحديث. هذا بالإضافة إلى أن بردية "تورين" قد ذكرت سنى حكم كل ملك من هذه الأسرة.

فيما يلى أسماء ملوك هذه الأسرة ومدة حكمهم على وجه التقريب وفقا لتتابعهم:

١- أمنمحات الأول (سحتب إيب رع) ٢٩ سنة تقريبا.

٢- سنوسرت الأول (خبر كارع) ٢٤ سنة تقريبا.

٣- سنوسرت الثانى (نوب كاورع) ٣٣ سنة تقريبا.

٤- سنوسرت الثانى (خع خبر رع) ١٧ سنة تقريبا.

٥- سنوسرت الثالث (خع كاورع) ٣٥ سنة تقريبا.

٦- أمنمحات الثالث (نى ماعت رع) ٤٥ سنة تقريبا.
٧- أمنمحات الرابع (ماعت خرو رع) ٧ سنوات.
٨- سبك نفرو (رع) ٥ سنوات تقريبا.

امنمحات الأول:

نجح الوزير "امنمحات" (آمون فى المقدمة) فى الاستيلاء على الحكم، بادئا سلسلة من الحكام الأقوياء الذين تولوا بعده فساروا على نهجه، ويجمع المؤرخون على أن أمنمحات هو صاحب الفضل الأكبر فى بناء نهضة البلاد الجديدة.

وهناك بردية كتبت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة محفوظة الآن بمتحف بطرسجراد (لننجراد)، تعرف ببردية "نفرتي"، وترجع بلا شك إلى أصل كتب فى أيام الدولة الوسطى كانت بمثابة دعاية سياسية لهذا الملك، إذ حاول كاتبها أن يصور للناس نبوءة حدثت فى عهد الملك "سنفرو" الذى طلب من "نفروهو" (نفري) كبير كهنة "باستت" أن يحيطه علما بما سيحدث للبلاد فى المستقبل، فتحدث الكاهن عن ثورة ستقوم فى مصر، وعن الخراب الذى سيحل بالبلاد، وعن الفوضى التى سوف تعم كافة الأنحاء، حتى يأتى الأنقاذ على يد ملك يولد فى الصعيد من أم نوبية يدعى "أميني" (وهو غالبا اختصار لاسم امنمحات) الذى سوف يخرس العصاة بوقف الفتنة، ويقضى على المحنة، فتعيش البلاد بعد ذلك فى سلام(١٥).

وقد اتخذ امنمحات الأول عدة إجراءات مهمة، حرص خلفاؤه على اتباعها وتنفيذها. فقد أقتضت الضرورة السياسية نقل العاصمة من طيبة، التى تبعد أكثر من سبعمائة كيلو متر عن الدلتا إلى مكان جديد متوسط بين شطرى الوادى، يقع عند بلدة اللشت الحالية بمحافظة بنى سويف، وتبعد خمسين كيلو مترا جنوبا من العاصمة القديمة "منف"، وقد أطلق عليها العاصمة

الجديدة اسم "ايثت تاوي"، ومعناها "القابضة على الأرضيين" (أى أراضى الشمال والجنوب).

كذلك أستن "امنمحات الأول" سنة جديدة، ما لبث خلفاؤه أن حذوا حذوها، من أجل تثبيت حكمهم على البلاد، وذلك عندما أشركه سنوسرت ابنه معه فى الحكم. ويبدو أن الأزمات التى كانت تعترض تعيينه خليفة للملك عند موته كانت الدافع لابتداع هذه السنة الجديدة.

وقد كانت الحملات الحربية التى قام بها ملوك الأسرة الحادية عشرة محدودة، أذ وجه هؤلاء الملوك جهودهم نحو تثبيت أقدامهم فى حكم البلاد عن طريق تحجيم نفوذ حكام الأقاليم وسحب الكثير من السلطات التى حصلوا عليها إبان الحكم الذاتى فيما سبق. ومن ثم فقد عمل أمنمحات الأول على أخضاع حكام الاقاليم، خاصة الذين كانوا لا يزالون على جانب كبير من القوة والسلطة المركزية، كما تدل عليه مقابرهم المنحوتة فى الصخر فى بنى حسن والبرشا وأسيوط. وقد استخدم أمنمحات القوة تارة، والمسايرة تارة أخرى، وذلك عن طريق السماح لهم ببعض الحقوق مقابل تعضيدهم له.

وقد أشار "حتوم حتب الأول" حاكم بنى حسن فى أيام امنمحات الأول على جدران قبره إلى أنه قد صحب الفرعون فى أسطول من عشرين سفينة لضرب الخوارج من حكام الأقاليم، كما تباهى أمنمحات بسيطرته على حكام الأقاليم بقوله: "لقد خضعت لى الفنتين، ثم تقدمت شمالا حتى توغلت فى الدلتا، ومن ثم وصلت إلى حدود البلاد، ومكثت هناك اتفقد معالمها، لقد أعتمدت على قوتى، ومددت نفوذى فى كل مكان، وأصبحت كلمتى تطاع على الفور"[١٦].

وقد أهتم امنمحات بتحديده حدود الاقاليم لتجنب المنافسة بين حكامها، مما ساعد على توزيع المياه بالعدل بينها، والعناية بالترع وتحسين

استغلال الأرض الزراعية مما حقق بذلك الرخاء للبلاد. كذلك استمر فى إرسال البعثات إلى المحاجر والمناجم، مما سمح له بنشاط معمارى ملحوظ، وساعد على تشييد المبانى الدينية فى شتى أنحاء البلاد.

وقد بذل أمنمحات جهدا كبيرا فى سبيل تأمين حدود مصر الشرقية، فقوى الحصون القديمة، وأقام عددًا من الحصون الجديدة أطلق عليها أسم "حائط الحاكم أو الأمير"، وذلك لمنع تسرب البدو الذين طاردهم وأوقف هجماتهم تقريبا. كما يبدو أن هجمات الليبيين كانت تهدد الدلتا كما تشير إلى ذلك تنبؤات "نفرتي" الذى أكد أن "أمني" سوف ينقذ البلاد من الليبيين. ومن ثم فقد شيد بعض الحصون، لا يزال بقايا بعضها فى إقليم وادى النطرون، كما طارد الليبين وأرسل جيشا بقيادة ولى عهده "سنوسرت" لصدهم، ونجح فى اسر عدد كبير منهم، وفى الحصول على قطعان من الماشية "تفوق الحصر" كغنيمة.

كذلك أفادتنا نصوص من عصره أنه خطط لإخضاع بلاد "واوات" (النوبة السفلى) لتأمين سلامة جنوب مصر، وضمان مرور تجارة العاج وريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس وغيرها من منتجات الجنوب، وكذلك الحصول على الذهب والأحجار، وخاصة الجرانيت والديوريت، بالإضافة إلى تجنيد رجال "الماجاي" (قبائل البجاه الحالية فى صحراء النوبة الشرقية) ذوى القدرات والمهارات العسكرية المتميزة.

ورغم سيرته الجيدة وما حققه خلال حكمه من منجزات، فإنه يبدو أن نهايته كانت مفجعة، إذ دبرت إحدى زوجاته مؤامرة ضده، هادفة إلى إقصاء أبنه "سنوسرت" عن العرش، وتولية أبنها مكانه، فاقتحم المتآمرون مخدعة فى محاولة لقتله. وليس لدينا حتى الآن من الوثائق ولا نملك من القرائن ما يسمح لنا بالقول بفشل المؤامراة أو بنجاحها، إذ ربما كانت الحكمة وقتذاك

قد اقتضت استثناء القضية من إجراءات القضاء العادية، محافظة على سريتها[١٧].

ومن الوثائق الهامة من ذلك العصر قصة "سنوهي"، وهى من القصص الواقعة الذى يلقى ضوءاً على الأحداث التى جرت فى ذلك الوقت، وتعد مرآة صافية لوجه الحياة فى فلسطين حينذاك، كما تشير بطريق غير مباشر إلى الأزمات المتعلقة بوراثة عرش البلاد، ذكر سنوهى أنه قرر الفرار من مصر بمجرد سماعه بخبر وفاة الملك امنمحات الأول، وبعودة ولى عهده سنوسرت الفورية إلى العاصمة للسيطرة بلا شك على الموقف. ومن ثم فقد أتجه "سنوهي" من ميدان القتال فى الصحراء الليبية شمالا، ثم سار مع اتجاه البحر المتوسط شرقا حتى وصل إلى ارض فلسطين، حيث ظل ينتقل من مكان لآخر، حتى استقر به المقام عند أحد شيوخ البدو. وقد نجح سنوهى فى الحصول على ثقة ذلك الشيخ الذى أغراه بالإقامة معه، وزوجه إحدى بناته، وأقطعه خير أراضيه.

وقد عاش سنوهى هناك مكرما حتى أدركته الشيخوخة، ووفق فى العودة إلى مصر بعد أن طلب من ملك مصر (سنوسرت الأول) العفو عنه، ودون أن يذكر فى قصته السبب فى طلب العفو. وقد كرمه الملك بعد عودته، وسعد "سنوهي" بتلك العودة إلى الأرض التى ولد بها.

ويبدو من هذه القصة أن "سنوهي" كان فى أغلب الظن من الحزب المعادى لولى العهد سنوسرت، فلما بلغه خبر وفاة أمنمحات وخاف اكتشاف أمره، قرر القرار إلى فلسطين، حيث مكث بها إلى أن هزه الحنين فى أواخر أيامه للعودة إلى مصر، ونجح أخيرا فى تحقيق أمنيته.

وقد كتب أمنمحات وصية لأبنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به فى حكمه للبلاد، فذكره فيها بالمؤامرة التى دبرت ضده، والتى هاجمه فيها المتآمرون، بينما كان يغط فى النوم، وأنه هب لصدهم بشجاعة، ولكنه على

حد قوله "لو كان لدى سلاح لجعلت هؤلاء الجبناء يفرون، ولكن أهناك شجاعة فى الظلام؟ وهل يمكن إحراز النصر دون مساعدة؟".

ويرجح هذا القول الرأى الذى يؤكد نجاح المؤامرة، وأن الوصية قد كتبت لتكون بمثابة مبادرة يستند إليها سنوسرت فى حكمه للبلاد. ولكن هناك رأيا آخر يتصور أن أمنمحات (سواء أصيب، أم لم يلحقه أذى كبير) قد نجا من تلك المؤامرة، وأنه قد كتب هذه الوصية توطئة لاشتراك سنوسرت معه فى الحكم، ولتقوية موقفه عند امتلاكه للعرش.

وتوضح الوصية كيف أن أمنمحات قد امتلأت نفسه بالشك والريبة، فأخذ يحذر أبنه من الناس، حتى من أقرب الناس إليه، ويوصيه بعدم الثقة بأحد، ذاكرا له أنه: "قد أعطى السائل، وأعان اليتيم، وساعد المسكين، وعامل الوضيع كمعاملته للكبير، ومع ذلك فإن كل من أعانه قد رد معونته بالكيد".

وقد توفى أمنمحات الأول بعد حكم دام قرابة الثلاثين عاما، وتولى بعده سبعة حكام، نهضت البلاد فى أيامهم نهضة شاملة، وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران، وخاصة فى عهد سنوسرت الثالث وخليفته أمنمحات الثالث. وقد أقام أمنمحات الأول لنفسه هرما فى "اللشت" من الطوب النيئ، كساه بالحجر الجيرى، كما بنى إلى الشرق منه معبدا جنائزيا، كما شيد عظماء عصره ورجال بلاطه قبورهم بالقرب من هرمه.

٢- سنوسرت الأول[١٨]:

أشترك سنوسرت مع أبيه فى الحكم لمدة اختلف العلماء فى تقديرها، كما أشرك هو بدوره ابنه امنمحات (الثاني) معه فى الحكم. وقد نجح سنوسرت فى السيطرة على البلاد بعد وفاة والده وسلك مسلكه، وهو مسلك كله حزم وعزم، وواصل خطط أبيه الخاصة بنشر الرخاء وتأمين الحدود. وقد عثر على بردية ممزقة فى معبد الرمسيوم بطيبة الغربية تشير إلى حفل تتويجه[١٩].

وقد أرسل سنوسرت الحملات لتأديب البدو على حدود مصر الشرقية، ولتأمين التجارة مع جنوب غرب آسيا، كما بعث بحملات تأديبية ودوريات عسكرية إلى الصحراء الغربية للمحافظة على المواصلات، وتأمين الاتصالات مع واحات تلك الصحراء. وقد حمل أحد وزرائه "منتوحتب" لقب رئيس الصحراء الغربية، كما تشير لوحة لذلك الوزير إلى مواصلة سنوسرت لسياسة أبيه فى النوبة، إذ مثل الملك واقفًا أمام الإله منتو "إله الحرب" يستعرض أسرى الأراضى الجنوبية، ومن بينها أسرى من بلاد كوش (النوبة العليا السودانية).

والواقع أن سنوسرت قد قوى قبضته على النوبة السفلى، وأقام التحصينات هناك[٢٠].

وقد استغل سنوسرت مناجم الذهب بالصحراء الشرقية، واستخرج المعادن من وادى الحمامات. كما عثر على أسمه فى محاجر "حاتنوب". وقد يسر له ذلك إقامة العديد من العمائر عثر على آثارها فى الكثير من الأماكن، كما بنى معبدا لإله الشمس فى هليوبولس (المطرية بالقاهرة حاليا) لم يبق منه إلا مسلة يبلغ ارتفاعها حوالى عشرين مترا، وقد ذكر الجغرافى عبد اللطيف البغدادى (الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى) أنه شاهد مسلتين عظيمتين متوجتين بقمعين من النحاس، وكان إحداهما قائمة، أما الثانية فملقاة على الأرض.

وقد شيد سنوسرت مقصورة من الحجر الجيرى الأبيض عثر على أحجارها داخل الصرح الثالث بمعبد آمون بالكرنك. وقد أعادت مصلحة الآثار إقامتها بالقرب من الصرح الأول للمعبد. وتعد نقوش هذه المقصورة البديعة من أروع ما أخرجه الفنان المصرى، خاصة تلك التى سجلت رموز أقاليم مصر فى تلك الفترة. وجدير بالذكر أنه قد عثر لذلك الملك على آثار فى جبيل (ببلوس) بلبنان، مما يدل على سعيه لإعادة العلاقات التجارية القديمة.

وقد شيد سنوسرت لنفسه هرما بجوار هرم والده إلى الجنوب منه بجبانة "اللشت". وقد بناه ايضا بالطوب النئ، وكساه بالحجر الجيرى كعادة ملوك تلك الأسرة وترك لنا رجل يدعى "مري" نقوشا تشير إلى أنه قد اشرف على بناء ذلك الهرم وقد عثر على عشرة تماثيل من الحجر الجيرى تمثل الملك جالسا بجوار معبد هرمه، وتعد هذه التماثيل التى تفوق فى حجمها حجم الملك الطبيعى، والمعروضة الآن فى المتحف المصرى، من أجمل آيات النحت التى نرجع إلى الأسرة الثانية عشرة.

وقد لعب "حبى جفاي" — الذى يعد من أهم رجال عصره- دورا مهما فى السيطرة على بلاد النوبة، قد عثر عليه على مقبرتين، إحداهما فى "كرما" بالنوبة العليا، والثانية فى أسيوط، وتعد من أضخم المقابر التى ترجع إلى أيام الدولة الوسطى.

٣- امنمحات الثانى:

شارك أباه فى الحكم كما اتبع سياسته. وقد تميز عصره بالهدوء والاستقرار، وازدهرت فى أيامه أحوال البلاد الاقتصادية وأزدادت ثروتها. وقد أعطى أهمية خاصة لاستغلال المناجم والمحاجر فى الصحراء الشرقية وسيناء والنوبة، كما أرسل البعثات إلى بلاد "بونت"، ويرجع البعض قصة "الملاح الغريق" إلى أيامه، وهى قصة تشبه قصص السندباد البحرى، وتحكى قصة بحار غرقت سفينته فى البحر الأحمر، وتصور مغامراته حتى عاد إلى وطنه.

وقد اشترك ابنه مع فى الحكم كما فعل سلفه. ويشبه عصره بعصر الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة، نظرا لأن عهده كان عهد سلام بين فترتى حرب، ولأنه اهتم باستخراج ثروة مصر الحجرية والمعدنية الكامنة فى صحارى مصر، كما أرسل بعثة إلى بلاد "بونت"، وأيضا قام باصلاح وترميم بعض آثار الاقدمين، كما فعلت حتشبسوت بما خربه الهكسوس(٢١).

ويشير نقش على لوحة جنازية بابيدوس إلى أن "سى حتحور" أحد رجاله قد قام بزيارة للنوبة لإحضار بعض منتجاتها، كما يبدو أنه نجح فى تطوير علاقاته مع الدول المجاورة، إذ عثر فى معبد طود على أوان تدل صناعتها على أنها جاءت من جزيرة "كريت" أو من جنوب غرب آسيا. كذلك كشف "دى مورجان" فى مقبرة الأميرة "خنمنت" وغيرها من الأميرات، على عقود وأكاليل، وكذا خناجر من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة تتميز بالبراعة وحسن الذوق، معروضة الآن فى متحف القاهرة.

وقد ذكر "مانثيون" أن هذا الملك قد قتل بيد بعض رجال بلاطة، ويبدو أنه قد خلط فى هذا الشأن بين نهاية هذا الملك ونهاية امنمحات الأول الذى دبرت مؤامرة فى أواخر أيام حكمه لاغتياله. وقد بنى هذا الملك لنفسه هرما بدهشور إلى الجنوب من هرمى "سنفرو"، وأضحى الآن مخربًا تمامًا.

٤- سنوسرت الثانى:

كان عصره عصر سلام، وإن كان هناك ما يوحى بأن بعض الاضطرابات قد بدأت فى أيامه، ولكن ذلك لم يمنعه من إنجاز الكثير من المشروعات، وخاصة فى مجال العمارة الدينية. كما بنى معبدا للآله "حريشاف" فى أهناسية المدينة، عثر على أنقاضه الأثرى السويسرى "نافيل" فى اوائل القرن الحالى. ولا تقل الحلى التى عثر عليها فى قبور الأميرات من عصره باللاهون فى روعتها عن تلك التى عثر عليها فى عهد سلفه فى دهشور، والمحفوظة هى الأخرى بمتحف القاهرة. وقد عثر على تمثال له فى أوجاريت "رأس شمرا" بفينقيا (لبنان الحالية)، مما يدل على استمرار الصلات التجارية بتلك البلاد.

وهناك نقش فى مقبرة حاكم إقليم الوعل "خنوم حتب الثالث" بجبانة بنى حسن ، يمثل وصول مجموعة من (الفلسطينيين) يبلغ عددهم ٣٧ فردا بقيادة أميرهم "إبشا" فى السنة السادسة من حكم ذلك الملك. وكانوا خليطا

من الرجال والنساء والأطفال، وقد صحبوا معهم حيواناهم وحملوا متاعهم وأسلحتهم وآلاهم الموسيقية. وأرتدوا ملابس مزركشة، وتزينوا بزينة تختلف تماما عن زينة المصريين. وعلى الرغم من ان زعيم القبيلة قد تلقب بلقب "حقا خاسوت" أى حاكم البلاد الأجنبية الذى أشتق منه مانثيون لفظ (هكسوس)، فأن الأبحاث الحديثة لا تربط بين هذه القبيلة وغزاة مصر من الهكسوس فيما بعد[٢٢].

وقد أقام سنوسرت الثانى هرمه باللاهون عند مدخل إقليم الفيوم الجنوبى فوق ربوة صخرية قام بإصلاح جوانبها. ورغم صغر حجم ذلك الهرم نسبيا، فإن بانيه قد حرص على الإكثار ن الغرف والسراديب داخله، وعلى إخفاء مداخله أملا فى تضليل اللصوص إذا ما حاولوا نهبه.

ونظرا لأن "اللاهون" كانت من الأماكن البعيدة نسبيا عن العمران، فقد اضطر فرعون إلى تشييد مدينة صغيرة ليقطنها العمال الذين شيدوا هرمه، ويبدو أنها هجرت بعد مدة قصيرة، ولذا لم تتعرض لعوامل الهدم والتدمير كما حدث لغيرها من المدن، وظلت مدفونة تحت الرمال إلى أن عثر العالم الأنجليزى "بتري" فى أواخر القرن التاسع عشر على اللاهون التى حرفها فى كتاباته إلى "كاهون". وهكذا أماط هذا الكشف المهم عن مدينة عمالية قديمة ذات مساكن متماثلة التنظيم، وإن اختلف اتساعها وفقا لمركز شاغلها الاجتماعى. وقد عثر بمساكنها على الكثير من أدوات البناء والتجارة والاستعمال اليومى، وبقايا قطع الآثاث ولعب الأطفال وغير ذلك من لوازم الحياة اليومية، وكذا على عدد كبير من البرديات الخاصة بالإدارة والقانون، وما يتصل ايضا بالعلوم الرياضية والفلك. وهناك من العلماء من يعتقد أن سنوسرت الثانى هو الذى بدأ المشروع الخاص بالتحكم فى مياه النيل عند الفيوم، واستغلالها فى التخزين ورى الأرض.

وبموت هذا الفرعون انتهت فترة السلام التي سادت في الفترة الأولى من حكم هذه الاسرة، ومن ثم بدأ نشاط حربي ملحوظ منذ تولى خامس ملوك الاسرة "سنوسرت الثالث" حكم البلاد.

٥- سنوسرت الثالث:

يعد هذا الفرعون من أهم ملوك الدولة الوسطي[٢٣] لتميزه بشخصية حربية حازمة، مما جعل بعض المؤرخين يشبهونه بتحتمس الثالث الذي بنى فيما بعد إمبراطورية مصر في الشمال والغرب، مثلما بناها "سنوسرت الثالث" في الجنوب. وقد ظلت ذكراه عاطرة لدى الأجيال التي تلت عصره. كما روى عنه من الأساطير وما وصل إلى آذان كتاب الإغريق، بل لقد رفع في العصور المتأخرة إلى مصاف المعبودات.

ولعل أهم أعماله هو مطاردته للعصاة من النوبيين وهزيمتهم من خلال أربع حملات، ربما قاد بعضها بنفسه، ومن ثم فقد نجح في توطيد الأمن بالنوبة، وربطها بمصر برباط قوى.

ورغبة منه في ضمان استمرارية انتصاراته العسكرية، فقد شيد عددا من الحصون، لعل أهمها حصنان متقابلان بالقرب من "وادى حلفا" في منطقة الجندل الثاني، وهما حصنا "سمنة وقمة" لمراقبة تحرك من تسول له نفسه الاعتداء. كما وضع في هذه الحصون حاميات مصرية يمكنها القيام بالردع الفوري إذا لزم الأمر. وقد قام أيضا بشق طريق للسفن من خلال صخور الجندل الأول، سمى "طريق خع كاورع" (أى سنوسرت الجميل) وذلك لتسهيل الملاحة والحد من قوة تيار المياه.

وقد وضع لوحة في "سمنة" حذر فيها أى زنجى من محاولة اجتياز الحدود عن طريق النيل أو برا إلا بإذن خاص، وقد ختم حديثه بقوله: "أن من يحافظ على هذه الحدود سيصبح أبني الذى ولد مني، أما من يتجاهلها أو يهملها فليس بابني و لم يولد مني"[٢٤].

ومما لا شك فيه أن الاستراتيجية العسكرية فى ذلك الوقت كانت استراتيجية دفاعية، فقد عثر على بردية ربما ترجع إلى أيام سنوسرت الثالث ذكرت سبعة عشر حصنا مصريا، ما بين منطقة الجندل الأول ومنطقة سمنة(جنوب الجندل الثانى مباشرة) وهى المنطقة التى اعدها المصريون بمثابة منطقة عازلة بين مصر ومصدر الخطر الحقيقى وهو بلاد "كوش". ومما يؤكد الطبيعة الدفاعية لتلك الحصون أن المصريين قد اسموها بأسماء تدل على طبيعتها، مثل: "قمع القبائل"، و"صيد المجا" (قبائل ذات طبيعة عسكرية، أغلب الظن أنها تعرف الآن بقبائل البجاه)، و"قنص الرتنو" (بدو سيناء وجنوب فلسطين).

وقد غزا سنوسرت الثالث جنوب فلسطين، ومهد بذلك لملوك الدولة الحديثة غزو سورية، مثلما سبق أن مهد ملوك الدولة القديمة لملوك الدولة الوسطى فتح النوبة. وقد ذكر ضابط يدعى "سبك خو" (على لوحة عثر عليها فى أبيدوس) أنه وصل إلى بلدة سكيم (فى أواسط فلسطين)، حيث رد هجمات أهل هذه المنطقة من الرتنو، ولو أن ما ذكره الضابط لا يعنى إطلاقا استيلاءه على تلك المنطقة(٢٥).

وقد اتخذ سنوسرت الثالث إجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكام الأقاليم، وأخضع من ناوأه بالقوة، فتوقفوا فجأة عن نحت مقابرهم فى مقاطعاتهم، واختفت مظاهر الحكم الإقطاعى ابتداء من عصره وطوال أيام الدولة الحديثة ومن بعده. ويبدو رغم ذلك أن حكام الأقاليم قد ظلوا على جانب كبير من الثراء، هناك منظر بقبر "تحوتى حتب" حاكم أقليم الأشمونيين بجبانة البرشا بمحافظة المنيا الحالية يمثل نقل تمثال الحاكم، تدل ضخامته وكذا عدد العمالة المستخدمة فى نقله، على قدرات إدارية ومادية فائقة، وكذا على التنظيم الرائع لمئات العمال الذين اشتركوا فى النقل من خلال نظام عسكرى محكم. ومع ذلك فقد أكد تحوتى فى النص المدون على المنظم أنه لم يقم بهذا

العمل إلا بعد استئذان ملكه، وبعد أن سمح له بقطع الحجر من محاجر المرمر بحاتنوب، كما أشاد برضا الملك عنه وعطفه عليه.

ويبدو أن الأمن كان مستتبا إلى حد كبير بالصحراء الغربية، وأن التبادل التجارى بين مصر والقاطنين فى الصحراء قد استمر، إذ يذكر لنا "حغو" فى نقش له مدون بوادى الحمامات أن ملكه "سنوسرت الثالث" قد أرسله ليجلب له منتجات بلاد "التجنو". ومن المعتقد أن سنوسرت الثالث قد حفر قناة فى شرق الدلتا، وصل به بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى الطميلات والبحيرات المرة. وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى وصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل . وقد أسماها المؤرخون القدماء قناة "سيوزستريس".

وقد أرسل سنوسرت البعثات إلى الصحارى المصرية لجلب الأحجار والمعادن، مما أدى إلى تقدم الفن. ويعد تمثال "أبو الهول" من حجر الديوريت، والذى عثر عليه فى طيبة، ومعروض الآن فى متحف متروبوليتان – من روائع ما تركته تلك الأسرة من تماثيل، كما أنه فن يمثل الدولة الوسطى خير تمثيل. وقد ذكر لنا "خعو" على لوحة بوادى الحمامات أنه قد صدرت إليه الأوامر بالذهاب إلى وادى الحمامات ليحضر لمليكه أحجار جديدة لاستخدامها فى بناء معبد فى أهناسية لمعبودها المحلى "حريشاف".

وقد اقام سنوسرت عمائر دينية فى الكرنك وأبيدوس وغيرها، كما شيد هرما يشبه أهرامات اسلافه فى دهشور، أقيمت من حوله مقابر النبلاء وسيدات بيته، حيث عثر على بعض الحلى الرائعة.

وقد أقام سنوسرت عمائر دينية فى الكرنك وأبيدس وغيرهما كما شيد هرمًا يشبه أهرامات أسلافه فى دهشور، وأقيمت من حوله مقابر النبلاء وسيدات بيته حيث عثر على بعض الحلى الرائعة.

وقد توفى سنوسرت بعد أن حكم مدة طويلة، كما أشرك ابنه امنمحات (الثالث) – فى السنوات الأخيرة – فى الحكم، تاركا مصر فى أوج

مجدها، وقد أصبحت دولة متحدة ذات حكومة مركزية قوية، كما أصبحت في مأمن من غارات جيرانها.

وقد جعلت هذه الأعمال منه بطلا أسطوريا فى نظر الأجيال المقبلة، فأقام له تحتمس الثالث عبادة خاصة به فى "سمنة" ، وأضحى من معبودات النوبة الرئيسية بجانب "خنوم" معبود أسوان، و "ددون" رب النوبة. وقد عبر المصريون عن تقديرهم وتمجيدهم له فى قصيدة شعر عثر عليها فى اللاهون، نقتطع منها ما يلي:

أنت عظيم يا مليك بلده.
أنت كالسد القوى الذى يقف ثورة النهر عند فيضانه.
أنت عظيم يا مليك بلده.
أنت كالظل الوارف الذى انعشنا فى أيام الصيف.
أنت عظيم يا مليك بلده
أنت كالركن الدافئ فى أيام الشتاء.
أنت عظيم ما مليك بلده.
أنت كالجبل الذى يحمى من العواصف عند زمجرة السماء
كما أشادوا به فى هذه القصيدة التى جاء بها.
جاءنا فوحد الأرضين، وحمل رمز الوجهين.
جاءنا فحمى القطرين، ومنح أرضهما السلامة.
جاءنا فأحبه الناس، إذ أذهب عنهم الغمة.
جاءنا فمد الحياة للناس، وجعلهم يتنفسون الهواء.

٦- امنمحات الثالث:

كان إداريًا حازمًا، وسياسيًا حكيمًا، وبناءًا كبيرًا، وكان عهده الطويل المزدهر عهد سلام واستقرار وتعمير بعد الحروب التى خاضها أبوه ويبدو أنه

قد أحسن الاستفادة من استقرار الأمن وتوطد السلام[٢٦]، وعدم تعرض فترة حكمه لمشاكل تذكر، فاتجه إلى تحسين أحوال البلاد اقتصاديا، وكرس وقتـــه لتوفير الرخاء وإقامة المشروعات التي تعود بالخير على البلاد.

وقد احتل أمنمحات مكانة رفيعة فى نظر معاصريه، كما ظلت سيرته تتردد فى ثنايا العصور، ورفعته الأجيال المصرية التالية كما رفعت والده من قبل إلى مصاف الآلهة والأرباب.

وقد تميز عهده ببرنامج طموح للرى والتوسع الزراعى، تركز بوجـــه خاص فى منخفض الفيوم، الذى يمثل واحة فى الصحراء الغربية تنخفض كثيرا عن مستوى سطح البحر، وتصل إليها مياه النيل عن طريق فتحه فى التلال فى جنوب المنخفض عند اللاهون، يمر فيها بحر "يوسف" ليصب مياهه فى بحـــيرة "موريس" التى تقع فى النصف الشمالى من المنخفض[٢٧].

وقد أقام امنمحات الثالث خزانا طبيعيا يمتلئ وقت الفيضان بالمياه التى تستخدم فى وقت التحاريق (قبل مجئ الفيضان الجديد). وقد ذكر هـــيرودوت أن ذلك الخزان كان يسمح برى الأراضى وقت الحاجة لمدة مائة يوم، كمـــا أشاد "استرابو" عند زيارته للمنطقة بنظام تخزين المياه هناك، مما يـــدل علـــى استمرار المشروع حتى القرن الأول قبل الميلاد. ويبدو أن امنمحات قد شـــق الترع وبنى الجسور فى إقليم الفيوم، مما نتج عنه استطلاع أرض شاسعة هناك، وساعدت بلا شك على رخاء مصر الاقتصادى فى عهده. وذكر هـــيرودوت أنه شاهد بنفسه تمثالين عظيمين نصبهما أمنمحات لنفـــسه ليـــشرفا علـــى مشروعه الكبير.

كذلك أقام أمنمحات مقياسا للنيل فى "سمنة" عنـــد الجنـــدل الثـــانى لتسجيل مناسيب الفيضان منذ دخوله إلى مصر. وتشير النقوش الـــصخرية إلى الأعوام التى ارتفع فيها منسوب المياه نتيجة لتدفق الفيضان عاليا. ولا شك أن هذه التسجيلات قد ساعدته فى تقدير كميات الحبوب المطلوبة كـــضرائب، وكذا تلك التى يجب تخزينها وتوفيرها لوقت الحاجة.

وقد اهتم ذلك الملك بإرسال البعثات إلى النوبة والصحراء الشرقية، كما أبدى اهتماما خاصا باستخراج النحاس من سرابيط الخادم فى غرب سيناء، حيث أقام مساكن للعمال، وحفر الآبار لإمدادهم بالماء، وبنى معبدا للالهة حتحور، والاله "ميدو" الذى عبد فى شرق الدلتا وسيناء.

وقد شيد أمنمحات الثالث هرماً فى "دهشور"، فى حين تم دفنه فى هرمه فى "هوراة" بالقرب من مدخل الفيوم الشمالى، والذى نهب تماماً، رغم محاولات أمنمحات كأسلافه لتصميمه بشكل يضلل اللصوص. وقد بنى بجانبه معبده الجنازى الذى عده الإغريق أعظم عجائب مصر المعمارية، وأسموه قصر "اللابيرنث"(٢٨). وتميز بكثرة غرفه وممراته، ومن ثم فقد أطلق عليه أيضا أسم قصر التيه. وقد مات أمنمحات الثالث قبل أن يتم العمل فيه فأكمله امنمحات الرابع، ثم من بعده الملكة "سبك نفرو" آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة.

وقد بدأ أمنمحات فى إقامة معبد فى كوم ماضى فى جنوب غرب إقليم الفيوم للمعبودة "رننوتت" ربة الحصاد، أكمله ابنه أمنمحات الرابع. ويكاد هذا المعبد أن يكون المعبد الوحيد الذى بقى قائما من أيام الدولة الوسطى. كذلك عثر على بقايا عمائر دينية لهذا الملك فى إدفو والكرنك وأبيدوس، وإهناسية، وكيمان فارس بالفيوم، ومنف، والكاب(٢٩).

ومما لا شك فيه أن فن النحت قد ارتقى فى عهده، كما يبدو من تماثيله التى فى مقدمتها تمثال له وهو فى ميعة الصبا، معروض الآن بمتحف القاهرة. وقد توفى ذلك الملك الذى يعد من أبطال السلام، والذى بذل جهدا كبيرا فى سبيل توفير حياة كريمة لشعبه، بعد أن حكم مدة طويلة، وبعد أن اشرك ابنه امنمحات الرابع معه فى الحكم فى أواخر أيامه.

٧- امنمحات الرابع:

حكم مدة قصيرة، قدرها بردية تورين بتسعة أعوام. ولم يكن قويا كأسلافه مما أدى إلى فقدان الأسرة المالكة لقوتها وحيويتها. ومن ثم فقد بدأ

الأنهيار يدب فى أوصال المملكة، كما أخذت عوامل الأضمحلال والـضعف تنخر فى كيان الدولة، وقد أكمل هذا الملك معابد أبيه، كما عثر له على بعض الآثار فى طيبة واللاهون. ويعتقد البعض أنه قد دفن فى أحد الهرمين القائمين فى "مزغونة" بالقرب من دهشور، بينما دفنت المللكة "سبك نفـرو"[٣٠] (الـتى شاركته أو خلفته) فى الهرم الثانى. وقد توفى هذا الملك دون أن يترك وريثـا يخلفه فى حكم البلاد.

٨- الملكة سبك نفرو:

إحدى بنات أمنمحات الثالث فى أغلب الظن، علمًا بأن "مـانثيون" ذكر أنها اخته. وقد تلقبت بالألقاب الملكية كاملة، كما تدلنا علـى ذلـك أسطوانه من الأردواز بالمتحف البريطانى بلندن. وتعد هذه الملكة الثانية بعـد "نتوكريس" التى وضعت أسمها داخل خرطوش، وقدرت بردية تـورين مـدة حكمها بثلاث سنوات. وقد عثر لها على عدد محدود من الآثـار فى تـانيس وهوارة وأهناسية.

ومن الواضح أننا لم نتعرف بشكل حاسم على الطريقة التى أوصـلتها إلى العرش، أو العوامل التى أدت إلى أنتهاء حكمها بعد مدة قصيرة، ومـن ثم إلى أنهيار الأسرة الحاكمة، وإلى أضمحلال البلاد اضمحلالاً شبيهًا بـالانحلال الذى حدث فى أعقاب الأسرة السادسة، وإن كان فى هذه المرة قد تميز بعنصر الفجائية والغموض التام.

نظرة سريعة فى أحوال مصر أيام الأسرة الثانية عشرة:

نهضت مصر فى عهد هذه الأسرة نهضة شاملة، وتمتعت بقسط لا بأس به من الرخاء، لاهتمام الدولة بالنشاط الاقتصادى، وسعيها لتحقيق الإنجازات التى تعود على الشعب بالخير، ونتيجة لسيادة القانون واستتباب الأمن.

وقد تمكنت مصر فى عهد هذه الأسرة من اتخاذ إجـراءات حاسمـة للقضاء على نفوذ حكام الأقاليم التقليديين، وتحولوا إلى حكام يرعون مصالح أقاليمهم، ولكنهم فى نفس الوقت ينفذون توجيهات وطلبات الملك نفسه.

وقد اختلف ملوك الدولة الوسطى عن أمثالهم فى الدول القديمة، إذ أضحى الملك يعتمد على قوته وشخصيته بدلا من الاعتماد على قداسته وألوهيته، وأصبح الملك فى عهد هذه الأسرة زعيما ورئيسا من البشر يتولى إدارة شئون البلاد فى ظل الإجلال والتقدير الذى تحوطه القداسة والتبجيل.

كذلك سعى ملوك هذه الأسرة إلى حماية حدود البلاد فى الشرق والغرب والجنوب ضد المغيرين، وعمدوا إلى تكوين جيش مدرب على القتال مستعد دائمًا للنزال، يمثل فى نفس الوقت قوة البلاد وسطوة الملك. وقد عمل ملوك هذه الأسرة على تقوية ذلك الجيش النظامى، وبنوا له الحصون فى النوبة وغيرها، وخاضوا به العديد من المعارك فى سبيل تمصير الجزء الشمالى من النوبة وردع الليبيين فى الصحراء الغربية، بل لقد وصل هذا الجيش حتى مشارف فلسطين.

وقد قامت هذه الأسرة بمحاولات لتوطيد علاقاتها السلمية بجنوب غرب آسيا، وخاصة فى فينيقيا، فعثر فى "أوجاريت"على تمثال لسنوسرت الثالث، وتمثال لزوجة سنوسرت الثالث، وآخر لأمنمحات الثالث على شكل أبى الهول. وكذا على مجموعة تمثل أحد وزراء مصر مع سيدتين من أسرته، مما يدل على علاقة قوية بين مصر، وذلك المركز التجارى المهم. كما ظلت الصلة قوية مع "جبيل"، وكذا مع "بلاد بونت".

ويرجح أيضًا قيام صلة تجارية بين مصر وجزر شرق البحر المتوسط، إذ عثر على بعض الآثار المينوية (حضارة جزر بحر إيجه)، كما تدل هجرة قبيلة "إبشا" التى سجلتها إحدى مقابر "بنى حسن" على العلاقة السلمية السائدة حينذاك بين مصر وفلسطين.

وقد أدت حالة الاضطراب فى العصر المتوسط الأول إلى تدهور وسائل الرى واضمحلال الزارعة، مما ألقى بمسئولية تنمية موارد البلاد على كاهل ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين بذلوا الكثير من الجهد فى سبيل ضبط المياه وتنظيمها.

ويبدو أن فراعنة الدولة الحديثة قد استغلوا معابد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وبنوا على أنقاضها معابدهم، فلم يبق لنا من عمائرهم الدينية سوى معبد كوم مدينة ماضى، ومقصورة سنوسرت الأول بالكرنك. أما أهراماتهم (فى دهشور واللشت ومزغونة وهوارة واللاهون) فقد تميزت بصغر حجمها نسبياً، وبأنها مبنية باللبن المكسو من الخارج بالحجر الجيرى. كما عملوا على إخفاء معالم مداخلها، والإكثار من السراديب والممرات بداخلها.

وقد بلغت صناعة الحلى الذهبية والمرصعة بالأحجار الكريمة والشبه الكريمة (التى تضم تيجاناً وصدريات وعقوداً وأساور وغيرها) درجة كبيرة من التقدم والإبداع، سواء من حيث دقة الصناعة، أو جمال الذوق، أو القدرة على الابتكار. وخاصة تلك التى عثر عليها فى اللشت واللاهون ودهشور، والتى قد لا تقل فى روعتها عن الحلى التى عثر عليها فى المقابر الملكية أيام الدولة الحديثة.

يعتبر عصر الدولة الوسطى بوجه عام والأسرة الثانية عشرة بوجه خاص أزهى عصور الأدب المصرى. وقد عد المصريون الذين عاشوا بعد أيام الدولة الوسطى مخلفاتها الأدبية نموذجا للأسلوب الجيد، فعمدوا إلى تقليده والاحتذاء به. وقد شملت النهضة الأدبية فى ذلك العصر كافة مجالات الأدب، من دينى وتهذيبى وشعرى، ثم القصص بوجه خاص.

وقد تميز عهد الدولة الوسطى بوجه عام بشيوع عبادة أوزوريس، وخاصة فى إبيدوس التى أضحت مقراً لعبادته، دون أن يكون لتلك المدينة طابع سياسى معين، أو لكهنتها مطمع سياسى أو مادى.

وقد كثر الحجيج إلى أبيدوس لأهداف جنازية بوصفه رب الموتى، كما صور على نصوص التوابيت التى انتشرت فى عهد هذه الدولة.

ومع ذلك فبالرغم مما تمتعت به مصر أيام الدولة الوسطى من قيم ديمقراطية، فقد أخذت فى التقلص تدريجيا، ومن ثم فإن مصر قد تمكنت فى أيام الدولة الوسطى (فى ظل حكومة ترتكز على نفس الأسس الدينية والسياسية

والإدارية التى ارتكزت عليها حكومة الدولة القديمة) من استرداد مكانتها الأولى التى عرفتها لها الدنيا فى عصر بناة الأهرام. كما نجحت بعد اتحادها للمرة الثانية فى بعث حضارة تماثل حضارة الدولة القديمة من حيث طابعها المصرى الأصيل، إلا أن الأحداث – التى سبقت أيام الدولة الوسطى وعاصرتها – قد أكسبت تلك الحضارة بعض الملامح والاتجاهات، مما قد يختلف فى بعض النواحى عن مظاهر حضارة الدولة القديمة.

وقد كانت نهاية الدولة الوسطى شبيهة إلى حد كبير بختام أيام الدول القديمة، إذ خلف الملك أمنمحات الثالث ملك ضعيف هو "أمنمحات الرابع"، تلاشى على يديه نفوذ فرعون، فكان ذلك نذيرا بإنتهاء أيام تلك النهضة، وسقوط الأسرة الثانية عشرة، وأفول نجم الدولة الوسطى،ثم ما تبع ذلك من دخول مصر فى عصر من عصور الفوضى والظلام، وهو العصر المتوسط الثانى (حوالى سنة ١٧٨٥ قبل الميلاد).

هوامش الفصل الثامن :

(1) H. Winclovk, The Rise and Fall of the Middle Kingdom, in Thebes, New York, 1974.

(2) We Hays, The Middle kingdom in Egypt, in (CAHI, CAH, XV, Cambrdge, 1976.

(٣) على الرغم من أن ملوك هذه الأسرة قد سموا جميعا باسمى "انتف" و "منتوحتب"، فإننا لم نعثر على نصوص أو قرائن تاريخية تسمح لنا بترتيب هؤلاء الملوك ترتيباً تتابعياً مؤكـداً، ولذا فقد عمدنا إلى كتابة أسمين لكل ملك لتسهيل التفريق بينهم.

(٤) هناك من يخالف هذا الرأى معتقدًا أنه قد سبق "انتف الأول" حاكم آخر لم يدع الملكيـة أيضا أسمه "منتوحتب الأول" انظر:

- N. Gremal, Heslotre de l' Egypte, Ancienne, Paris, 1983.

وقد ترجم إلى العربية:

نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتى، مراجعة: زكيـة طبـوزادة. القاهرة ١٩٩٦.

(5) J. Vandier, La Femaine, dans le Egypte Ancienne, Le Caire, 1936, p. 111.

(٦) يسميه العديد من العلماء "منتوحتب الثالث" نتيجة لاختلافهم فيما يتعلق بترتيبه وموقعـه بين ملوك هذه الأسرة.

(7) H.J. Fischer, Inscreptions from the Coptionome Dynasties VI.. XI Andecte, Drientalia 40, Rome, pp. 112-118.

(٨) فرق المصريون القدماء بين "واوات" أى النوبة السفلى، أو المصرية، أو الشمالية، و"كوش" أى النوبة العليا، أو السودانية، أو الجنوبية.

(9) W.S. Smith, The Foitress of Buhen- The inscription, London, 1976.

(١٠) هناك تعارض بين أراء العلماء فى هذا الشأن.

(١١) أقام سنتموت مهندس حتشبسوت خامس ملوك الأسرة الـ ١٨ معبدها فى الشمال منه مستخدما نفس الطراز.

(١٢) انظر:

- E. Nairlle, Deir El Bahari I, London, 1907.
- A. Arnold, Der Temfel des Kanegs Mentoris, von Deir El Beheri, I, II, Maing, 1971.

(13) T.C. James, The Herapachte Pafey and other Early Middle Kingdom Documents, 1961.

- R. El Sayed Quaequs Personnage Celetes.

وانظر: مجلة الجمعية المصرية الدراسات التاريخية، العدد ٢٢٥، ١٩٧٨، ص ٣٢-٤٢.

(14) G. Goy on, Nouvelles Inscreptions Refestres de wadi Hammam at, Parts, 1957, No. 52-68.

(15) Dumas, La Cevliization d'Egypte Pharoneqnic, Paris, p. 405.

من الواضح أن أمنمحات قد استولى على الحكم بطريقة غامضة، لم تتضح حتى الآن، وربما كانت هناك صلة بينه وبين ملوك الأسرة الحادية عشرة، إذ أن ملوك الأسرة الثانية عشرة اعتبروا "انتف الكبير" جدا لهم، ونصبوا له تمثالا فى الكرنك.

(١٦) السكندر شارف: تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ص ٩٤.

(١٧) حفظ لنا التاريخ أخبار بعض مؤمرات حريم القصر الملكى، ومن بينها تلك المؤامرة التى حدثت فى عهد الملك "بيبى الأول" ثانى ملوك الأسرة السادسة، والتى جاء ذكرها فى السيرة الشخصية "لأوني" أحد المقربين من ذلك الملك، والذى ذكر أنه قد شكل محكمة فى القصر لمحاكمة إحدى الزوجات الملكيات برئاسته، ثم اكتفى بالإشارة إلى تقديم تلك الزوجة إلى القضاء الخاص دون أن يذكر سبب المحاكمة أو تفاصيلها، أو الحكم الذى أصدرته المحكمة. وهناك قصة المؤامرة التى دبرتها إحدى الملكات ضد رمسيس الثالث ثانى ملوك الأسرة العشرين، والتى أمدتنا الأوراق بكل تفاصيلها.

(١٨) يعنى اسمه: رجل (الآلهة) القوي: وقد أطلق الإغريق على سنوسرت لفظ "سيزوستريس" ونسجوا حول هذا الاسم قصصا خيالية ولبسوه ثوبا من البطولة يفوق بكثير ما وصلنا من أعمال ذلك الملك، أو الملك سنوسرت الثالث بعد ذلك.

(19) Jregger, op.cit, pp.130-149.

(20) Jregger, op.cit., pp. 130-143.

(21) Dumas, op.cit., p. 179.

أحمد بدوى، فى موكب الشمس، جزء ٢، ص ١٣٤.

(٢٢) يربط البعض بين منظر هؤلاء القوم ومجئ النبى يعقوب وأهله إلى مصر، ولكن الأبحاث الأثرية لا تقدم دليلا أو قرينه للربط بينهم وبين مجئ إبراهيم أو يعقوب إلى مصر.

(٢٣) لعل هؤلاء الفراعنة العظام الأكثر أهمية هم "منتوحتب الثاني" (من الأسرة الحادية عشرة)، وأمنمحات الأول، وسنوسرت الثالث، وامنمحات الثالث (من الأسرة الثانية عشرة).

(24) J. Wlison, The Culture of Anctent Egypt, Chergeo, 1975, pp. 136, 137.

وقد ترجمة المرحوم الدكتور أحمد فخرى إلى اللغة العربية تحت اسم "الحضارة المصرية".

(٢٥) ذكر الكتاب الإغريق أن سنوسرت الثالث دخل بلاد السكيثيين، ومعنى ذلك أنه توغل فى غرب آسيا حتى البحر الأسود، ويبدو أنهم قد خلطوا بين حملته وحملات ملوك

الدولة الحديثة، رغم أن الأخيرين لم يصلا قط إلى تلك الجهات، وربما يفسر ذلك بأن سنوسرت قد بلغ فى العصور التالية حدا من العظمة والقدسية، ترامت إلى آذان هؤلاء الكتاب.

(٢٦) هناك احتمال بأنه أرسل حملة إلى النوبة، ربما واصلت تقدمها حتى الجندل الثالث.

(٢٧) يرجع اسم "اللاهون" إلى تعبير مصرى قديم بمعنى فم القناة، تسمية تدل على أن موقـع اللاهون كان بالقرب من المكان الذى يترك فيه بحر يوسف وادى النيل، ويتجه غربا نحو الفيوم.
أما بحيرة "موريس" فهو اسم أطلقه المؤرخون على هذه البحيرة، تم من الاسم المصرى القديم الذى يعنى (البحر الكبير)، وقد تقلصت هذه البحيرة الآن فيما يطلق عليه اسـم "بحيرة قارون".

(٢٨) نسبة إلى عصر "اللابيرنث" الذى بناه الملك (سينوس) فى "كنوسس" عاصمة "كريـت" القديمة. وقد ذكر هيرودوت (الكتاب الثانى ١٤٨ – ١٤٩) أن هذا القصر هو بناء يعجز القلم عن وصفه، ويعلو على قدرة البشر، وأنه كان مكونا من أثنى عشر بهوا متقابلـة، وأنه قد ضم ٣٥٠٠ حجرة، نصفها فوق سطح الأرض والنصف الآخر تحتها. وذكـر هيرودوت أيضا أنه شاهد بنفسه الحجرات الموجودة فوق سطح الأرض، أما الحجرات الموجودة تحت سطح الأرض فإن المشرفين عليها لم يسمحوا له بدخولها. أما ديـودور الصقلى فقد وصفه بأنه يدعو للعجب لدقة تشييده، وأن من يدخله لا يجد طريقـه إلى الخارج بسهولة، فى حن تصور "استرابو" أن لكل أقاليم مصر صالة بذلك المبنى. وعلى كل فإن من الصعب التحقق مما كتبه هؤلاء الكتاب بعد أن أصبح المبنى أكداسا مـن الأنقاض تغطى آلافا من الأمتار المربعة

(29) V. Voglinano, Medinet Kommade Milano, 1975.
(30) G. Jeguer, Deux Pyrameds de Moyen Emfire, Le Caus, 1986.

الفصل التاسع

العصر المتوسط الثاني

الأسرات ١٣-١٧ (١٧٨٥ - ١٥٥٢)

تمهيد:

يعد عهد الأسرة الثانية عشرة من أزهي عصور مصر دون شك، وخاصة أيام الملك امنمحات الثالث الذي يمكن اعتباره من أعظم الفراعنة، ومع ذلك فقد بدأت البلاد في الضعف ونهضتها في الاضمحلال في عهد امنمحات الرابع وسبك نفرو (رع). وما لبثت مصر أن دخلت في عصر من عصور الاضمحلال والفوضي، جرت العادة علي تسميته بالعصر المتوسط الثاني[1]. ولعل أشد أيام ذلك العصر اضطرابًا وغموضًا هي الأيام التي تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة مباشرة، حيث كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش وكل ذي قوة أو سطوة إلي عرش البلاد، فلا يكاد يجلس أحدهم عليه قليلا، حتي يخلفه أو يغتاله آخر ليحل محله.

كذلك أشتد النضال بين حكام الأقاليم بعضهم مع بعض من جهة، وحكام الأقاليم والقصر من جهة أخري. وقد نتج عن ذلك أن تعددت المؤامرات، واندلعت الثورات، وتتابعت الحروب الأهلية، فساد التفكك، واضطرب الأمن، واختل النظام، وتسرب الفساد إلي كل مرافق الحياة، وساءت الأحوال السياسية والاقتصادية، وعجزت البلاد عن عجلة التقدم. وعاد الحال- بعد فترة الدولة الوسطي التي تعد من أزهي عصور مصر- إلي مثل ما كانت عليه في أعقاب الدولة القديمة.

وقد كانت النتيجة الحتمية لذلك أن سقطت البلاد حوالي سنة ١٧٨٥ ق.م فريسة في يد عدو متربص بها، إذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوبة التي أطلق عليها "مانثيون" اسم "هكسوس"، واجتاحت مصر بسهولة، وخضعت البلاد للمغيرين الذين سيطروا علي الدلتا، وتوغلوا في أرض مصر الوسطي. بينما سيطر النوبيون علي بلاد النوبة المصرية، ولم تبق من مصر المستقلة نسبياً سوي رقعة ضيقة تحيط ببلدة طيبة، أخذ حكامها في تقوية

أنفسهم تدريجاً، ثم التحموا مع الهكسوس المغيرين، فأيدهم الله بنصره، ونجحوا في تطهير البلاد من هؤلاء الغزاة، فانهوا بذلك عصرا بغيضا من عصور مصر الفرعونية، وبدأوا عهدًا جديداً مشرقًا، هو عصر الدولة الحديثة.

ولم نتوصل حتى الآن إلى عامل الانحلال الذي أخذ بتلابيب مصر في ذلك العصر، وهل كان سببه خارجيا؟ ربما سببه في رأي البعض ظهور أعداء جدد لمصر في سوريا وفلسطين وكذا في بلاد النوبة، خاصة بعد العثور على عدد غير قليل من الأواني الفخارية والتماثيل الطينية الصغيرة سجلت عليها نصوص تعرف حاليا تحت أسم "نصوص اللعنة"، وتشتمل علي تعاويذ سحرية وأدعية سحق أعداء فرعون في تلك الجهات، مما يدل علي ضعف حكام مصر، وعدم قدرتهم علي مجابهة الأعداء في ميادين القتال[٢]. في حين يعتقد البعض الآخر أن ذلك الأنحلال إنما يرجع إلي عوامل داخلية، كانقسامات في العائلة المالكة، أو المشاحنات بين حكام الأقاليم الذين أستردوا سلطانهم بعد وفاة أمنمحات الثالث، أو لغير ذلك من العوامل التي أدت إلي تردي أحوال البلاد داخليا وخارجيا.

والواقع أنه لم تمر بمصر طوال تاريخها القديم فترة أشد غموضاً وأكثر تعقيداً عند محاولة فهم أحوالها وتتبع أحداثها من تلك الفترة. فالمصادر التاريخية يصعب الأرتكان إليها، والآثار قليلة ومتناثرة، وقوائم الملوك لا تفيدنا كثيرا، كما أن كتابات "مانثيون" والكتاب الإغريق لا يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بتلك العصر.

ورغم أن بعض المؤرخين يعطي هذا العصر مدداً طويلة تضم مئات السنين، فإن الاتجاه العام الآن يتجه نحو تقدير فترة العصر المتوسط الثاني بما يقارب قرنين من الزمان، ويمكن تقسيم ذلك العصر بوجه عام إلي ثلاث فترات:

الفترة الأولي:

وتضم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وهي فترة تفكك واضمحلال مهدت للفترة التالية.

الفترة الثانية:

وتضم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، وفيها وقعت البلاد فريسة للحكم الأجنبي بعد دخول الهكسوس مصر.

الفترة الثالثة:

التي تقابل أيام الأسرة السابعة عشرة لمانثيون، والتي عاصرت ذلك الصراع المرير بين ملوك الهكسوس في الشمال وأمراء طيبة في الجنوب، والتي انتهت بتحرير البلاد وقيام الدولة الحديثة.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة (١٨٥٠ - ١٦٣٣):

تعتمد الدراسة التاريخية لهذه الفترة علي مصادر تاريخية محدودة للغاية، ولقد حدثنا مانثيون عنها ذاكراً أن الأسرة الثانية عشرة قد خلفها ملوك نسبهم إلي أسرة ترتيبها الثالثة عشرة في تقسيمه، وأسماهم الملوك الذين جاءوا بعد أسرة "أمنمحات"، وأرجعهم إلي مدينة طيبة[٣]، وقدر عددهم بسبعين ملكا حكموا لمدة ٤٥٣ عاما. أما ملوك الأسرة الرابعة عشرة فقد نسبهم إلي مدينة "سخا" في شمال غرب الدلتا، وقدر عددهم بستة وسبعين ملكا حكموا مدة ١٨٤ عاما[٤]. ويبدو أن قوائم طويلة لحكام يدعي كل منهم أنه كان ملكا علي مصر قد كانت أمامه وأوصلته إلي تلك الأعداد الكبيرة التي أوردها، وربما لم يكن هؤلاء الملوك سوي حكام إقليميين محليين يدعون لأنفسهم سلطة وسلطاناً يتعدي حدود أقاليمهم. ومما هو جدير بالذكر أن "مانثيون" لم يمدنا بأسماء أولئك الملوك.

وفيما يتعلق بقوائم الملوك، فقد قدم مسرد "الكرنك" ما يقرب من ثلاثين أسما لملوك تلك الفترة، ولكن بطريقة غير متتابعة أو منظمة، بخلاف

مسردي أبيدوس وسقارة، فقد تعمدوا عدم الإشارة إلي هذه الفترة وانتقلا مباشرة من أيام الأسرة الثانية عشرة إلي أيام الأسرة الثامنة عشرة، متجاهلين تماماً فترة العصر المتوسط الثاني. في حين ذكرت بردية "تورين" أربعين ملكا من ذلك العصر. كذلك عثر علي بعض المقابر في منف، وبعض البرديات واللوحات والتماثيل التي قد تفيدنا فائدة محددة، كما أن هناك العديد من الجعارين التي وردت عليها عشرات من الأسماء الملكية. وتتميز بعض هذه الجعارين بطابعها الآسيوي، مما يرجعها غالبًا إلي عصر الهكسوس. أما تلك التي تميزت بطابعها المصري، فإنه من الصعب في كثير من الأحيان تحديد عصرها، وهل ترجع إلي الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، أو ملوك جاءوا بعد ذلك.

وقد اتصفت هذه الفترة بالأنهيار السياسي والإداري والأمني، وبالتدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وحدوث تطورات أو هزات عنيفة انعكست علي الفن والأدب اللذين فقدا عناصر الإبداع والتجديد، وانحسرت مظاهر المساواة والعدالة الاجتماعية التي تمخض عنها العصر المتوسط الأول.

الأسرة الثالثة عشرة:

كما سبق أن ذكرنا اعتبر مانثيون الأسرة الثالثة عشرة أسرة طيبيـــة. والواقع أن الآثار التي خلفها بعض ملوكها (في طيبة ومدامود والطود) ترجح أصل هذه الأسرة الطيبـــي، رغم العثور علي مقابر عدد من ملوكها في جبانة منف (سقارة ودهشور ومزغونة)، بجانب بعض التماثيل واللوحات وموائـــد القرابين والكتل المعمارية في العديد من أنحاء مصر، مثل إلفنتين وأبيدوس، ثم اللاهون، حيث عثر علي كميات كبيرة من أوراق البردي(٥).

وقد اتخذ كثير من ملوك هذه الأسرة الأسماء الشخصية لملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، مثل "انتف" وسنوسرت. وقد عثرنا علي تماثيل لبعض هؤلاء الملوك في هيئة أبي الهول، شبيهة بتلك التي ترجع إلى الأســـرة الثانية عشرة، ولكنها تعوزها الدقة والجمال الفني اللذين عرفا في تماثيل الأسرة الثانية عشرة. ويبدو من دراسة هؤلاء الملوك أن الأسرة الثالثة عشرة كانـــت بمثابة أمتداد للأسرة الثانية عشرة، كما أنها حاولت فيما يتعلق بأسلوب حكم البلاد أن تسير علي نفس الطريقة التي انتهجتها الأسرة السابقة. كذلك يبدو أن انتقال الحكم بين الأسرتين قد تم في هدوء دون اضطرابات تذكر(٦).

ويمكن تقسيم الأسرة الثالثة عشرة إلي مجموعات ثلاث:

- ملوك تلوا ملوك الأسرة الثانية عشرة، كان معترفا بهم في مـــصر العليـــا، حكم بعضهم من منف، ودفن في جبانتها.
- ملوك جاءوا مباشرة بعد الملوك السابق ذكرهم، وحكموا مصر العليا من طيبة ودفنوا هناك.
- مجموعة غير مؤكدة العدد، ربما كانوا حكاماً أقليميين، وحمـــل بعـــضهم الألقاب، ربما كانوا أو كان بعضهم معاصرا لحكم المجموعتين السابقتين.

وقد وردت إلينا من عصر تلك الأسرة أسماء أكثر من عشرة ملـــوك تسموا باسم "سبك حتب"، مما يدل علي أنهم كانوا يقدسون الإله "ســـبك"

(التمساح) الذي كان يعبد في منطقة "الجبلين" جنوب الأقـصر. ولا يـزال ترتيب هؤلاء الملوك موضع تناقض واختلاف بين العلماء(٧).

ومن أهم هؤلاء الملوك علي سبيل المثال الملك "سبك حتب" (سخم رع خوي تاوي أمنمحات) الذي ور أسمه في قائمة الكرنك، وكذا في بردية تورين. وقد ذكرت تلك البردية أنه جلس علي العرش ست سنوات.

وبينما يرجح بعض العلماء أنه وصل إلي الحكم عن طريـق زواجـه (بسبك نفرو)، يري البعض أنه كان مغتصبًا للعرش، وأنـه أراد أن يغطـي اغتصابه بتسمية نفسه "امنمحات". وعلي كل حال فليس هناك ما يثبـت أو ينفي انتماءه للبيت الحاكم أيام الأسرة الثانية عشرة، وقد عثر له علي آثار في الأقصر ومدامود، كما قام بتسجيل ارتفاع مياه النيل عن مقياس "سمنة" لمدة أربع سنوات. مما يدل علي أن مملكته امتدت في أغلب الظن مـن الـدلتا في الشمال حتي الجندل الثاني جنوبا. ويختلف المؤرخون أيضا في ترتيبه بين ملوك هذه الأسرة، فمنهم من يجعله مؤسسها، ومنهم من يعده ثـاني ملوكهـا، أو رابعها في رأي ثالث.

وملك آخر من ملوك تلك المجموعة هو الملك "سبك حتب سـخم رع سواج تاوي" الذي حكم لفترة قصيرة لا تعدو ثلاث سـنوات. وقـد وجدت له آثار في تل بسطة واللشت وجبلين والأقصر والكـاب "جزيـرة سهيل" بأسوان، مما يدل علي نشاطه في كافة أنحاء البلاد. كما ذكر اسمه علي لوحه عثر عليها بالكرنك (متحف القاهرة رقم ٥٢٤٥٣) سجل عليها عقـد تنازل فيه حاكم اقليم "الكاب" عن منصبه لأحد أقاربه مقابل كميـة مـن الذهب والثياب والحبوب.. الخ. ولا ندري أكانت هذه حالة فردية أم عـادة متبعة في تلك الأيام.

أما الملك حتب (خع نفر رع) فقد أقام لوحة بالكرنك من الحجـر الجيري تمجيدا للآله آمون (متحف القاهرة رقم ٥١٩١١)، كما عثر له علي

تماثيل وآثار متنوعة في صان الحجر (تانيس)، وتل بسطة وتل الربع وغيرها من أماكن الدلتا، توزعت الآن في متاحف مختلفة، منها تمثال يمثله في حجم طبيعي، محطم الرأس (في متحف الخرطوم)، وتم اكتشافه في جزيرة أرجو (بين الجندلين الثاني والثالث). ولكن لا يعني إطلاقا أن ملكه قد أمتد إلى تلك المناطق، وعلي كل حال فإن من الواضح أن عهده كان إلى حد ما عهد ازدهار نسبي.

أما الملك "خع سخم رع- نفر حتب" فهو أيضا من مجموعة "سبك حتب"، ويرجح أنه أخ لفرعون آخر من تلك المجموعة. وقد كشف له عن لوحة بالقرب من "بيبلوس" تمثل حاكم المدينة يقدم آيات الولاء لهذا الملك، مما يشير إلي نوع من النفوذ المصري هناك، مما يتطلب سيطرته علي شرق الدلتا. وعثر له علي لوحة في أبيدوس تسجل زيارته لمعبد "أوزيريس" بها. وقد عثر علي هرم للملك "خنجر" (أوسر كارع) كشفت عنه حفائر مصلحة الآثار سنة ١٩٢٩ بسقارة، وكان مشيدا بنفس الأسلوب الذي أتبع في الأسرة الثانية عشرة، فهو مبني باللبن مكسو بالحجر الجيري. ويبلغ طول ضلعه حوالي ٣٥ مترا، ويجاوز أرتفاعه كذلك ٣٥ مترا، وبجانبه أطلال معبده الجنائزي، وقد كشف علي مقربة من هذا الهرم عن هرمين آخرين ربما يخصان ملكين من هذه الأسرة، و لم يعثر علي أسمي صاحبيهما[٨].

كذلك عثر علي اسم وألقاب الملك "مر مشع" (سمنخ كارع)، علي تمثالين عثر عليهما في "تانيس"، واغتصبهما الهكسوس فيما بعد كما كشف بدهشور إلي الشمال من هرم أمنمحات الثالث علي هرم لملك يدعي "حور"، يعتقد أنه من نفس الأسرة. وقد عثر بداخل ذلك الهرم علي تمثال خشبي داخل ناووس يمثل ذلك الملك عاريًا وفوق رأسه رمز الكا (القرين)، وهو معروض بمتحف القاهرة. وقد عثر سنة ١٩٢٧ علي هرم في دهشور للملك "أميني عامو" الذي جاء ذكره علي أواني الأحشاء الخاصة به، ولكن ليس من المؤكد

أن هذا الملك ينتمي إلي الأسرة الثالثة عشرة، عدا أنه قد شيد هرمه بجوار هرم الملك حور[٩].

ومن ثم يتضح أن الوجود التاريخي لعدد كبير من ملوك هذه الأسـرة قد أصبح أمرًا مؤكدًا، وإن اختلف المؤرخون اختلافـاً بينـاً في أنـسابهم، وأحداث حكمهم، وتتابعهم التاريخي.

الأسرة الرابعة عشرة:

لا تساعدنا المصادر التاريخية علي التوصل إلي الظروف التي أدت إلي تولي هذه الأسرة الحكم، وهل بدأت مع بداية الأسرة الثالثة أو قامت بعد ذلك عندما ظهرت أسرة محلية قوية في شمال غرب الدلتا، وقد استطاعت هذه الأسرة الأنفراد بالحكم في تلك المنطقة المليئة بالمستنقعات، بيد أنها لم تمد سلطانها علي أي أرض خارج منطقتها التي كانت تحكمها أسرة طيبية أو أمراء محليون. ولم نعثر علي آثار لهذه الأسرة، كما تناقضت بردية تورين التي ذكرت أنها قد ضمت ٢١ ملكا مع تقدير مانتيون لعدد ملوكها بستة وسبعين ملكا.

ومع ذلك فهناك مالك من الدلتا يدعي "نحسي" (أي الزنجي)، عثر له علي تمثال في "تل المقدام" بشرق الدلتا، وصف فيه "نحسي" بأنه حبيب "ست" صاحب "أواريس" عاصمتهم، مما يدل علي أن هذا الملك كان معاصرا للهكسوس بعد دخولهم مصر واتخاذهم "أورايس" عاصمة لهم. وقد اغتصب "منفتاح" من الأسرة التاسعة عشرة هذا التمثال ونقش أسمه عليه. وقد عثر في تل بسطة وغيرها من مدن الدلتا علي جعارين تحمل اسم ذلك الملك.

ويبدو أن الأسرة الرابعة عشرة قد أمتدت أيامها بعد الأسرة الثالثة عشرة، وأنها استمرت بعض الوقت بعد غزو الهكسوس لموقعها في الغرب بعيد إلي حد ما من عاصمتهم . ويبدو كذلك أن هذه الأسرة لم تدخل في أي صراع مع حكام طيبة، وربما كانت موالية لهم علي كل حال فمن الواضح وفقا لما لدينا من معلومات أنها لم تلعب أي دور خطير في تاريخ مصر القديم.

عصر الهكسوس- الأسرتان الخامسة عشرة، والسادسة عشرة

كانت النتيجة الحتمية لاضطراب أحوال البلاد وتفككها وضعف حكامها أن سقطت حوالي عام ١٧٢٥ ق.م تقريبا فريسة في يد عدو قوي متربص بها، إذ دهمها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطلق عليها "مانتون" اسم هكسوس، والتي كانت تسكن فلسطين وما حولها من بقاع في أغلب الظن.

وقد ظل حكم الهكسوس قائما طوال أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ودخلوا في صراع مع أمراء طيبة في الأسرة السابعة عشرة، انتهى بطردهم من البلاد(١٠).

ولدينا بعض المصادر المحدودة عن الهكسوس، منها:

أولا:

ما كتبه المؤرخ المصري "مانيثون" ونقله عنه "جوزيفيوس". وقد ذكر أنه في حكم الملك "تيمايس" أستولي علي مصر غزاة من جنس مجهول جاءوا من الشرق، فأحرقوا وخربوا معابد الآلهة، وعاملوا المصريين بروح عدائية، وقد حكموا من ممفيس، ثم بنوا قلعة في "أفاريس" (أواريس) في شرق الدلتا. وأخيرا فقد هاجمهم ملوك طيبة، واستولوا علي "أفاريس" وتركوهم يغادرون مصر بسلام.

وقد أورد "جوزيفيوس" اقتباسات نسبها إلي "مانيثون"، وهي تعتبر مرجعا علميا نبني عليه معارفنا التاريخية. وقد تحدث عن غزوهم لمصر، ثم خروجهم غير مدحورين. وأسرف في تمجيدهم كأن هدفه من ذلك الرد علي "أبيوس" الذي عاش في الإسكندرية في القرن الأول الميلادي، وعاصر جوزيفيوس، وكتب كتابا نعت فيه اليهود بأسوأ النعوت، فحاول جوزيفيوس، في هذا الجزء الذي أورده من تاريخ مانيثون أن يدافع عن الهكسوس باعتبارهم أجداد اليهود.

ثانيا:

الآثار السابقة لعصر الهكسوس لقصة "سنوحي" التي ورد بها لقب "حكا خاسوت" الذي حرفة مانيثون إلي هكسوس عند حديثه عن فلسطين. كما لقب "إبشا" الذي سجل قبر "خنوم حتب الثاني في بني حسن قصة مجيئه إلي مصر علي رأس قبيلته بنفس اللقب.

ثالثا:

ما تركه الهكسوس من آثار وهي قليلة نظرا لأنهم استقروا طوال مدة حكمهم بالدلتا التي اندثرت معظم آثارها وقد عثر علي كثير من الجعارين المصرية، وكذا علي كمية كبيرة من أسلحتهم المختلفة أيضا عن الأسلحة المصرية. وقد وجدت بعض آثارهم في مقابر خارج مصر، وخاصة في فلسطين، مما يدل علي وجود صلة قوية بين الهكسوس وأرض فلسطين(11).

رابعاً:

الآثار والنصوص اللاحقة لعصر الهكسوس، كبردية تورين التي أعطتنا أسماء ستة من ملوك الهكسوس، حكموا مدة ١٠٨ سنوات. كما كشفت عن اللوحة المعروفة بلوحة "الأربعمائة عام" التي سجل عليها العيد الأربعمائة لإعلان تتويج الإله "ست" إلهاً للبلاد، والذي احتفل به في عهد "حور محب". وهذا التتويج لابد أنه قد وافق سيطرة الهكسوس علي مصر. قد أمر رمسيس الثاني الخليفة الثالث لحور محب بإقامة تلك اللوحة في "أواريس". وإذا قدرنا أن هذه اللوحة أقيمت حوالي ١٣٠٢ ق.م تقريبا هي وقت تأسيس "أواريس" بعد أن سيطر الهكسوس علي البلاد.

ومن هذه النصوص اللاحقة لعصر الهكسوس ما دونته حتشبسوت علي معبدها المنحوت في "أسطبل عنتر" المعروف باسم "سبتيموس أرتميدوس" تقول: "لقد أصلحت التالف، وأكملت الناقص بعد أن كانت البلاد تحت

حكم الآسيويين من عاصمتهم أورايس بالدلتا. لقد أتلف هؤلاء القوة الآثار عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع".

كما جاء في بردية "ساليبه"، من عهد "منخاع" ابن رمسيس الثاني، المحفوظة الآن بالمتحف البريطاني: "وأصبحت مصر في أيدي قوم قذرين غاضبين، بعد أن تعذر علي المصريين أن يملكوا علي أنفسهم أحداً منهم وكان في ذلك الوقت الملك "سقنن رع" يحكم قسم طيبة الجنوبي، والملك "أبوفيس" الهكسوسى بحكم البلاد من "أواريس"، ويجمع الجزية من سائر الأقاليم من الحاصلات والخيرات التي أنتجتها أراضي الوجهين القبلي والبحري. واتخذ الملك "أبو فيس" المعبود "ست" إلهاً دون معبودات مصر كلها، وشيد له معبداً جميلاً".

اسم الهكسوس وأصلهم:

كان "مانتيون" هو الذي أطلق علي هؤلاء الغزاة لفظ الهكسوس المشتق من الكلمة المصرية القديمة "حكا خاسوت" أي حكام البلاد الأجنبية وقد سماهم المصريون بأسماء تدل علي مدي كرههم لهم، مثل "الوباء" و"الطاعون" إذ نهبوا رزقهم وآذوهم، وخاصة في البدء في دينهم ودنياهم.

أما عن أصلهم، فقد تعددت الآراء في هذا الشأن، ولكن الرأي الأكثر شيوعاً الآن أن حملة الهكسوس علي مصر لا تعد من الحملات التي قام بها شعب له جيشه الخاص، بل قامت بتلك الغزوة مجموعة من الشعوب التي سكنت فلسطين، واضطرت تحت ضغط الشعوب الهند وأوربية الذين استقروا في شمال سوريا، وربما أيضا بسبب جفاف وقحط أصاب بلادهم، أدى إلى أن تزحف علي مصر. وقد أساء الهكسوس معاملة المصريين في بادئ الأمر، ولكنهم لم يلبثوا أن تمصروا، فتكلموا لغة المصريين، وعبدوا معبوداتهم، وقلدوا المصريين في أزيائهم وألقابهم وتقاليدهم. والرأي السائد الآن أن مدة حكمهم لمصر منذ غزوها حتي طردهم منها لا تتجاوز مائة عام علي أكثر تقدير.

حكم الهكسوس:

نجح الهكسوس في احتلال مصر بسهولة لضعفها من ناحية، ولمجيئهم في أعداد كبيرة من ناحية أخري، ثم لاستخدامهم لأسلحة متطورة كـالقوس والمركب والسيف العريض، وربما الخيل والعربات الحربية الـتي أكتـسحت خطوط المشاة المصريين[١٢]. أما أورايس فقد اتخذوها عاصمة لهم طوال مـدة حكمهم، وكان في اعتقاد البعض أنها مكان تانيس الحالية أو "قنتير" القريبـة منها، ولكن حفائر البعثة النمساوية بقيادة مانفرد بيتاك تدل علي أن موقعهـا هو "تل الضبعة" في صحراء الأسماعيلية، حيث وجدوا الكثير مـن أسـلحة الهكسوس، وآثاراً متنوعة لهم.

وقد أراد بعض المؤرخين أن ينسبوا إلي "أورايس" ابتكار طابع فـن خاص أسموه طراز "تانيس"، ولكن تأكد الآن أن القطع الفنية الرائعة التي عثر عليها هناك (مثل تماثيل النيل، وأبو الهول المعروضة في متحف القـاهرة الآن) إنما يرجع إلي الأسرة الثانية عشرة. كما حاول "ونلوك" إثبات أن الشادوف والنول والقيثارة، وكذا أسلوب ختم الماشية، إنما دخلت إلي مصر بواسـطة الهكسوس، ولكن "ويلسون" قد فند هذا الرأي تفنيداً[١٣].

وقد أقام الهكسوس ديانة رسمية في "أواريس" اقتبست مـن الديانـة المصرية، واتخذوا لهم من بين الآلهة المصرية ذلك الآله الذي كان مقدسـاً في تلك المنطقة، وهو المعبود "ست" الذي عبد هناك منذ الدولة القديمة. ولـيس بمستبعد أن الهكسوس قد عرفوا في "ست" أورايس صورة أخري لأحد آلهتهم الآسيوية، وهو الإلهة "سوتخ".

وقد نجح الهكسوس في مد سلطانهم علي الدلتا، وربما تركوا شمـال غرب الدلتا تحت إمرة ملوك الأسرة الرابعة عشرة، ثم ما لبثوا أن تقـدموا في مصر الوسطي حتي "القوصية" بمحافظة أسيوط، كما فرضوا علي بقية الصعيد (بما فيه إمارة طيبة) نوعا من الاستقلال الداخلي. ومما لا شك فيه أن احتلال

الهكسوس لمصر وسيطرتهم علي البلاد قد أثر تأثيرا عميقا علي المصريين، وهو الإذلال الجديد شعورهم القديم بالتفوق والأمن في ظل آلهتهم، ومن ثم فلم يلبثوا بدأوا حرب تحرير قادها حكام إمارة طيبة.

أما بلاد النوبة، فقد فَقَدَ المصريون سيطرتهم عليها بعد انهيار الدولة الوسطي وغزو الهكسوس لمصر. ونجح النوبيون في استرداد استقلالهم، وأقاموا مملكة عرفت باسم مملكة "كوش"، ويبدو مرجحا أنها اتخذت بلدة "كرمة" (عند الجندل الثالث) عاصمة لها. وقد أزدهرت هذه المملكة إبان العصر المتوسط الثاني، وكانت لها علاقات تجارية ودبلوماسية مع مملكة الهكسوس.

ملوك الهكسوس:

من الصعب حتي الآن حصر ملوك الهكسوس حتى لو اعتمدنا علي ما ذكره "جوزيفيوس" و"أفريكانوس" نقلا "مانيثون"، أو من ذكر منهم علي الآثار والجعارين. ووفقاً لتقسيم "مانيثون"، فإن هناك ثلاث أسرات تتابعت الواحدة تلو الأخري، هي: الأسرة الخامسة عشرة التي ضمت ستة ملوك، الأسرة السادسة عشرة التي ضمت اثنين وثلاثين ملكاً، ثم الأسرة السابعة عشرة وعدد ملوكها ٤٣ ملكاً، عاصرهم عدد مماثل من أمراء طيبة. وتنتهي هذه الأسرة بخروج الهكسوس من مصر. أما بردية "تورين" فقد ذكرت ستة ملوك، يمكن أن يطلق عليهم اسم ملوك الهكسوس الكبار. ثم أوردت البردية في الجزء الذي تلا ذلك عدداً كبيراً من الملوك لم تذكر سني حكمهم، ولم تقسمهم إلي مجموعات. ولاشك أن هذا العدد الكبير يحوي أسماء ملوك الأسرات التي ذكرها "مانيثون".

ويعد الملك "خيان" من ملوك الهكسوس الذي تركوا لنا بعض الآثار[١٤]، وإن كان ترتيب هؤلاء الملوك لا يزال غامضاً. وقد ورد اسم هذا الملك علي بردية "تورين"، وربما هو نفس الملك "إيناس" الذي ورد اسمه في قائمة "مانثيون". وقد تلقب بألقاب ملكية مصرية، كما احتفظ بلقب

الهكسوس التقليدي "حكا خاسوت". وقد عثر له علي آثار في الدلتا بوجه خاص ذات طابع مصري، من بينها أجزاء من تمثال من الجرانيت عثر عليه في بوبسطة، وخاتم وجعارين بمتحف "ليدن" بهولندا الآن. كما عثر له علي حلية معمارية في جبلين بمصر العليا. كذلك وجد لهذا الملك بعض الجعارين بسوريا وفلسطين، وجزء من إناء من الأبسديان عثر عليه في "بوغاز كوي" (عاصمة الحثيين بآسيا الصغري). كما تم العثور ببغداد على تمثال صغير لأسد طوله ٤٥سم تقريبًا وقد دون على صدره اسم الملك "خيان"، وهو الآن في حوزة المتحف البريطاني بلندن كذلك عثر له علي غطاء آنية متوسطة الحجم من المرمر في "كنوسس" بجزيرة كريت، وهي الآن في متحف "كنديا" بتلك الجزيرة. وقد استنتج بعض المؤرخين نتيجة العثور علي تلك الآثار خارج مصر أمر قيام دولة كبري للهكسوس لن يتعدي وجود علاقات تجارية بين الهكسوس وتلك المناطق.

وقد عثر علي آثار كثيرة تحمل أسماء ثلاثة من ملوك الهكسوس باسم "ايبي" يصعب التأكد من ترتيب تتابعهم، فهناك الملك "ايبي عاقنن رع" الذي يغلب علي الظن أنه صاحب أول معركة من سلسلة المعارك التي انتهت بطرد الهكسوس[١٥]، ويبدو أنه قد بني معبدا ورممه في "إواريس". وقد عثر له على آثار عديدة في الدلتا، منها تمثال من "تانيس" يحمل اسمه وألقابه، ومن بينها لقب "أمير الجيوش"، أو جزء من دعاء يحمل اسمه، وجد في منف، وهو الآن بمتحف برلين، وكذا مذبح من الجرانيت الرمادي، ولا يعرف أين وجد، وهو الآن في حوزة المتحف المصري. وقد كتب عليه نص ترجمته: "لقد عمل ايبي هذه الآنية لست سيد أواريس، كما جعل ست البلاد تحت قدميه".

أما الملك "ايبي أوسر رع" فمن آثار أيامه بقايا أدوات كتابية عثر عليها بالفيوم، ويزعم صاحبها أنها أهديت له من الملك. وقد نعته بأنه بطل حرب ورجل نزال تمتد شهرته إلي أطراف الأرض، كما وجد إناء من

الجرانيت في قبر أمنحتب الأول بوادي الملوك عليه اسمه، كذلك عثر على حجر لا يحمل غير اسمه في "جبلين" جنوب الأقصر، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري، ومما نذكر أيضا أن اسمه قد وجد في بردية "رند" الحسابية (في حوزة المتحف البريطاني).

وهناك ملك ثالث من هذه المجموعة هو " ايبي نب خبش رع". ومن أهم الآثار التي ترجع إلي أيامه خنجر من البرونز عليه نقوش متأثرة بالفن الكريتي، عثر عليه في قبر رجل يدعي "عبدو" بسقارة، ولو أن صاحبه هو رجل آخر يدعي "نحمان"، وهي أسماء سامية ترجح الرأي القائل بأن الهكسوس قد وفدوا من فلسطين. وكان "نحمان" من حراس الملك، وربما والد "عبدو". ويبدو أن "ايبي" (أبوفيس)اتخذ حراسه من الآسيويين نتيجة لعدم اطمئنانه للمصريين. كذلك وجد إناء حجري عليه اسم هذا الملك، وبجانبه ألقاب مصرية قديمة "كالإله الخير، وابن الشمس، حبيبها".

طرد الهكسوس:

مرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن يكون بين المصريين من يستطيع مقاومة الهكسوس، خاصة أنه لم يكن باقيا من مصر المستقلة سوي شريط ضيق في مصر العليا يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، ويخضع نسبيا لنفوذ طيبة، ويمتد من "القوصية" في محافظة أسيوط التي مثلت أقصي جهات مصر الخاضعة تماما للهكسوس في مصر الوسطي، وحتي إلفنتين[١٦]. ولكن ما لبث أمراء طيبة أن شعروا بنوع من القوة، فبدأوا في التحالف مع جيرانهم في الشمال والجنوب، كما عمدوا إلي كتابة أسمائهم في خراطيش مسبوقة بالألقاب الملكية.

فلما أخذت قوة الهكسوس في الضعف وسطوتهم في التداعي، انتهز هؤلاء الحكام الطيبيون الفرصة، فبدأوا العمل في سبيل استرداد حرية بلدهم، ويسعون لتخليص وطنهم من ذلك الدخيل البغيض. وقد كتب الله لهم الفوز

والنجاح بعد حرب طويلة قادها علي التوالي "سقننرع" الثاني، ثم ولداه "كاموسا" و"أحمس".

ولا ندري بالضبط الأسباب المباشرة لبدء الاحتكاك بين الهكسوس، وحكام طيبة ومحاولة الهكسوس للقضاء علي حكام طيبة قبل أن يستفحل أمرهم، ذلك رغم عثورنا علي عدد من الوثائق توضح لنا الدور الذي لعبه كل من هؤلاء الحكام في طرد الهكسوس. والوثيقة الأولي قد وردت في بردية (سالييه ٢) من أيام الأسرة التاسعة عشرة، مسجلة بطريقة شبه أسطورية قصة اشتباك "سقننرع" مع "أبوفيس" ملك الهكسوس في أول معركة في ذلك الكفاح. وهي تصور "أبوفيس" كأنه يبحث عن مبرر للتحرش بأمير طيبة، فيرسل إليه برسالة يشكو فيها من أفراس النهر التي تسبح في البركة المقدسة بمعبد آمون بطيبة، فتمنعه من الاستمتاع بالنوم (في العاصمة أواريس) ويطلب منه قتلها. وقد رد عليهم "سقننرع" رداً يدل علي الرغبة في السلام، كما أكرم الوفد الذي حمل إليه تلك الرسالة بعد أن استشار رجال البلاط في الأمر ونصحوه بذلك. وهنا ينتهي المخطوط، فتكمل مومياء "سقننرع" (المحفوظة في المتحف المصري) تلك القصة. فهي تثبت أن صاحبها قد مات متأثراً بجراحه. وقد تأكد هذا الأمر بعد أن جربت بعض الأسلحة التي استخدمها الهكسوس، فتطابقت مع معظم الجراح التي بالجمجمة، بجانب أن رداءة التحنيط تؤكد سرعة تحنيطه في ميدان القتال.

أما كفاح ابنه "كاموسا" فقد وصل إلينا النبأ عن طريق ثلاث وثائق أكملت كل منها الأخري، مما قدم لنا قصة شبه كاملة لكفاح ثاني أبطال حرب التحرير. فقد جاءت الوثيقة الأولي لتلميذ كتبها علي لوح يعرف بلوح "كارنافون". أما الثانية فمدونة علي لوحة عثر عليها سنة ١٩٢٨، تقص القصة التي تروي أن "كاموسا" قد ضاق (بعد وفاة والده وجلوسه علي العرش) بالموقف إزاء الهكسوس، فدعا رجال البلاط وقواد الجيش وشاورهم

في الأمر، فأخذوا في مدحه والتغني بشجاعته والإشادة بقوته، فتعجب من أقوالهم وذكرهم بموقفه بين ملكين، أحدهما آسيوي يحكم بلاده في الشمال، والآخر يحكم بلاده في الجنوب(١٧). وقد بدا من رد المجتمعين أنهم راضون بحالهم، وأنهم كارهون للحرب، يؤثرون الرضاء بالأمر، ولكن "كاموسا" صمم علي قتال الهكسوس، فتأكد من أن البلاد كلها ستهتف لكاموسا حامي مصر. ويفهم من بقية النص أنه تقدم مستخدماً النيل نحو الشمال حتي بلدة "نفروس"، وانتصر علي حاكمها "نتي" الذي كان موالياً الهكسوس(١٨).

أما الوثيقة الثالثة فعبارة عن لوحة كاملة من الحجر الجيري عثر عليها في الكرنك سنة ١٩٥٤، وهي تكمل الوثيقتين. فتتحدث عن استمرار انتصارات "كاموسا" علي الهكسوس، وعن الرعب الذي أصابهم من جيش مصر، وكذا عن الغنائم التي حصل عليها من أسره لرسول بعث به "أبوفيس" لتوصيل رسالة منه إلي ملك كوش، يحثه فيها علي مهاجمة مصر من الجنوب أثناء انشغال "كاموسا" في الشمال، ثم يسرد المدن التي استولي عليها.

ونحن وإن كنا لا نعرف كيف انتهت أيام "كاموسا" أو سبب موته، فإن من المؤكد أن المنية قد وافته قبل أن يحتل "أواريس"، فترك بذلك مهمة طرد الهكسوس من مصر إلي أخيه أحمس.

ورغم أننا لم نعثر علي أي أثر أو وثيقة ملكية تقص علينا قصة طرد أحمس للهكسوس، فإن قائدين من قواده هما القائد البحري أحمس ابن إبانا والقائد البري أحمس بن نخبت (أي أحمس الكابي) قد سجلا علي قبريهما بمدينة "الكاب" ما قاما به من حملات حربية تحت قيادة الملك أحمس، الذي تمكن من الاستيلاء علي العاصمة "أواريس"، واقتفي أثر الهكسوس شرقا حتي جنوب فلسطين، حيث تحصنوا في حصن شاروهين المنيع (في منطقة غزة) فحاصره لمدة تقارب الثلاث السنوات حتي تمكن أخيرا من الاستيلاء عليه بعد هزيمة منكرة، وشتتهم في بقاع الأرض، و لم يعد لهم ذكر في التاريخ.

ويجدر هنا الإشارة إلي ثلاث ملكات لعبن دوراً مهمـــاً في حـــرب التحرير، وتوارثن الأهمية السياسية للمرأة طوال هذه الحقبة المهمة من تـــاريخ مصر. وتتصدر قائمتهن الملكية "تتي شري" زوجـــة "ســـتقننرع" الأول وأم "سقننرع تاعا الثاني". وربما كانت أماً أيضا لزوجته "إياح حتب". وقد عثـــر علي تمثالين لها في مقبرتها بغرب طيبة، وعلي لوحة في إبيدوس، يـــشيد فيهـــا أحمس بأفعالها، كما شيد لها ضريحا في تلك المدينة المقدسة.

ثم تأتي بعد ذلك الملكة "اياح حتب" زوجة ســـقننرع الثـــاني، وأم كاموسا وأحمس. وقد لعبت دورا مهما في الكفاح لتحرير البلاد أيام زوجها وولديها. وتشير لوحة أقيمت في الكرنك إلي أنها كانت ترعي الجنود، وتهتم بشئون مصر، وأنها قضت علي الأعداء... الخ[١٩]. وقد عثر في مقبرتها علـــي بلطة وختجر وحلي رائعة تحمل أسمي كاموسا وأحمس، ويظهر في بعضها تأثير واضح لفن كريت وجزر بحر ايجه.

أما الملكة الثالثة فهي "أحمس نفرتاري" التي كانت في أغلب الظـــن زوجة لكاموسا ثم أحمس من بعده والتي ظل نفوذها قويا أيام ابنها أمنحتـــب الأول. وقد صورت علي لوحة أبيدوس التي سبق ذكرها، وهي تشارك في بناء ضريح الملكة "تتي شري" هناك. وقد اكتسبت هذه الملكة تقديرا أدبيا كبيرا، ألهت مع أبنها أمنحتب الأول في العصور اللاحقة.

هكذا نجحت مصر بقيادة أحمس الأول في تسجيل فصل الختام مـــن ذلك العصر البغيض المشئوم، عهد الاحتلال والحكم الأجنبي للـــبلاد، وبـــدأ بذلك عهد جديد زاهر هو عهد الدولة الحديثة، عهـــد المجـــد العـــسكري والانفتاح علي الخارج.

هوامش الفصل التاسع :

(١) يسميه البعض بعصر الانتقال الثاني أو عصر الاضمحلال الثاني أسوة بتسمية العصر المتوسط الأول.

(2) G. Posener, Prences et Pays d' Asie et de Nubie, Bruxelle, 1910.

(٣) هناك من المؤرخين من يعتقد أن عاصمة هذه الأسرة كانت "منف"، نظرا لعثورنا علي أهرامات في جبانة الدولة القديمة قد ترجع إلي ملك هذه الأسرة، ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن الملك والبلاط الملكي كانا يتحركان في بعض الأحيان إلي طيبة.

(٤) من المعتقد أن "مانيثون" قد أعطي رقماً حالياً لهذه الفترة (٤٥٣ عاما للأسرة ١٢، و١٨٤ عاماً للأسرة ١٤) أي بلغت مدة حكم الأسرتين ما يزيد علي ستة قرون، وهو أمر غير مقبول.

(٥) عثر علي آثار لملوك تلك الأسرة في منطقة الختاعنة (مركز فاقوس)، وأغلب الظن أن هذه الآثار قد جلبت من منف لاستخدامها في أعمال بناء في عصور تالية. وتدل الآثار التي عثر عليها في الدلتا والنوبة علي أن نفوذ بعض ملوكها أمتد نحو الشمال والجنوب.

(6) R. Welill, La fin du Meyen Emfire Egyptien- ne, Etiude Sur, Les monuments et l' histoire de la pereode compuse enter XIIe dynasties, Paris, 1918.
- H. Stock, Sludien sur Jeschichte and Archoologie der 13 bes 17 Dynastie Agyptiens, Gluchsladt, 1942.
- A. Scharff, Ein Rechingsbesh des Hafes ousder Dynastie & AS, 57, p. 4.1

(٧) انظر مجموعة الملوك المسماة "سبك حتب" في الأسرة الثالثة عشرة للدكتور أحمد محمود صابون، الإسكندرية، ١٩٨٨.

(8) G. Jequuer, Deux Pyramedes du Mogen Empire, Le Caire, 1986.

(٩) انظر:
- V. Maragiogle & Bunaldi, Note Sulla Pyramid de Ameny, Amu, Orientalia 37, 1968, pp. 325-338.
- J. Von Becherafh, Handmuclider Agyptianchen Konegsenamen, Munchn, 1984.

(10) P. Lalrb, Die Herschaft der Hghsos in Agypten, 1943.
- J.Seters, The Hyksos, 1968.
- J. von Beckerath, Unterschungen, sur politischen Geschechte der zwschen zeitim Agypten, Guckstadt, 1964, pp. 27-8.

(١١) ومع ذلك فإن الآثار القليلة التي تركها الهكسوس لا تعطي معلومات كافية عنهم، بعكس غيرهم من الأجانب الذين حكموا مصر كالفرس والإغريق والرومان، أما قصة طردهم من البلاد، فقد عثرنا لحسن الحظ في طيبة علي نصوص وكتابات أفادتنا كثيرا.

(١٢) هناك رأي آخر يري أن العجلات الحربية لم تستخدم إلا في أواسط أو أواخر عهد الهكسوس، إذ لم تصل إلينا أي أشارة إلي العربات إلا في عهد كاموسا ثاني أبطال حرب التحرير، كما صور المصريون في ذلك العهد حيوانات كثيرة علي الجعارين، لم يكن من بينها الحصان.

(13) W. Winlock, The Rise and fall of the middle kingdom at Thebes, New York, 1947.

(١٣) الحضارة المصرية: تأليف جون ويلسون، ترجمة أحمد فخري، القاهرة، ص ٢١٨

(١٤) لم يترك الهكسوس آثاراً ضخمة، وربما سبب ذلك أنّ المصريين قد حطموا فيما بعد ما يمت إليهم بصلة، كما أن الظروف البيئية للدلتا وكذا تعرضها الدائم للغزو وعدم وجود محاجر بها قد ساعد علي تدمير آثارها.

(١٥) أحمد فخري: مصر الفرعونية، ص ٢٤١: وكذا د. أحمد بدوي: في موكب الشمس، ص ٢٩٢، جزء ٢.

(١٦) الواقع أننا لا نعرف مدي الصلة بين ملوك الهكسوس وأمراء طيبة في تلك الفترة، ويبدو أنهم كانوا يدفعون ضريبة لملوك الهكسوس، ولكنهم تمتعوا في نفس الوقت بقسط من الاستقلال.

الفصل العاشر

علاقات مصر بالجنوب

نشاط الدولة المصرية القديمة فى النوبة والسودان القديم
(٢٦٨٦ – ٢١٨١ ق.م)

المصالح المصرية فى السودان :

منذ بداية ظهور الكيانات السياسية المصرية كانت هناك حقيقة ثابتة وهى أن لمصر حدودًا جغرافية مع جيرانها فى كل الجهات. وقد أطلق المصريون على هؤلاء الجيران مسميات من عندهم واعتقدوا أنهم يمثلون كل الشعوب الموجودة آنذاك. هؤلاء الجيران كانوا : الطمياح (وهم الليبيون) من الغرب، والنحسو (السودانيون) من الجنوب، والعامو (بدو صحراء سيناء) من الشرق. وكانوا جميعهم فى نظر الرحل المصرى برابرة يفتقرون لأبسط مقومات الحضارة. وفى ذات الوقت، وربما لهذا السبب، كانوا يعتبرون أعداء تقليديين للشعب المصرى يجب التصدى لهم لتجنيب مصر أخطارهم. انطلاقًا من هذه الحقائق يجب أن نستبعد أى نظرية تدعى أن جنوب وادى النيل كان جزءًا لا يتجزأ من مصر القديمة. وإن حدث أن ضم جنوب الوادى لشماله فى بعض الفترات فقد حدث ذلك بالقوة وضد رغبات السواد الأعظم من أبناء النحسو. إذن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن شعب كمت (مصر) وشعب النحسو (السودان) كانا يمثلان قوميتين مختلفتين وكانت تفصل بنيهما حدود جغرافية كان موقعها على النيل جنوب الشلال الأول مباشرة[1].

كانت بلاد النحسو التى تمتد على النيل من جنوب أسوان وإلى مدى غير محدد فى اتجاه الجنوب، كانت تنتج كثير من السلع التى تحتاجها مصر مثل تلك التى جاء ذكرها فى نصوص الموظفين المصريين ونى وحرخوف. فقد كانت مراعيها وغاباتها تحتضن أنواعًا من الحيوانات والطيور التى لا يمكن أن تعيش فى البيئة المصرية مثل الأفيال والفهود والقرود والنعام ولكن كانت هناك حاجة ماسة لها إما حية (القرود) وإما لجلودها (الفهود) أو نابها (الأفيال) أو

ريشها وبيضها (النعام). يوجد فى بلاد النحسو كذلك الذهب وخام النحاس والعديد من أنواع الأحجار الكريمة وشبه الكريمة وحجارة البناء كالجرانيت والحجارة التى تصنع منها التماثيل كالديوريت والبسالت. هناك أيضًا رجال النحسو الأقوياء يمكن أن يستغلوا فى القيام بالأعمال الشاقة كحفر الترع وشق القنوات وقطع الحجارة وحملها. هذا إلى جانب استعمالهم فى الجيش والشرطة واستكشاف الطرق. فوق كل هذا وذاك كانت بلاد النحسو تمثل سوقًا رائجة للبضائع المصرية مثل الأوانى المنزلية الفخارية والحجرية وبعض الأدوات المعدنية كالفئوس والسكاكين وبعض أنواع الأطعمة كالجبن والعسل وغيرها.

يبدو أنه لتحقيق هذه المصالح قرر ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة أن يقوموا بإنشاء بعض المستوطنات المصرية فى مواقع استراتيجية فى السودان. وقد وقع اختيارهم على موقعين : بوهين وكوبان. لكن هذا لا يعنى أن نشاطهم انحصر فقط فى هذا الجزء الشمالى من النوبة السفلى، لكنهم جعلوا من هذين الموقعين، كما سنبين لاحقًا، نقطتى انطلاق لاستكشاف واستغلال مناطق جديدة فى النوبة العليا وفى غرب النيل وشرقه وربما وصلت بعثاتهم الاستكشافية شرقًا حتى منطقة البطانة.

وجود المستوطنة المصرية فى بوهين كشفت عنه حفريات قامت بها جمعية الاستكشاف المصرية (Egypt Exploration Society) فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات من هذا القرن. قاد تلك الحفريات رجل الآثار الإنجليزى وولتر إمرى[٢]. يوجد الموقع فى الجزء الشمالى من مدينة بوهين شمال الشلال الثانى بالقرب من النيل ويبدو من بقايا الجدر أنه كان مسورًا بتحصينات دفاعية من الطين اللبن. توجد فى الموقع آثار مصرية أخرى من فترات الدولة الوسطى والدولة الحديثة. الموقع الذى احتلته الدولة القديمة يقع حوالى ميل ونصف الميل إلى الشمال من القلعة التى بنيت فى زمن الدولة الوسطى وقد دلت عليه قطع من فخار أحمر اللون وآثار جدر من الطين اللبن

والحجارة الخشنة لا يزيد ارتفاعها على ٤٠سم. إضافة، تم العثور على لقى أخرى ساعدت فى عملية تأريخ الموقع مثلاً؛ قطع من خام النحاس وقطع أكبر من الفخار الأحمر تمكن بواسطتها تحديد شكل الإناء المهشم الذى اتضح أنه الإناء المعروف بـ "سلطانية ميدوم" التى اشتهرت فى فترتى الأسرتين الرابعة والخامسة (٢٦١٣ – ٢٣٤٥ ق.م) من نفس الفترة عثر على كسرة من الفخار (Ostracon) منقوش عليها خرطوش الملك كاكاى (نفر إيركا رع) ثالث ملوك الأسرة الخامسة. تبع ذلك اكتشاف عدد من سدادات الجرار منقوش عليها أسماء عدد من ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة أمثال خفرع ومنقرع (الرابعة) وسركاف، ساحورع، نفر إير كارع، جد كارع ونى وسر رع (الخامسة).

من أهم الاكتشافات التى جاءت بها هذه الحفرية اكتشاف ثلاثة أفران فى حالة جيدة كانت تستعمل فى صهر نحاس لم يتمكن خبراء الآثار من تحديد مصدر خامه. جدير بالذكر أن فخارًا نوبيًا قليلاً قد وجد فى الموقع وقد نسبه المكتشف للمجموعة "ب"[٤] التى ثبت فيما بعد، نتيجة للأبحاث التى قام بها أ. سميث، أنه لا مكان لها فى سلم الحضارات السودانية. لذلك نجد بعض الكتاب ينسبون هذا الفخار لبقايا من شعب المجموعة أ الذين قوض حكمهم وشتت شملهم أحد ملوك الأسرة المصرية الأولى.

بالرغم من وضوح الرؤيا فيما يتعلق بالنشاط المكثف للأسرتين الرابعة والخامسة إلا أن إمرى (Emery) يعتقد، اعتمادًا على عدد من المؤشرات، بأن استيطان المصريين فى بوهين ربما بدأ منذ أيام الأسرة الثانية. تتمثل تلك المؤشرات فى الفرق الواضح بين أحجام الطوب المستعمل فى البناء، فبعضه كبير جدًا يماثل الطوب المستعمل فى الأسرة الثانية وبعضه أصغر فى الحجم يشبه النوع السائد على أيام الأسرتين الرابعة والخامسة. الجدر المشيدة بالطوب الكبير بنيت فوقها جدر بالطوب ذو الحجم الصغير الأمر الذى يؤكد أنها فعلاً

أقدم من الأخيرة. إن نظرية إمرى التى تزعم وجود مستعمرة مصرية فى بوهين منذ زمن الأسرة الثانية قد تعززت مؤخرًا بتواريخ كربونية وبالعثور على مخربشة من تلك الفترة فى تل بالقرب من الموقع(٥).

ذكرنا فى بداية هذا الفصل الأسباب التى دفعت بمصر للتوسع خارج حدودها الجغرافية المعروفة وتتلخص تلك الأسباب فى الحصول على موارد وإمكانيات طبيعية وبشرية. وقد جاءت حفريات بوهين لتؤكد ما ذهبنا إليه. فقد بات واضحًا أن الحصول على النحاس السودانى كان ضمن مجموعة أهداف أقيمت من أجلها المستوطنة، وليس مهما لتأكيد هذه النقطة أن يتم العثور على المصدر الذى أخذ منه الخام إلى بوهين فربما كان فى إحدى الصحراوتين (الشرقية أو الغربية) أو فى النوبة العليا. فهو، أينما كان مصدره، لابد أن ينقل إلى بوهين لصهره هناك لأن بوهين كانت مركز كل النشاط المصرى فى السودان آنذاك وبالتالى كان يوجد بها كل أنواع الخدمات التى يمكن نقلها من مصر. ومعلوم أن خام النحاس كان متوفرًا فى السودان وكان يتم استغلاله بواسطة أهل المجموعة أ.

أشار إمرى إلى أن إقامة المصريين فى بوهين قد استمرت لأكثر من مائتى عام كانوا طوال هذه الفترة يعملون بصهر النحاس. لكنه يؤكد من ناحية أخرى أن بوهين كانت بجانب ذلك مركزًا تجاريًا هامًا، يشير إلى ذلك الأعداد الكبيرة من آثار الأختام على ورق البردى وعلى العظام والفخار التى وجدت فى الموقع والتى تدل على حركة التجارة وتدل كذلك على تواصل الاتصال مع المراكز المصرية داخل مصر. تبعًا لرأى كمب(٦) يمكن لمستوطنة بوهين أن تلعب دور المنظم للتجارة بين مصر والنوبة العليا، والأخيرة هى المصدر الحقيقى لمعظم المنتجات التى يبتغيها المصريون والتى كانت تصل إليهم فى الماضى عن طريق الوسطاء زعماء المجموعة أ. أما الآن بعد قيام حكومة مركزية قوية فى مصر لم يعد هنالك مجال لمثل هؤلاء الوسطاء.

من بوهين كذلك أرسلت حملات رسمية الغرض الظاهرى منها تأديب الخارجين من السودانيين لكن يبدو أن الهدف الحقيقى من إرسالها هو الحصول على الغنيمة وبخاصة الحيوانات الحية، يقف شاهدًا على ذلك حوليات الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة المدونة فى السجل الذى صار يعرف بلوح باليرمو. ذكر فى هذا اللوح عملاً اعتبره المصريون من أهم إنجازات هذا الملك ألا وهو إرساله حملة إلى بلاد النحسو (السودان) عادت محملة بعدد ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) أسر و ٢٠٠٠٠٠ (مائتى ألف) من رءوس الأبقار الكبيرة والصغيرة[٧].

إن الأدلة الأثرية وقرائن الأحوال فى رأى تريقر[٨] لا تؤيد على الإطلاق ان تكون النوبة السفلى هى مصدر هذه الحيوانات ولذلك اعتقد هذا الكاتب أن حملة سنفرو قد تعمقت إلى الداخل أما إلى الجنوب من دنقلا أو ربما غربها إلى كردفان ودارفور حيث الظروف المناخية أنسب لتربية أعداد كبيرة من الحيوانات. لكننا من جانبنا نستبعد أن تكون الحملات المصرية المنظمة قد وصلت إلى هذه المناطق من السودان فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ مصر. لذلك فإن أحسن تفسير يمكن طرحه فيما يتعلق بمسألة أعداد الحيوانات التى غنمها الملك سنفرو هو أن كاتب اللوح قصد المبالغة فى ذكر الأرقام لتفخيم دور مليكه وهذا من الأمور المألوفة والعادية عند قدماء المصريين. وعليه يبدو معقولاً جدًا أن حملة الملك سنفرو قد حصلت فقط على بضع قطائع من الأبقار من نفس المنطقة حول بوهين وقد عرف عن أهلها (المجموعة ج) تربية الأبقاء وتقديسها.

نشاط آخر للمصريين فى النوبة كان فى مجال قطع الحجارة من الصخور الجيدة مثل صخر الديوريت، وترحيله إلى مصر لاستعماله فى بناء المنشآت الملكية المختلفة وفى صناعة التماثيل بصفة خاصة. توجد محاجر الديوريت فى الصحراء الغربية على بعد حوالى ٨٠كم غرب توشكا وقد تم

العثور هنالك على نقوش تحتوى على أسماء عدد من ملوك الأسرة الرابعة مثل خوفو وجدف رع وبعض ملوك الأسرة الخامسة مثل ساحورع وجد كارع إيسيسى[٩]، كما وجدت أسماء لملوك من الأسرة الثانية عشرة مما يشير إلى أنهم كذلك استغلوا نفس المحاجر فيما بعد. بالإضافة للحجارة الصخرية يوجد بالموقع أنواع من الحجارة الكريمة وشبه الكريمة عمل المصريون كذلك على استغلالها. من المرجح كذلك أن موظفى الأسرة الخامسة استعملوا عمالاً سودانيين للقيام بهذه الأعمال الشاقة مما أدى إلى هجر الأهالى السكن الدائم على ضفاف النيل هربًا من معاناة العمل مع المصريين ونتج عن ذلك الفجوة الآثارية التى يتحدث عنها رجال الآثار والواقعة بين آثار المجموعة أ وآثار المجموعة ج[١٠].

وآخر ملك وجد اسمه فى بوهين هو الملك جد كارع إيسيسى الملك قبل الأخير فى قائمة ملوك الأسرة الخامسة ويعتقد أن نشاط الدولة القديمة فى هذا الموقع قد توقف فى عهده. معنى ذلك أن ملوك الأسرة السادسة لم يأتوا إلى بوهين، بعبارة أخرى أصبح السودان حرًا من أى هيمنة مصرية منذ نهاية الأسرة الخامسة وحتى بداية الثانية عشرة.

هل أقام مصريو الدولة القديمة مستعمرات أخرى فى السودان باستثناء بوهين ؟

يعتقد بعض الكتاب[١١] أن مستعمرة مصرية أخرى قامت فى كوبان وقد اكتشفت آثار ضئيلة من بقاياها فى بداية الثلاثينات أثناء عمليات المسح الأثرى الثانى[١٢]، تقع كوبان على الضفة الشرقية للنيل قبالة وادى العلاقى. اكتسب وادى العلاقى هذا عبر التاريخ القديم والوسيط أهمية اقتصادية واستراتيجية كبرى وقد عمل على استغلاله كل الحكام الذين تعاقبوا على مصر من فراعنة أو بطالمة أو رومان أو عرب. من الناحية الاقتصادية توجد به العديد من مناجم الذهب والأحجار الكريمة[١٣]. من الناحية الاستراتيجية

يؤدى هذا الوادى إلى بلاد البجة الذين طالما هاجموا الحدود المصرية الجنوبية وتسببوا فى إزعاج وإرهاب أهل تلك النواحى. لذلك كان أمرًا فى غاية الأهمية أن يسيطر حكام مصر على مداخل هذا الوادى من أجل سلامة مصر وأمنها. يبدو أمرًا بدهيًا كذلك أن عددًا من المحطات المصرية الصغيرة قد انتشرت على طول المسافة بين بوهين وأسوان.

نشاط الأسرة السادسة (٢٣٤٥– ٢١٨١، ق.م.) فى النوبة السفلى :

اتخذ نشاط ملوك هذه الأسرة شكلاً مختلفًا ونوعًا ما عن نشاط سابقيهم، فبينما واصلوا السياسة العامة التى تهدف لتحقيق مصالح مصر الاستراتيجية فى السودان، إلا أننا نجدهم قد اتبعوا وسيلة مختلفة لتحقيق هذا الغرض. فلقد بات واضحًا عدم وجود آثار لمستوطنات مصرية من هذه الفترة[١٤]. بل من المرجح جدًا أن الحدود المصرية الجنوبية قد عادت إلى موقعها الطبيعى جنوب الشلال الأول، يشير إلى ذلك النقشان اللذان تركهما الملك مرى ن رع، رابع ملوك الأسرة السادسة، فى صخرة جنوب الشلال الأول. تذكر تلك النقوش أن الملك جاء بنفسه إلى هناك فى السنة الخامسة من حكمه وقابل زعماء (حكاو) بعض القبائل السودانية هى؛ واوات، إرجت ومدجا. وقال إن هؤلاء الزعماء قدموا له فروض الولاء والطاعة. بالرغم من هذا الإعلان من الجانب المصرى إلا أن التفسير الأنسب لهذا اللقاء، فيما يبدو، أنه مناورة سياسية أو دعوة من العاهل المصرى لإبداء حسن النوايا[١٥]. كما أن موقع اللقاء ومكان النصب نفسه (جنوب الشلال الأول فى مواجهة جزيرة الحسا) وعدم اكتشاف آثار استيطان مصرى إلى الجنوب منه، كل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من عودة الحدود إلى موقعها الأصلى[١٦].

إن الانسحاب من بوهين وكوبان لم يترتب عليه التخلى عن مصالح مصر فى السودان. على العكس من ذلك، يبدو أن النشاط المصرى فى السودان قد ازداد وأن مصالحًا جديدة بدأت تستغل لأول مرة فى زمن الأسرة

السادسة، تأتى فى مقدمتها القوة العاملة السودانية، تحديدًا المقاتلون، والأدلة على ذلك متوفرة. هناك أولاً عدد من النقوش المصرية عثر عليها فى صخور توشكا وتوماس على النيل وأخرى من وادى العلاقى تركتها الحملات المصرية التى كانت تغشى هذه المواقع فى زمن الأسرة السادسة. تبين تلكم النقوش ألقاب الموظفين على رأس الحملات. بعضهم حمل لقب "قائد القوات الأجنبية" البعض الآخر حمل ألقابًا أكثر تحديدًا مثل "قائد كتيبة الساتجو" أو "قائد الوحدات الأجنبية من (منطقة أو قبيلة) الساتجو". ومعلوم أن الساتجو قبيلة أو منطقة فى النوبة السفلى كما سنبين ذلك بشىء من التفصيل عندما ننتقل للحديث عن المواقع الجغرافية لهذا المناطق.

فى نفس المضمون يتحدث نقش الموظف ونى الذى تركه على جدران قبره فى أبيدوس. شغل ونى وظائف مختلفة تحت ملوك الأسرة السادسة الأوائل لكنه فى زمن مرى ن رع عين فى منصب "حاكم مصر العليا أو الصعيد" وهو منصب جديد ربما قصد من إنشائه الحد من نفوذ النبلاء المتزايد وتمكين الحكومة المركزية فى جمع الضرائب من سكان الجنوب المصرى ورعاية مصالحها فى السودان(١٧).

فى مكان ما من نقشه الطويل يذكر الحاكم ونى أن القوة التى حارب بها بدو الصحراء كانت تحتوى على مجندين من "نحسو إرجت ونحسو المدجا ونحسو يام ونحسو واوات ونحسو كاعو". (ذكر ونى كذلك أقاليم وقبائل أخرى لا علاقة لها بالسودان). ما من شك إذن أن مصرى الأسرة السادسة قد استخدموا أعدادًا كبيرة من السودانيين كمحاربين فى الجيش المصرى وقد كان الحصول على مثل هؤلاء المجندين من أهم الأغراض التى أرسلت من أجلها الحملات للسودان(١٨).

فى مكان آخر من النقش يتحدث ونى عن مهمة مختلفة فى منطقة الحدود فى أسوان كلفه بها الملك مرى ن رع وهى جلب حجر الجرانيت من

أسوان لاستعماله فى بناء هرم الملك. ولتنفيذ هذه المهمة احتاج ونى لشق خمس قنوات وبناء عدد من المراكب من خشب السنط الموجود فى واوات. وقد أوضح ونى أنه وجد تعاونًا كبيرًا ليس من زعيم واوات فقط بل أن عملية تجهيز الخشب اللازم قد شارك فيها زعيم إرجت، زعيم واوات، زعيم يام وزعيم المدجا. هذا النوع من التعامل فى رأينا، قد تم من غير إكراه ومن غير مقابل وهو يقف دليلاً على نجاح الدبلوماسية المصرية التى انتهجها الملك مرى ن رع عندما قابل نفس الزعماء باستثناء حاكم يام، فى سنته الخامسة فى أسوان. –

من المصادر النصية الهامة التى تلقى بمزيد من الضوء على موضوع نشاط الأسرة السادسة فى السودان وتحتوى على معلومات أولية وأساسية عن جوانب من التنظيمات السياسية والاجتماعية فى السودان النص أو بالأحرى السيرة الذاتية لحاكم آخر من حكام الصعيد اسمه حرخوف. يوجد النص منقوشًا على جدران قبر هذا النبيل فى مركز الإقليم أسوان. عمل حرخوف فى خدمة الملك مرى ن رع ومن بعده الملك بيبى الثانى. وقد كان من أهم الإنجازات التى يفتخر بها قيامه بأربع رحلات إلى بلاد يام ثلاث منها تمت تحت مرى ن رع والرابعة تحت بيبى الثانى.

رحلة حرخوف الأولى كان الغرض منها فتح الطريق إلى بلاد يام وقد اصطحبه فيها والده "إيرى". لم يذكر حرخوف تفاصيل كثيرة عن هذه الرحلة الاستكشافية لكنه أوضح أنها استغرقت سبعة أشهر وأنه أحضر معه أشياء جميلة ونادرة.

الرحلة الثانية كانت وجهتها يام أيضًا وقد ذهب فى هذه المرة بمفرده سالكًا طريق الإلفنتين. وقد مر حرخوف بالأماكن الآتية : معخر، تورريس، وإرجج الواقعة فى إرجت (أى المواقع الثلاثة الأولى هى أجزاء من إرجت).

وصل حرخوف إلى يام وعاد منها بسلام محملاً بأنواع البضائع المختلفة. فى رحلة الإياب من يام مر حرخوف بديار حاكم ساتجو وإرجت (لاحظ أن الأثنتين تحت حاكم واحد) وقام بجولة فيها. يضيف حرخوف أن رحلته الثانية استغرقت ثمانية أشهر.

أما الرحلة الثالثة فقد سلك فيها طريق الواحات الموجودة غرب النيل. عندما وصل إلى يام علم أن الحاكم (اللقب المستعمل هنا للفظ حاكم هو "حكا") قد خرج فى حملة تأديبية إلى بلاد الطمياح الموجودون فى أقصى الغرب. لم ينتظر حرخوف عودة الحاكم بل تبعه ولحق به فى بلاد الطمياح ونجح فى إقناعه بالعودة. ويبدو لأن هذه الرحلة الأخيرة لم تكن فى التخطيط الأصلى فقد قام حرخوف بإرسال أحد تابعيه بمعية رجل من يام، أرسلهما للبلاط الملكى فى ممفيس لإبلاغ جلالة الملك مرى ن رع بهذا التطور. بعد قضاء مهمته فى يام رجع حرخوف بالطريق النيلى وفى هذه المرة وجد واوات وإرجت وساتجو قد توحدت تحت إمرة حاكم واحد[١٩]. عن تفاصيل مهمته يقول حرخوف : إن قافلته كانت تتكون من ثلاثمائة حمار حملت بأنواع البضائع من بخور، خشب الأبنوس، زيت الحكنو (السمسم؟) وسلعة غير معروفة اسمها زات، جلود الفهود، سن الفيل وعصى الرماية (throwing sticks).

رحلة حرخوف الرابعة والأخيرة كانت فى عهد الملك ببى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة وقد حدثنا عنها حرخوف من خلال روايته للخطاب الذى أرسله له الملك الطفل ببى الثانى بعد وصوله (أى حرخوف) إلى أرض مصر سالمًا. كان الملك الطفل قد علم أن حرخوف قد أحضر معه (من أرض الأشباح) قزمًا يجيد الرقص ففرح الملك بهذا الخبر فرحًا كبيرًا فكتب لحرخوف خطابًا يطلب فيه منه أن يهتم بهذا القزم وأن يحافظ عليه من أخطار الرحلة

النيلية حتى يضمن وصوله سالمًا إلى قصر الملك فى ممفيس لأن الملك يرغب فى رؤية هذا القزم أكثر من أى شىء آخر.

هذا الملخص عن رحلات حرخوف الأربعة قصدنا أن نعرضه هكذا من غير تدخل كبير منا بالشرح أو التعليق وبصورة تجعله أقرب ما يكون إلى الترجمة الكاملة للنص وذلك ليتمكن القارئ من التمييز بين ما هو أصلى وما هو مضاف من الكتاب الذين تناولوا هذا النص بالشروحات والتعليقات. وجدير بالذكر أن هذا الجزء من سيرة النبيل حرخوف المتعلق برحلاته إلى يام قد حظى باهتمام عدد كبير من الباحثين وقد كانت مسألة تحديد الموقع الجغرافى لبلاد يام (وبدرجة أقل تحديد مواقع المسميات الجغرافية الأخرى) من أكثر المسائل إثارة ويمكن النظر إليها على أنها من المسائل الخلافية الواضحة فى الدراسات المصرية السودانية. لأهمية هذا الموضوع رأينا أن نفرد له حيزًا أوسع فى مؤلف آخر. لكن فى هذا المقام يمكن إبداء بعض الملاحظات على النص بصفة عامة.

يعكس نص حرخوف صورة حية من العلاقات السلمية التى سادت بين السودان ومصر فى نهاية الدولة القديمة. علاقات كان محورها الأساسى ومحركها الفاعل هو التجارة. فقد اختارت الحكومة المصرية وخاصة تحت الملك مرى ن رع خيار التجارة الشرعية وعاملت عاهل يام على أساس من الندية والاحترام مما كان له أحسن النتائج الإيجابية التى عادت بالخير على البلدين. ويبدو أن شخصية الملك مرى ن رع وشخصية النبيل حرخوف قد لعبتا دورًا هامًا فى توجيه العلاقات الوجهة السلمية التى اتخذتها حيث يحس المرء فى كليهما نزعًا للحكمة ووزنًا للأمور بميزان العقل والدبلوماسية.

روايتا حرخوف وونى على بعضهما يعتبران أقدم الوثائق التاريخية التى احتوت حقائق ومعلومات عن شكل وتنظيم المجتمع السودانى المعاصر للأسرة

السادسة المصرية. ففيهما نسمع لأول مرة بأسماء قبائل سودانية (إرجت، سايجو، واوات، مدجا، كاعو، ويام). هذه المسميات قد تكون لمناطق كما يرى بعض الكتاب لكن من الأرجح، قياسًا على المألوف والشائع فى تاريخ السودان الوسيط، أنها أسماء قبائل أو تجمعات قبائل. فالناظر مثلاً فى تاريخ دولة الفونج سيجد صورة تكاد تطابق الصورة التى رسمها حرخوف. القادم من مصر قاصدًا أواسط البلاد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ستقابله، بعد عبور المنطقة من شمال السودان التى احتلتها قوات سليم باشا، العديد المشيخات التى تتبع اسميا لسلطان العبد لاب (كان يقيم فى عاصمته قرى) لكنها فى حقيقة الأمر تدير شئونها بنفسها ولولا إيفائها بالتزاماتها من الضرائب لشيخ العبد لاب لصح اعتبارها كيانات مستقلة. هذه المشيخات إذن وحدات سياسية لكنها كلها تقريبًا كانت تحمل أسماء قبلية مثل؛ الدفار، الدناقلة، الشايقية، المناصير، الرباطاب، الميرفاب، المجاذيب أو الجعليين وهكذا. الوحدات التى مر بها حرخوف يمكن مقارنتها بهذه المشيخات السودانية تحت الفونج ويمكن النظر إلى يام باعتبارها المشيخة الأقوى.

إن موضوع التنظيمات السياسية فى السودان القديم (تنظيم مجتمع المجموعة أ والمجموعة ج وكرمة) نال مؤخرًا المزيد من اهتمام الكتاب فى العشر سنوات الأخيرة جدير بلفت النظر هنا إلى أن المقابل الآثارى للكيانات السياسية التى ذكرها حرخوف، خاصة واوات، إرجت وسايجو فى نظر غالبية الكتاب (بما فى ذلك الكاتب) هو حضارة المجموعة ج، أما مقابل يام الآثارى فهو كرته الحالية[٢٠].

من الأمور التى تلفت الانتباه فى رواية حرخوف أن نوعية السلع التى جلبها من السودان هى نفسها التى كانت تذهب إلى مصر حتى وقت قريب جدًا وربما بنفس الطرق وهى : العاج، الأبنوس، وجلود الحيوانات[٢١]. من

الطرق التى أشارت إليها الرواية طريق الإلفنتين وهو الطريق البرى الذى يخرج من أسوان ويتجه جنوبًا محاذيًا للنيل مارًا ببعض الواحات الصغيرة كواحة دنكل وكركر وآبار أبو تنجيل ثم يلتقى بدرب الأربعين عند واحة سليمة. من واحة سليمةتتفرع طرق تتجه شرقًا نحو النيل إلى جزيرة صاى، مدخل الشلال الثالث، وإلى دنقلا العرضى، وأرقو وكرمة. ذكرت الرواية كذلك طريق الواحات ويقصد به الطريق الذى يخرج من أسيوط فى مصر ويمر بواحة الخارجة ثم واحة سلمية ثم بئر السلطان وينتهى فى دارفور (فى القرون القريبة الماضية كان ينتهى فى مدينة الفاشر عاصمة دارفور) وهو الذى يعرف الآن بدرب الأربعين. هذا يعنى أن المسافر فى طريق الواحات إذا أراد أن يغشى أى منطقة على النيل بين جزيرة صاى وكرمة يمكن أن يخرج منه عند واحة سليمة.

إذا غادرنا نص حرخوف للنص الذى تركه حاكم البوابة الجنوبية بيبى نخت من عهد الملك بيبى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة، سنكتشف أن نشاط هذه الأسرة فى السودان لم يكن كله سلميًا. يوجد نص بيبى نخت على جدران قبره فى مقابر النبلاء غرب أسوان وقد ذكر فيه أنه قلد حملة ضد قبيلتى واوات وإرجت[٢٢] بأمر من الملك حدث فيها قتل كثير. فقتل الزعماء والقواد وأبناء الزعماء والقواد، وحتى الأطفال لم يسلموا من القتل. بالإضافة إلى ذلك يذكر بيبى نخت أنه أحضر معه إلى بلاط الملك أعدادًا كبيرة من أسرى هاتين القبيلتين. فى مكان آخر يذكر أن الملك أرسله بعد ذلك ليصالح (أو يعقد صلحًا) مع زعيمى واوات وإرجت (الجديدين) وقال إن مهمته كللت بالنجاح فعاد الزعيمان معه إلى البلاط الملكى حاملين معهما هدايا من الثيران والماعز لجلالة الملك. وأضاف بيبى نخت أن الزعيمين رجعا إلى مناطقهما بعد أن تركا وراءهما اثنين من قوادهما وبعض أبنائهما كرهائن.

يوجد نقش آخر فى صخور النوبة السفلى من نفس الفترة يوضح أن مصر أرسلت حملة مكونة من ٢٠٠٠٠ رجل لسحق واوات وقد كان ضمن حصيلتها ١٧٠٠٠ من رجال النحسو[٢٣].

يتضح من هذه الكتابات الأخيرة أن العلاقات قد انقلبت من سلمية إلى عدائية بعد انتهاء عهد مرى ن رع وحرخوف. فإذا بحثنا عن السبب للحملة العدائية ضد زعيمى واوات وإرجت لن نجد لها تفسيرًا أنسب من افتراضنا رفضهما التعاون مع العهد الجديد (عهد الملك بيى الثانى) الشيء الذى يعتبره المصريون تمردًا وخروجًا عن الطاعة. لكن من الصعب التكهن بطبيعة التصرف الذى بدر من الزعيمين وجر عليهما غضب العاهل المصرى. من الجائز جدًا أن لهذا السبب علاقة بحركة التجارة وانسيابها وأمنها. فربما عرقل الزعيمان السودنيان انسياب التجارة لأى سبب من الأسباب؛ مثلاً لاستخفافهما بالملك الجديد لاسيما وهو كان طفلاً فى التاسعة من عمره عندما اعتلى العرش. أو ربما كانت حملةبيى نخت رد فعل لمقتل أحد المبعوثين المصريين إلى واوات ممن كانت لهم حظوة عند الملك، حيث أن هناك ما يشير إلى مقتل رجل مصرى فى بلاد واوات. نجد دليلاً على ذلك فى رواية المصرى سابنى التى تفيد بأنه خرج من مصر قاصدًا واوات لأجل إحضار جسد والده "مخا" الذى توفى فى واوات، وقال سابنى أنه أخذ معه بعض الهدايا لزعيم واوات، ربما على سبيل إرضاءه لكى يسلمه الجثة[٢٤]. من ناحية أخرى يجوز أن دوافع الحملة لا تخرج عن مجرد استخفاف من المصريين بزعماء إرجت وواوات خاصة بعد أن انفضت الوحدة التى كانت قائمة بينهما وبين سايجو تلك الوحدة التى كانت بلا شك من أسباب قوة القبائل الثلاث. (فض الوحدة يستنتج من رواية بيى نخت نفسها حيث يشير إلى وجود زعيمين).

بعد الحملة الأخيرة اتضح للجانب المصرى عدم جدوى استعمال القوة وأن ما يمكن تحقيقه بالطرق السلمية أكبر بكثير مما يتحقق بالقوة.

وهكذا كانت مهمة بيبى نخت الثانية فى السودان هى أن يسعى لعقد صلح مع واوات وإرجت. لم تذكر بنود واضحة لهذا الصلح، لكن نستطيع أن نتخيل أن من بينها بنودًا تنص على أن يتعهد الزعيمان السودانيان بتأمين سير القوافل التجارية المصرية عبر بلديهما، ولضمان إيفائهما بهذا تم حجز بعض أفراد أسرتيهما كرهائن. جدير بالذكر أن العداء المصرى لم يشمل القبائل الأخرى التى ذكرت فى نص حرخوف (مدجا، كاعو ويام) وربما استمرت علاقاتها حسنة كما كان الحال على عهود ونى وحرخوف.

علاقة مصر مع كوش في عصر الدولة الوسطى :

ازدهرت كرمة مع بداية الدولة الوسطى وأصبحت منطقة جذب سكانية فأُحيطت بحزام سكاني كثيف حولها ، وحتى حدودها التي امتدت من مكانها الأصلي حتى جزيرة صاي وجنوباً حتى جبل البرقل[٢٥]. وعلى كل حال، فالنصوص المتوفرة من عهدي الملكين سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث تشير إلى أنَ العلاقة بين مصر وكرمة ، على الأقل في هذين العهدين كانت عدائية ومتوترة ، أما عن العلاقات باستثناء هذين العهدين ، فلم يصل للباحثين منها إلا القليل من النصوص التي تشير لكوش.

من عهد سنوسرت الأول يوجد مصدران ؛ الأول ما يُعرف بلوحة بوهن أو لوحة فلورنسا رقم ٢٥٤٠ ، وهي عبارة عن لوحة ضخمة من الجرانيت تصور المعبود "مونتو" معبود أرمنت ، وهو يقدم للملك سنوسرت الأول عشرة من الأسرى بجانب كل أسير اسم المدينة أو المنطقة التي جاء منها، فالإله يخاطب الملك قائلاً "لقد أحضرت إليك كل الأقطار التي في تا-خنتي"[٢٦]. وفى مقدمة الأسرى نجد حاكم كوش ، وبقى من الاسم الجغرافي الثاني حرفاً واحداً، أما الثالث فيقرأ "بروو"، والرابع "يام"، والخامس بقى منه حرفاً واحداً والسادس "واست" والسابع "أخركين" والثامن "شعت" والتاسع "خاست" والأخير "اشميك".

هذه اللوحة قام بنصبها في بوهن الضابط "مونتوحات" في السنة الثامنة عشرة من عهد الملك سنوسرت الأول، وهي بذلك أقدم وثيقة تحوى الاسم كوش ومدينة بوهن - التي جاءت منها هذه اللوحة- هي واحدة من المواقع الهامة في أرض أهل المجموعة الثالثة ، وقد بُنيت فيها قلعة ضخمة من سلسلة القلاع التي بناها ملوك الدولة الوسطى.

كان"جورج رايزنر" قد افترض إن سنوسرت الأول شن حملة حقيقية على النوبة نتج عنها إخضاع تلك البلاد المشار إليها في النقش، نفس الحملة في رأيه هي التي يشير إليها "أميني" حاكم إقليم بني حسن في نقش السيرة الذاتية الذي تركه على جدران مقبرته[٢٧]. رغم أن النص المذكور قد أرخ بالعام الثالث والأربعين من عهد سنوسرت الأول بينما يؤرخ نص لوحة فلورنسا بالعام الثامن عشر من نفس العهد. نقش بني حسن هذا يعتبر مصدراً لحملة ثانية من عهد الملك سنوسرت الأول، ومختصر هذا النص أن "أميني" أبحر جنوباً مع سيده في حملة لإخضاع أعداء الملك، ويذكر أنه وصل كوش وتجاوزها إلى نهاية العالم، وجلب معه كل أنواع الغنائم، وكذلك رجع ملكه في سلام بعد أن هزم أعداءه في كوش الخاسئة[٢٨]. يعتقد "سيف- سودربرج" أن غزوة كبرى قد أرسلت ضد النوبة، وربما توغلت حتى أرقو جنوب كرمة، حيث عُثر هناك على لوحة منقوش عليها اسم الملك سنوسرت الأول[٢٩].
أما "والتر إيمري". فيعتقد بحدوث الغزوة التي شملت مناطق إلى الجنوب من "واوات"، ويرى أن الحملة أدت إلى سيطرة سنوسرت الأول على منطقة الجندل الثالث[٣٠]. أما "تريجر" فيؤكد وجود الحملة، لكنه يستبعد أن يكون قد ترتب عليها هيمنة مصرية دائمة على كوش، فمن الجائز أن سنوسرت الأول كان يفكر فعلاً في إخضاع كوش، لكنه لم يتمكن من تحقيق هذا[٣١]. غير أن الباحث يعتقد فعلاً بحدوث حملة كبرى على النوبة، ولكن لم يكن هدف سنوسرت الأول من هذه الحملة إخضاع كوش وإنما فتح الطرق وتأمينها لانسياب التجارة، وكذلك للتمهيد لمشروع بناء القلاع لتأمين الحدود الجنوبية لمصر.

بعد هذه الحملة انصرمت فترة تزيد على الثمانين عاماً لم تسجل النصوص المصرية احتكاكاً مع كوش، وتفسير ذلك ربما يُعزى إلى أن ملوك

مصر بعد سنوسرت الأول وجهوا جهودهم لتنفيذ مشروع تحصين النوبة السفلي بسلسلة من القلاع الضخمة ، والذي كان المحرك والدافع الأساسي له هو التحصن ضد قوة مملكة كوش المتنامية[٣٢].

من جانبها، استمرت كرمة في تطوير إمكانياتها، والآثار في مدينة كرمة تبين أن ظاهرة تحصين المدينة قد بدأت في مرحلة كرمة الوسيطة[٣٣] أي متزامنة مع فترة توتر العلاقات مع مصر ، لذلك يرى الباحث أن كرمة قد أخذت في الاستعداد تحسباً لهجوم متوقع من قبل ملوك الدولة الوسطى. ولا يعني توتر العلاقات بين كوش وبين مصر بالضرورة انقطاع كامل لكل أنواع التواصل بين الشعبين، بل ولا حتى بين الحكومتين ، فقد كان لمصر مصالح بالنوبة العليا ، وهى بالطبع مصالح اقتصادية تأتى في مقدمتها التجارة ، خصوصاً منتجات وسط أفريقيا ، مثل العاج والأبنوس والذهب ، والتي كانت مصر تحرص على استمرار تدفقها للأسواق المحلية. كانت هذه السلع تُصنع ثم يُعاد تصديرها لأقطار كثيرة في حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى القديم[٣٤].

وكانت التجارة فيها تدر على الحكومة المصرية دخلاً إضافياً ، فضلاً على السمعة والمكانة التي تكتسبها مصر من خلال امتلاكها لتلك البضاعة النادرة والمطلوبة عالمياً. فربما لكل هذه الاعتبارات حدثت انفراجه في العلاقات خلال عهدي أمنحمات الثاني وسنوسرت الثاني فلم ترصد سجلاتهما حملات أرسلت ضد كوش.

عاد سنوسرت الثالث من جديد لسياسة جده سنوسرت الأول في معاداة كوش ، بل إنه كان يفوقه في العزم والمضي في تنفيذ السياسات والقرارات ، فكانت أولى حملاته ضد كوش في السنة الثامنة من عهده ، وسجلها على إحدى لوحاته المتعلقة بحفر وتنظيف قناة في صخور الجندل الأول ، لتسهيل عبور السفن لهذه البقعة الصعبة من النيل ، ويفيد النص أن

الملك مر بهذه القناة عندما أبحر جنوبا لإخضاع كوش الخاسئة[٣٥]. وأسباب هذه الحملة غير معروفة ، فربما كما يذكر الدكتور عبد العزيز صالح كانت لتيسير انتقال أسطوله وجيشه ،وتيسير وصول الإمدادات إليه[٣٦]. وعلى كل حال، يبدو أن تلك الحملة لم تؤد الغرض المطلوب منها، لأن الملك قام بحملات أخرى ضد كوش في عامه الثاني عشر، وعامه السادس عشر، وكذلك التاسع عشر.

ودوافع هذه الحملة غير معروفة. فربما كان الغرض من ورائها هو مجرد الحصول على غنائم ، أو سبايا أم ربما كانت هناك دوافع أقوى كحدوث ضغوط من قبل كوش على مصر كما يعتقد "إيمري"[٣٧]. وأياً ما كان الأمر، فبعد رجوع حملة السنة الثامنة وفى نفس العام ، صدرت أوامر ملكية بإقامة حدود مصر الجنوبية في سمنة. وتم نصب لوحة تذكارية في الموقع وهي المعروفة بلوحة سمنة الأولى المعروضة بمتحف برلين تحت رقم ١١٥٧، ويقرأ فيها:

> "الحد الجنوبي أقيم في السنة الثامنة من عهد ملك مصر العليا والسفلي خع كاو رع، سنوسرت الثالث.لمنع أي نحسو من عبوره براً أو بحراً بالمراكب أو على ظهور الدواب، يستثنى فقط النحسو الذي أتى بغرض التجارة إلى "أيقن" (مرجيسا) أو الذي آتي في مهمة رسمية، هؤلاء تقدم إليهم معاملة حسنة ، لكن يمنع منعاً باتاً السماح على أي مركب من بلاد النحسو عبور سمنة في اتجاه الشمال[٣٨]".

أن سياسة تحديد حدود مصر الجنوبية في سمنة ، التي تقع على بعد حوالي ٦٠ كيلاً إلى جنوب وادي حلفا، جاءت واضحة وصريحة ، وحدث ذلك في أقوى عهود الأسرة الثانية عشرة عهد سنوسرت الثالث، بعد رجوع

حملة من كوش ، وتزامن الحدثين يدعو للشك في مهمة الحملة الأخيرة ، فهي لم تخرج على الأرجح لإخضاع كوش ، ولكن للتعرف على قـوة كـوش. فاختيرت سمنة لتكون الحد الجنوبي لميزاتها الدفاعية الطبيعية. ولـيس هنـاك أنسب من هذه المنطقة لإقامة الحدود المصراية ، فعندها يضيق مجرى النهر ممـا يسهل من عملية التحكم فيه بواسطة الوسائل الدفاعية التقليدية كالقلاع[٣٩].

بعد ذلك شرع سنوسرت الثالث في إكمال مشروع القلاع الـذي بدأه سنوسرت الأول ، فقام ببناء قلعتين على جانبي النـهر في سمنـة ، درج الآثاريون على تسميتها بسمنة شرق وسمنة غرب. ولم يحدث مصادفة ، وإنما جاء بعد استقراء حقيقي من قبل المصريين لقوة كوش.

وكما هو معروف ، فقد استمر إرسال الحملات كل أربع سـنوات تقريباً ، فأرسلت الحملة الثانية في السنة الثانية عشرة ، والثالثـة في الـسنة السادسة عشرة وفى هذه السنة الأخيرة أعلن الملك للمرة الثانية غالبـاً بعـد اكتمال بناء القلعتين أن حدود مصر الجنوبية تم إقامتها في سمنة[٤٠].

ورغم العداء واللهجة الشديدة في نـصوص لوحـة سمنـة ، إلا أن المصريين كانوا يتاجرون مع أهل الجنوب رغم المخاطرة التي تنطلـي عليهـا وذلك لأن طريق القوافل التجارية كان محفوفاً بالمخاطر والمـشاكل ، ولقـد أكدت الآثار المكتشفة مؤخراً وصول البضائع المصرية لكرمة. فقد تم العثـور على كميات كبيرة من الفخار المصري من فترة الدولة الوسطى في الجبانات الكرمية وهي من نوع الجرار الكبيرة التي تستعمل لشحن البضائع ، وقد تبين أنه يمثل الفخار المصري السائد آنذاك في كل من مـصر العليـا ، ومـصر السفلي[٤١]. أما التجارة الكوشية لمصر، فقد استمرت بنفس البضائع التقليدية التي عرفتها مصر منذ أيام الدولة القديمة ، والمتمثلة في المواد الخام من عـاج وأبنوس ، وذهب ، وريش نعام وغيرها.

بعد عهد سنوسرة الثالث وفى هذه الفترة تحديدًا بلغت كوش قمة قوتها السياسية والعسكرية، وانعكس هذا التطور في مد نفوذها ليشمل النوبة السفلى ، حتى إليفانتين في جنوب مصر، ولقد كشفت الحفائر في النوبة السفلى عن العديد من المواقع الكرمية المميزة بفخار كرمة الكلاسيكية في شلفاك، وبوهن، ودبيرة، وفرس، وتوماس، وصرة شرق[٤٢]. كانت معظم هذه المواقع جبانات وكانت أحجامها صغيرة بالمقارنة مع الجبانات الكرمية في كرمة وجزيرة صاي ، لوحظ كذلك أن معظمها يقع بالقرب من القلاع المصرية ، وأن بعضاً منها عليه آثار حريق وتخريب ، كما وجد بداخلها بقايا أثار للسكان الكرميين.

ووجود قرائن في قلعة بوهن تشير إلى أن الجنود الكرميين قد دخلوها عنوة واحتلوها. ولقد توصل "سميث" اعتماداً على دراسته لموقع بوهن إلى أن قلعة بوهن قد سقطت في أيدي الكوشيين حوالي سنة ١٦٨٠– ١٦٤٠ ق. م[٤٣]. وفى قلعة مرجيسا عثر "جون فيركوتير" على آثار كرمية مماثلة لتلك التي جاءت من بوهن ، وخلص إلى أن القلعة قد سقطت في أيدي الكرميين حوالي ١٦٥٠ – ١٥٨٠ ق.م[٤٤].

كان توسع كرمة نحو الشمال أمر طبيعي بعد سقوط الدولة الوسطى، بعد ذلك بدأ بعض الحكام المحليين في مصر اتخاذ ألقاب ملكية مما أضعف هيبة الحكومة المركزية خلال عصر الأسرة الثالثة عشرة ، فقد ظهرت أسماء بعضهم في بعض القلاع في النوبة السفلي، مما يشير إلى أنهم ربما تمتعوا بشيء من النفوذ هناك.

الاحتلال الكوشي للنوبة السفلي:

لا يوجد دليل على أن الملك الكوشي أو أي من أفراد أسرته قد انتقل للإقامة في النوبة السفلى ، فالمرجح أنه بعد اكتمال فتح الإقليم، رجع الملك

إلى كرمة ، وبقيت الحاميات العسكرية الكوشية وبعض الموظفين يمثلونه هناك، وربما قام هو بزيارات للإقليم من آن لآخر، وقد وضح من لوحات أُكتشفت في بوهن وأخرى في مصر ، أن مجموعات من الموظفين المصريين كانت تقيم في بوهن في ذلك الوقت ، ومنهم مثلاً الموظف "سبد-حور"، الذي قال إنـــه كان ضابطًا شجاعاً في بوهن ، وقد قام ببناء معبد للإله حورس ، هناك نـــال إعجاب ملك كوش[٤٥]. فيبدو أنه وغيره من الموظفين المصريين كانوا يعملون في خدمة ملك كوش (كرمة). ومنهم أيضاً صاحب اللوحة -خرطوم ١٨- واسمه "كا". فذكر: أنه كان خادماً شجاعاً لملك كوش. وقد عمل بإخلاص في خدمة الملك "ند - جح" ، وعاد بعد ذلك ســـليماً معافـــاً لأســـرته في بوهن[٤٦]. معنى ذلك أنه كان يقيم لفترة طويلة في العاصمة كرمة حيث يقيم الملك الكوشي ، ويبدو أنه كان ينحدر من أسرة عاشت لفترة طويلة في بوهن ، حيث تم العثور على لوحات مماثلة تخص والده "سوبك ام حب"[٤٧] وهناك لوحة حجرية لجندي يدعى "حا-عنخ -اف" الذي كتب فيه أنـــه عمـــل في كوش لمدة ست سنوات عاد بعدها إلى بلدته إدفو ، وبحوزته كمية من الذهب استثمرها في شراء بعض الأراضي[٤٨].

من هذا يبدو أنه فيما يتعلق بإقليم النوبة السفلي بصفة خاصـــة، أن ملك كوش قد اعتمد كثيراً على خبرة المصريين الذين كانوا موجودين أساساً في الإقليم ، وربما عاش أجدادهم فيه منذ أيام الوجود المصري في عصر الدولة الوسطى ، فرواية الجندي "حا-عنخ-اف"، تشير إلى أن هـــؤلاء الموظفـــون كانوا يحصلون على مرتبات مغرية من الحكومة الكوشية. من ناحية أخـــرى، ليس هناك ما يشير إلى أن أهل الإقليم الأصليين وهـــم أصـــحاب حـــضارة المجموعة "ج" ، قد عانوا أو اُضطهدوا نتيجة للتوسع الكوشي في بلادهم. بل على العكس من ذلك، فإن الآثار تدل على أن الإقليم شهد انتعاشاً اقتصادياً

كبيراً[٤٩]. وقد فسر "تريجر" وأخرون الزيادة الملحوظة في عدد القبور ، بأنها تدل على زيادة في عدد السكان ، وفسروا امتلاء المقابر بمختلف أنواع البضائع الكمالية المستوردة بأنها تعنى ارتفاع في مستوى دخول الأفراد[٥٠].

ومن ناحية ثالثة ، تشير المقابر "الناقوسية" التي بدأت تنتشر في النوبة السفلي في هذه الفترة إلى تنوع سكان المنطقة من كل القبائل والأجناس. وربما كان هذا مؤشراً حقيقياً على انتشار السلم والانتعاش الاقتصادي للإقليم. لقد عُرف أصحاب المقابر "الناقوسية" عبر التاريخ بتفوقهم في أعمال معينة، مثل الشرطة والعسكرية وقص الأثر والدراية بمسالك الصحراء الشرقية ومناجمها المختلفة[٥١]. لذلك لا يُستبعد أن يكون ملك كوش قد استعملهم في هذه المجالات وسمح لهم بالإقامة في أراضيه ؛ لأن فتح مناجم الذهب في الصحراء الشرقية واستغلالها يحتاج لهم ، وهو ما عاد على مملكة كوش بالخير العميم ، وربما تم هذا بالفعل لكن عدم استعمال الكرميين للكتابة حال دون تأكيد هذا.

العلاقات الكوشية المصرية في العصر المتوسط الثاني:

شهدت فترة العصر المتوسط الثاني في مصر تفكك السلطة المركزية القوية التي كانت من سمات الدولة الوسطى ، وقامت إثر ذلك الأسرة الثالثة عشرة التي تميزت بسرعة تعاقب الحكام ، فلم يمض قرن من الزمان، حتى ظهرت أسرة منافسة لها في غرب الدلتا وهى الأسرة الرابعة عشرة ومع نهاية تلك الأسرة وقعت شرق الدلتا في أيدي حكام الهكسوس ، الذين كونوا بعد ذلك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة.

إن الكيفية التي وصل بها الهكسوس للسلطة ،وتفاصيل كثيرة عنهم ما زالت موضوع جدل كبير بين علماء المصريات. وأيا ما كان الأمر، فقد توسع حكم الهكسوس، فامتد نفوذهم ليشمل مصر الوسطى بعد أن سقطت

في أيديهم مدينة اللشت عاصمة الدولة الوسطى، أما الأسرة الثالثة عشرة ، فقد استمرت تسيطر على الجنوب المصري وأعقبتها في نفس الجزء من مصر الأسرة السابعة عشرة التي اتخذت مدينة طيبة عاصمة لها(٥٢).

وبدأ أمراء هذه الأسرة يعملون بهمة لتخليص مصر من حكم الهكسوس ، واستطاعوا أن يطردوهم خارج البلاد. وتوحدت مصر عندئذ تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة ، أولى أسرات الدولة الحديثة. وعلى كل حال فلقد شاب موضوع العلاقات بين مصر وبين النوبة خلال معظم هذه الفترة غموض شديد ، بسبب شح المعلومات ، وندرة المصادر بخاصة المكتوبة منها(٥٣).

حيث أن الإشارة لكوش في النصوص المصرية لم تظهر إلا في كتابات من عهد الملك كاموس آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة ، أما في النوبة السفلي فقد انقطع أثر الملوك المصريين من النوبة السفلي ، منذ منتصف الأسرة الثالثة عشرة حتى عهد كاموس(٥٤) .

كوش ومصر العليا :

تشير المصادر المتوفرة بوجود علاقات قوية متينة بين المنطقتين. إن العثور على الفخار الكرمي في مواقع مصر الجنوبية(٥٥)، وعلى الفخار المنتج بمصر العليا في كرمة وبوهن وغيرها من مواقع يشير إلى استمرار العلاقات التجارية ، بل حتى "جانين بوريو" تزعم أن كل الفخار المصري الموجود في كرمة من أصل مصري جنوبي(٥٦). ولم تنحصر علاقة الشعبين في التجارة ، بل تعدتها إلى مراحل أعمق من ذلك بكثير، فلقد أظهرت حفائر "سميث" في بوهن وجود جاليات كبيرة من الرعايا المصريين في بوهن منذ نهاية الأسرة الثالثة عشرة ، وقد أوضحت كتاباتهم وشواهد قبورهم أن معظمهم قد أتوا

من مدن وقرى في جنوب مصر، وقد جاءوا تصحبهم أسرهم ، وعند وفاهم كانوا يدفنون في بوهن حسب تقاليد الدفن المصرية[٥٧].

بنفس القدر من الامتزاج الحضاري ، أظهرت حفائر أجريت في دير البلاص بالقرب من الأقصر وجود جالية كوشية تقيم هناك. ويشير إلى ذلك الكمية الكبيرة من الفخار الكرمي بأنواعه المختلفة الذي عثر عليه في الجبانات وفى داخل المنازل ، فيذكر "بيتر لاكوفارا" إن دير البلاص كانت مركزاً لتجمع قوات كاموس قبيل التحرك لمهاجمة المواقع الهكسوسية ، وان وجود هؤلاء الكوشيين في دير البلاص يؤكد ما ذهب إليه كثير من العلماء من اشتراك جنود كوشيين في جيش الملك كاموس أثناء حرب التحرير.

من ناحية أخرى ، كشفت الحفائر عن مدافن كرمية في أبيــدوس ، حيث عُثر على قبرين كرميين متجاورين ، وهو ما يشير إلى حريــة الحركــة والإقامة والدفن التي كانت مكفولة للكوشيين في جنوب مصر[٥٨].

ومما يدعو للدهشة حقا اكتشاف قبر لامرأة كوشية وابنها في الجبانة الملكية في منطقة ذراع أبو النجا في الأقصر يعود تاريخه للأسرة السابعة عشرة قبيل عهد كاموس ، فقد وُري الجسدان داخل تابوت من النــوع الفــاخر، وكانت السيدة تتجمل بحلي ذهبية فاخرة ، لكن ذويها لم يغفلوا أن يــدفنوا معها ستة من الكئوس الكرمية المميزة[٥٩].

من تكون هذه السيدة الكوشية؟ وما علاقتــها بالأســرة المــصرية المالكة؟! هل تمثل زيجه مصرية –كوشية أو أنها زوجة أحد كبار المــسئولين الكوشيين المقربين للأسرة المصرية المالكة ؟

كيفما كان الأمر ، فإن هذه الحالات التي سبق وأن ذكرها الباحــث من ابيدوس ودير البلاص ودراع أبو النجا، ما هي إلا نماذج قليلة من كثير لم

تكشف عنه أعمال الحفر والتنقيب بعد[٦٠] وتعكس بوضوح طبيعة العلاقات الحميمة التي كانت قائمة بين سكان مصر الجنوبية ،وبين جيرانهم في مملكة كوش.

وعلى الصعيد التجاري بين كوش وبين مصر العليا، فإن ما اكتشف حديثاً من أختام وطبعات أختام، والتي عثر عليها في القلاع المصرية في النوبة، ويرجع تاريخها للفترة الممتدة من الأسرة الثانية عشرة وحتى عصر الأسرة الثامنة عشرة وتنتمي لأنواع مختلفة وتتمثل في: أختام ملكية و أختام لمؤسسات أو لنظائرها المحلية وأختام لموظفي الخدمة المدنية وأختام خاصة، كما عثر أيضا ضمن الاكتشافات الحديثة في منطقة الجندل الثاني على أوراق من البردي ملتصقة بها طبعات الأختام ، فهذه المصادر تظهر الصلات المباشرة لكوش مع عاصمة مصر، وبصفة خاصة مع مكتب الوزير في طيبة، وأيضا الصلات بين المراكز النوبية فيما بينها. وظهرت أيضا طبعات تلك الأختام ملتصقة بقوائم أبواب المباني ، إما على البوابة الرئيسة للقلعة أو على أبواب المساكن الخاصة، كما أن غالبية طبعات الأختام التصقت بالحاويات الخشبية أو الجلدية وبالسلال ، مما يؤكد على حركة البضائع وعلى العلاقات التجارية بين المراكز النوبية المختلفة نفسها من جانب وبين العاصمة المصرية من جانب آخر[٦١] وأعمال التنقيب الجارية حالياً التي تقوم بها من جانب بعثة جامعة جنيف في كرمة ، نتج عنها اكتشاف أختام جديدة، والتي - بالإضافة إلى اكتشافات رايزنر- تسلط ضوءاً جديداً على العلاقات المتطورة بين البلدين.

كما إن معظم الأختام والطبعات الخاصة بها التي كشف عنها رايزنر أساسا في المخازن والهياكل في المنطقة المحيطة بالدفوفة الغربية ، أو في الجبانات المجاورة للهياكل K 11، وفي كومات المدافن K 18 و K 10 و K 4 و K 3 تؤرخ من حيث الأسلوب بالعصر المتوسط الثاني[٦٢].

أما الوثائق التي كشفت عنها بعثة جامعة جنيف فتأتى إما من منطقة الميناء النهري، وهي تؤرخ لعصر نهاية الدولة الوسطى والعصر المتوسط الثاني ، أو من المدينة والمباني والترسبات في الحفر من مرحلة كرمة الوسطى أو مرحلتها الكلاسيكية ، والتي يرجع تاريخها للأسرات من الثانية عشرة وحتى الأسرة الخامسة عشرة[٦٣]

وتنتمي تلك الأختام لنوعين رئيسين يتوافقان مع اصلين مختلفين تماما :

١. أختام محلية الصنع مصنوعة من العاج والعظم أو الصلصال وشكلها مسطح أو جعرانية الشكل، محفورة بأنماط زخرفية هندسية ، قائمة على المثلثات المحفورة ، وبما أن تلك الأختام يعود تاريخها إلى عصر كرمة الكلاسيكية ، أي العصر المتوسط الثاني، فإنها تدعم وجود إجراءات تسجيل[٦٤]، ولعل ما يعزز ذلك التأريخ هو العثور على نفس تلك الأختام وطبعاتها بمقابر حضارة المجموعة الثالثة C- GROUP بمنطقة الجندل الثاني[٦٥] .

٢. أختام مصرية الصنع ، متماثلة مع تلك التي تم الكشف عنها في المواقع النوبية ، والتي تؤرخ بالنصف الثاني من الدولة الوسطى وعليها ألقاب أو أسماء لبعض صغار الموظفين ، أو من ذوى المناصب العليا في الحكومة مثل نائب الملك أو المبعوث الملكي[٦٦].

٣. مجموعة ثالثة: يعود تاريخها للعصر المتوسط الثاني ، وتشتمل على أختام مغطاة بنقوش حيوانات أو طيور (مثل الأسد – الصقر) أو أشكال ملكية أو أيضا أسماء ملكية يعود تاريخها للأسرة الخامسة عشرة ، هؤلاء الملوك بالطبع هم الحكام الهكسوس في مصر[٦٧]. وطالما أن هذه الأختام مميزة كليا لكرمة ، فلقد تم التعرف على مثيلاتها في قلعة مرجيسا ، حيث عُثر على عشرين ختما من نوع كرمة التي يعود تاريخها للعصر المتوسط الثاني[٦٨].

ولقد قامت "برجيت جراسيا" بإعداد دراسة للأختام وبصماتها في كرمة، وفيها تخلص إلى أن تلك الأختام تعتبر بمثابة حقائق تسلط الضوء على العلاقة بين مصر وبين كوش بدءاً من سيطرة الجيش المصري خلال الأسرة الثانية عشرة على النوبة السفلي، وحتى نهاية العصر المتوسط الثاني وذلك في كلا الاتجاهين من مصر إلى كوش ومن كوش إلى الشمال أيضاً[٦٩].

فضلا على أن الحفائر الأخيرة تشير إلى الكثافة السكانية المرتفعة في المنطقة الواقعة للجنوب من كرمة ، إلى جانب أهمية الموارد الاقتصادية الكامنة وتنوعها في مملكة كوش بفضل التطور الملموس للزراعة و الرعي في المنطقة. كل هذا مضافاً إلى الموارد الناشئة عن الدور الذي قامت به كوش كوسيط بين مصر وبين أفريقيا ، فقد سارت عمليات التبادل الاقتصادي مع مصر على مدى فترة الدولة الوسطى كلها التي توازى فترة كرمة الوسيطة. أما خلال العصر المتوسط الثاني ، فيبدو أن الصلات الأقرب كانت مع ملوك الهكسوس لذلك فيمكن القول بأن السلع والثروات والمخازن وغيرها من الإمكانات التخزينية في القلاع المصرية وما يحيط بها لا تعتمد فحسب على كم البضائع المستوردة من مصر ، ولكن فرضت أيضا بفعل كثافة التبادل مع كوش.

وعلى الصعيد السياسي ، هناك بعض النصوص التي تعكس مدى العلاقات بين مصر وكوش على عهد الملك كاموس ، فاللوحة الأولى للملك كاموس، المعروفة بلوحة كارنارفون نسبة إلى مكتشفها اللورد كارنارفون عام ١٩٠٤. تتحدث هذه اللوحة عن توسع كوش حتى إليفانتين. وباختصار تذكر اجتماع عقده الملك كاموس مع مستشاريه عبر فيه عن عدم ارتياحه للأوضاع السائدة مع البلاد ، وبخاصة وجود ملكين قويين ، أحدهما في أواريس ، والآخر في كوش، كل واحد منهما يقتطع جزءاً من أرض

مصر[٧٠]. وقد صب كاموس حام غضبه على الهكسوس ، وأعلن عن رغبته لإنقاذ مصر منهم. ويرد على الملك أحد مستشاريه مؤكداً على صحة مقولة الملك بان ملك الهكسوس يسيطر على مصر من القوصية إلى الدلتا، وأن كاموس صار محصوراً بين القوصية وإلفانتين[٧١]. وفي نفس الاجتماع أعلن كاموس الحرب على الهكسوس. ثم تتحدث اللوحة عن إعداد الحملة وخروجها في غزوة لأحد المعاقل الهكسوسية.

هذه اللوحة تصور إذن الأحوال العامة في مصر وفى النوبة في بداية عهد كاموس ، وقد تغيرت تلك الأحوال بصورة سريعة وجذرية في السنوات التالية من عهد خليفته أحمس ، فلم يلبث كاموس أن وسع دائرة الحرب ضد الهكسوس لتشمل بقية معاقلهم ، ويبدو أنه قبل اتخاذ هذه الخطوة الهامة ، قرر أن يحمى ظهره بتأمين حدوده الجنوبية فأرسل حملة استولت على النوبة السفلي في المنطقة فيما بين إليفانتين وبوهن ، والدليل على إرسال حملة ضد بوهن ، نجده في لوحة أخرى تركها هذا الملك في بوهن يذكر فيه أعمالاً عمرانية وإصلاحات في قلعة بوهن تمت في السنة الثالثة من عهده. لكن "سميث" يرجح أن هذا الحدث تم في السنة الثانية. ويبدو هذا معقولاً لأن المرحلة المهمة من حروب كاموس مع الهكسوس وقعت في السنة الثالثة[٧٢].

ولذلك يُستبعد أن يكون قد خاض الحربين في ذات السنة. إن سقوط بوهن في أيدي المصريين من جديد، يشكل نقطة تحول في تاريخ علاقات مصر مع مملكة كوش ، حيث مكن سقوط هذه القلعة الحصينة المصريين من العودة للنوبة مرة أخرى بعد طرد الهكسوس ، ومن هناك أرسلوا الحملات ضد المدن الكوشية المختلفة في بداية الدولة الحديثة.

علاقة كوش " كرمة " بالهكسوس :

أشار الباحث في مكان متقدم إلى مسألة تأريخ الكومات الضخمة في كرمة وأوضح كيف أن تأريخها صار ممكناً اعتماداً على اكتشاف آثار من الفترة الهكسوسية، مثل الفخار والجعارين ، عثرت أيضاً بعثة "رايزنر" على عدد كبير من الآثار والأختام لبعض ملوك الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية وهم "يعقوب حر" و"شيشى"[٧٣]. هذه الأشياء قد تدل على وجود علاقة تجارية بين الهكسوس وبين مملكة كوش (كرمة) ، حيث أن الأختام كانت تُستعمل في غلق الحاويات المختلفة، مثل الجرار والسلال ذات الأحجام الكبيرة. لكن كما هو معروف إن أختام الملوك كانت تستعمل في مهر المكاتبات الرسمية ؛ وعليه ، فمن الجائز- وعلى حد قول "سيف-سودربرج"- أن الأختام الأصلية لهؤلاء الملوك، قد وصلت إلى كرمة مع رسائل رسمية إلى ملك كوش ثم أُستعملت بعد ذلك في الأغراض التجارية[٧٤]. إن العثور على رسالة الملك الهكسوسى أبوفيس المرسلة إلى ملك كوش المعاصر له يقوى من الاعتقاد بوجود مكاتبات مماثلة من العهود السابقة .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الاكتشافات الآثرية في مواقع الهكسوس في مصر، وخاصة موقع عاصمتهم في تل الضبعة (أواريس) لم تكشف عن وجود فخار أو اي اثر كرمى مميز هناك من عصر كرمة الكلاسيكية المعاصر لفترة وجود الهكسوس في مصر[٧٥]. ولكن هذا لا ينفى بالطبع وجود العلاقات التجارية لأن البضائع الكوشية المطلوبة في مصر لم تتضمن الفخار[٧٦]، بل تركزت في مجموعة معينة من السلع التي من العادة لا تحمل في حاويات فخارية، مثل سن الفيل ، الذهب ، خشب الآبنوس ، وريش النعام.

أما العلاقات الدبلوماسية مع الهكسوس ، فتعكسها تلك الرسالة التي بعث بها الملك الهكسوسى "أبوفيس" إلى ملك كوش الذي لم يذكر اسمه ،

والرسالة متضمنة في اللوحة الثانية للملك كاموس(٧٧). ولعل سبب وجودها هناك هو أن جواسيس الملك كامَوس كانوا قد ضبطوها مع مندوب الملك "أبوفيس" في طريق رحلته فيما بين الواحات إلى الجنوب ، أي الطريق بين الواحة الداخلة، الذي يستمر جنوباً حتى نهاية درب الأربعين عند كرمة" حيث يستطرد النص الخاص بالملك كاموس :

kfa.n.i wpwty.f Hrt wHAt Hr Xnty r

لقد قبضت على رسوله عند طريق الواحات(٧٨) الذي يؤدي إلى

k(A)S [79]Hr Sat

بلاد كوش ومعه رسالة

gm.n.i Hr s m-Dd m sS mi HqA n Hwt-wart

وجدتها كما يلي(٨٠) مكتوبة من حاكم أواريس

aA-wsr-ra sA-ra ippi Hr nD rt nt sA HqA n k(A)Si

عا-وسر-رع، ابن رع أبوفيس، تحياتي لابني، ملك كوش(٨١)

إذن الرسالة لم تصل وجهتها ،حيث تمت مصادرتها وتسليمها للملك كاموس ، خاصة وأن موضوعها كان في غاية الخطورة على الأمن المصري ، وينم موضوع الرسالة عن مؤامرة ضد كاموس خطط لها الملك "أبوفيس"، تقتضى أن يتعاون العاهلان الهكسوسى والكوشى للقضاء على دولة كاموس ، فتقول الرسالة :

in iw gmH.k irt.n kmt r.i



ألم تر ما فعلته مصر ضدي؟

HqA nty m-Xnw.s [82]kA-ms di anx Hr thm.i [83] Hr iTn.i

حاكمها هناك، كامس ، فليعط الحياة ، هاجمني في أرضي.

n pH.i sw mi- qd n irt n.f nb tr.k stp.f pA tAwy r iAd st

(وحتى الآن) لم أهاجمه بنفس الطريقة التي فعلها ضدك. لقد اختـــار هـــاتين البلدين ليهاجمهما

pAy.i tA Hna pAy.k xb.f ct ma ii xd m Aa[84]

أرضي وأرضك، ليدمرهما. فتعالي مبحراً شمالاً ولا تخف

mk sw aA ma.i nn nty aHa n.k [85]Hrtyw kmt

ولاحظ أنه هنا معي ولايوجد من يواجهك في مصر

mk nn di.i n.f wAt r sprt.k

وأعلم أنني لن أفسح له الطريق إلا بعد وصولك.

kA pcS.n nA n dmiw ntyw kmt

بعد ذلك، سنقسم المدن المصرية (بينـــ)نا.

wnn n tAwy.n nfr Xr rSwt [86]

وستغمر أرضينا الفرحة[٨٧].

كمـــــا أوضح لوح الكرنك أن الملك كاموس أرسل فرقًا من جيشه

عندما وصل إلى الإقليم السابع عشر من أقاليم مصر العليا ، فتوجه إلى الواحات البحرية للقضاء على الثوار والنص غير واضح حتى يمكن التأكد بأن الغرض من هذه الحملة هو منع اتصال فرق من الهكسوس بالفرق الكوشية(٨٨).

فربما أرسل "أبوفيس" رسلاً آخرين إلى ملك كوش ، لذلك فكان لزاماً على كاموس إرسال فرقاً من جيشه للواحات لمراقبة أية مراسلات بين "أبوفيس" وملك كوش. من ناحية أخرى ، يظهر في طلب أبوفيس التحالف العسكري مع كوش إعترافاً صريحاً من الملك الهكسوسى بمقدرات كوش وإمكاناتها العسكرية ، إن تنامي قوة كوش العسكرية ربما ظهر لجيرانها منذ أيام الدولة الوسطى ، حيث أن الخوف من الخطر الكوشى كان وراء بناء القلاع المصرية في منطقة النوبة السفلي ، على أيام سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث. لكن كما نعلم ،فان الرسالة لم تصل إلى ملك كوش ، ويصعب التكهن بما كان سيحدث لو أنها وصلت ، هل كان سيستجيب لطلب ابوفيس فى المقام الأول ؟! وإذا استجاب هل كان سيتحقق لهما النصر على كاموس ؟

لقد بات واضحاً من لوحة كارنافون أن كاموس قد استعد استعداداً كبيراً لحرب الهكسوس ، ورسالة "أبوفيس" لابن ملك كوش تظهر أن كاموس كان قد شن الحرب ضد كوش أيضاً ، وذلك حينما يذكر ملك الهكسوس : "وهو في ذات الوقت قد اعتدى عليك أنت". فربما قصد بهذا الاعتداء الحملة ضد بوهن في السنة الثانية من عهد كاموس ، والتي تزامنت مع لحظة وفاة الملك "ند-جح" واعتلاء ابنة العرش وفى مثل هذه الظروف عادة تكون الحكومات في حالة من الضعف حتى يستقر الوضع الجديد(٨٩). وهكذا يبدو أن كاموس استغل هذا الظرف الحرج، فأرسل حملة إلى بوهن نجم عنها وقوع المدينة في أيدي قواته ، الأمر الذي سيقلل من فرص نجاح زحف كوشى متوقع ضد مصر.

هوامش الفصل العاشر:

(١) زكريا رجب عبد المجيد، دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرسة فى النوبة وعلاقتها بمصر الفرعونية فى الفترة ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ ق . م، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٦م، ص ١٢٦ – ١٢٧.

(2) W. B. Emery, Egypt and Nubia, Lonodn, 1965, pp. 111 – 115.

(3) Ibid.

(4) Ibid, p. 111.

(5) B. Kemp in B. Trigger et al, Ancient Egypt, social History, Cambridge, 1983, p. 125.

(6) Ibid, p. 125.

(٧) زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق، ص ١٣٠.

(8) B. Trigger, Nubia under the pharaohs, London, 1976, p. 47.

(9) W. B. Emery, op – cit., p. 129.

(10) W.Y. Adams, Nubia Corrider to Africa, London, 1977, p. 143.

(11) B. Kemp, op – cit., p. 125.

(12) W. B. Emery and L. Kirewan, The Excavations and Survey between wadies sebua and Adindan, Cairo, 1935, p. 85.

(13) J. vercoutter, Excavation at Sai 1955 – 1957, A preliminary report, Kush 6, 1958, pp. 144 – 160.

(14) W.B. Emery, Egypt and Nubia, p. 129.

(15) B. Trigger, History and Setllement in Lower Nubia, New Haven 1965, p. 56.

(16) A.J. Arkell, The History of the Sudan, London, 1961, p. 4.

(١٧) زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق.

(18) B. Trigger, Nubia under the pharaohs, p. 56.

(١٩) زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق.

(٢٠) عن آراء العلماء حول مسألة تحديد موقع يام يمكن مراجعة دراسة زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق.

(21) T. Kendall, Kerra and the kingdom of kush washinton, 1997, p. 13.

(22) Conner, The Locations of Yam and Kush and Historical implications. J.A.R.C.E., 23, 1986, p. 48.

(23) Ibid.

(24) Ibid., p. 38.

(٢٥) زكريا رجب عبد المجيد : دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرمة في النوبة، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٦، ص ١٣٠.

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢٧) نفس المرجع السابق.

(28) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, New York 1906, p. 246.

(29) T. Säve-Söderbergh, Ägypten und Nubien, Lund 1941, p 72.

(30) W. B. Emry, op. cit., p. 142-143.

(31) B. Trigger, op. cit., p. 65- 66.

(32) W. B. Emery, Egypt in Nubia, London 1965, p. 152.

(33) Ch. Bonnet, Geneva 47, p. 58.

(34) T. Kendall, op. cit., p. 7.

(35) T. Säve-Söderbergh, op. cit., p. 89.

(٢٧) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، القاهرة ١٩٨١، ص ١٨٨.

(37)W. B. Emery, op. cit., p. 158.

(٢٩) زكريا رجب عبد المجيد، النفوذ الديني لمصر في بلاد النوبة عصر الدولة الحديثة، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٢٩ — ٣٠.

(39) R. A. Caminos, Semna .Kumma; I, The Temple of Semna, EES, London 1998. p. 3.

(40) H. A. Gardiner, Excavation of Semna and Urnarty, SNR 12, khartoum 1927,p.147.

(41) J. Bourriou, "Relations between Egypt and Kerma during The Middle and New Kingdoms", in : W. V. Daves, Egypt and Africa. Nubia from Prehistory to Islam, London 1991, p. 130.

(42) D. O'Conner, Ancient Nubia Egypt's Rival in Africa, Pennsylvania 1993, p. 41.

(43) H. S. Smith, The Fortress of Buhen : The Inscriptions, I, EES, London 1976, p. 77, 81.

(44) J. Vercoutter, Mirgissa, I, Paris 1970, p. 183-184.

(45) D. Valbelle, Histoire de L'Etat phronique, Paris 1997, p. 198 ; T. Säve-Söderbergh, "A Buhen Stela from the Second Intermediate Period", JEA 35 (1449), p. 55.

(46) Ibid., p. 53.

(47) H. S. Smith, op. cit., p. 84.

(48) B. Kemp, op. cit., p 162.

(49) W. B. Emery, op. cit., p 158- 159.

(50) B. Trigger, Nubia under The Pharaohs, London 1976, p. 98.

(51) W. Y. Adams, op. cit., p. 215.

(٤٣) محمد بيومي مهران، تاريخ السودان القديم، الإسكندرية ١٩٩٤، ص ٢٤٢.

(٤٤) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٤٥) زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق، ص ٣٥.

(55)B. Kemp, op. cit., p 165.
(56) J. Bourriou, op. cit., p. 130.
(57)H. S. Smith, op. cit., p. 79.
(58)B. Kemp, op. cit., p. 168.
(59) J. Bourriou, op. cit., p. 132 ; W. M. F. Petrie, Qurneh, London 1909, p. 6-10, pl. 22-24.

(٥١) لا يغفل الباحث أيضاً العثور على فخار لحضارة المجموعة الثالثة وأيضا كرمة في منطقة الكوم الأحم، حديث شفهي للباحث مع رينيه فريدمان رئيسة البعثة الإنجليزية في الكوم الأحمر.

(61) B. Gratien, "From Egypt to Kush, Administrative Practices and Movements of Goods between Egypt and Kush From Seals and Sailings During The Middle Kingdom and The Second Intermediate Period", in : T. Kendall, forthcoming.
(62) G. A. Reisner, Excavation at Kerma, HAS I, p. 265, II, p. 74.
(63) B. Gratien, "Empreintes de sceaux à Kerma : A précis sur l'adminstration de Kush au milieu de 2ème millénaire avant J.C .", Genava n .s 41, p. 27- 28.
(64) B. Gratien, in : T. Kendall, forthcoming.
(65) T. Säve-Söderbergh, Middle Nubian Sites, SJE 4, 2 (1989), pl. 45, p. 401.
(66) B Gratien, "Empreintes de Sceaux et administration à Kerma (Kerma classique)" Genava 39 (1991) ; cf. P. Ceretta, "Problemi cronologici e ipotesi di datazione degli scarabei e delle cretule rinvenuti à kerma", CRIPEL 17/3 (1998), p. 77.
(67) B. Gratien, in : T. Kendall, forthcoming.
(68) D. Dunham, Uronarti, Shalfak, Mirgissa, Second Cataract Forts, II, Boston 1967, p. 170-173.
(69) B. Gratien, in : T. Kendall, forthcoming.
(70) W. Y. Adams, The First Colonial Empire : Egypt in Nubia 3200 - 1200 B.C, in Comparative Study of Society and History, Kentucky University 1984, p. 54.
(71) Ibid.
(72) H. S. Smith, op. cit., p. 67.

(73) G. A. Reisner, Excavation at Kerma, HAS 6 (1923), p. 76 ; P. Ceretta, "The Geographic Distribution, Location and Dating of Kerma Urban Settlements and Cemeteries A Long the Nile", in : B. E. Barich, Dynamics of Populations Movements and Responses to Climatic Change in Africa, Rome 1997, p. 125.

(74) T. Säve-Söderbergh, "The Nubian Kingdom of The Second Intermediate Period", Kush 4 (1956), p. 59.

(75) J. Bourriou, op. cit., p. 130.

الجدير بالذكر ، أن البعثة النمساوية بتل الضبعة قد عثرت على بضعة قطع من الشقاف من طراز ما بعد كرمة الكلاسيكية المواكبة لبداية الأسرة الثامنة عشرة المصرية. الباحث حضر مناقشة شفهية بين أعضاء البعثة النمساوية في تل-الضبعة وعلى رأسهم مانفريد بيتاك وأعضاء البعثة السويسرية في كرمة وعلى رأسهم شارل بونييه خلال زيارة هؤلاء الأخارى لتل الضبعة ، حيث تعرفوا على هذه الشقاف، وعرفوا طرزها وتاريخها.(سيقوم بيتاك بنشر مقالة حول هذا الموضوع فى مؤتمر وارسو القادم٣٠/٨/٢٠٠٦)

(٦٧) في حديث شفهي للباحث مع صلاح الدين محمد احمد قال أن "شارل بونييه" أثناء اشتراكه في حفائرتل حبوة بشمال سيناء ، عثر على ثلاثة أكواب من الأكواب المميزة لحقبة كرمة الكلاسيكية.

(77) P. Ceretta, loc. cit.

(٦٩) ظهر تعبير طريق الواحات منذ نصوص الرحلات الاستكشافية لحكام أسوان خلال الأسرة السادسة، راجع :

Urk I, p. 105.

(٧٠) يلاحظ أن كلمة كوش قد كتبت بتهجئة مختلفة عن النصوص الأخرى حيث لم يكتب علامة حرف الألف وأضيفت علامة حرف i بعد حرف الشين.

(٥٦) تحتمل ترجمة m-Dd في هذا السياق معنى "كما يلي".

(٥٧) قد تترجم هذه الفقرة أيضاً " التحيات لابن حاكم كوش" وفى هذه الحالة قد يكون الخطاب موجهةً لابن حاكم كوش وليس لحاكم كوش نفسه. أما الترجمة الأولى "تحياتي لابني حاكم كوش" فتعنى أن ملك الهكسوس الأكبر سناً يخطاب قرينه الأصغر سناً بدلاً من استخدام التعبير الدبلوماسي المعروف منذ العصور القديمة في المخاطبات الملكية "أخي".

(٥٨) ضمير لاحق يعود على مصر فالمراد هنا هو حاضرة مصر بمعنى "طيبة"

(٥٩) جملة اسمية مبتدأها HqA وخبرها هو صيغة شبه الجملة Hr thm.i الحالة محل الخبر والمكونة من حرف الجر ثم المصدر.

(٦٠) كلمة جديدة على الطور الوسيط للغة المصرية ويمكن مقارنته بـ y راجع Wb I, 169.

(٦١) استخدم حرف الجر n محل حرف الجر r المعتاد استخدامه في هذا التعبير بمعنى "ضد".

(٦٢) مخصص كلمة rSwt كتب مختصراً بشكل يقربها من علامة حرف q .

(87) H. S. Smith, op cit, p. 61; P. Certta, op. cit., forthcoming.

(88) J. Yurco-Frank, loc. cit.

(89) P. Ceretta, loc. cit. ; J. Yurco-Frank, loc. cit.

الفصل الحادى عشر

علاقات مصر مع الشرق والغرب

علاقات مصر مع الشرق والغرب

شهدت أحداث التاريخ المصرى منذ نشأة الحضارة المصرية المبكـــرة عديداً من أوجه الاتصالات العسكرية منها والتجارية، كما تناقلت عبر معابر حدود مصر التأثيرات المصرية على الحضارات المجاورة لها، أو نقلت عنها مـــا يلائم ظروف حضارتها على أرض وادى النيل . وتعددت الأغراض والدوافع الكامنة وراء تلك الحركة النشيطة لعلاقات مصر الخارجية عبر التاريخ الفرعونى الطويل وأن كانت فى مجملها إما لأغراض دفاعية بقصد حماية حدود مصر من أخطار غزو أو تسلل هجرات بشرية إلى حدودها أو طمعا فى الحصول على موارد اقتصادية ضرورية وهامة للاقتصادى المصرى.

لذا ويتناول هذا الفصل بالمناقشة علاقات مصر الخارجية وتأثيراتهـــا الحضارية المتبادلة مع جيرانها الأسيويين إلى الشمال الشرقى من حدودها وتلك المحتملة مع الجزيرة العربية، وبلاد بونت (بونه) وأخيراً إلى الغرب منها ليبيا فى العصور السابقة لعصر الوحدة فيما عرف باسم عصور ما قبـــل الأســـرات وانتهاء بفترة عصر الانتقال الثانى.

- علاقات مصر الخارجية فى عصور قبل الأسرات .
- علاقات مصر الخارجية فى العصر العتيق .
- علاقات مصر الخارجية فى الدولة القديمة .
- علاقات مصر الخارجية فى عصر الانتقال الأول.
- علاقات مصر الخارجية فى عصر الدولة الوسطى.
- علاقات مصر الخارجية فى عصر الانتقال الثانى.

أولاً : علاقات مصر الخارجية فى عصور ما قبل الأسرات :

بالرغم من أن المصادر النصية معدومة خلال تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المصرى لعدم الإلمام بالكتابة – وهى العنصر الرئيسى فى التفرقة بين عصور ما قبل الأسرات والعصر التاريخى - فإن الدلائل الأثرية التى تخلفت عن المراكز الحضارية المصرية على طول وادى النيل كشفت عن بعض التأثيرات الحضارية المتبادلة بين حضارة وادى النيل وجيرانها وخاصة إلى الشمال الشرقى الأسيوى .

العلاقات المصرية الأسيوية فى عصور ما قبل الأسرات :

لم تكن عزلة مصر الجغرافية مانعة لها من الاتصالات بغيرها من بلدان الشرق القدم وخاصة بلاد ما بين النهرين (العراق القديم)، فلم تر مصر مانع من أن تنقل من حضارة بلاد الرافدين بعض مظاهرها وأن تقبلها وتستخدمها، كما اقبلت على اقتباس بعض مظاهر وموضوعات الفن السومرى وخاصة فى رسم الحيوانات[1]. إضافة إلى ذلك، يمكن القول بإن مظاهر البناء بالطوب واستخدام الأختام الأسطوانية تأثير سومرى على الحضارة المصرية، فعثر على أخشاب أسيوية بأثار حضارة العمرة مما يعكس صلات تجارية مع أهل المكان .

ولا شك أن عدم العثور على العديد من أثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد على الناحيتين الشرقية والغربية من مصر ومتصلة كذلك بالبحر المتوسط قد تسبب فى جهلنا بالكثير من ملامح الاتصالات الحضارية بين مصر وتلك الشعوب فى هذا العصر المبكر من الحضارة المصرية .

العلاقات المصرية الليبية فى عصور ما قبل الأسرات :

لعل أهم ما يواجه الباحث فى التاريخ العلاقات المصرية الليبية المبكرة هو قلة المصادر من جهة وكون ما هو متوافر منها عبارة عن مناظر عامة

لا تصحبها نصوص، فأشهرها مقبض سكين جبل العرقى (متحف اللوفر حاليا)، ولوحة الصيّد (صلاية صيد الأسود) ولوحة التحنو التى ربما تنسب إلى الملك العقرب[٢] .

ويرجح أن رسوم الرجال على مقبض سكين جبل العرقى وتسريحة شعرهم يماثل فى أوصافها العامة ملامح الليبين، فى حين أن لوحة صيد الأسود تتضمن رسومها أناس يحملون الريش فى شعورهم ويرتدون كيس العورة ولهم ذيول تتدلى من قمصانهم القصيرة التى تتشابه مع تلك الزعماء الليبين فيما بعد على مناظر معبد ساحورع من الأسرة الخامسة من الدولة القديمة، وهى علامات لأناس ليبين، أما لوحة التحنو فيتضمن مناظرها أربعة صفوف، الثلاثة الأولى للثيران والحمير والأغنام، أما الصف الرابع ففيه أشجار اعتبرها "نييوبرى" أشجار زيتون، وإلى جانب الشجر علامة التحنو (؟) وهى أقدم أشارة كتابية إلى الليبين أو التحنو أقدم العناصر اليبية التى عرفها المصريون[٣].

علاقات أخرى محتملة :

يرجح احتمالية وجود اتصالات مصرية خلال عصور ما قبل التاريخ مع قاطنى الجزيرة العربية، فتعكس الأثار المبكرة لإنسان ذلك الزمان عن حرية حركية فى التنقل والتجوال بين شطرى البحر الأحمر على شاطئيه الأفريقى والأسيوى عن طريق باب المندب جنوبًا. واحتمالية هجرات بشرية فى شمال الجزيرة العربية وفدت إلى مصر عبر سيناء مما يرجح معه وجود علاقات مبكرة بين مصر والجزيرة العربية فى ذلك الحين[٤] .

علاقات مصر الخارجية فى العصر العتيق :

بدأت مع معرفة المصريين باللغة المصرية، ومع لم شمل البلاد فى وحدة كاملة بين دلتا مصر وصعيدها تحت قيادة فرعون واحد وضع لبنات أسس الحضارة المصرية فى جميع أوجهها، والتى استمرت خلال الأسرتين الأولى والثانية فيما عرف باسم "العصر الثنى" نسبة إلى مدينة "ثنى" فى صعيد مصر

التى قدم منها الملوك الذين قاموا بجهود التوحيد، وفى تسمية أخرى العصر العتيق، وشهدت أحداث هذا العصر إضافة إلى جهود البناء والتعمير والزرعة جهوداً خارجية لمصر عكست حالة السيطرة الداخلية على مجريات الأمور مما مكنت لفراعنة مصر من قيامهم بنشاط خارجى فى أسيا والنوبة وفيما يبدو أيضاً ضد ليبيا .

العلاقات المصرية الأسيوية فى العصر العتيق :

تعددت الأشارات المبكرة إلى جهود عسكرية مصرية ضد السكان القاطنين إلى الشمال الشرقى من حدودها فى شبه جزيرة سيناء وفلسطين .

ويذكر لأحد ملوك الأسرة الأولى "دن (أوديمو)" حروبه ضد بدو شرقى مصر ومدونا انتصاره هذا على أهل الشرق لأول مرة(٥) . كما سجلت بطاقات من عهد ولده (عج إب) نشاطا مماثلا ضد قوم أطلق عليهم اسم الأونتيو ربما يعنى "أصحاب العمد" ويغلب الظن أنهم من الأقوام الشرقيين من بدو الصحراء الشرقية وبدو سيناء وما ورائها أيضاً، كما يشير نقش على قاعدة كل من تمثالى "خع سخم" فى متحفى القاهرة واكسفورد عن انتصاره على أعدائه وقتله عددًا من الأعداء الشماليين الذين ربما يكونون قد هجموا على الصعيد(٦) .

العلاقات المصرية الليبية فى العصر العتيق :

- فيما يبدو أنه على الحدود العربية المصرية وخاصة على حواف دلتا النيل تواجدات تجمعات ليبية بشرية أقامت لفترة فى تلك المنطقة باعتبارها أراضى صالحة للرعى، فحدث بعد ذلك أن تراجعت حركة تلك التجمعات الليبية خارج حدود وادى النيل ذاته، وأن ظلت احتمالات تأثيرات ليبية فى أسماء بعض المقاطعات المصرية أو أصول الهة كونية مثل حورس(٧)، هذا وقد عثر على أشارات لنشاط عسكرى من عهد حورعحا ضد الليبين(٨) .

العلاقات المصرية الأسيوية فى الدولة القديمة :

اتجهت مصر فى سياستها الخارجية الأسيوية أساساً اتجاهـا سـليماً للتبادل التجارى والانتفاع الاقتصادى[٩] وأن تخلل ذلك أحياناً توجيه جهود عسكرية بحملات تأديبية درًا لأخطار هجرات أو تسللات بشرية كما يستنتج من حملات "ونى" أو بإرسال حملات عسكرية لتأديب البدو الذين تـراودهم النية فى الأعتداء على بعثات الفرعون المتعددة فى منطقة مناجم سبه جزيـرة سيناء[١٠].

الجهود المصرية للسيطرة على بدو شبه جزيرة سيناء :

أرسل زوسر حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة سيناء الذين كـانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لاحضار الفيروز والنحاس من مناجم جبل مغارة، وبالمثل من عهد سانخت حيث تشير نقوشه إلى قيامه بإرسال حملتين عسكريتين إلى سيناء لجلب الفيروز . أما فى عهد "سخم خت" فكانت الجهود التأديبية بأشراف "أمير الجيش" وابـن الملـك (؟) نفـسه، فاستمرت الجهود من عهد سنفرو، والذى أشارت إليه النصوص المـصاحبة لصورته قابضاً على بدوى وقامعا أياه بعبارة "قامع الأراضى الـصحراوية"، وبالمثل تكررت الصورة فى عهد خوفو وخلال عصر الأسرة الخامسة خاصـة فى عهد "ساحورع" والذى تدعمه إشارة غير مباشرة إلى نـشاط عـسكرى مصور فى مقبرة "انتى" فى دشاشة بنى سويف والتى تظهر أطوار معركة بـين المصريين وسكان حصن أسيوى يدعى "نديا" . كما يظهر "بيبـى الأول" قامعا بدوياً آخر[١١] .

الجهود المصرية فى سوريا / فلسطين خلال الدولة القديمة :

تعددت الأشارات الملكية إلى نشاط عسكرى تجـارى بـين مـصر وجيرانها إلى الشمال الشرقى من حدودها فى فلسطين وسوريا .

فأرسل سنفرو كما نعرف من حجر بالرمو أسطولا بحريا مكونا من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب شجرة الأرز من جبال لبنان. وقد بقى كثير من تلك الأخشاب داخل هرمه القبلى فى دهشور، ومازالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة حتى الأن ومازالت تقوم بدورها فى تثبيت بعض الأحجار أو سندها فى أماكنها (١٢) .

كما كانت تجارة مصر الخارجية وبخاصة مع الشاطئ الفينيقى مزدهرة، ومن المرجح أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصرية للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية، فقام بها معبد مصرى على الأقل من عهد خوفو أضاف إليه من جاء من بعده وفقا لما عثر عليه من أحجار تحمل أسمائهم . ونعرف أيضاً من نقوش معبد ساحورع فى أبو صير إرساله أسطولاً إلى شواطئ فينيقيا حتى يمكن القول بأنه يعكس حملة عسكرية ناجحة أو بعثة تجارية عادت ضمن ما عادت به بأميره من أميرات تلك البلاد لتصبح زوجة من زوجات ساحورع(١٣) . وتشير مناظر معبد الشمس للملك نى وسرع فى أبو صير إلى حروب له فى سوريا، وأن كانت احتمالية نقل فنانية لمناظر حروب ساحورع المرسومة فى معبده. وعثر على تماثيل لبعض الأسرى الأجانب فى أعمال الحفر بموقع معبد هرم جد كارع اسيس بسقارة، كما أشارت مناظر الطريق الصاعد فى مجموعة أوناس الهرمية إلى بعض الأجانب الذين جاؤا إلى مصر وبعض الذين اضرت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعاً(١٤) . وتشير نصوص "ونى" إلى نشاط عسكرى مصرى مكثف ضد أسيا فى عصر الأسرة السادسة شارك فى أحداها كل من القوات البرية والبحرية ضد الأسيويين (١٥) .

كما تعكس المصادر الأخرى من مقابر الأفراد نشاطاً عسكرياً مصرياً ضد الأسويين ولعل أهم تلك المصادر ما ورد ضمن مناظر مقبرة "انتى" فى دشاشة ومقبرة "كا- م — حست" فى سقارة(١٦).

وتظهر مناظر مقبرة "انتى" من عهد ساحورع أو إلى أوائل عصر الأسرة السادسة أطوار معركة بين المصريين وسكان حصن اسيوى يدعى "نديا" حيث يوجد إلى أعلى بقايا أجزاء من صورة لأربعة من رماة السهام المصريين المتقدمين لمهاجمة الحصن إلى اليمين، وأسفل ذلك صفين من مناظر القتال بين المصريين المسلحين بفئوس القتال والأسيويين المسلحين بالهراوات[١٧]. ويجدر بالملاحظة صورة أحد الأسيويين يقوم بتكسير قوسه ومنظر اثنان من المصريين يقومان بثقب جدران الحصن المبنية بقرميد بخوابير مدببة من الخشب وأيضاً صورة الزعيم الأسيوى داخل الحصن يشد شعر رأسه، والأسرى الأسويين المربوطين بحبل ويقودهم المصريون [١٨] .

أما مناظر- مقبرة كام حسست فى سقارة والتى تعود إلى عصر الأسرة الخامسة أو الأسرة السادسة فتمثل الجنود المصريون يستولون على أحدى المدن الفلسطينية المحصنة ويحاولون تسلق أسوارها[١٩].

العلاقات المصرية الليبية فى الدولة القديمة :

نعرف من حجر بالرمو أن سنفرو قام بحملة ضد ليبيا عاد منها بأحد عشر الفا من الأسرى ومائة وواحد وثلاثون ألف رأس من الماشية[٢٠].

ويذهب البعض إلى القول بوجود دماء ليبية فى دماء الملكة "مرسعنخ" الثالثة التى توجد مقبرتها فى جبانة الجيزة حيث تصور مع والدتها بملابس مختلفة عن ملابس المصريات كما يختلف أيضاً لون شعرها إذ هو أشقر فيه شئ من الحمرة وعيونها ذات لون رمادى أو أزرق سماوى مماحدى ببوزنر إلى القول بوجود دم شمالى فيها واحتمالية انتسابها إلى قبائل التمحو الليبية وأن لم يظهر حتى الأن ما يؤيد هذا الرأى[٢١] .

نعرف من بقايا النقوش التى كانت تغطى معبد ساحورع والطريق الموصل بينهما كثيرا من نشاط هذا الملك وبخاصة فى ميدان الحرب حيث قام بصد غزو من ناحية حدود مصر الغربية عندما جاءت بعض القبائل الليبية

ومعها زعماؤها ونساؤهم وحيواناهم ليهاجموا الدلتا ويستقروا فى وادى النيل وتمكن ساحورع من الحاق هزيمة بهم [٢٢] . وتكررت جزئية من تلك المناظر الخاصة بالزعماء الليبين فى أثار ييبى الثانى من الأسرة السادسة حيث مثل المنظر بحرفيته أسماء الزعماء الليبين المقهورين وأسماء أولادهم وتكرر نفس هذا حوالى ٩٠ ق .م على نفس المنظر مكررًا [٢٣] ويرجع "اركل" أن الكثير من هذه المناظر تمثل حروب وانتصارات أصبحت لا تخرج عن مناظر تقليدية. ويحذر "دريوتون" أشد التحذير من تناول هذه المناظر والنقوش كوثائق تاريخية دون تمحص وتدقيق [٢٤] .

كما تشير مناظر معبد الشمس المشيد من " نى وسروع" فى منطقة أبو صير إلى قيامه بحروب ضد الليبين ولو أنه هناك بعض الشك فى قيامه بمثل تلك الحروب وأن الفنانين من عهده كانوا يقلدون مناظر معبد ساحورع المشيد على مقربة من معبده [٢٥] .

كما عكست نقوش "ونى" و"حرخرف" من كبار موظفى الأسرة الخامسة ملامح لعلاقات ليبية مصرية حيث أشار "ونى" إلى تجنيدة لليبين من بلاد التمحو ضمن مجموعات شعوبية أخرى من النوبة ليشاركوا فى جهود مصر العسكرية تحت أشرافه ضد البدو إلى الشمال الشرقى من مصر وفى سيناء وجنوب فلسطين فى حين أشار "حرخوف" إلى تقدمه إلى طريق التمحو عن طريق الواحات ودوره فى المصالحة بين حاكم البلاد والنوبيين[٢٦] .

العلاقات المصرية الأسيوية فى عصر الانتقال الأول :

تضمنت نصوص الأسرة السادسة (عهد ييبى الأول) دلائل مبكرة على هجرات وتسللات من البدو الأسيوية اخترقت الجزء الشرقى من دلتا نهر النيل أثناء الفترة التى عرفت اصطلاحًا باسم فترة الانتقال الأول حيث نصوص "ونى" السالف الإشارة إليه إلى قيامه بخمس رحلات أحداها عن طريق البر والبحر تكللت جميعها بالنجاح على حد قوله ضد تلك الهجرات البدوية

المتقطعة التى أسماها المصريون "عامو" بمعنى "بدو الرمال" أو "القبائل القواسة التى تعيش على الرمال"، والتى كانت فيما يبدو بداية للهجرات الأمورية القديمة التى هددت سبل التجارة بين مصر وجيرانها من جهة وحاولت نشر الاضطراب وعبور حدود مصر الشمالية الشرقية من جهة أخرى [٢٧] .

وهكذا تواجدات من البدو الأسيوية فى فترة الانتقال الأول على أرض الدلتا وخاصة فى الجزء الشرقى منها وقد تدعم ذلك بدلائل أثرية وأدبية .

وتشير الدلائل الأثرية على هذا الوجود الأسيوى فى ظهور نوع معروف من الأختام الخشنة الصناعة والنقش "هرمية الشكل" وتشبة الأزرار، وبالمثل ورود اسم الملك "تلولو" (أو ترورو) أحد ملوك عصر الانتقال الأول فى ارتباط مع لقب (سيد الشمال). إضافة إلى ذلك فإن النصوص الأدبية من عصر الانتقال الأول وردت بها أشارات عدة إلى تواجد الأسيويين بها[٢٨].

ويعكس نص "أيبوور" بصراحة إلى انقطاع حركة التجارة المصرية الخارجية لتفكك الدولة وانهيار سلطتها المركزية .

"ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل، فما الذى سوف نفعله أذن بخصوص أخشاب الأرز (التى اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا والزيوت التى يحنط الكبراء بها (وترد من) هناك، ومما يجاور كفيتو، ماعاد يأتى من ذلك شىء، وانعدم الذهب (من الخزائن) وقلت موارد كل الأعمال ... حتى أصبح مجئ أهل الواحات بمنتجاهم (البسيطة) شيئا ذا بال " [٢٩] .

وتصور النصوص المدونة على بردية موجودة حالياً بمتحف ليننجراد بالاتحاد السوفيتى ما قام به ملوك الأسرة العاشرة من دور فى تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية، وتخليص البلاد من حكم الأسيويين، وجهود الملك "خيتى" فى تأمين غرب الدلتا حتى شاطئ البحر استنادا على قدوم خشب الأرز عبره وخشب العرعر وأن كان ذلك يعتبر دليلا غير مباشر على تواجد الأسيويين فى شرق الدلتا — مما يوضح استمرار تعرض الدلتا وحدودها الشرقية لهجمات

أسيوية وبالتالى ضرورة الاهتمام بها وتنظيم نوع من التواجد العسكرى والبشرى يمتد من وادى الطميلات حتى القنطرة للتمكن من صد تسللات تلك القبائل الأسيوية، كما تشير إلى امتدا النفوذ الأهناسى حتى أبيدوس جنوباً وحتى الدلتا شمالاً وغرباً من جهة ومحاولة توسيع ذلك النفوذ شرقاً بطرد الأسيويين من جهة أخرى (٣٠) .

كما تصف بردية "نفررحو" ملامح لحالة مصر خلال فترة الانتقال الأول والخراب الذى تسبب فيه هؤلاء الأسيويين فى مصر وما حاق بالبلاد نتيجة لانهيار السلطة المركزية .

"ظهر الأعداءِ فى الشرق (حرفيا : الأسيويين على الأرض، تواجدوا فى الشرق)، واقتحم القبليون (الأسيويين) مصر (حرفيا : لقد نزل العامو إلى مصر).

"لقد أصبحت البلاد خرابا فلا يهتم بها ولا من يتكلم عنها ولا من يذوف الدمع، فأية حال تلك التى عليها البلاد " (٣١) .

وتبشر تلك البردية بظهور ملك من أهل الجنوب يدعى أمينى (امنمحات الأول) سوف يعيد للبلاد كرامتها ويدافع عن حدودها وأن الأسوار (الحصون) سوف تقام ضد الأسيويين من غزو مصر عنوة، وأنهم (الأسيويين) سوف يستجدون الماء من مصر ثانية (٣٢) .

العلاقات المصرية الليبية فى عصر الانتقال الأول :

أشارت النصوص الأدبية المعروفة باسم "تأملات أيبوور" ما آلت إليه أحوال البلاد فى عصر الاضمحلال الأول حيث يذكر أن النحاسيو والتمحو والمدجا الذين كانوا يعملون جد مخلصين فى جيش فرعون أصبحوا الأن ينهبون البلاد (٣٣) .

العلاقات المصرية الأسيوية فى عصر الدولة الوسطى :

خلت العلاقات المصرية بصفة عامة من نشاط حربى أو تأديـــــى فى أسيا اللهم الا أشارات عابرة فى بعض النصوص المصرية، وغلـــب النـــشاط التجارى والطابع السلمى على العلاقات المصرية مع جيرانها الشرقيين، وكثرة الأدلة على تواجد واستقرار الأسيويين بين المصريين وفى معابـــدهم وبيـــوتهم كخدم واماء وفى تشكل بعثاتهم التعدينية فى منطقة سيناء، وفى أوراق البردى فى كاهون ومناظر مقبرة "خنم حتب" فى بنى حسن وأخـــيرًا فى النـــصوص المعروفة باسم نصوص اللعنة (٣٤) .

ويمكن القول بصفة خاصة أن عصر الدولة الوسطى قلت فيه دوافـــع العمل العسكرى فمن عصر الأسرة الحادية عشر قام "نب حبـــت رع منتـــو حتب" بالعمل على إعادة تأمين طرق تجارة مصر والعمل على إعادة طـــرق البعثات التعدينية التى توقفت منذ أواخر الأسرة السادسة، وبالمثل تأديب بدو العامو والرنتو أذ يذكر "ختى" أحد موظفيه فى نصوص مقبرته بالدير البحرى: "لقد عاقبت الأسيويين فى واديهم لقد كان الخوف منه (الفرعون) هوالـــذى جعلهم يخشوننى كان نفوذه هو الذى جعلهم يرهبوننى (٣٥) .

كما تشير المناظر المصورة على مقصورة دنـــدرة، موجـــودة حاليـــاً بالمتحف المصرى (رقم ٤٦٠٦٨) إلى الملك "نب حبت رع منتوحتب" يقمع بدويا من العامو، ووصف فى تلك النقوش المدونة عليها على أنـــه "ضـــارب الأراضى الشرقية وصارع الأقاليم، وواطئ الصحراء، ومستعبد النوبيين والمجاى والواوات، والليبيين، والأسيويين" ويتضمن المنظر المصاحب للملـــك أعلـــى ذراعه الأيمن عبارة "قاهر الأراضى الصحراوية وعلى الحافـــة الـــيمنى مـــن المقصورة فى سطر عمودى" ... مع عامو الأراضى الصحراوية والبلاد الشرقية (أو : عامو الصحراوات الشرقية)، قاهر الأراضى الصحراوية" (٣٦) .

وتظهر رسوم "نب حبت رع منتوحتب" المصورة فى معبده الجنازى بالدير البحرى حروبه (اشتباكاته) ضد العامو والمنتيو والرنتو كحملة تأديبية ضد بدو أسيا لإعادة الأمن إلى حركة التجارة ويتضح صورة الفرعون قابضاً على أسير بدوى من شعر رأسه وبالمثل صورة الأسيويين بلحى مدببة منقوبة بسهام الملك أو مقتولين بفئوس قتال الجنود المصريين (٣٧) .

وبالمثل فإن منظر هيكل الجبلين الذى شيده (نب حتب منتوحتب) يظهر الملك يأسر بعض النوبيين والليبيين والأسيويين ويصف نفسه بأنه "يغلب على رؤساء القطرين ووحد الأمن فى الشمال والجنوب، وكذلك فى الصحراوات وفى البلدتين (أى العاصمتين)، وذلك بجوار منظر يظهره — فى صورة رمزية — منتصرًا على النوبيين والأسيويين والليبيين على التوالى، ويظهر الفرعون مرتديًا التاج الأبيض وممسكًا بالأسير من شعر رأسه(٣٨).

ولقد وجد دليل غير مباشر على نشاط امنمحات الأول لتطوير الجزء الشرقى فى الدلتا من جهة وتدعيم وتقوية حدودها الشرقة من جهة أخرى تمثل فى مصاحبة حاكم بنى حسن "خنم حتب الأول" له مع أسطول من عشرين سفينة مصعدًا فى النيل فى حملة ضد الجنوب ثم استدار إلى الشمال فى منطقة الدلتا وحدودها الشرقية لدفع الجماعات الصغيرة من القبائل الأسيوية أو بمعنى أكثر وضوحًا الفلول المتبقية من تواجدها أثناء فترة الانتقال الأول :

«لقد نزلت مع جلالته إلى "امت" (نيشه الحالية حوالى ٢٠كم شمال فاقوس باتجاه صان الحجر) فى عشرين سفينة من خشب الأرز، وعندئذ أتى إلى "سنو" (فيما يبدو الاسم القديم لبيلوزيوم على مصب الفرع الشرقى لنهر النيل)(٣٩).

وكان رسل مصر يسيرون جيئة وذهابًا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطئ السورى، ومن الشاطئ وداخل سورية كما عكست لنا نصوص قصة "سنوهى". ولقد كان يعيش فى كثير من مدن سورية جاليات

مصر لأجل التجارة وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك، وإن لم يوجد أى حاميات مصرية فى أى مكان[٤٠].

كما تشير نصوص حملة العام ٢٤ من عهد امنمحات الأول بإشراف "لومنتو" إلى وجود نشاط عسكرى فى آسيا، وبالمثل من عهد سنوسرت الأول يشير وزيره "منتوحتب" إلى قيامه بإخضاع الأسيويين، وإجباره لسكان الرمال على التزام السكينة والهدوء، مما يشير إلى قيامه بدور تأديبى ضد الأسيويين[٤١].

وفضل سنوسرت الثانى كأبيه حياة السلام ولا توجد نصوص تدل على قيامه بحروب ضد أى من آسيا أو النوبة، وقد أوضحت المناظر بمقبرة أحد الأفراد من عهده وهو "خنوم حتب" حاكم إقليم الوعل فى منطقة بنى حسن على وفود مجموعة من الكنعانيين بلغ عددهم سبعة وثلاثين فردًا بخصائصهم القومية تحت قيادة زعيمهم المدعو "ابشا" ربما من أجل غرض التبادل التجارى أو كهجرة سلمية فى مرحلة تجوال القبائل البدوية الأسيوية لتستقر فى مصر.

ووجدت إشارة غير مباشرة لنشاط عسكرى من عهد سنوسرت الثالث ضد مونتو فلسطين وفقًا لنصوص لوحة قائده المسمى "سبد حو"[٤٢].

العلاقات المصرية الليبية فى الدولة الوسطى :

تزايد الاهتمام بالحدود المصرية الغربية الليبية بالاهتمام والإشراف على الواحات المصرية ذاتها، وتشير الدلائل النصية المبكرة على ذلك الاهتمام حيث بدأ امنمحات الأول بإرسال الدوريات البوليسية للتفتيش على الطرق المؤدية للواحات لتأمينها، كما نعرف أن الواحات (الداخلة والخارجة على وجه الخصوص) كانتا شديدا الصلة.

ولقد اهتم امنمحات الأول بحدود مصر الغربية مثلها فى ذلك مثل ما فعل فى بناء حصون "حائط الأمير" على الحدود الشرقية، فقد شيد سلسلة

أخرى على حدود الدلتا الغربية ما زالت بقايا واحد منـــها قائمـــة فى وادى النطرون وكان داخله معبد له بوابة من الجرانيت نقش عليها اسمه[٤٣].

ولعل الإشارة فى نصوص بردية "تنبؤات نفررحو" التى أشـــير فيهـــا إلى أن امنمحات (أمينى) سيكون الملك المنتصر الذى "يقع الليبيون صـــرعى أمام لهيبه" ما يدعم وجهة النظر هذه من جهود لتأمين حدود مصر الفرعونية أمام تسللات الليبيين كما تشير نصوص قصة سنوهى إلى مهاجمة سنوســـرت الأول أثناء مشاركته الحكم بوالده امنمحات الأول لليبيين إلى الغـــرب مـــن حدود مصر[٤٤].

علاقات مصر مع آسيا خلال حكم الهكسوس :

لقد عثر على العديد من الجعارين الهكسوسية الطابع عليهـــا أسمـــاء موظفين مصريين فى منطقة فلسطين مما دعى جيفبون إلى افتراض وجود نوع من الإدارة المصرية على فلسطين فى ذلك الزمان[٤٥].

ولقد عثر أيضًا على مجموعة من الجعارين فى أريحا، تـــل العجـــول، لخيش، وفى منطقة مجدو[٤٦].

إضافة إلى ذلك فإن النمط الفخارى المعروف باسم نمط فخـــار تـــل اليهودية الأسود الشكل بخطوط بيضاء كان منتشرًا فى فلـــسطين، بيبلـــوس، ساحل سوريا، وبصفة خاصة فى رأس شعرة[٤٧].

كما أنه عثر على أدوات هكسوسية الطابع وبصفة خاصة الخنجـــر الذى يحمل خرطوش الملك أبو فيس "الأسيوى الطابع"[٤٨].

كما أن التحصينات فى شرق الدلتا الهكسوسية الطابع جعلت البعض يرى فيها تشابهًا مع تلك المعروفة من نمط تحصينات حضارة العصر البرونزى الوسيط فى دوريه الثانى والثالث من منطقة فلسطين، وترجيح وجـــود صـــلة حضارية بين الهكسوس وأهل المكان هناك[٤٩].

وقد دفعت تلك الآثار العديدة للهكسوس فى صنعتها وأصلها أو فى تواجدها خارج حدود مصر فى آسيا والنوبة إلى القول بوجود إمبراطورية ضخمة سادت سوريا وفلسطين ومصر ذاتها، وأنهم شادوا تحصينات عدة مثل ترقميش، غزة، وشاروهين (تل الفرمة حاليًا) على طول تلك الأماكن وأنها تتشابه مع تلك التى خلفها الهكسوس فى منطقة تل اليهودية، وإن كان الرأى السائد الآن يرى على العكس من ذلك فى أصول مصرية لهذه "التحصينات" الهكسوسية، وأنها ليست سوى أساسات معبد مصرى[٥٠].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن معرفة مصر لنمط التحصينات وتشييدها عكست آثار منطقة بوهن وما خلفته جهود مصر العسكرية بالمكان لتأديب سكان النوبة من عصر الأسرة الثانية عشر، كما أن أهل حضارة المكان فى فلسطين كانا على علم بالتحصينات وعكست الآثار العديدة الناتجة من حفائر عدة بفلسطين عن وجود التحصينات من حضارة العصر البرونزى الوسيط (MB) وبإطلاق نظرية وجود إمبراطورية مترامية الأطراف دعمتها جيوش جرارة للهكسوس بدأت فى الأعوام الأخيرة تتراجع باستمرار[٥١].

هوامش الفصل الحادى عشر :

(1) Trigger, The rise of Egypt Civilization, Ancient Egypt, pp. 37– 38.

(٢) فوزى جاد الله : مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت : ليبيا فى التاريخ، المؤتمر التاريخى، الجامعة الليبية، كلية الآداب، ١٩٨٦م، ص ٥١.

(٣) فوزى جاد الله : المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) فوزى جاد الله : نفس المرجع، ص ٥٢.

(٥) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٨٠.

(٦) أحمد فخرى : مصر الفرعونية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٨٥.

(٧) فوزى جاد الله : المرجع السابق، ص ٦٠ – ٦١.

(٨) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٧٨.

(٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق، ص ٨٢.

(10) Trigger, op. cit., p. 40.

(١١) علاء شاهين : شبه جزيرة سيناء "دراسة تاريخية وأثرية حتى نهاية الدولة الوسطى" رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٦٢ – ٢٦٥.

(١٢) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٣) أحمد فخرى : نفس المرجع، ص ١٠٨ – ١٢٠.

(14) Smith, The Art and architecture of Ancient Egypt, p. 133.

(١٥) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٨٦.

(16) Petrie, Deshashen (the Tomb of Ante), London, 1898, pp. 5 – 7.

(17) Engelbach, Ancient Egyptian Masonary, p. 38.

(18) Kees, H., Ancient Egypt, A Cultural Topography, Chicago, 1961, p. 111.

(19) Engelbach, op. cit., p. 9.

(٢٠) سيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية – دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٩١.

(٢١) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١١٦.

(22) Smith, op. cit., p. 133.

(٢٣) فوزى جاد الله : المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢٤) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١١٨.

(٢٥) أحمد فخرى : نفس المرجع، ص ١٢٧.

(٢٦) فوزى جاد الله : المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٧) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها، ص ٣٨٤ — ٣٨٥.

(٢٨) علاء شاهين : المرجع السابق، ص ٣٠٥ — ٣١٢.

(٢٩) سلمي حسن : الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٦٤.

(30) Hayes, W., The Middle Kingdom in Egypt, Cambridge, 1980, p. 465.

(٣١) علاء شاهين : المرجع السابق، ص ٢١٧ — ٢٢٠.

(٣٢) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٣٣) فوزى جاد الله : المرجع السابق، ص ٦٥.

(٣٤) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١٤٠.

(35) Gardiner, H., The Tomb of amuch traveled The ban officials, in : JEA 4, 1917, pp. 35 – 36.

(36) Daressy, M., "Chapelle de Mentohotep III at Denderach", in : ASAE 17, 1917, pp. 19.

(37) Kees, H., op. cit., p. 192.

(٣٨) علاء شاهين : المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(39) Ward, W., The Nomarch Khnum Hatep at Pelusieum" , in : JEA 55, 1969, p. 215.

(٤٠) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(٤١) علاء شاهين : المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(٤٢) علاء شاهين : نفس المرجع، ص ٢٧٩.

(٤٣) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٤٤) أحمد فخرى : نفس المرجع، ص ٢١٥.

(45) Giveon, Chronique d'Egypte, 1974, p. 222 – 223.

(46) Ibid, p. 224.

(47) Engberg, The Hyksos Reconsidered, SAOC 18, 1939, p. 18.

(48) Hayes, op. cit., p. 50.

(49) Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 161.

(50) Kemp, P. , op. cit., p. 156.

(51) O. Conner, D., op. cit., p. 10.

الفصل الثانى عشر

المظاهر الحضارية
فى الدولة القديمة والوسطى

المظاهر الحضارية فى الدولة القديمة والوسطى

الملك فى الدولة القديمة :

كان الملك فى عهد التأسيس وفى النصف الأول للدولة القديمة إلهًا وحاكمًا وسيدًا لشعبه. حتى دعوه بالإله العظيم، وكان شخصه الإلهى لا يمس ولا يقترب أحد منه، بل إن القوم اعتبروا اسمه مقدسًا لا يجوز ابتذاله أو النطق به، وإنما يكنى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديسًا واحترامًا، فكان يقال عنه "الإله" أو "جلالته" أو "حور الذى فى القصر"، أو يشيرون إلى القصر نفسه بدلاً من اسم الملك، فيقولون "البيت العظيم" أو "البيت الملكى" أو "المقام" أو "المكان المحروس" وكان يذيلون اسم الملك أو لقبه بالدعاء له "له الحياة والسعادة والصحة"، كما كانت هناك ثلاث صفات إلهية متصلة بالملكية وهى "حو" أى اللفظ ذو السلطة أو الأمر الخالق، و"سيا"، ومعناها الإدراك أو الفهم، و"ماعت" ومعناها العدل(١).

وتستمر هذه الهالة من القداسة والتألية، وبخاصة فى عهد الأسرة الرابعة، حيث نرى الملكية الإلهية فى قمة سطوتها، وعنفوان قوتها، فى تسلطها على شعبها، وإيمانها بنفسها، فضلاً عن إيمان شعبها بها، ولكننا فى نفس الوقت نكاد نحس بأن شيئًا ما سيحدث ليرقق من هالة التقديس، حيث نرى الملك "خفرع" يلقب نفسه بلقب "سارع" أى "ابن رع"،وأن كان هناك من يذهب إلى أن هذا اللقب إنما ظهر منذ أيام "خوفو"، بل من أيام "سنفرو"(٢).

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن الفرعون إنما كان يهدف من ذلك إلى مسايرة مذهب الشمس فى نشاطه الواضح خلال عهد هذه الأسرة، وهى مسايرة بدأها الملوك منذ عصر الأسرة الثانية، وفى أوائل الأسرة الثالثة، وربما سار عليها سنفرو، حين شاد معبد شعائره، ومعبد شعائر أبيه إلى

الشرق من هرميهما، بدلاً من ناحية الشمال، ثم استمر خوفو فى هذه المسايرة حين سمى بعض أبناءه بأسماء يتداخل فيها اسم رع، مثل جدف رع وباو اف رع وخفرع، وأما الهدف الثانى، فيما يرى يونكر، فهو رغبة الفرعون علـــى التدليل فى أنه يعتلى العرش بناء على بنوته للإله رع، وبتفويض منه، وربما عن رغبة منه كذلك فى أن يتبرك باسمه، وأن يكتب له دوام مثل دوامه، ولو خلال حياته الثانية،وكثيرًا ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الأمل الأخير لملوكها، وكانت تدعو لكل منهم قولها "عاش مثل رع، وإلى الأبد"(٣).

وفى عهد الملك "من كاورع" تبدأ سياسة جديدة يظهر فيها نوع من الميل نحو الانحراف فى صميم عقيدة الملكية الإلهية، ومن ثم فقد بدأ فرعـــون يسمح لأبناء المقربين من كبار الموظفين بتلقى تعليمهم مع أبنائـــه فى القـــصر الملكى، فهناك "بتاح شبسس" الذى تعلم مع الأطفال الملكيين فى القصر، وفى القاعات الخاصة، وفى الحريم الملكى وربما كانت رغبة الفرعون فى أن يـــشب هؤلاء الأطفال مخلصين للعرش، مؤمنين بتقاليده(٤)، ويستمر "شبسكاف" فى سياسة التقرب إلى رعاياه، بل ويخطو خطوة هى الأولى من نوعها فى تـــاريخ الفراعين، فيزوج ابنته "خع ماعت" من "بتاح شبسس"(٥) وفى هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد التى تؤمن بها الأسرة المالكة التى تعتقد فى ألوهيـــة ملوكها، فضلاً عن خطورته على العرش نفسه، والذى كان ينتقل عن طريق خط المرأة، فقد كانت الزوجة الكبرى للملك هى الوريثة التى يستطيع الملك الوصول إلى العرش عن طريق الزواج منها، ذلك لأن الملكة ملكة بحق المولد، بينما كان الملك ملكًا بحق الزواج(٦).

وتنتهى الأسرة الرابعة بنهاية لا نعرفها على وجه الـــيقين، ثم تـــأتى الأسرة الخامسة، وترجع حقها فى العرش إلى إرادة ربانية قديمة، وأصل مقدس، فتخرج على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للإله رع من صلبه، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين، ولعل قيـــام هـــذه

الأسرة بهذه الوسيلة، إنما كان ضربة للملكية الإلهية، إذ بدأت تفقد الكثير مما كان لها من قداسة، ولعل السبب أن هذه الأسرة إنما قامت أصلاً بدافع من كهانة عين شمس (أيون) ونفوذها، ومن هنا كان فراعين الأسرة الخامسة يدينون بالولاء لرع نفسه، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكهنة، ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضضوهم فى حكمهم، وكان لذلك أبعد الأثر فى قدسية الملوك ونجاح رع فى تحدى السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين[٧].

وهكذا أصبح الإله رع سيد البلاد بعد أن كان الفرعون سيدها، وأصبح لكهانته جزء غير قليل من ثروة البلاد عن طريق المعابد، بعد أن كان الفرعون يملك كل خيرات مصر، إذ سار ملوك الأسرة الخامسة على سنة إقامة المعابد الكثيرة لرع ولغيره من الآلهة، وإيقاف الأموال للصرف عليها، رغبة منهم فى ولاء كهانتها، فضلاً عن الظهور أمام الشعب بمظهر التقاة، هذا إلى جانب التودد إلى كبار رجال الدولة، حتى وصل البعض منهم إلى منصب الوزارة، والذى كان من قبل مقصورًا على الأمراء دون سواهم. حتى أنه لم يل الوزارة إبان عهد هذه الأسرة سوى اثنان من الأمراء، هما "سخم كارع" و"نفرسشم سشات"، هذا فضلاً عن السماح للكثيرون بمصاهرتهم، ومن ثم فقد تزوج البعض بأميرات من البيت المالك، بل إن واحدًا من الفراعين زوج إحدى الأميرات بقزم يدعى "سنب" كان يعمل فى بلاطه، أضف إلى ذلك كله أن الفراعين قد سمحوا لكثير من الأبناء الذين تربوا فى قصورهم بأن يرثوا مناصب آبائهم بعد موتهم، بل إن الفراعين إنما بدأوا يتراخون فى استعمال حقهم فى نقل حكام الأقاليم من إقليم إلى آخر، الأمر الذى يشير إلى مدى ما أصاب الملكية من تردد، وإلى إعطاء حكام الأقاليم سلطة فى أقاليمهم تنافس سلطة الملكية نفسها[٨].

وبدأت الأسرة السادسة بالملك "تتى" الذى يقرب إليه كهانة منف ويضفى على نفسه لقب "المحبوب من بتاح إله منف"، ربما لأنه اعتمد عليهم فى توليته العرش، ولكن سرعان ما يستطيع كهانة عين شمس من استعادة سلطانهم فى عهد "مرى ان رع" الذى يضيف اسم رع إلى ديباجة اسمه، وعلى أى حال، فلقد ازداد نفوذ الأمراء المحليين، وازداد أغداق المال على المعابد، وفقد ملوك الأسرة من وراء ذلك الكثير من المال والسلطان، فلجأوا إلى علاج ذلك بإعادة تربية أبناء الحكام فى قصورهم حتى يضمنوا ولاءهم حين يتولون حكم أقاليمهم، فضلاً عن إعادة منصب "حاكم الصعيد" الذى كان فى الأسرة الخامسة يوكل إليه جمع ضرائب الصعيد، والإشراف على حكمه، ولكنه الغى فى عهد "تتى"، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا، فقد أصبح الآن تشريفًا لحامله، أكثر منه لقب فعليًا، ومن ثم فقد اشترك فيه أكثر من واحد فى وقت واحد، كما فى حالتى حاكم القوصية وحاكم ادفو، ومع ذلك فقد رأى فيه حكام الأقاليم أضعافًا لنفوذهم، وربما عائقًا فى سبيل استقلالهم بأقاليمهم، فعملوا جاهدين على إلغائه إبان شيخوخة "بيى الثانى" الطويلة، التى ظهر فيها واضحًا ضعف سلطان فرعون(٩).

الملك فى عصر الانتقال الأول :

ظهرت اللامركزية فى أخريات أيام الدولة القديمة، فقللت من ألوهية الفرعون ورققت من هالة التقديس التى كان يحاط بها، أو يحيط بها نفسه، ومن هنا نراها تقلل من قدر الملك ومركزه، بينما هى فى الوقت نفسه ترفع من شأن النبلاء وحكام الأقاليم، وبذلك أصبحت فكرة المساواة مقبولة من الناحية النظرية، وهكذا لم يعد الملك ذلك الإله المترفع، والحاكم الجبار فوق البشر، والذى يرجو رعاياه عطفه ورضاه، لعلهم ينالون من وراء ذلك قربى ورحمه فى الدنيا والآخرى. وإنما أصبح شخصًا غير معصوم يتحدث عن ضعفه وعن خطاياه، كما يتحدث الآخرون من رعاياه، ويقدم لنا "خيتى" ملك اهناسية فى

وصيته المشهورة لولده "مرى كارع" صورة للاتجاه الجديد، الذى ساد هـذا العصر فى لغة ملؤها التواضع غير المألوف عند الفراعين، ففى حديثه عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة واهناسية على الأرض المقدسة فى أبيدوس، يحاول أن يبرر موقفه بأن انتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه، وأنه لم ينبأ بها إلا بعد وقوعها، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الآلهة، وفى نفس الوصية نجد نصًا تزداد أهميته لأن قائله فرعون مصر، الذى يعترف له شعبه، ولو نظريًا، بالألوهية الملكية، وهو أن سعادة الإنسان لا تتوقف على رضى الفرعون، وإنما على ما قدمه من خير فى الدنيا، ومن هنا فإن الحياة الطيبة الخيرة فى الدنيا هى عماد الحياة فى الآخرة «فالروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها»(١٠).

— وفى هذا العصر كذلك تجرأ شخص على التشهير بالفرعون، ففى "تحذيرات أيبو – ور" نرى الحكيم المصرى يتهم فرعون بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التى سادت البلاد، فرغم أنه قد أعطى الحكمة والسلطة، إلا أنه بقى فى قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الأحوال وفقد الناس الأمن والأمان، حتى إذا سار ثلاثة فى الطريق فلا يعود إلا اثنان، فالعدد الأكبر يقتل الذين أقل منهم عددًا، ثم يقص عليه بلايا الناس ثانية، ثم يبلغ به العنف أشده فيتمنى له أن يذوق البؤس بنفسه، وبيت القصيد فى هذه المناقشة أن مكانة فرعون لم تعد كما كانت، ففيها اتهام مرير من مصرى لفرعونه الإله بأنه سبب البلايا التى عمت البلاد، ثم التمنى له بأن ينال نصيبه منها، وحين يرد الفرعون على الاتهام بأنه حاول جهده أن يحمى شعبه، يتهمه محدثه بالجهل وعدم الكفاءة للمنصب الخطير(١١)، ولم يقتصر الحكيم المصرى على ذلك وإنما رسم لفرعونه صورة للملك الأمثل، إنه الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شرًا لرعيته، والذى يعمل جهده على جمع كلمتها وتوحيد صفوفها، إنه كالراعى يصرف يومه فى جمع قطعية بعضه إلى البعض الآخر(١٢).

الملك فى الدولة الوسطى :

ظل المصريون القدامى، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية، على مبادئهم القديمة، لم يفرطوا فى المبدأ الذى ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الإله، ولكن نظرتهم إليه قد تغيرت، فلم يعد للملك تلك الصفات التى كان يتمتع بها الفرعون إبان سطوة الملكية الإلهية، والتى كان فيها الملك أحكم الحكماء، وأقوى الأقوياء، وأعظم العظماء، وأنه لا يمكن أن يناله ضعف أو تمتد إليه يد البشر بسوء، وإنما أصبح يخشى ما يخشاه غيره من الناس، ويقدم لنا "امنمحات الاول" رأس الأسرة الثانية عشرة الدليل على ذلك حين يحكى لولده "سنوسرت" قصرة المؤامرة التى حيكت ضده، فيحذه من الناس لأن تجاربه الشخصية عرفته أن أقرب الناس إليه هم الذين غدروا به، وينصحه بأن يحافظ على نفسه بنفسه، وأنه قد هوجم فى مضجعه فى استراحة له بعد العشاء، مما يشير بوضوح إلى أن مكانة الملك قد تغيرت، وأن الملوك أنفسهم قد أحسوا بذلك، فلقد رأينا فى هذه القصة كيف أصبح الإله عرضة للقتل. بل إن البعض إنما يذهب إلى أنه قتل فعلاً، وكيف انهار، وكيف يعترف بأنه لا شجاع فى ظلمة الليل، حتى ولو كان هو الملك الإله، وكيف أصبح لا يجد من يثق فيه ويعتمد عليه فى الخطوب الجسام غير ولده ليحميه من أى شر يراد به بعد أن كان هو الذى يحمى نفسه وبيته وشعبه(١٣).

ولو نظرنا إلى الآثار لوجدنا اختلافًا واضحًا، فالأهرام التى شيدت لتكون مقرًا للملوك تعكس الفرق بين مكانتهم فى الدولة القديمة ومكانتهم فى الدولة الوسطى، فالاولى تمتاز بفخامتها وإتقانها المعجز فى هندستها، والدقة فى تخطيطها، فالهرم الأكبر مثلاً هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع، بنيت لتكون قبرًا لفرد واحد، كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا كلها، و لم يحدث قبل أيام خوفو أو بعده، أن يبنى الملك مثل هذا المستقر الأبدى الفخم، وأما مقابر الدولة الوسطى فمل تكن فى ضخامة وعظمة مقابر الدولة القديمة، كما

تعكس الأهرامات مكانة الملوك فى الدولتين، حتى أن المؤرخين قد اختلفوا فى قيمة الفن فى الدولتين، ومن ثم فإن "برستد" يرى أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بها الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة، وأما "هول" فالرأى عنده أن النقش البارز وتماثيل الملوك فى الدولة الوسطى تقدم لنا صورًا لقوى لم يستطع فنانو الأسرة الرابعة أن يقدموا على منافستها أو الوقوف أمامها[١٤].

ولكن للرجلين بعدا حقًا عن محجة الصواب، فليس الأمر أمر حيوية وفردية، ولكنه أبعد من ذلك كثيرًا، إن العصرين يختلفان فعلاً، إن فنان الأسرة الرابعة رسم ومثل ما يراه، وكذلك فعل فنان الدولة الوسطى، إن الأول رأى إلهًا يدرك قوته فى عنفوانها فاستشف ما وراء الصورة واستلهمه، فخرج تمثال خفرع المشهور فى جلالته وقدسيته، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلاً من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك الغضون تسرى فى أنحاء وجهه وجبهته، إنه رجل وليس إلهًا، إن فيه العواطف الإنسانية وفيه الضعف البشرى، ورسم الفنان ونحت ما رآه لم يحد عنه، والفنانان أتقنا عملهما من غير شك، وقدما الصورة التى كان يفترض من فنان مارس فنه دهرًا طويلاً أن يقدمها على وجهها الصحيح[١٥].

الألقاب الملكية :

كان من مستلزمات توطيد عقيدة ألوهية الملك أن يظهر عدد من الألقاب الرسمية لتوضيح تلك الفكرة، وكانت ألقاب الملك أو "اسمه العظيم"، على حد تعبير القوم، يتكون من خمسة ألقاب زيدت عليها منذ الدولة الوسطى كنايات خمس، وهى جميعًا توضح، بل تؤكد حق الملك الإلهى فى حكم جزأى مصر، كبلد واحد، وأما الألقاب الخمسة فهى :

أ- **اللقب الحورى**: وكان يكتب داخل إطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بما له من دخلات وخرجات، يعلوه صقر حور، إله الأسرات لكل مصر، والابن المنتقم لأوزير، رمز الملك الميت، ويؤكد هذا اللقب الحورى انتماء حامله إلى عالم الآلهة، إلى الإله حور، ويجعل منه وريثاً لحور، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته، ذلك لأن حور إنما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير، ثم ورثه الملك للفرعون[١٦].

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن "الصقر" إنما يشير إلى أنه الاسم الأبدى للملك،وليس اسمًا إقليميًا، بينمنا يذهب آخرون إلى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس على عرش مصر إنما هو ابن أويزر وخليفته، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن الصقر إنما هو إله مدينة نخن، ومن ثم فهو يشير إلى أن الملك إنما جاء من هذا الإقليم، أى من مدينة الصقر، عاصمة الصعيد، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد، وقيام أول ملكية فى التاريخ، وعلى أى حال، فهناك ما يشير إلى ظهور اللقب الحورى منذ أيام الملك العقرب (أى منذ ما قبيل التوحيد) وعلى أيام نعرمر، كما كان لهذا اللقب الأسبقية على كل الأسماء الأخرى عندما كان يذكر على الآثار[١٧].

ب- **اللقب النبتى** : كان اللقب النبتى (السيدتان) هو الذى يلى اللقب الحورى مباشرة على الآثار، ويمثل فى صورة رخمة تشير إلى الإلهة "نخبت" إلهة الصعيد، وحية ترمز إلى الإلهة "وادجيت" إلهة الدلتا، وكان يذكر فوق الاسم الثانى للملك، ويشير إلى القوة التى تربط الملكية المزدوجة بوادى النيل، فضلاً عن علاقة الملك بالإلهتين الرئيسيتين فى الصعيد والدلتا فيما قبل الوحدة، وأنهما قد اتحدتا فى شخص الملك الذى يمثل مكانتهما الدينية فى البلاد، وتقومان بحفظه[١٨].

ج- **اللقب النسوبيتى** : يدل هذا اللقب على أن الملك إنما ينتسب إلى نبات البوص أو الأسل، شعار مملكة الصعيد، وإلى النحلة، شعار مملكة الدلتا، ومن ثم فهو يمثل "ملك مصر العليا والسفلى"، وتذهب "باوبحارتل" إلى أن لقب "بيت" إنما كان يرتبط بالإله "مين"، وأنه قد أخذ عنه بعض صوره وألقابه، كذيل الثور، الذى كان يكون جزءًا هامًا من الزى الملكى وبعض ألقابه مثل الثور القوى، فضلاً عن لقبه "بيتى" هذا وقد ظهر لقب "نيسو - بيت" منذ أيام الملك "وديمو"، وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن مستعملاً من قبل[١٩].

وعلى أى حال، فإن الملوك عندما كانوا يستعملون اللقبين، النسبتى والنسوبيتى، إنما كانوا دائمًا وأبدًا يقدمون آلهة الصعيد وشعاره على آلهة الدلتا وشعارها، لأن ملوك التوحيد إنما كانوا من الصعيد، ومن ثم فقد جعلوا آلهة ملوكهم وشعارهم أولاً، ثم آلهة الدلتا وشعارها ثانيًا، بل حتى اللفظة الشائعة (نسو) عن الملك فى مصر الفرعونية إنما كانت شعار الصعيد، وليس الدلتا[٢٠].

د- **لقب حور الذهبى** : أو "حور الذى من ذهب"، وقد ترجم البعض هذه العبارة بمعنى الاسم الذهبى أو اسم الذهب، وما يزال معناها غامضًا، فقد تشير إلى انتصار حور على عدوه ست، وقد يشير استخدام علامة الذهب فى الألقاب الملكية لملوك الأسرات الأولى إلى تقديس الملك، وذلك بتجسيده لحور الذى لا يفقد لمعانه مثل الذهب، أو الذى يشع مثل الذهب، وعلى أى حال فاللقب إنما يعبر عن القوة العظيمة والمجد[٢١].

هـ- **ابن رع** : ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالإله رع، بل إنه إنما كان تصريحًا من الملك الفرعون ببنوته للإله رع، تلك البنوة التى أعلنها

الفراعين بصفة متقطعة منذ الأسرة الرابعة. وبصفة دائمة منذ عهد "نفر اير كارع" ثالث ملوك الأسرة الخامسة، بل إن اسم رع إنما دخل فى ألقاب الملوك منذ الأسرة الثانية مثل "رع نب" بمعنى رع الذهبى، وعلى أى حال فكثيرًا ما كانت تجيء بعد لقب "ابن رع" (سارع) صفة أخرى، وهى رب التجليات" أى الظهور الإلهى، أو رب التيجان، ثم يتلو ذلك خانة ملكية تحوى اسم الملك الذى عرف به منذ ولادته، وهو فى الغالب اسم عائلى، مثل أسماء الملوك الذين كانوا يسمون أمنمحات أو سنوسرت أو تحوتمس أو أمنحتب أو رعمسيس[٢٢].

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن كتاب الدولة الحديثة لم يروا فى تلك الألقاب الخمسة ما يكفى لإظهار الولاء والإخلاص للملك ومن ثم فقد أضافوا ألقابًا أخرى مثل الثور القوى ومحبوب آلهة الحق وحامى مصر وقاهر الشعوب الأجنبية وكثير الأعوام وكثير الانتصارات، رع القوى فى الحق، محبوب أمون رع رب الكرنك، الإله الطيب، الباشق الذهبى الجليل ... وهكذا[٢٣].

الفكر المصرى القديم :

مع بزوغ فجر الحضارة المصرية القديمة بزغ فجر الضمير معبرًا عن وجود الإنسان وعن حركته على سطح الأرض من أجل أن يضع قدميه على الدرج الأول من سلم الحضارة متجهًا فى خطين متوازيين، الخط المادى والمعنوى، مدركًا أنه لا يمكن لحضارة أن تبدع إلا بالبناء المادى والمعنوى، وأن التوازن بينهما أمر ضرورى لاستمرار الحياة واستمرار الإنجاز(٢٤).

وبمرور الوقوت أدرك الإنسان أن الضمير هو الحارس والضامن لاستمرار وخلود الإنسان، ومن ثم خلود إبداعاته متمثلة فى كل جوانب الحضارة ... وأدرك الإنسان أنه عندما يكون الضمير يقظًا وفعالاً يجىء البنيان على نفس المستوى، وعندما يسقط الضمير يسقط كل شىء، تنهار المبادئ والقيم والأخلاقيات وينهار البناء(٢٥).

كانت البداية عندما استوطن إنسان ما قبل التاريخ أو إنسان العصر الحجرى أرض مصر وترك شواهد وجوده فى المراحل الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ فى أماكن كثيرة فى دلتا مصر (فى مرمدة بنى سلامة بالخطاطبة وفى المعادى وحلوان بالقاهرة) وفى كفر حسن داود بالإسماعيلية وفى منشأة أبو عمر (فى الشرقية) وفى الفيوم بمصر الوسطى وفى البدارى ودير تاس (أسيوط) ونقادة (قنا) وغيرها فى مصر العليا، وأبرزت هذه الشواهد قدرته على البناء والتعمير والإبداع، وأبرزت على الجانب الآخر إيمانه بحياة ما بعد الموت أى بالبعث والخلود الأمر الذى كان لابد أن يعد له العدة فى دنياه ... فلا مجال لخلود إلا بالعمل الصالح الذى يعبر عن ضمير يقظ(٢٦).

وقبل أن يصل الإنسان إلى هذه المرحلة الحضارية كان قد مر عبر آلاف السنين بمرحلة تعرف بمرحلة جمع القوت وهى مرحلة كان شغل الإنسان الشاغل فيها البحث عن قوت يومه من خلال صيد برى أو نهرى أو نباتات يقتلع جذورها هنا وهناك(٢٧).

ولم يكن له من مأوى ثابت يأوى إليه أو من كساء يستر عورته وظل هكذا يهيم على وجهه فى الصحراء إلى أن نجح فى تحقيق طفرات ثلاث فى حياته هى : إيقاد النار ، واستئناس الحيوان ومعرفة الزراعة.

وبهذه الطفرات الثلاث جاءت النقلة الكبرى فى حياة الإنسان ... حياة الاستقرار والارتباط بالأرض وبالأسرة وبالمكان وبالمسكن.

هكذا انتقل الإنسان من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاجه، ثم أخذ بالتدريج يتخطى مرحلة الإشباع المادى إلى مرحلة الإشباع العقلى والفكرى والدينى والفنى[٢٨].

وفى إطار المنطق فى كل زمان ومكان لا نستطيع أن نتصور أن جائعًا سوف يكون مهيئًا لسماع الموسيقى ... ولهذا بدأ المصرى بعدما تحققت له الأولويات ... بدأ يفكر فيما يجرى من حوله فى الكون، فالشمس تشرق ثم تغرب ثم تشرق من جديد والقمر يولد كهلال ثم يتحول إلى قمر كامل يضىء الدنيا ثم يظلم ليولد من جديد، والنيل يفيض ثم يغيض ثم يفيض من جديد والنبات ينمو ثم يحصد ثم ينمو من جديد... ومن هنا جاء إيمان الإنسان بحياة ما بعد الموت ... وكانت الكلمتان السحريتان فى الفكر المصرى القديم هما البعث والخلود[٢٩].

ومن منطلق الإيمان بحياة ما بعد الموت كان الشغل الشاغل للإنسان فى حياته الأولى الإعداد لحياة ما بعد الموت ماديًا ومعنويًا وأخلاقيًا وروحيًا.. فالمقابر الفخمة الضخمة والمحصنة تحصينًا دقيقًا كانت للحفاظ على جسم المتوفى[٣٠].

ومارس المصرى التحنيط ليظل الجسد سليمًا حتى يمكن للروح أن تتعرف عليه عندما يحين موعد البعث.

لقد آمن المصرى بأن الروح (تتخذ شكل طائر برأس إنسان) سوف تنفصل عن جسد صاحبها عقب الوفاة وتتجه إلى الركن الشمالى من السماء،

وأن لكل إنسان قرين يعيش معه فى المقبرة يتلقى الغذاء والشراب الذى يضمن به لنفسه ولصاحبه استمرار الحياة،وفوق كل هذا كان على الإنسان أن يستلح نفسه بالضمير لأن الضمير هو القاضى والحارس لأخلاقيات الإنسان وهـــو ملاذ الإنسان للوصول إلى بر الأمان[٣١].

وكان الفكر الدينى المصرى واضحًا فى هذه القضية، فمنذ فجر التاريخ ولد الضمير الذى كان يبصر الإنسان بالخير الذى يجب أن يفعله وبالشر الذى يجب أن يتجنبه وأدرك الإنسان أن الضمير طريق السلامة وهو الطريـــق إلى حقول اليارو (الجنة)، ومنذ فجر التاريخ أصبح واضحًا لدى الإنسان أنه لابد أن يعيش عمره فى دنياه فى حماية ضمير يدفعه نحو التمسك بكل المبادئ والقيم والأخلاقيات والمثل مدركًا أنه لا إمكانية لبناء نفسه ومجتمعه إلا بالضمير .. بالوفاء بالصدق بالأمانة وبالورع وبالإيمان.. يعمل الخير ويحسن معاملة الناس، وكأن الضمير هو الوعاء الذى يتضمن كل ما هو خير وهو الخير الذى سيصل بصاحبه إلى عالم السلام النفسى والروحى عالم الأبدية[٣٢].

لقد أدرك المصرى أن بناء بلده لابد أن يتحرك فى خطين متـــوازيين، الخط المادى (بناء الدولة) والخط المعنوى (بناء الإنسان) الذى به تزدهر الدولة وتأمن، مدركًا أنه إذا شاعت الأخلاقيات والمبادئ استقر المجتمـــع وازدهـــر وحقق كل طموحاته.

فى ظل هذا التوجه آمن المصرى القديم بأنه لا مفر مـــن التمـــسك بالضمير فى دنياه لكى يعيش هانئًا ولكى يضمن كـــذلك ســـلام الجنـــة فى أخراه[٣٣].

ولهذا نراه فى كل ما سجل يعلى من شأن القيم ويحذر من الخـــروج عليها وينبه المنحرفين عن المبادئ والمثل بأن هناك القوى الحاكمة للكون والتى تكافئ الخير وتعاقب الشر، ولهذا بدأ المصرى وهو يتحسس طريقه على سطح الأرض فى إطار معتقدات دينية واضحة .. بدأ يضع الثوابت فى مجال القـــيم

والأخلاقيات والمثل والمبادئ .. قيم الخير، العدل، الاستقامة، الصدق، الوفاء، الأمانة، الإخلاص، التواضع، حسن الأداء فى العمل والحفاظ على المال العام، وغيرها، ويضع النقاط على الحروف[٣٤].

وفيما يتعلق بالآداب والسلوكيات، آداب الحديث والتعامل مع الرؤساء والمرءوسين، آداب التعامل مع الأب والأم، آداب المائدة وغيرها وسلوكياته فى الأسرة وفى العمل مع المجتمع، وهكذا أصبح واضحًا فى فكر المصرى أن هناك خيرًا وشرًا ومن ثم هناك الثواب والعقاب، وصور لنا الصراع بين الخير والشر وقد بدأ مع الآلهة كقصة الصراع بين أوزوريس (الخير) وست (الشر) وقد انتصر الأخير على أخيه الذى انتقل إلى العالم السفلى عالم الموتى ليتولى أمر إدارته وليستقر فى يقين الإنسان أنه سوف يضمن العدل عندما يموت وينتقل إلى عالم أوزوريس وسوف ينال محاكمة عادلة[٣٥].

واستكمل صورة مسيرة الدفاع عن الخير وكان له النصر فى النهاية ليتولى عرش الدنيا مؤكدًا لبنى الإنسان أن الخير لابد منتصر فى النهاية.

واتخذ المصرى القديم كافة السبل والوسائل لضمان خلود الجسد ولكنه أيقن أن الخلود سيكون أكثر ضمانًا للروح التى تضمن له مع القلب الطاهر النفس الأبدية التى لا موت بعدها.

وإدراكًا من الإنسان بأنه لابد من الدفاع عن نفسه أمام أوزوريس تأكيدًا لبراءته وأملاً فى نيل الأبدية.. حفلت كتب الموتى بما يسمى بالاعترافات الإنكارية .. والتى ينكر فيها المتوفى بكل الصلابة أنه لم يسرق ولم يظلم وهو ما يؤكد خوف الإنسان من أن ضميره قد غفل للحظة فارتكب ما يمكن أن يودى به إلى الفناء[٣٦].

وفى ظل هذا الفكر الدينى وهذه المعتقدات التى ترسخت بمرور الوقت كان لابد أن نتوقع حرص الإنسان فى دنايه من خلال ممارسته اليومية على التأكيد على الالتزام بالقيم والمثل والأخلاقيات وحسن السير والسلوك وعبر

عن ذلك حكماء مصر عبر العصور المختلفة فجاءت حكمهم ونـــصائحهم صادقة نقية طاهرة. بل وتباروا فى حث الناس عن التمسك بـــالقيم فى كـــل جوانب حياتهم[٣٧].

فها هو أحد الحكماء يعبرا فى وضوح عن قدرة الإله الخالق الذى بصر المخلوق بطريق الخير وطريق الشر وترك لضميره أمر اختيار أحدهما حين يقول إن الله قد عنى عناية فائقة برعيته فقد خلق السماوات والأرض من أجلـــهم وخفف الظمأ بالماء وخلق النبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم وهـــو كذلك الذى يعاقب المسيء وليعمل ما فيه صلاح نفسه وروحه[٣٨].

ونظرة على بعض القيم التى أرست دعائم الحضارة المصرية وكتبت لها الخلود نلمح الاهتمام بقيمة العدالة، فها هو حكيم يقول لابنه اعمل على نشر العدالة، إن الفضيلة التىي تحلى بها لابد أن لها قيمتها عنـــد الأب والخلـــق الحسن يبقى شيئًا مذكورًا، أن الرجل العادل سوف تنعم روحه باستمرار بقاء فضيلته على الأرض. إن الرجل الذى اتخذ العدالة معيارًا له وسار وفق إجادتها يكون ثابت المكانة.

أقم العدل لتنول مكانتك فوق الأرض..إن فضيلة الرجـــل المـــستقيم أحب عند الله من ثور يقدم قربانًا من الرجل الظالم.

وعن قيمة الصدق يقول الحكيم : إن الصدق جميل وقيمته خالدة ولا يتزحزح عن مكانه منذ بدء الخليقة وقد تذهب المصائب بالثروة لكن الصدق لا يذهب بل يمكث ويبقى ... والرجل المستقيم يقول عن الصدق إنه متـــاع والدى قد ورثته عنه[٣٩].

قل الصدق أماما لقاضى تنجو من عذاب الإله.

وعن عفة اللسان يقول الحكيم : احفظ لسانك سليمًا من الألفـــاظ النابية وبذلك ستصبح المفضل لدى الآخرين ستحترم فى شيخوختك وتوارى فى كفنك وستكون فى مأمن من بطش الآلهة، لا تخالط الرجل الأحمق واحفظ لسانك سليمًا عند محادثة رئيسك[٤٠].

لا تقولن لأحد السلام عليكم رياء عندما يكون فى باطنك حقد ولا تتكلم مع إنسان كاذب فذلك ما يمقته الإله.

وعن قيمة القناعة والابتعاد عن الجشع يقول الحكيم : لا تندفع بقلبك وراء الثروة ولا تجهد نفسك فى طلب المزيد لأن الثروة لو أتت لك عن طريق السرقة فإنها لا تمكث معك سواد الليل. لا تزحزحن من الحد الفاصل بين الحقول ولا تطمعن فى زرع أرض غيرك(٦١).

وعن قيمة الأمانة يقول : لا تتلاعبن بكفة الميزان ولا تطففن الموازين ولا تنقص من أجزاء مكاييل الغلال.

وعن قيمة احترام الناس يقول : لا تسخرن من أعمى ولا تهزأ من قزم ولا تفسدن قصد رجل أعرج.

وفى مجال احترام رؤساء فى العمل يقول الحكيم :

إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترامه حسب ما وصل إليه، التزم الصمت..وتحدث عندما يطلب منك الإدلاء برأيك(٤٢).

ويقول حكيم : لم أصوب عينى إلى رئيسى للحظات لمدة بل ألقى بوجهى إلى الأرض عندما يتحدث إلى أن المتواضع (يظل محبوبًا)، ومن يستقم فى معاملته يمدح والحذر فى كلامه يفسح له مكان رحب، والسكين يحد لمن يحيد عن الطريق المستقيم.

وفى إطار الحث على القناعة والتحذير من الشراهة يقول الحكيم : لا تكن شرهًا فى القسمة ولا تكن مارقًا فى الحق ولا تطمع فى مال أقاربك فإن القليل الذى يختلس يولد العداوة. إذا أردت أن يكون خلفك محمودًا، وأن تحرر نفسك من كل ما هو قبيح فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال والصداقة معها مستحيلة لأنها تجعل الصديق العذب مرًا وتفرق بين الزوج وزوجه، هى حزمة فيها كل أنواع الشر(٤٣).

وفى مجال آداب المائدة يقول الحكيم : إذا جلست مع أناس كثيرين لتناول الطعام، فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهيه، فإن ضبط النفس لا يكلف الإنسان أكثر من لحظة، وأنه لمن العار أن يكون الإنسان شرهًا... إذا حلت مع إنسان شره فلا تأكل إلا بعد أن يفرغ من وجبته وإذا جلست مع سكير فلا تأخذ من الشراب إلا بعد أن يشبع شهوته، لا تتكالبن على اللحم .. خذ حينما يقدم لك.

وفى إطار التأكيد على أن المواقع لا تصنع الإنسان وإنما هو الذى يصنعها يقول: إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنت صغير القدر وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجًا .. فلا تنسين كيف كان حالك فى الزمن الماضى وتتباهى بثروتك التى أتت إليك منحة من الإله. إنك لست أفضل من أقرانك الذين حل بهم الفقر، أشبع أصدقاءك بما جد لك إذ لا يوجد إنسان يعرف مصيره إذا فكر فى الغد .. عليك أن تستبقى ود الأصدقاء لوقت السخط الذى يهدد الإنسان ولكن سترى فيما بعد أنه حينما تسوء خطواتك فإن فضيلتك ستكون فوق أصدقائك[٤٤].

وينصح الحكيم بأن يتحرى الإنسان أخلاق أصدقائه فيقول : إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألن ولكن اقترب منه وكن مع وامتحن قلبه بالمحادثة، فإذا أنشأ شيئًا قد رآه أو أتى أمر يجعلك تخجل له واحذر عندئذ حتى من أن تحييه.

وينصح الحكيم "الحاكم" قائلاً له : إذا كنت حاكمًا فكن شفيقًا حينما تسمع كلام المتظلم ولا تسيء معاملته إنه لفضيلة للقلب أن يستمع مشفقًا.

ويوصى الزوج بحسن معاملة زوجته قائلاً: أشبع جوفها واستر ظهرها.. إن علاج أعضائها هو الدهان .. لجعل قلبها فرحًا ما دمت حيًا، فهى حقل مثمر لسيدها[٤٥].

ويحث الحكيم على البلاغة قائلاً : كن صانعًا للكلام لتكون قويًا أمام الناس لأن.قوة الإنسان هى اللسان والكلام أعظم خطرًا من كل حرب.

وعن آداب دخول بيوت الغير وعدم إفشاء أسرار الآخرين يقـــول : لا تدخلن فى بيت غيرك وتمعن النظر فى مقتنيات البيت ولا تجعل اللسان ينتقد ما تراه العين، الزم الصمت ولا تتحدثن عن الأسرار لآخر فى الخارج.

وعن آداب الصلاة والتقرب للآلهة يقول : إن بيت الله يمقت الهرج، فصلِ بقلب محب ولا تجهر بصلاتك وبذلك ستقضى كل حوائجك وسيسمع الله ما تقول ويتقبل قربانك[٤٦].

ويحذر الحكيم من المرأة الأجنبية قائلاً : خذ حذرك من المرأة الأجنبية تلك التى ليست معروفة فى بلدها إنها كالماء ال عميـــق الـــذى لا يعـــرف الرجل تياراته.

وعن سمعة الإنسان يقول الحكيم : «لا تدخلن وتخرجن فى المحكمـــة حتى لا تفوح رائحة المسك، ولا تتكلمن كثيرًا وكن صامتًا لتكون صعيدًا ولا تكن ثرثارًا»[٤٧].

ويحذر الحكيم من الابتعاد عن شرب الخمر قائلاً : لا تفاخر بأنـــك تستطيع أن تشرب إبريقًا من الجعة لأنه سوف يخرج من فمك كلام لا معنى له، وإذا ترنحت وسقطت وكسرت ساقك فإنك لن تجد أحدًا يمد يده إليـــك ليساعدك – أما رفاق الشراف فسيسخرون منك قائلين : أبعدوا هذا الأحمق، وعندما يجرى استجوابك فستكون طريح الثرى.

وفى مجال تذكير الإنسان بالموت يقول الحكـــيم : «أعـــد لنفـــسك مأوى جميلاً فى وادى الصحراء.. وسيأتى إليك المـــوت وسينـــصب نفـــسه أمامك، فلا تقولن : "إنى لا زلت صغيراً" لتختطفنى لأنك لا تعرف حتفـــك والمتوت يأتى ويختطف الطفل الذى لا يزال يرضع ثدى أمه، كمـــا يخطـــف الرجل المسن.

وعن التدقيق فى اختيار الأصدقاء يقول الحكيم : «لا تتخذ الرجل العدوانى صديقًا لك بل اصطف لنفسك صديقًا عادلاً ومستقيمًا»(٤٨).

وعن قيمة احترام الأكبر سنًا ومقامًا يقول الحكيم : «لا تقعدن إذا كان غيرك أكبر سنًا واقفًا، أو آخر أقدم منك فى مهنتك».

وعن الاهتمام بالعلم والتعليم يقول الحكيم : «إذا كنت ماهرًا فى الكتابة فإن الناس أجمع سيفعلون كل ما تقوله» احرص على اقتناء الكتب والاطلاع عليها.

وفى إطار التحذير من ذلة اللسان يقول الحكيم : إن الإنسان ينزل به الخراب من جراء ذلة لسانه وعلى الإنسان أن يختار خير الكلام ويتحدث به وأن يجعل الكلام القبيح حبيسًا فى بطنهَ(٤٩).

وفى إطار قيمة الوفاء للأم يقول الحكيم :

«ضاعف مقدار الخير الذى تعطيه لوالدتك واحملها كما حملتك، لقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات و لم تشمئز من برازك .. ولقد ألحقت بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة .. وعندما تصبح شابًا وتتخذ لنفسك زوجة اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك بكل الوسائل.

وفى حديثه عن الشفقة والرحمة يقول الحكيم : «لا تأكلن الخبز إذا كان هناك آخر يتألم من عدمه دون أن تمد يدك إليه بالخبز. فشخص غنى وآخر فقير ومن كان غنيًا فى السنين الماضية قد يصبح فقير هذا العام»(٥٠).

وفى إطار حديثه عن الشغب وضرورة تجنبه يقول الحكيم:«لا تتدخلن فى زحام إذا رأيت أنهم مستعدون للضرب حتى لا تسلام فى المحكمة أمام القضاة.. ابتعد عن أهل الشر».

وعن سلوك الزوج قبل زوجته يقول الحكيم : «لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك فى بيتها إذا كنت تعرف أنها ماهرة فى عملها .. واجعل عينك

تلاحظ فى صمت حتى يمكنك أن تعرف أعمالها الحسنة وستكون سعيدة إذا كانت يدك معها[٥١].

وعن العلاقة بين التلميذ وأستاذه يقول الحكيم : أسلم أذنيك واستمع إلى ما يقال لك .. واستوعبه فى قلبك وعقلك .. وقدر ما يقوله لك معلمك واحمد الله أنه يبذل كل الجهد لكى يعلمك.

وعن الرحمة والتضامن وحسن المعاملة يقول الحكيم:«احذر أن تسلب فقيرًا بائسًا وأن تكون شجاعًا أمام رجل مهيض الجناح وألا تجعلن نفسك رسولاً فى مهمة ضارة[٥٢].

وعن فضيلة الحكمة والتأنى والتسامح فى المناقشة يقول الحكيم : «لا تشتبكن فى جدال مع أحمق وأعرض عمن يهاجم وانسحب من أمامه فى ساعة غضبه. فالرجل الأحمق مثل الشجرة نضارتها ويكون مصيرها فى مرفأ الأخشاب التى تأكلها النيران، أما الحكيم فهو كشجرة باسقة فى حديقة يانعة كثيرة الثمار وفيرة الظلال وتظل باقية فى الحديقة.

عن الحرص على المال العام يقول الحكيم: «لا تسىء استخدام أنصبة المعبد ولا تظهر جشعًا عندما تجد الخير العميم ولا تعزلن كاهنًا لصالح كاهن آخر فإن الغد يأتى ويروح ولا دوام لأحد فى موقعه»[٥٣].

وعن الاندفاع وراء جمع المزيد من المال يقول الحكيم : «لا تفرحن بثروة أتت عن طريق السرقة لأنك لن تجدها فى بيتك عند مطلع الفجر وربما قد فغرت الأرض فاها فابتلعتها.. ولا تشك من الفقر.. إن قارب الشر يغوص فى الطين وقارب الرجل الطيب يقلع مع النسيم.

وعن قيمة الإخلاص يقول الحكيم : «لا تفصلن قلبك عن لسانك حتى تكون كل طرقك ناجحة، وكن ثابتًا أمام غيرك من الناس لأن الإنسان مأمن فى يد الله، إن الممقوت من الله من يزور فى كلامه لأن أكبر شىء يكرهه هو النفاق[٥٤].

وعن الجشع فى متاع التابع يقول الحكيم : «لا تطمعن فى متاع تابع، ولا تتطلعن لخبزه. ويقول نفس الشيء عن متاع الشريف : «لا تطمعن فى متاع شريف ولا تعطين مقدارًا عظيمًا من غذاء الخبز تبذيرًا، وإذا نصَّبك على إدارة أعماله فابتعد عما يخصه حتى يثمر ما تمتلكه»(٥٥).

وعن أمانة الكلمة يقول الحكيم:«لا تضرن رجلاً بجرة قلم على بردية لأن ذلك يمقته الإله ولا تشهدن كذبًا، ولا تستعملن قلمك فى الباطل».

وعن التكافل مع الغير يقول الحكيم : «إذا وجدت فقيرًا عليه دين كبير فقسمه ثلاثة أقسام وسامحه فى اثنتين وإبق واحدًا، وستجد نفسك تنام فى الليل نومًا عميقًا، وفى اليوم التالى ستجد أن ما فعلته من خير يجرى على لسان الناس .. خير للإنسان مدح الناس وحبهم له من الثراء فى المخازن، وخير للإنسان أكل الخبز مع قلب سعيد من الثراء مع التعاسة(٥٦).

وعن تجنب الهموم والتشاؤم فيقول الحكيم: «لا ترقد فى الليل متخوفًا من الغد إذ لا يعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد».

وعن الشهادة فى المحكمة يقول الحكيم: «لا تزيف كلماتك فى المحكمة ولا تتردد فى جوابك، قل الصدق أمام القاضى»(٥٧).

وعن الأمانة فى العمل قال الحكيم : «لا تقبلن هدية رجل قوى ولا تظلمن الضعيف من أجله، لا تؤلفن لنفسك وثائق مزيفة، لا تزيفن فى أوراق لأنك بذلك تحاول إفساد رغبة الإله».

ولعلنا نختم بقول الحكيم : إن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى عند مقاضاته.. ولا تضمن ثقتك فى طول العمر لأنهم (القضاة) ينظرون إلى فترة الحياة وكأنه ساعة واحدة .. ولكن الإنسان يبعث ثانية بعد الموت وتوضع أعماله بجانبه كالجبال لأن الخلود مثواه هناك فى الآخرة .. إن الإنسان الذى يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة سيثاب هناك ويمشى مرحًا مثل الأرباب الخالدين(٥٨).

هكذا بزغ فجر الحضارة والتقدم على أرض مصر وبزغ معها فجر الضمير .. وكان ضمير الإنسان فى حياته الأولى هو الرقيب على كل ما يفعل آملاً أن يصل بضميره هذا الذى عبَّرت عن يقظته ونقائه كل قيم ومبادئ ومثل وأخلاقيات المجتمع المصرى القديم .. وأن يصل بهذه الأعمال إلى عالم الخلود الذى سوف لا ينفع فيه فى كل زمان ومكان مع كل الأديان والعقائد إلا العمل الصالح والضمير الطاهر(٥٩).

الكتب الدينية

هى مجموعة من النصوص الدينية التى تعبر عن تصور المصريين لحياة الموتى فى العالم الآخر. وتضم مجموعة من التعاويذ التى تتلى عند تجهيز الجسد للدفن وعند إطعام المتوفى وتقديم القرابين له بالإضافة إلى تعاويذ حمايته من كل الشرور المتوقعة فى العالم الآخر، وتميزت الدولة القديمة بنصوص الأهرام، كما تميزت الدولة الوسطى بنصوص التوابيت(٦٠).

أولاً : نصوص الأهرام :

وهى أقدم هذه الكتب الدينية التى تعرف بـ نصوص الأهرام والتى سجلت لأول مرة على الجدران الداخلية لغرف وممرات هرم الملك أوناس فى سقارة ثم استمرت تسجل داخل أهرامات ملوك الأسرة السادسة وزوجاهم فى سقارة القبلية.

ولا يعنى تسجيل هذه النصوص لأول مرة فى هرم أوناس أنها تمثل نتاج الفكر الدينى فى عهده، ولكنها تمثل فى الواقع نتاج الفكر الدينى للإنسان المصرى منذ أقدم العصور وإن سجلها لأول مرة فى عهد الملك أوناس(٦١).

وابتداء من الدولة الوسطى انتقلت هذه النصوص مع بعض التطوير إلى السطوح الداخلية للتوابيت وأصبحت تعرف باسم "نصوص التوابيت".

ومنذ الدولة الحديثة أصبحت هذه النصوص الدينية تسجل على جدران مقابر الملوك والملكات وبعض الأفراد، وتسجل كذلك على لفائف البردى وأصبحت تعرف باسم "كتب الموتى" وكتاب ما فى العالم الآخر وكتاب البوابات ... إلخ، وتعد نصوص الأهرام – باعتبارها الأقدم – هى الأكثر تعبيرًا عن أصالة الفكر الدينى المصرى(٦٢).

والواضح أن نصوص الأهرام لا تتسم بالتجانس بل إنها تمثل أفكارًا ورؤى متناقضة فى بعض الأحيان وتعبر عن أزمنة سحيقة وصادرة من أماكن مختلفة ولا تخص الملك المتوفى فقط وإنما تشير أحيانًا إلى الملك الحى. كما أنها

تختلف فى تفاصيلها من هرم لآخر.فعلى سبيل المثال فإن بعض التعاويذ الواردة فى نصوص هرم أوناس لم ترد فى أهرامات ملوك الأسرة السادسة وزوجاتهم الأمر الذى يعبر عن تطور فى الفكر الدينى المصرى(٦٣).

اكتشف العالم الفرنسى ماسبيرو هذه النصوص ما بين عامى ١٨١٠ - ١٨٨٠ فى أهرامات أوناس - بيبى الأول، مرى - إن - رع وبيبى الثانى.

وتنوعت نصوص الأهرام ما بين نصوص درامية وسحرية وأناشيد وصلوات وتعاويذ ونصوص وطقوس القرابين وغيرها(٦٤).

وتلقى نصوص الأهرام - التى تهدف بالدرجة الأولى إلى حماية المتوفى مما يواجهه من شرور فى العالم الآخر - تلقى الضوء على تكوين العالم الآخر وكيفية وصول المتوفى إليه ويتضح فيها تأثير العقائد المختلفة التى ظهرت على ساحة الديانة المصرية القديمة مثل مذهب هليوبوليس والذى يجعل من الإله رع محورًا لهذا العالم الآخر والذى اعتبره هذا المذهب فى السماء(٦٥).

ويصور كيف يلتقى المتوفى بالتاسوع ويصبح مقدسًا مثلهم ويصعد إلى مركب الشمس ويسبح فى السماء حيث العالم السفلى. وعندما يصل إلى السماء يغير شكله إلى طائر كالصقر أو الحدأة أو الأوزة ويستخدم قوى الطبيعة من رياح وعواصف وخلافه.

وهناك تصور آخر بأنه يقع تحت الأرض ويهيمن عليه الإله أوزيريس وأن المتوفى يتحول إلى أوزيريس(٦٦).

وتلعب الطقوس دورًا كبيرًا فى نصوص الأهرام مثل طقس فتح الفم وتقديم القرابين وطقوس التطهير والتبخير والتعطير، مما يجعلها تبدو وكأنها مجموعة من الطقوس المرتبطة بدفن المتوفى وبوجوده فى العالم الآخر. ثم هناك من الباحثين من يرى أنها مجموعة تعاويذ تصف صعود المتوفى إلى السماء أو مساعدته على أنه يتحول إلى روح العالم الآخر(٦٧).

وإذا كانت نصوص الأهرام التى يبلغ عدد تعاويذها ما يقرب من ٨٠٠ تعويذة قد اقتصر تسجيلها على أهرامات الملوك فى نهاية الأسرة الخامسة وطوال الأسرة السادسة، فإنها انتقلت طوال عصرى الانتقال الأول والدول الوسطى إلى مقابر بعض الأفراد كما أنها تداخلت مع نصوص التوابيت.

واستمر تسجيل نصوص الأهرام فى بعض مقابر أفراد الدولة الحديثة وكذلك الحال فى العصر المتأخر حيث سجلت على جدران بعض المقابر والتوابيت[٦٨].

ثانيًا : نصوص التوابيت :

يصل عدد التعاويذ المكونة لهذا النوع من النصوص إلى ١٢٠ تعويذة مسجلة طوال عصرى الانتقال الأول والدولة الوسطى على أسطح التوابيت من الداخل والخارج وعلى صناديق حفظ أوانى الأحشاء ولوحات وبرديات. وقد عثر على هذه النصوص فى مواقع عدة فى مصر منها : اللشت – بنى حسن – أسيوط – البرشا – قاو الكبير – سدمنت – الجبل – أخميم – أبيدوس – طيبة – الجبلين – سقارة – أبو صير – دهشور ... إلخ[٦٩].

كان الهدف من نصوص التوابيت ضمان الحياة الأبدية الخالدة للمتوفى. وقد تأثرت ببعض المذاهب الدينية مثل مذهب هليوبوليس (عين شمس) ومذهب أهناسيا، وكما اختلفت نصوص الأهرام فى بعض الأحيان وتجانست فى أحيان أخرى، فقد فعلت نفس الشىء نصوص التوابيت، ويتخذ المتوفى فى نصوص التوابيت أشكالاً عدة، يصاحب كل شكل نص مختلف عن الآخر[٧٠].

وتبرز هذه النصوص محاولات المتوفى لتجنب الأعمال الشاقة فى العالم الآخر فى الحق وفى غيره، وكان على تماثيل الأوشباتى أن تقوم بهذه المهمة. وقد لعب كل من الإلهين رع وأوزيريس دورًا متوازنًا فى عقائد نصوص التوابيت[٧١].

أقاليم مصر

عُرف الإقليم فى اللغة المصرية القديمة باسم "سبات"، وكان لكل إقليم رمزه وإلهه أو إلهته، وكان تقسيم مصر شمالاً وجنوبًا إلى مجموعة من الأقاليم أمر ضرورى من النواحى الإدارية والسياسية والاقتصادية. وكانت مصر العليا تعرف باسم "تا شمعو"، وتمتد من أسوان جنوبًا وحتى إطفيح (مركز الصف محافظة الجيزة) شمالاً، وكانت مصر السفلى تعرف باسم "تا محو"، وتضم منف والدلتا، وكان ترتيب الأقاليم يبدأ من الجنوب إلى الشمال، أى أن "أسوان" هى الإقليم الأول من أقاليم مصر العليا، وهناك تباين فى عدد الأقاليم بين فترة وأخرى، وقد بلغ عددها فى بعض الفترات اثنين وأربعين إقليمًا، ونعرف أن عدد أقاليم الوجه القبلى قد استقر عند الاثنين والعشرين إقليمًا طوال العصر الفرعونى، أما عدد أقاليم الوجه البحرى فلم تثبت عند رقم معين، حيث أنها تراوحت ما بين أربعة عشر – وثمانية عشر إقليمًا طوال العصر الفرعونى، وبلغ عددها اثنين وعشرين إقليمًا فى العصر البطلمى، وازداد العدد بعد ذلك على امتداد العصرين البطلمى والرومانى[٧٢].

أ- أقاليم مصر العليا وآلهتها :

الإقليم	اسم الإقليم فى العصر اليونانى والرومانى	موقع الإقليم حاليًا	آلهة الإقليم
تاستى	إلفنتين	أسوان	خنوم وساتت وعنقت
امنتى حر	أبوللينوبوليس	إدفو	حور بحدت وحتحور وسماتاوى
نخن	اليتاسبوليس هيراكونبوليس	الكاب - الكوم الأحمر	نخبت وحور
واست	طيبة - ديوسبوليس ماجنا	الأقصر	مونتو وآمون - رع وموت وخنسو
نترى	كوبتوس	فقط	مين
يتى	تنتيرس	دندرة	حتحور وحور بحدتى
بات	ديوسبوليس بارفا	هو	حتحور ونفر حتب
تاور	أبيدوس	العرابة المدفونة (أبيدوس)	أوزر خنتى امنتيو وأنوريس وحور المنتقم لأبيه
منو	بانوبوليس	أخميم	مين وحورس
واجيت	أفروديتوبوليس	كوم إشقاو	إله على هيئة كبش وماى حسا وحورس
شا	هيبسيليس	شطب	حور وست وخنوم
	هيراكونبوليس	البر الشرقى لأسيوط وشمالها	ماتيت وحورس وأنوبيس
	ليكونبوليس	أسيوط	وب واوات
	كوساى	القوصية	حتحور
ون	هرموبوليس	الأشمونين	جحوتى
محيت	هيراكونبوليس	قرب المنيا	حور

الإقليم	اسم الإقليم فى العصر اليونانى والرومانى	موقع الإقليم حاليًا	آلهة الإقليم
انبو	كينوبوليس	القيس	أنوبيس
عنق	هبونوس	الحيبة	أنوبيس وسكر
وابو	أوكسيرينوكس	البهنسا	حر (ى) شف
نعرت خنت	هيراقليوبوليس	إهناسيا	حر (ى) شف وخنوم
نعرت — يحتى	تيلوبوليس	البر الغربى وشرق أبو صير الملق	خنوم وحتحور -
مننمى	أفروديتوبوليس	أطفيح	حتحور وسبك

ب- أقاليم مصر السفلى وآلهتها :

الإقليم	اسم الإقليم فى العصر اليونانى والرومانى	موقع الإقليم حاليًا	آلهة الإقليم
انب – حج	ممفيس	ميت رهينة	بتاح وسخمت ونفرتوم وايمحتب
	ليتوبوليس	أوسيم	حور
أمنتى	جيناكوبوليس	كوم الحصن	أيبس وحتحور وإمنتت
رع – امنتى	متليس	العطف	حا وايزيس وحورس بن إيزيس
رع – اياب	هيرونبوليس	تل المسخوطة	آتوم
عنجتى	بوزيرس	أبو صيربنا	أوزير وحور
كم – ور	أتربيس	تل أتريب	حور خنتى ختى
كا – حسب	كاباسا	قرب هربيط	أنوريس حور
ثب – نترت	سبنيتوس	سمنود	أنوريسو حر-آختى
حقاعج	هليبوبوليس	عين شمس	رع وآتوم وجحوتى
خنت – إياب	تانيس	صان الحجر	حور وست وكبش منديس وحابى
جوتى	هرموبوليس بارفا	دمنهور	حور وجحوتى
حات – محيتى	منديس	تل الربع – تمى الامديد	كبش منديس
به ست – سما – بحدث	ديوبوليس السفلى	تل البلامون	سبد وحور وآمون- رع
ايمنت – خنتى	بوبا ستيس	تل بسطة	باستت وماى حسى – رع
امنتى بحوى	بوتو	تل الفراعين	واجيت
سبد	أرابيا	صفط الحنة	سبد[٧٣]

هوامش الفصل الثانى عشر :

(1) Wilson, T.A., The Intellectual Adeventure of Ancient Man, Chicago, 1941, pp. 57 – 83.
(2) Gardiner, A.H., Egyptian Grammar, Oxford, 1966, p. 71.
(3) Gauthier, H., Le Liver des Rois d' Egypte, Paris, 1907, pp. 64 – 77.
(٤) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ج١، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٤٨.
(5) Kess, H., Ancient Egypt, London, 1961, pp. 93 – 96.
(6) Margaret, A.M., The splendour that was Egypt, London, 1950, p. 102.
(٧) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص ٣٤ – ٣٦.
(٨) محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ١٥٦، ١٦٠.
(٩) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ٣٦ – ٤٢.
(10) Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, pp. 67 – 69.
(١١) محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ط١، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ٣١٠ – ٣٢٦.
(١٢) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، ص ١٩٠ – ١٩٣.
(13) Erman, A., The literature of Ancient Egyptian, London, 1927, pp. 105 – 106.
(14) Breasted, J.H., A History of Egypt, N.Y. 1946, p. 201.
(15) Hall, H.R., The Ancient History of the Near East, London, 1963, p. 163.
(18) Emery, W.B., Arachaic Egypt, 1963, p. 106.
(17) Petrie, W.M., The Royal Tombs of the Earliest Dynasties, Vol.I, London, 1900, pp. 35 – 36.
(18) Newberry, P.E., The Horus Title of the Kings of Egypt, in : PSBA, 26, 1904, pp. 295 – 297.
(19) Gardiner, A.H., Egyptian Grommer, p. 73.
(20) Emery, W.B., op – cit., p. 107.
(21) Baumgartel, E.J., Some remarks on the Origins of the Titles of the Archaic Egyptian Kings, in : JEA, 61, London, 1975, p. 29.
(22) Frankford, H., King Ship and Gods, Chicago, 1948, p. 46.
(23) Wilson, J.A., op – cit., p. 102.

(24) Blackman, A.M., The story of king kheops and the magicians, Edited by Davies, Reading, 1988, pp. 56 – 59.
(25) Foster, T.L., Literature, in : The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Vol.2, 2001, pp. 299 – 304.
(26) Parkinson, R.B., The Tale of the Eloquent Peasant, Oxford, 1991, pp. 92 – 95.
(27) Koch, R., Die Erzählung des sinuhe, Bibliotheca Aegyptica, 17, Brussels, 1990, pp. 81 – 82.
(28) Foster, J.L., op – cit., pp. 299 – 304.
(29) Parkinson, R.B., op – cit., pp.98 – 99.
(30) Ibid, p. 101.
(31) Ibid, p. 103.
(32) Foster, J.L., Love songs of the New Kingdom, New York, 1974, pp. 55 – 59.
(33) Foster, J.L., Echoes of Egyptian voices Norman, Okla, 1992, pp. 121 – 126.
(34) Koch, R., op – cit., pp. 90 – 92.
(35) Foster, J.L., Hymns, Prayers, and songs : An Anthology of Ancient Egyptian lyric verse, Atlanta, 1995, pp. 99 – 104.
(36) Lichtheim, M., Ancient Eygptian literature, vol I, Los Angeles, 1973, pp. 65 – 69.
(37) Foster, J.L., op – cit., pp. 105 – 106.
(38) Ibid., p. 108.
(39) Ibid., p. 110.
(40) Lichtheim, M., op – cit., pp. 69 – 70.
(41) Ibid., p. 78.
(42) Ibid.,p. 79.
(43) Parkinson, R.B., The Tale of Sinuhe and other Ancient Egyptian Poems, 1940 B C, Oxford, 19997, pp. 90 – 92.
(44) Parkinson, R.B., Voices from Ancient Egypt, Norman, Okla, 1991, pp. 72 – 75.
(45) Koch, R., op – cit., pp. 99 – 100.
(46) Foster, J.L., Literature, in : The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Vol.2, 2001, pp. 299 – 304.
(47) Ibid, p. 300.
(48) Ibid., p. 301.
(49) Parkinson, R.B., op – cit., pp. 96 – 97.
(50) Simpson, W.K., The literature of Ancient Egypt, New Haven, 1973, pp. 55 – 58.
(51) Foster, J.L., Love songs of the New Kingdom, New York, 1974, pp. 60 – 62.
(52) Ibid., p. 64.
(53) Ibid., p. 66.

(54) Ibid., p. 67.
(55) Ibid., p. 70.
(56) Loprieno, A.,Ancient Egyptian Literature,Leiden,1996,pp.66– 68.
(57) Parkinson, R.B., op – cit., pp. 100 – 103.
(58) Ibid., p. 105.
(59) Ibid., p. 106.
(60) Ibid., p. 110.
(61) Loprieno, A., op – cit., pp. 69 – 70.
(62) Ibid., pp 72 – 73.
(63) Ibid., p. 73.
(64) Ibid., p. 74.
(65) Mathieu, B., La Poésie amoureuse de L'Égypte ancienne, Cairo, 1996, pp. 150 – 155.
(66) Ibid., p. 156.
(67) Ibid., p. 158.
(68) Burkard, G., überlegungen Zu form der Ägyptischen literature, Wiesbaden, 1993, pp. 112 – 119.
(69) Mathieu, B., op – cit., pp. 156 – 160.
(70) Ibid., p. 162.
(71) Ibid., p. 163.

(٧٢) عبد الحليم نور الدين : مواقع ومتاحف مصر الأثرية، القاهرة ١٩٩٨م.

(٧٣) عبد الحليم نور الدين : المرجع السابق.

قائمة المراجـــع العربية والأجنبية

- أحمد أمين سليم، مصر منذ عصر التأسيس وحـــتى بداية الدولـــة الحديثـــة، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.
- أحمد بدوى، فى موكب الشمس، جزء ٢، القاهرة، ١٩٥٠.
- أحمد سليم ، ١٩٩٥.
- أحمد فخرى : مصر الفرعونية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.
- أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٨١.
- أحمد محمود صابون، مجموعة الملوك المسماة "سبك حتب" في الأســرة الثالثــة عشرة، الإسكندرية، ١٩٨٨.
- أدولف أرمان وهرمان رانكه ، بدون تاريخ.
- ألسكندر شارف: تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإســكندرية، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، القاهرة.
- ألفه نخبة من العلماء : تاريخ الحضارة المصرية.
- جون ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، القاهرة.
- حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم ١٩٧٩.
- حياة إبراهيم : نبوفذ نصر الثانى، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد ١٩٨٣.
- رشيد الناضورى، ١٩٦٨.
- رمضان عبده السيد: تاريخ مصر القديمة، ج١، مطابع المجلس الأعلى ، القاهرة، ١٩٨٨.
- زكريا رجب عبد المجيد، دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرسة فى النوبة وعلاقتها بمصر الفرعونية فى الفترة ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ ق . م، رسالة دكتوراه، جامعــة الإسكندرية ٢٠٠٦م.

- سلمى حسن : الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- سليمان حزين ، ١٩٦٢.
- سيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية – دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م،.
- سيريل ألدريل، ١٩٩٢.
- عبد الحليم نور الدين : مواقع ومتاحف مصر الأثرية، القاهرة ١٩٩٨م.
- عبد الحميد زايد : مصر الخالدة.
- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٢م.
- عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٩٢م.
- عبد العزيز صالح، ١٩٦٢.
- عبد العزيز صالح ، ١٩٧٢.
- عبد العزيز صالح ، ١٩٧٤.
- عبد العزيز صالح ، ١٩٨١.
- علاء شاهين : شبه جزيرة سيناء "دراسة تاريخية وأثرية حتى نهاية الدولة الوسطى" رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.
- فوزى جاد الله : مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت : ليبيا فى التاريخ، المؤتمر التاريخى، الجامعة الليبية، كلية الآداب، ١٩٨٦م.
- مجلة الجمعية المصرية الدراسات التاريخية، العدد ٢٢٥، ١٩٧٨.
- محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى ، ١٩٧٥.
- محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، الإسكندرية، ١٩٦٦.
- محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ط١، الإسكندرية، ١٩٦٧.

- محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨.
- مصطفى عامر ١٩٦٢.
- نجيب ميخائيل ، ١٩٦٥.
- يسرى الجوهرى وناريمان درويش، ١٩٨٥.

- A. Arnold, Der Temfel des Kanegs Mentoris, von Deir El Beheri, I, II, Maing, 1971.
- A. Scharff, Ein Rechingsbesh des Hafes ousder Dynastie & AS.
- A.J. Arkell, The History of the Sudan, London, 1961.
- Adams, B., A Fragment from the Cairo statue of Khasekhemwy, in : JEA 76, London, 1990.
- Adams, B., Potmark Forgery : A Serekh of Semerkhet from Abydos, DE 25, 1993.
- Adams, Barbara, Predynastic Egypt, Shire Egyptology, 7, Aylesbury, 1988.
- B. Bell, The Mark Ages in Ancient History, I, the First Mark Age in Egypt, American Journal of Archalology, 57, 1941.
- B. Kemp in B. Trigger et al, Ancient Egypt, social History, Cambridge, 1983.
- B. Trigger, History and Setllement in Lower Nubia, New Haven 1965.
- B. Trigger, Nubia under the pharaohs, London, 1976.
- Baines, J., and J. Malek, Atlas of ancient Egypt, Oxford, 1984.
- Baumgartel, 1980.
- Baumgartel, E.J., Some remarks on the Origins of the Titles of the Archaic Egyptian Kings, in : JEA, 61, London, 1975.

- Beckerath, J., "Pepy II." : in Lexikon der Ãgyptologie, Wiesbaden, 1982, pp. 926 – 927.
- Blackman, A.M., The story of king kheops and the magicians, Edited by Davies, Reading, 1988, pp. 56 – 59.
- Breasted, J.H., A History of Egypt, N.Y. 1946, p. 201.
- Brugsch, H., Die Ãgyptologie, Leipzig, 1897.
- Bruntin, 1937: 3.
- Burkard, G., überlegungen Zu form der Ãgyptischen literature, Wiesbaden, 1993.
- Butzer, 1959: 65- 70.
- Butzer, 1980: 50.
- Butzer, Karl, Early Hydraulic civilization in Egypt, Chicago, 1976.
- Callender, G., Egypt in the old Kingdom, Melbourne, 1998.
- Caton- Thompson & Gardner, 1928.
- Caton- Thompson & gardner, 1932.
- Caton- Thompson & Gardner, 1934.
- Childe, 1951: 137
- Conner, The Locations of Yam and Kush and Historical implications. J.A.R.C.E., 23, 1986.
- Cottrell, L., The Warrior Pharaohs, London, 1968.
- Daressy, M., "Chapelle de Mentohotep III at Denderach", in : ASAE 17, 1917.
- Davies, W., Egyptain Hieroglyphs, London, 1987.
- Dreyer, G. & Kaiser, W., "Zu den Kleinen Stufenpyramiden ober – und Mittelãologischen Instituts, Abteilung Kairo 36, Cairo, 1980.
- Dreyer, Umm el-qaab1, Mainz, 1998.

- Dryer, G., "Dererste Kõnig der 3.dynastie", in stationen : Beiträge Zur Kulturgeschichte Ãgyptens, Rainer Stadelmann gewidmet, Mainz, 1998.
- Dumas, La Cevliization d'Egypte Pharoneqnic, Paris.
- E. Nairlle, Deir El Bahari I, London, 1907.
- Edward, J.B., Hor-aha and Nubians, Serapis 4, 1977 – 78.
- Emery, W.B., Arachaic Egypt, 1963.
- Emery, Walter Bryan, Hor-Aha, With the collaboration of Zaki Saad, Cairo, 1939.
- Engberg, The Hyksos Reconsidered, SAOC 18, 1939.
- Engelbach, Ancient Egyptian Masonary.
- Erman, A., The literature of Ancient Egyptian, London, 1927.
- Farag, R.A., A stela of Khasekhemwy from Abydos, in : MDAIK 36, 1980.
- Firth, C.M., & Quibell, J., The step pyramid, Vol.1, Cairo, 1935.
- Firth, C.M., & Quibell, J., The Step pyramid, vol. 2, Cairo, 1935.
- Fischer, H.G., An Egyptian Royal Stela of the second Dynasty, Artibus Asiae, Ascona 24, 1961.
- Foster, J.L., Echoes of Egyptian voices Norman, Okla, 1992.
- Foster, J.L., Hymns, Prayers, and songs : An Anthology of Ancient Egyptian lyric verse, Atlanta, 1995.
- Foster, J.L., Literature, in : The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Vol.2, 2001.
- Foster, J.L., Love songs of the New Kingdom, New York, 1974.
- Frankford, H., King Ship and Gods, Chicago, 1948.
- Frankford, H., The Birth of Civilization in the Near East, N.Y., 1956.

- G. Goy on, Nouvelles Inscreptions Refestres de wadi Hammam at, Parts, 1957, No. 52-68.
- G. Jequer, Deux Pyramedes du Mogen Empire, Le Caire, 1986.
- G. Jregger & Others, Ancient Egypt, Soclal History, Cambridge, 1983.
- G. Mokhtar, Thnasga, el Medina (Herapepola Magnal; M. Prez? Die P. Vernus, Excavation in Ehnaisya El Medine, Madrid, 1993.
- G. Posener, Prences et Pays d' Asie et de Nubie, Bruxelle, 1910.
- Gardiner, A.H., Ancient Egyptian onomatica, vol.1, Oxford, 1947.
- Gardiner, A.H., Ancient Egyptian onomatica, vol.2, Oxford, 1947.
- Gardiner, A.H., Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
- Gardiner, H., The Tomb of amuch traveled The ban officials, in : JEA 4, 1917.
- Garrod, 1980: 73; Sandford & Arkell, 1933.
- Gauthier, H., Le Liver des Rois d' Egypte, Paris, 1907.
- Giveon, Chronique d'Egypte, 1974.
- Godron, G., Ėtudes sur L'époque orchaique, BIFAO, 57, Cairo.
- Goedicke, H., Königliche Dokumente aus dem Atten Reich, Wiesbaden, 1967.
- Goneim, M.Z., Horus sekhem – khet, the unhinished pyramid at saqqara, Cairo, 1957.
- Goodwin, C.W., King Semempses and King Ases –kaf, in : ZĀS 5, 1867.
- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford, 1992.
- H. Stock, Sludien sur Jeschichte and Archoologie der 13 bes 17 Dynastie Agyptiens, Gluchsladt, 1942.

- H. Winclovk, The Rise and Fall of the Middle Kingdom, in Thebes, New York, 1974.
- H. J. Fischer, Inscreptions from the Coptionome Dynasties VI.. XI Andecte, Drientalia 40, Rome.
- Hall, H.R., The Ancient History of the Near East, London, 1963.
- Hart, G., Pharaohs and pyramids, London, 1991.
- Hayes, W., The Middle Kingdom in Egypt, Cambridge, 1980.
- Helck, W., Untersuchungen Zur Thinitenzeit, Ãgyptologische Abhandlungen, 45, Wiesbaden, 1987.
- Hendrick X., Stan, El Kab V. The Nagada III cemertery. Brussels, 1994.
- Henfling, E., Nilflutontation und thronwechsel von Kõnig semerchet zu Kõnig Qaa der 1. Dynasty, in : Quaerentes scientiam, Festabe Westendof.
- Hoffman, M., Egypt Before the Pharoohs, London, 1991.
- Huzayyin, 1941: 269 Diminiutive
- J. Pritichard (ed) Ancient Near Eastrn Texts releated to the old Jestament, Prncetion, 1969.
- J. Vandier, La Femaine, dans le Egypte Ancienne, Le Caire, 1936.
- J. Vandier, Le Tombe d' Ankhtife a Moolla, Le Caire, 1995.
- J. vercoutter, Excavation at Sai 1955 – 1957, A preliminary report, Kush 6, 1958.
- J. Von Becherafh, Handmuclider Agyptianchen Kone-gsenamen, Munchn, 1984.
- J. von Beckerath, Unterschungen, sur politischen Geschechte der zwschen zeitim Agypten, Guckstadt, 1964.
- J. Wlison, The Culture of Ancient Egypt, Chergeo, 1975.

- J.Seters, The Hyksos, 1968.
- Jequier, G., Le monument funéraire de pepi II, vol.3, Cairo, 1936 – 1940.
- Kaiser, W., & Dreyer, G., Umm – el – Qaab., Nachuntersuch – ungen im frühzeittichem Königsfriedhof., 2, Vorbericht, in : MDAIK 38, 1982.
- Kaiser, W., Zu den Königsgräbern der 2.Dynastie. in sakkara ind Abydos, in Esaays Goedicke.
- Kaiser, W., Zu den Sonnenheiligtümern der 5. Dynastie. Mitteilungein des Deutschen Archäologischen Instituts abteilung Kairo 14, Cairo, 1956.
- Kaiser, W., Zu den Kõnilichen Jalbezirken der 1. und 2. Dynastie, in Abydos und Zur Baugeschichte des Djoser – Grabmals, in : MDAIK 25, 1969.
- Kanawati, N., Governmental Reforms in the old Kingdom., Warminster, 1981.
- Kees, H., Ancient Egypt, A Cultural Topography, Chicago, 1961.
- Kemp, B.J., Excavations at Hierak on polis fort, 1905, A Perliminary Note, in : JEA 49, London, 1936.
- Kemp, Barry, J., Abydos and the Royal Tombs of the first Dynasty, JEA 52, London, 1966.
- Kemp. Barry, J., Ancient Egypt, Anatomy of a Civilization, London, 1989.
- Kerisel, J., pyramide de khéops, Derniéres recherches, in : RdE 44, 1993.
- Koch, R., Die Erzählung des sinuhe, Bibliotheca Aegyptica, 17, Brussels, 1990.

- Krug, A., Die Sahure – Reliefs, Frankfurt, 1978.
- Lauer, J., A propos de la stele de l'Horus Raneb, in : Orientalia 35, 1966.
- Lauer, J., Saqqara : The Royal Cemetery of Memphis, London, 1976.
- Leclant, J., "Pepy I" , in : Lexikon der Ägyptologie, Wiesbaden, 1982.
- Legge, G.F., Was Khasekhmwy Called Mena ? in : PSBA 31., 1909.
- Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literature, Vol.1, Berkeley, 1973.
- Loprieno, A.,Ancient Egyptian Literature,Leiden,1996.
- Màlek, J., "La division de l'histoire d'Ėgypte et l'Ėgyptologie. Moderne, Bulletin de la societé Francaise d'Egyptologie 138, Paris, 1997.
- Màlek, J., In the shadour of the pyramids Egypt during the old kingdom, London, 1986.
- Margaret, A.M., The splendour that was Egypt, London, 1950.
- Mathieu, B., La Poésie amoureuse de L'Ėgypte ancienne, Cairo, 1996.
- Montel, P., Le roi Sahuré et la princesse lointaine, in : Mélanges syriens offerts à Monsieur René Dussaud T.1., Paris, 1939.
- Moret, A., fragments, du mastaba de sherry, prêtre des rois peribsen et send, in : Monpiot 25, 1922.
- Munro, P., Der Unas – Friedh of Nord – West I., Mainz, 1993.
- N. Gremal, Heslotre de l' Egypte, Ancienne, Paris, 1983.
- N. Lichtheims, Anctent Egyptian Literature, vol. 1, The old and Middle Kingdom, Beslecly, 1970.
- Needler, W., A Flint Knife of King Djer, JEA. 42, London, 1956.

- Newberry, P.E., The Horus Title of the Kings of Egypt, in : PSBA, 26, 1904.
- Nims, Charles, F., "Egyptian Catalogues of things", Journal for Near Eastern Studies 9, 1950.
- O' Connor, D., New Funerary Enclosures (Talbezirke) of the Early Dynastic period at Abydos, JARCE 26, 1989,
- O. Laluttes, Textes, Saores et texles profanes, de l' ancenne Egypte des pharaone et deshmmes, Paris, 1985.
- Osing, J., "Onomasktika", in : lexicon der Ägyptologie, 4, Wiesbaden, 1981, spl 572.
- P. Lalrb, Die Herschaft der Hghsos in Agypten, 1943.
- Parkinson, R.B., The Tale of Sinuhe and other Ancient Egyptian Poems, 1940 B C, Oxford, 1997.
- Parkinson, R.B., The Tale of the Eloquent Peasant, Oxford, 1991.
- Parkinson, R.B., Voices from Ancient Egypt, Norman, Okla, 1991.
- Peak & Fleure, 1946.
-Petrie & Ouibell, 1896.
- Petrie, 1915.
- Petrie, 1940.
- Petrie, Deshashen (the Tomb of Ante), London, 1898.
- Petrie, W.M., The Royal Tombs of the Earliest Dynasties, Vol.I, London, 1900.
- R. El Sayed Quaequs Personnage Celetes.
- R. Welill, La fin du Meyen Emfire Egyptien- ne, Etiude Sur, Les monuments et l' histoire de la pereode compuse enter XIIe dynasties, Paris, 1918.

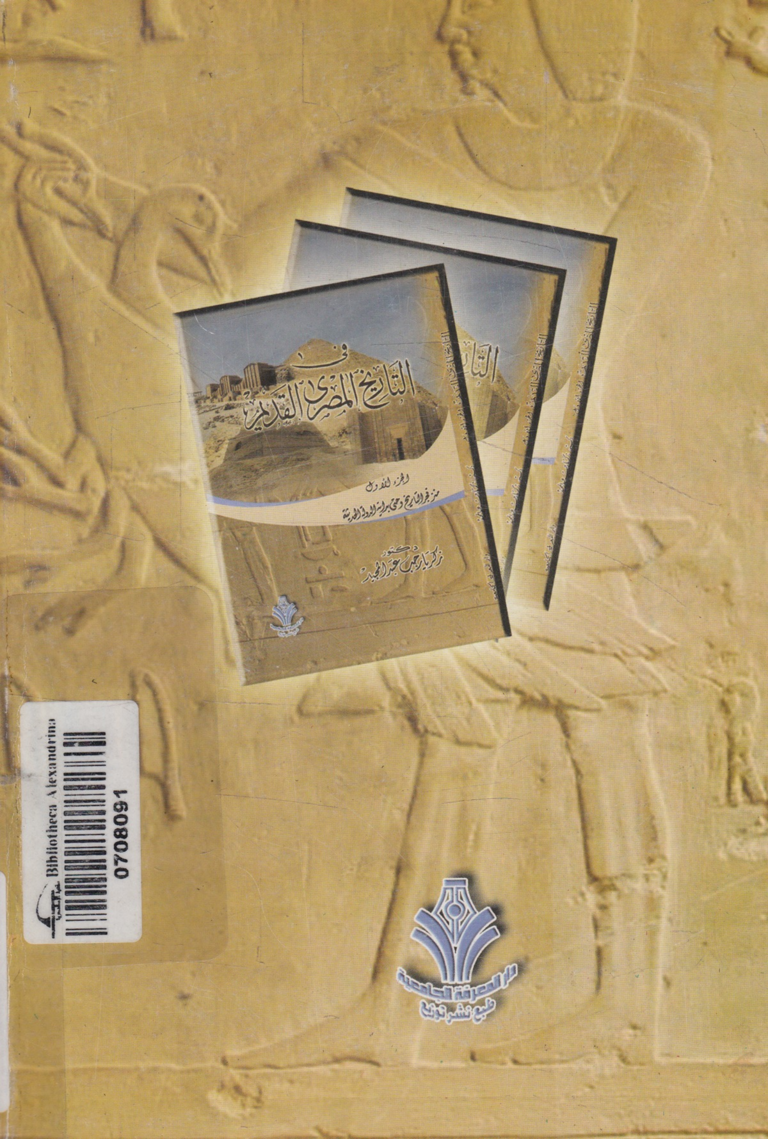
- Roccati, A., la literature historique sous L'Ancien Empire égyptien, Paris, 1982.
- Seipel, W., Untersuchngen Zu den ãgyptischen Kõniginnen der frühzeit und des Alten Reiches, Hamburg, 1980.
- Serpico, M., & Raymond, W., A Report on the Analysis of the Contents of a Cache of Jars from the Jomb of Djer, in : Aspects of Early Egypt.
- Silverman, D., P., Ancient Egypt, London, 1997.
- Simpson, W.K., The literature of Ancient Egypt, New Haven, 1973.
- Smith, The Art and architecture of Ancient Egypt.
- Spalinger, A., "Dated Texts of the old kingdom" Studien zur-Altàgyptischen. Kulture 21, 1994.
- Spencer, A. J., Aspects of early Egypt, London, 1996.
- Spencer, A.J., Early Egypt. The Rise of Civilization in the Nile Valley, London, 1993.
- Stadelmann, R., Die oberbauten der Kõnig grãber der .2.Dynatie in Sakkara, in : Mélanges Mokhtar 11.
- Standelmann, R., Die ãgyptischen pyramiden : Von ziegelbau Zum Weltwunder, Mainz, 1985.
- Standlmann, R., Kõnig Teti und der Beginn der 6. Dynostie, in : Hommages leclant, 1.
- Stock, Die Erste Zwischen Seit Agypten, Rome, 1940.
- T. Kendall, Kerra and the kingdom of kush washinton, 1997.
- T.C. James, The Herapachte Pafey and other Early Middle Kingdom Documents, 1961.
- Trigger, B., B. J. Kemp, D. O'Connor, and A. Lioyd, Ancient Egypt, A social history, Cambridge, 1983.

- Trigger, The rise of Egypt Civilization, Ancient Egypt.
- Uphill, 1988:15-19.
- V. Maragiogle & Bunaldi, Note Sulla Pyramid de Ameny, Amu, Orientalia 37, 1968.
- V. Voglinano, Medinet Kommade Milano, 1975.
- Vercoutter, J., L'Egypte et la vallée du Nil – Vol.I, Des origins à la fine de L;Acien Empire, Paris, 1992.
- Verner, M., Lost pyramids, lost, pharaohs, Abusir, Prague, 1994.
- W. B. Emery and L. Kirewan, The Excavations and Survey between wadies sebua and Adindan, Cairo, 1935.
- W. B. Emery, Egypt and Nubia, Lonodn, 1965.
- W. Winlock, The Rise and fall of the middle kingdom at Thebes, New York, 1947.
- W.S. Smith, The Foitress of Buhen- The inscription, London, 1976.
- W.Y. Adams, Nubia Corrider to Africa, London, 1977.
- Ward, W., The Nomarch Khnum Hatep at Pelusieum" , in : JEA 55, 1969.
- We Hays, The Middle kingdom in Egypt, in (CAHI, CAH, XV, Cambrdge, 1976.
- We Schenkel, Demphis-Herapleolis theben, epegraphishen zeugnessedes 7-11 Dynastie Agyptens, Weisbaden, 1956.
- Weke Simpson (ed), The liarture of Ancient Egypt, New Heaven and London, 1973.
- Westendof, W., Bemerkungen zu den Namen der Kõnige Djer – Athothis und Neferka in : olz 61, 1996.
- Wildung, D., Egyptian Saints : Deification in pharaonic Eygpt, New York, 1977.

- Wilkinson, A.H., Early dynastic Egypt, London, 1999.
- Wilson, T.A., The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
- Wilson, T.A., The Intellectual Adeventure of Ancient Man, Chicago, 1941.
- Winter, E., "Zur Deutung der Sonnenheiligtümer der 5, Dynastie". Wiener Zeitschrift für die kimde des morgenlands 54, Berlin, 1957.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة


في
التاريخ المصري القديم
الجزء الأول
منذ فجر التاريخ وحتى بداية الدولة الحديثة
دكتور
زكريا رجب عبد المجيد
Bibliotheca Alexandrina
07080091
دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع